دمشق
في مرآة رحلات العصور الوسطى

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

أحمد ايبش

دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى: من خلال نصوص الرحالين العرب والأجانب من القرن الأول إلى القرن العاشر للهجرة (السابع إلى السادس عشر للميلاد)/ ترجمة أحمد أيبش. - ط 1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، 2009.

2 مج : 24 سم. (سلسلة رواد المشرق العربي).

يضم نصوصاً نادرة لـ 69 رحالة عربياً و43 رحالة أجنبياً مع صور وخرائط ولوحات نادرة جداً.

ت د م ك: 3-228-01-9948-978

1 - دمشق - وصف ورحلات. 2 - دمشق - تاريخ 1 - 10 هـ (7 - 16م). أ - العنوان. ب - السلسلة.

915.6531 ديوي

ب ح د م



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1430هـ 2009م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 300 6215 2 971+
publication@cultural.org.ae
www.adach.ae

رُوَّادُ المَشْرِقِ العَرَبِي

دِمَشْقُ في مرآة رحلات العصور الوسطى

مِنْ خِلَالِ نُصُوصِ الرَّحَّالِينَ العَرَبِ وَالأَجَانِبِ
مِنَ القَرْنِ الأَوَّلِ إِلَى القَرْنِ العَاشِرِ لِلْهِجْرَةِ
(القَرْنِ السَّابِعِ إِلَى السَّادِسِ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ)

الدّكتور
أحمد إيبش

الجزء الثاني



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

يصدر هذا الكتاب

في الذكرى المئوية لوفاة المغفور له

بإذن الله تعالى

سمو الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان

(الشيخ زايد الكبير)

حاكم أبو ظبي 1855-1909 م

إجلالاً وإكباراً لذكراه الكريمة

واعتزازاً بمسيرة الخير والبناء التي بدأها

ويتابعها على خطاه اليوم أحفاده الكرام

– 44 –

محيي الدّين ابن عبد الظاهر

(توفي 692 هـ / 1292 م)

أرّخ لرحلات السّلطان الظاهر لدمشق بين 659-676 هـ

محيي الدّين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدّين عبد الظاهر بن نَشْوان السّعدي المصري ، قاض أديب ومؤرّخ ، مؤلّف سيرة الملك الظاهر بَيْبَرس المسمّاة «الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر» .

لم يكن الرّجل من الرّحالين ، لكن ما دوّنه في سيرته من مجريات رحلات الملك الظاهر بيبرس الخاطفة والمتكرّرة من مصر إلى الشّام لها مكانة فريدة وقيمة خاصّة تؤهّلها لتُصنّف هنا مع نصوص الرّحلات . لنا في ذلك أسوة بما سنذكره في كتابنا أدناه من رحلات لسبعة سلاطين ، كالأشرف قايتباي (في نص ابن الجيعان) ، وكانت لهذين السّلطانين المملوكيين رحلات إلى الشام اشتهرت ، فكلاهما كان موفور الحركة والنشاط في متابعة أركان دولته . نقارن بينهما رغم بُعد الفترة الزّمانية ما بين مطلع العهد المملوكي وأواخره[1] .

ولد محيي الدّين في القاهرة عام 620 هـ ونشأ بها ، فعاصر انهيار دولة بني أيّوب عام 648 هـ وقيام دولة سلاطين المماليك البحرية (أو دولة المماليك الأولى) ، الذين آل إليهم حكم مصر . وكان أول سلاطين المماليك الملك المعزّ أيبك التّركماني الذي تزوّج من شجرة الدّر أرملة السّلطان الأيوبي الصّالح أيّوب .

(1) من أهمّ رحلات الحكّام إلى الشام (تقدّمت) رحلة الخليفة العبّاسي المتوكّل على الله (ولي 232-247 هـ) في عام 243-244 هـ ، وكان عازماً على نقل دار الخلافة إلى دمشق .

بعد مقتل المُعزّ بعامين تولّى المظفّر قُطُز 657 هـ ، وفي العام التالي قاد جيوش مصر والشام ضد التّتار الذين اجتاحوا بغداد والشام بين 656-658 هـ ، فكسرهم أشنع كسرة في معركة عين جالوت الفاصلة . غير أن المؤسّس الفعلي لدولة المماليك مع ذلك لم يكن المعزّ أيبك ولا المظفّر قُطُز ، بل كان السّلطان القوي الظاهر بيبرس الذي تولّى سُدّة السّلطنة في عام 658 هـ وبقي بها 17 سنة حتى وفاته 676 هـ .

كان محيي الدّين رئيس ديوان الإنشاء عندما تولّى بيبرس الحكم ، ويبدو أن عمله في الدّيوان كان من أيام الملك المُظفّر قُطُز على الأقل ، فقد رافق حملته إلى الشام ضد التّتار . وسُرعان ما نال الرّجل ثقة بيبرس بعد تولّيه الحكم ، فبدأ يعتمد عليه في بعض المهمّات الإدارية ، وأول ذلك كان سفارته إلى الملك السّعيد بَركَة خان زعيم القبيلة الذّهبية التَّتريّة ، يستميله إليه ضدّ ابن عمّه هولاكو خان .

والسّيرة التي ألّفها تزخر بما كان يدوّنه من مراسلات إداريّة وديبلوماسيّة باسم السّلطان . وإن طبيعة عمله جعلته على اتّصال دائم به ، ممّا مكّنه من الاطّلاع على تفاصيل وافية من شؤون حياته السّياسية والشخصية ، فغدا كتابه «الرّوض الزّاهر» أول مصدر عن حياة الظاهر وبلاد مصر والشام والحجاز في عهده . وكان (مع كتاب مماثل لعزّ الدّين ابن شدّاد) بمثابة السّيرة الرّسمية للظاهر ، لا كباقي المصادر العامّة لتلك الفترة : كمفرّج الكروب لابن واصل ، زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة لبيبَرس الدَّوادار ، ذيل مرآة الزّمان لليونيني ، نهاية الأرب للنّويري ، النّجوم الزّاهرة لابن تَغري بَرْدي . كما يبزّ سيرة الظاهر لابن قايماز الذّهبي التّركماني ، لتأخّره .

استمرّ محيي الدّين في مركزه بديوان الإنشاء طوال فترة حكم بيبرس ، وأثناء حكم ابنيه الملك السّعيد بَركة خان والملك العادل سلامِش (676-678 هـ) ، وخلال الفترة الأولى من حكم السّلطان المنصور قلاوون (تولّى 678 هـ بعد خلع سلامِش) الذي أحلّه مكانةً لائقة واعتمد عليه في ديوان الإنشاء برغم ما طرأ على نظره بأواخر حياته من ضعف ، كما يذكر شافع بن علي في مختصره على «الرّوض الزّاهر» ، المسمّى «حُسن المناقب السَّريّة المُنتزعة من السّيرة الظاهريّة» .

وإلى جانب سيرة بيبرس ألّف محيي الدّين كتاباً آخر عن حياة الملك المنصور قلاوون ، سمّاه : «تشريف الأيام والعصور في سيرة السّلطان الملك المنصور» ، وبعده كتب أيضاً : «الألطاف الخفيّة من السّيرة الشّريفة السّلطانيّة الأشرفيّة» ، عن عهد السّلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، الذي تولّى السّلطنة عام 689 هـ إثر وفاة أبيه السّلطان قلاوون . فعاصر بذلك سبعة من سلاطين الدّولة المملوكية الأولى ، من المُعزّ أيبك إلى الأشرف خليل ، وأرّخ لسِيَر ثلاثة منهم .

* * *

يُجمع المؤرّخون على أن الظاهر بيبرس كان واحداً من ألمع شخصيات التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى ، قام في سنوات حكمه التي دامت 17 عاماً بأعمال باهرة ، فكان المؤسّس الفعلي لسلطنة عظيمة امتدّت من حدود النّوبة إلى نهر الفُرات ودامت 275 عاماً (648-923 هـ) . تزامن قيام هذه السّلطنة مع قضاء أمراء المماليك على الحملة الصليبية السّابعة بقيادة الملك لويس التاسع ، إثر معركة المنصورة عام 648 هـ ، ثم سحقهم لجيش التّتر في عين جالوت بالغَور عام 658 هـ ، حيث كان لبيبرس دور كبير كما رأينا أعلاه في نصّ الصّارم .

ثم لمّا تربّع بَيْبَرس في سدّة حكم دولة المماليك – وهو رجل حرب من الطراز الأول – صمّم على اقتلاع شأفة الفرنجة ، وباشر على الفور في تنفيذ هذا المهمّة دون تلكّؤ . بعد ضربات موجعة في نحرهم ، استطاع أن يستخلص منهم قيساريّة وأرسوف وصَفَد ويافا وشَقيف أرنون وأنطاكية ، فانحسرت إمارة أنطاكية وطرابلس اللاتينية إلى مجرد كونتيّة طرابلس . ثم تمكّن من انتزاع حصن صافيتا وبعده حصن الأكراد (قلعة الحُصن في أيامنا) وعكّار .

فتحت هذه الانتصارات الباب على مصراعيه لتقويض الوجود الفرنجي في بلاد الشام بشكل نهائي ، ففي عام 688 هـ فتح المنصور قلاوون طرابلس ، ثم سقطت عكّا – عاصمة «مملكة القدس» وآخر معاقل الفرنجة – بيد ابنه الأشرف خليل عام 690 هـ ، لينتهي إلى الأبد الاحتلال الصليبي للمشرق الإسلامي .

كان الظاهر جبّاراً شجاعاً يباشر الحروب بنفسه ، وله الوقائع الهائلة مع التَّتر والفرنج ، وآثاره وعمائره وأخباره وفتوحاته كثيرة جداً . أثارت بطولاته ورجولته وهمّته الدّائبة مشاعر الكتّاب والمؤرّخين فعقدوا لسيرته كثيراً من التواريخ المبنيّة على الأحداث الواقعة ، ثم لمّا تنامت أخبار بطولاته وجرأته العجيبة تحوّلت سيرته إلى ما يشبه الأسطورة ، فكُتبت فيها روايتان شعبيتان بنُسختين : مصريّة ، وأخرى مطوّلة شاميّة (تُنسب للدّيناري) ، وهي إلى اليوم أبدع نصوص الأدب الشعبي الذي وصلنا من العصور الوسيطة ، وما زالت تُتلى في المقاهي الشعبية على ألسنة رواة الملاحم «الحكواتية» ، كما هو معروف .

من بين هذا كلّه ، تبقى لسيرة الظاهر بقلم معاصره وموظّف بلاطه القاضي محيي الدّين أهميّتها الخاصّة ومُباشرتها في الرّواية ، على اعتبار أن كاتبها كان شاهد عيان لما يكتب . فقمنا باستخلاص أخبار رحلاته المتكرّرة إلى الشام منها ، وذلك عن طبعة نشرها عبد العزيز الخويطر في بيروت عام 1976 .

المصادر :

الرّوض الزّاهر لابن عبد الظاهر ، مقدّمة عبد العزيز الخويطر .
تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ، مقدّمة مُراد كامل .
حُسن المناقب السرّيّة لشافع بن علي ، مقدمة عبد العزيز الخويطر .
تاريخ الملك الظاهر (الرّوض الزّاهر) لعزّ الدّين ابن شدّاد .
السّلوك لمعرفة دُول الملوك للمقريزي ، 1 : 436-641 .
النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 7 : 94 .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، 2 : 179 .
بدائع الزّهور في وقائع الدّهور لابن إياس ، 1 : 308-342 .
دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ، مادّة بيبرس لزوبرنهايم ، 4 : 363 .
الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره لجمال الدّين سرور .
الظاهر بيبرس لسعيد عبد الفتّاح عاشور .

حضور الملكين
صاحب حِمص وصاحب حَماة
[سنة 659 هـ]

لمّا وصل السّلطان إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور صاحب حَمـاة ، والملك الأشرف صاحب حِمص[1] ، فتلقّاهما بـالإكرام وأنعـم عليهما بخيـل النَّوبـة والعصائب وشعار المملكة ، وركب كلّ منهما بمُفرده والأمراء مترجّلون في خدمتهما وكتب لهما بالتّقاليد . وزِيدَ الملك الأشرف تلّ باشر ، والملك المنصور بلاد الإسماعيليّة ، وتوجّها إلى بلادهما .

(الرّوض الزّاهر ، 117)

* * *

(1) هو ذاته صاحبنا الذي تقدّم ذكره أعلاه في مغامرة مملوكه الصّارم أُزبك ، والآن صار يسمو بفخر كسره للتّتر على حمص في مطلع هذا العام 659 هـ .

ذكر الصلح مع الفرنج

[سنة 659 هـ]

لمّا توجّه السّلطان إلى جهة الشام سَيَّر سير جوان دبلين كُند يافا[1] ، يبذل الطاعة وحمل الإقامات . . .

ولمّا استقرّت الأخبار عند الفرنجيّة بقدوم الركاب الشّريف ، بعثوا الإقامات العظيمة ، وبعثوا رسولهم يهنّون السّلطان بالسّلامة . ولمّا وصل إلى دمشق حضر رسول من جهة عكّا يسأله أماناً للرُّسُل المتوجّهين من البيوت كلّها ، فكتب إلى والي بانياس بتمكينهم . فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصّلح ، فتوقّف السّلطان عليهم وطلب منهم أموراً كثيرة ، فلمّا امتنعوا زَجَرَهم السّلطان وأهانهم . وكان العسكر قد توجّه للغارة على بلادهم من جهة بعلبك ، فسألوا في رجوعه .

(الرّوض الزّاهر ، 117)

* * *

(1) هو الكونت جان ديبلان الثاني Jean II d'Ibelin ، صاحب يافا وحفيد القائد الشهير جان ديبلان الأول (سيّد بيروت العجوز) le vieux sire de Beyrouth مقدّم بارونات الأرض المقدّسة في مملكة القُدس اللاتينية وأرفع مثال للفروسية والنّبالة بها عند مؤرّخي الفرنجة . يذكره ابن عبد الظاهر في كتابه (ص 292) : «صاحب يافا جوان دبلين ، يعني دبلين نَسَبُه إلى يُبنى التي فيها قبر أبي هُريرة ، فإن أصله منها» . قلنا : والملاحظ أن مؤلفنا يضبط أسماء أعلام الفرنجة بدقّة كبيرة ، على نقيض ما نراه عادة في مصادرنا القديمة . أما يُبنى هذه ، التي سمّاها الصليبيون Ibelin إيبلان ، فهي بلدة في فلسطين بالقرب من الساحل إلى الجنوب من يافا وغربي اللّدّ .

ذكر ما فعله في الشام

[سنة 659 هـ]

لمّا دخل السّلطان إلى دمشق جهّز الخليفة - كما ذكرناه - والملوك - حسبما شرحناه - وحضر إليه أمراء العُربان ، فأعطاهم ووَصَل أرزاقهم ، وسلّم لهم بخَفَر البلاد وألزمهم بحفظها إلى حدود العِراق . وفَوَّض إلى الأمير علاء الدّين الحاج طَيْبَرس الوزيري نيابة السّلطنة بالشام ، وولّى القاضي شمس الدّين أحمد بن خَلّكان ، على ما ذكرناه .

ولعب السّلطان في مَيدان دمشق ، فرأيتُ في خدمته جماعةً من الملوك ، وهم : الملك الصّالح صاحب الموصل ، الملك المُجاهد صاحب الجزيرة ، الملك المُظفَّر صاحب سنجار ، الملك علاء المُلك ، الملك الأشرف صاحب حمص ، عمّه الملك الزّاهر ابن أسد الدّين ، الملك المنصور صاحب حَمَاة ، وأخوه الملك الأمجد تقيّ الدّين بن الملك العادل أبي بكر ، الملك المنصور والملك السّعيد والملك المسعود أولاد الصّالح إسماعيل ، الملك الأمجد وإخوته أولاد الملك النّاصر داود ، الملك الأشرف ابن اقسيس ، الملك القاهر بن المُعظّم ، وجماعة كبيرة منهم .

وهذا ما لا رآه ملكٌ آخر . حكى ابن الأثير في تاريخه[1] ، قال : ركب السّلطان صلاح الدّين يوسف بن أيّوب - رحمه الله - في بعض الأيام ، فعضده رجلٌ كان في خدمته من السّلاجقة ، وعدّل ثيابه رجلٌ من بيت أتابك ، فرآه رجلٌ فقال[2] : «ما بقيتَ تُبالي بالموت بعدها يا بن أيّوب ، سَلجوقي يعضدُك ، وأتابكي يُعدّل ثيابك !» . فأين هذا القائل يشاهد السّلطان وهؤلاء الملوك في خدمته ؟

(الرّوض الزّاهر ، 119)

* * *

---

(1) الكامل ، حوادث سنة 587 هـ ، 12 : 33 .

(2) وجه الغرابة أنه كان مجرّد تابع للأمراء الأتابكة ، وهم نوّاب الملوك السّلجوقيّة الكبار .

[دخول السّلطان دمشق في شوّال سنة 664 هـ]

[من فصل]

ذكر تسليم صَفَد

وفي سابع وعشرين شوّال رحل متوجّهاً إلى دمشق ، فنزل بالجسورة ، وأمر بأن العساكر لا تدخل دمشق بل تبقى على حالها لتتوجّه إلى سيس . ودخل دمشق جريدةً ، ورَسَم بتوجّه الملك المنصور صاحب حَماة مقدّماً على العساكر إلى سيس ووصّاه بما يعتمد وجهّزه .

وفي ثالث ذي القعدة توفّي كرمون آغا[1] . وفي ثامنه أنعم على أمراء دمشق وقضاتها ، وأرباب المناصب بالتّشاريف . ولمّا استقر السّلطان بدمشق نظر في أمر جامعها ، ومنع من مبيت الفقراء به وأزال صناديقهم التي كانت ضيّقت الجامع ، ووسّعه للمصلّين ، قال الله تعالى[2] : ﴿في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُه﴾ . قال العلماء : «تُغلق فلا تُفتح إلا أوقات الصّلوات» .

وفي عاشر الشهر ، جلس الأتابك مع الأمير جمال لكشف ظُلامات النّاس والتّوقيع على القصص بدار بدار السّعادة . وتوجّه السّلطان إلى عذراء وضُمير[3] متصيّداً ، وما أحضر أحدٌ صيداً إلا خلع السّلطان حتى الغلمان والسّوقيّة ، وفرغت الخلع فأطلق لهم دراهم .

وفي ذي القعدة جمع السّلطان أهل البلاد ، وطلع الجبل الذي عند جُرُود وصُحبته الأمراء ، وكان يوماً شديد الحرّ ، واشتدّ العطش فكاد النّاس يهلكون ، فدلّهم شخص من الجبليّة على عين ماء جارية لكنها يسيرة النّبع ، فوقف السّلطان عندها وصار يسقي النّاس بيده ، وهذه كرامة ، وما أحقّه بقول الشاعر :

---

(1) من أمراء التّتر ، أسلم على يد السّلطان وجاهد معه في أرسوف ، الرّوض 180 ، 238 .

(2) سورة النّور ، 36 .

(3) تقع عذراء والضّمير شمال شرق دمشق على أكناف وعرة الصّفا وبادية الحَماد ، ولذا كانتا قديماً (حتى أواخر القرن العشرين) مرتعاً مفضّلاً لصيد الغزلان والأرانب والطيور بأنواعها ، ومنها المائية كالبطّ الأسود الذي يكثر على خَبرات الماء .

والله لـولا الخَـوفُ منــــ ـــهُ مَهابــةً بــاتَ يُــزار

ثم ضرب حلقات صيد ، فعمل مؤلّف السيرة[1] :

يــا أيهـــا الملـــكُ الـــذي فيـه العقـولُ غَـدَتْ تَحـار !
يـا مَـــن إليـه بفعـــل مـــا يرضـى الإلـه غَـدا يُشـار ؟
بـالله قُـلْ لـي ، هـل دَمٌ يُجريـه سَـيفُك أم بِحـار ؟
وهــل الخُيــولُ لهــا مســـ ـيرٌ تحتَ سَرجك أم مَطـار ؟
إن السّـــيوف تركتَهـــا لا يســتقرُّ لهــا قَــرار !
عَوَّدتَهـا سَـفكَ الدّمــاء فمـا لهـا عنهـا اصطبـار !
لـم يبـقَ في الدّنيـا فـرَ نـجٌ ، لا ولا بقيتْ تَتـار !
فـالوحشُ عـن مُهَـج العِـدى لمـا تفـانَت تُسـتعار !
وأظنّهـا بـك سـوف تُقـ ـفرُ مـن سَـوانحها القِفـار !
إن الدّمــاء مــن العِـدى والوَحـش أفناهـا الغِـرار !
فاسـلمْ ودُم في نعمـةٍ وبعِـزّ بـابك يُسـتَجار !

(الرّوض الزّاهر ، 263-265)

* * *

(1) يعني المؤلف بذلك نفسه ، وهذا شعر غثّ رديء لا يُعتدّ به .

[أخبار للسلطان بدمشق سنة 664 هـ]

[من فصل]

ذكر ما جرى للأمير أحمد بن حجي وولده

وفي هذه الأيام أبطل السلطان ضَمَان الحشيشة ، ابتغاءً ثواب الله تعالى ، وأمر بتأديب آكلها . وأمر ببناء مكان بجبل المزّة للشيخ خضر[1] ، وتوجّه إلى الشيخ خضر وزاره . وشاهد المقاسم[2] التي عُمّرت في دولته ، وهي أحسن ممّا عُمِّر في زمن الرّوم[3] .

(الرّوض الزّاهر ، 265)

* * *



(1) الشيخ خضر كان شيخاً صوفياً يعظّمه الظّاهر ويعتقده ويبالغ في إكرامه ويزوره أسبوعياً ويباسطه ويمازحه ، بسبب أنه كان يقول عنه وهو أمير إنه سيلي المُلك . ورد ذكره في نصّ ابن شدّاد أعلاه ، وسيرد أدناه في زيارة الظّاهر للشام عام 667 هـ . ذكره ابن كثير وفاته عام 676 هـ في البداية والنهاية ، وفيه أن اسمه خضر بن أبي بكر بن موسى الكردي النهرواني العَدَوي . ونقل خبره كذلك ابن تَغري بَردي الأتابكي في كتابه «النّجوم الزّاهرة» (7 : 161 ، 276) . كما يرد في نصوص المؤرّخين الدمشقيين ، كابن كنّان في «المروج السّندسيّة» (ص 22) أنه عمّر في الجبل فوق الرّبوة «قبّة الخضر» ، ثم زاد افتتانه بالنساء وصدرت عنه فواحش ، فحبسه السّلطان إلى أن مات .

(2) هذه إشارة نادرة للغاية حول أن مقاسم نهر بَردى بين الرّبوة والهامة إنّما تمّ إعمارها في أيام الظاهر سنة 664 هـ ، ولم يكن ذلك معروفاً على الإطلاق لمن يبحث في تاريخ دمشق . وسنرى في هذا الكتاب كيف أن مقاسم أنهار دمشق السبعة وتفريعاتها ودقّة جرايتها كانت مضرباً للأمثال بذلك العصر ، ومنها سترد قصّة النّقب الذي أجريت فيه (قديماً) مياه ثورا عند الرّبوة (في نصّي ابن الوردي والبَدري) .

(3) قوله : في زمن الرّوم ، إشارة إلى كون مجاري قنوات مياه دمشق ومخرج عين الفيجة بغربيها كانت جميعها من عمل الرّومان ثم البيزنطيين . وكنا درسنا حَرم نبع الفيجة وثبت لنا أن البناء بيزنطي وفيه اسم الإمبراطور مرقيانوس (حكم 450-457 م) ، كما قرأناه منقوشاً باليونانية ، وكتبنا ذلك في موسوعتنا «خطط ريف دمشق» .

[السلطان في دمشق أواخر سنة 665 هـ]

[من فصل]

ذكر غزوة سيس وأسر ملكها

ولمّا وردت هذه الأخبار إلى السّلطان ، كان في الصّيد بجُرُود[1] ، أعطى المبشّر ألف دينار . ودخل السلطان دمشق فتجهّز وخرج ، فعيّد في حَماة وسار منها إلى أفامية ، ورحل منها للقاء العساكر في ثالث عشر ذي الحجّة ، وكان قد أخرج نصيب السلطان من الغنائم ، فلمّا التقته العساكر فرّق ذلك على عساكره ، وأحسن إلى صاحب سِيْس[2] ومَن معه في الأسر .

وعاد السلطان إلى دمشق في رابع وعشرين ذي الحجّة ، فدخلها مطلباً ، وصاحب سيْس وابن عمّه وأصحابه بين يديه ، وخلع على الملوك والأمراء الشاميّة والمُقدّمين . وسَيّر لصاحب حَماة الخيول والأموال والخلع له ولجميع أصحابه ، وودّعه وتوجّه إلى مملكته . وامتلأت دمشق بالمكاسب وبيع من الجواهر والحلي والرّقيق والحرير ما لا يُحصى ، وما تعرّض السّلطان إلى شيء من ذلك .

وخرج السّلطان من دمشق في يوم الإثنين ثاني المحرّم ، سنة خمس وستين وستمائة ، إلى جهة الكَرَك ، وفارق العسكر من الفوّار وتوجّه جريدةً .

(الرّوض الزّاهر ، 271)

* * *

(1) أي بلدة جَيْرُود المعروفة في لحوف القلمون الأدنى ، شمال شرق دمشق .
(2) سيس عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى القديمة في كيليكيا (1186 م) ، تقع اليوم في جنوب تركية .

ذكر خروج السلطان إلى الشام لعمارة صَفَد

[سنة 665 هـ]

في يوم السبت عشرين جُمادى الآخرة [665 هـ] ، توجّه السلطان في جماعة من أمرائه ، وأراح بقيّة العساكر بالدّيار المصرية . ولمّ وصل غزّة ورد إليه رُسُل الفرنج بهديّة وجماعة من أسرى المسلمين ، كساهم السلطان وأطلقهم .

وسار السلطان إلى صَفَد ، فعند وصوله إليها بلغه أن التّتار على عزم قصد الرَّحبة . فرتّب أمر عمارة صَفَد وتوجّه إلى دمشق المحروسة مسرعاً ، فوصل إلى دمشق رابع عشر رجب ، فاهتمّ بأمر الرَّحبة وعزم على الخروج بسببها . وخرجت الخزانة ، فورد الخبر برجوع التّتار وأن العسكر المجرّد في الرَّحبة تبعوهم وقتلوا منهم وأسروا ، وقتلوا شخصاً من كبارهم .

فلما تحقّق السلطان ذلك عاد إلى جهة صَفَد ، وكان مقامه بدمشق مقدار خمسة أيام[1] .

(الرّوض الزّاهر ، 280)

* * *

(1) لا بدّ لنا أن نذكر هنا ما فات ابن عبد الظاهر ذكره عن دخول الظاهر دمشق سنة 666 هـ ، ففي مُستهلّ شهر رمضان من السنة المذكورة نزل على مدينة أنطاكية يحاصرها ، وهي من أعظم إمارات الصليبيين في المشرق ، فتمّ له فتحها في يوم السبت 14 رمضان ، وغنم منها شيئاً كثيراً ووجد من أسارى المسلمين من الحلبيين فيها خَلْقاً كثيراً ، كان صاحبها البرنس بوهيمون السادس Bohémond VI (بَيْمَند ، صاحب أنطاكية وطرابلس) أسرهم عندما هربوا من حصار التّتر لحلب (راجع نصّ الصّارم أعلاه) .
وحول دخول الظاهر دمشق ظافراً عقب هذا الفتح العظيم ، ننقل من تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية ، حوادث 666 هـ) : «وعاد السّلطان مؤيّداً منصوراً ، فدخل دمشق في السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة ، في أبّهة عظيمة وهَيبة هائلة ، وقد زُيّنت له البلد ودُقّت له البشائر فرحاً بنُصرة الإسلام على الكَفَرة الطّغام» .

ذكر وفاة الأمير عزّ الدّين الحلي

[شعبان سنة 667 هـ]

لمّا خرج السّلطان لسماع رسالة الملك أبغا ، خرج الأمير عزّ الدّين الحلي معه ، فلمّا نزل السّلطان أرسوف طلب دستوراً وتوجّه إلى دمشق لملاحظة أملاكه ، فأقام بها مدّة ، ولمّا عبر السّلطان إلى دمشق أطلق له شيئاً كثيراً من مال وقماش .

وزار السّلطان شيخاً من الفقراء[1] بجبل المزّة - وكان الأمير عزّ الدّين في خدمته - وقام الأمير عزّ الدّين ليجدّد الوضوء ، فقال الشيخ للسّلطان : «هذا يموت في هذه الأيام ، ولا بقي يخرج من دمشق» . فعجب السّلطان من هذا الحديث فإنه كان كالأسد قوّة . وفي ثاني يوم قيل إن الأمير عزّ الدّين بات متشوّشاً[2] ، فتوفي في أوائل شعبان ، وحضر ولده إلى الدّهليز بخربة اللّصوص ، وأحسن السّلطان إليه وسيّره إلى الدّيار المصرية . ولمّا وصل السّلطان إلى الدّيار المصرية كما ذكرنا أمّره بأربعين فارساً .

وأمّر أربعة من أكابر الأمراء ، وهم : الأمير سيف الدّين قلاوُن الألفي ، والأمير عزّ الدّين أوغان ، والأمير بدر الدّين بيسري الشّمسي ، والأمير بدر الدّين أمير سلاح ، بأنهم يباشرون الحَوطة على ماله . فباشروا ذلك ، ولم يتعرّض السّلطان له إلى شيء مع كثرة ميراثه .

(الرّوض الزّاهر ، 350)

* * *

(1) هو ذاته الشيخ خضر بن أبي بكر المهراني العدوي ، الذي تقدّم ذكره في نص سابق أعلاه من سنة 664 هـ .

(2) لا بدّ أن خضراً هذا النّصاب سقاه شيئاً من العقاقير فتدهورت صحّته ومات . يكفي أن نقرأ بسيرة حياته كيف كانت النساء لا يحتجبن منه - لصلاحه وتقواه العظيمين - فيصول بينهنّ ويجول كما يشاء ويحبّ ، إلى أن حبسه السّلطان حتى مات .

ذكر توجّه السلطان إلى دمشق وحلب

[مستهلّ سنة 668 هـ]

لمّا وصل السّلطان إلى الكَرَك بات بها كما ذكرنا[1] ، وأصبح يوم الجمعة مُستهلّ السنة صلّى الجمعة بالكَرَك ، وركب جريدةً على يده فَرَس ، وعلى يد كل من أصحابه فَرَس ، وساق إليها . ولمّا قاربها ، والنّاس لا يعلمون شيئاً من حاله ، ولا يدري هل هو في شام أو حجاز أو غيره ، ولا يجسر أحد يتكلّم ، سَيَّر أحد خواصّه في البريد إلى دمشق بكُتُب البشائر بسلامته وقضاء حجّته .

فأحضر الأمير جمال الدّين النّجيبي الناس ليسمعوا البُشرى ، فبينما هم في ذلك ، وقد بلغهم أن السّلطان في الميدان ، فتوجّه إليه الأمير جمال الدّين ، وجد السّلطان قد نزل في الميدان بمفرده ، ووهب فَرَسه لإنسان من مُنادية سوق الخيل عرفه ، وقبّل الأرض بين يديه . وحضر إلى خدمته الأمير شمس الدّين آقْسُنْقُر أستاذ الدّار والأمراء المصريون ، وأكل شيئاً .

وتوجّه النّاس ليستريح السّلطان ، فقام وركب في جماعته اليسيرة ، وتوجّه إلى حلب ، وحضر النّاس إلى الخدمة فلم يجدوا أحداً . ودخل السّلطان حلب والأمراء في المواكب ، فساق إليهم فما عرفه أحد ، وبقي ساعة حتى عرفه الصّروي ، فنزل الأمراء وقبّلوا الأرض ، ونزل بدار نائب السّلطنة بحلب ، وشاهد قلعتها ، وعاد منها ولم يدر به أحد .

فوصل إلى دمشق في ثالث عشر المحرّم ، ولعب الكرة ، وركب في الليل وتوجّه إلى القُدس الشريف والخليل - عليه الصّلاة والسّلام - فزارهما وتصدّق . وكان العسكر المصري قد سبقه صُحبة الأمير شمس الدّين آقْسُنْقُر أستاذ الدّار العالية

---

(1) هذه الرّحلة إلى الشام كانت عقب رحلة السّلطان إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ أواخر سنة 667 هـ ، وكانت الغاية منها عدا الحجّ تثبيت أركان حكمه واستعراض مقدرته على متابعة دولته . وسبب جهل أركان الدّولة بمجيئه أنه كان يتعمّد الحركة بسرّية تامّة تحاشياً لانتشار أخبار سفره ، إلى درجة أن أمر بقطع لسان الحاجب بمصر حينما ندّت عنه عبارة عفوية بخصوص هذه السّفرة . راجع ما تقدّم في الرّوض الزّاهر ، 354 .

إلى تلّ العجول ، وحضر السّلطان إلى تـل ّ العجـول . وكـان قـد صلّـى الجمعـة في الكَرَك ، والجمعة الأخرى في حلب ، والجمعة الأخرى في دمشق ، وحضـر إلـى تـلّ العجول ، وذلك كلّه في عشـرين يومـاً ، ومـا غيّر عباتـه التـي حـجّ فيهـا . وسـارت العسـاكر صُحبته من تـلّ العجـول في حـادي وعشـرين المحـرّم ، وخـرج ولـده الملـك السّعيد إلى الصّالحيّة والتقاه بها ، ودخل قلعته في ثالث صفر .

(الرّوض الزّاهر ، 359)



ذكر حركته إلى الشام جريدة

[ربيع الأول سنة 668 هـ]

ولمّا بلغته حركة التّتار ، وأنهم تواعدوا مع الفرنج السّاحليّة ، وتقوّى الفرنج بمن وصل إليهم من أصحاب الرّيدَراكون[1] ، وأن التّتار أغاروا على السّاجور قريباً من حلب ، وعلى جهة أخرى وأخذوا مواشي العربان ، استشار الأمراء في توجّهه جريدةً ، فأشاروا عليه بأن يخرجوا هم قبله ويبقى السّلطان بقلعته . فلم ير أن يتلقّى هذا الأمر إلا بنفسه ليُكتب في حسناته ، وأفهم الله الخلائق أنه وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة في هزم الأعداء ، وأنه إنما يُطعم عساكره لوجه الله لا يريد منهم جزاءً ولا شُكوراً ، وأنه اسمه يستردّ الأعداء المتوثّبة من كل جانب ويصيبهم بسهام المصائب .

فأراح عساكره ، وجرّد الأمير علاء الدّين البُنْدُقدار بجماعة من العسكر ليقيموا في أوائل البلاد الشاميّة ، لاحتمال أنه إذا طلبهم ساروا إليه . وسار السّلطان في جماعة يسيرة من قلعته ، وذلك ليلة الإثنين حادي وعشرين ربيع الأول ، ووصل غزّة . وتوالت الأمطار وسُقيت البلاد بوجهه المُبارك ، وسار فوصل دمشق سابع ربيع الآخر ، ووردت إليه الأخبار بانهزام التّتار عندما سمعوا بوصول السّلطان .

(الرّوض الزّاهر ، 361)

* * *

(1) أي ملك مملكة آراغون الواقعة في شمال شرق إسبانيا ، وعاصمتها سَرَقُسْطة . والعبارة مصحّفة عن الإسبانية : Rey d'Aragón . وملك الآراغون آنذاك كان خايمي الأول Jaime I de Aragón ، حكم بين 1213-1276 م .

ذكر متجددات

[شوّال سنة 669 هـ]

في تاسع شوّال كان بدمشق السّيل العظيم[1] ، وذلك أنه أتى نصف الظهر فأتى على كل شيء فجعله كالرّميم ، وطلع في خور دمشق قدر رمح وأغرق حيوانات كثيرة على اختلافها ، ودخل دمشق فأفسد عدّة آدر بها ، وأغرق من العالم ما لا يعدّ كثرة ، ومن الخيل والجمال أشياء كثيرة . وما علم أحد من أي جهة كان اجتماعه بغير مطر عظيم ولا أين ذهب ، فسُبحان ذي القُدرة والعَظَمة ، واقتلع الأشجار من أصولها .

ودخل السّلطان بعد ذلك بأيام إلى دمشق ، فما وجد بها ماء ولا حمّاماً تدور ، وشرب النّاس من الصّهاريج والآبار . ويُقال إنه هلك بهذا السّيل عشرة آلاف روح ، وأخذ السّيل الطواحين بحجارتها حتى [كأنها] ما كانت . وحُكي أن فقيراً صالحاً حضر إلى دار نائب السّلطنة بدمشق ، يقول : «وعرّفوا الأمير أنني أريد أغدو إلى بعلبك» ، فقال له الأمير : «رُح ، إجرِ» ، وضحكوا منه . فراح وعاد ، وهو يُنذر النّاس بالسّيل ، فضحكوا منه وما أحسّوا بالسّيل إلا وقد هجم على ما ذُكر .

لمّا فرغ السّلطان من هذه الجهات[2] ، وترتّب الأمير عزّ الدّين الأفرم وعزّ الدّين أيبك الشيخ للعمارة[3] ، رحل السّلطان فوصل دمشق منتصف شوّال ، ورحل منها [في رابع وعشرين منه] .

(الرّوض الزّاهر ، 384-385)

---

(1) حول هذا السيل العظيم انظر ما تقدّم أعلاه في نصّ ابن شدّاد .

(2) كان السّلطان قبل ذلك يقوم بحملاته الحربية المكّوكية بنواحي السّاحل الشامي ، فافتتح قلعة صافيتا le Chastel Blanc من أيدي فرسان الهيكل (الداويّة) ، ثم حصن الأكراد le Crac des Chevaliers من أيدي فرسان المشفى (الإسبتاريّة) ، وبعد ذلك أبرم هدنة مع أصحاب حصني طرطوس والمرقب ، وقصد حصن عكّار قرب طرابلس فافتتحه ، ثم تهادن مع صاحب طرابلس التي كانت أمنع موقع في السّاحل الشامي .

(3) أي عمارة حصني الاكراد وعكّار .

ذكر توجّه السلطان إلى الكَرَك وإلى الشام

[المحرّم سنة 670 هـ]

وتوجّه السّلطان من قلعته بعد المغرب من ليلة سابع وعشرين المحرّم في جماعة يسيرة من خواصه ، وأخفى حركته ورَسَم بأن أحداً من المجرّدين معه لا يشتري عليقاً ولا مأكولاً ، وقرّر لهم بما يحتاجوا (.sic) إليه . وعرّج من الزّعقة في البريّة إلى الكَرَك ولم يعلم به أحد ، فوصلها في سادس صَفَر ونزل بقلعتها .

وكان قد استصحب معه علاء الدّين أيدكين أستاذ الدّار ، وكُتب له تقليد بنيابة السّلطنة في الكَرَك ، وتقليد الأمير عزّ الدّين لعلاء الدّين وإقطاع النّجيبي لعزّ الدّين ، ولم يُعلم بذلك أحداً . وفي ثامن صَفَر تسلّم علاء الدّين أيدكين النّيابة بالكَرَك ، ورُسم للأمير عزّ الدّين أيدَمِر بالحضور إلى الشام ، وأفهمه أنه طلبه لنيابة حصن الأكراد .

وسار إلى دمشق فوصلها في ثالث عشره ، و[لا] أحد يعلم به ، وكان قبل أن يدخل دمشق قد رسم لولد كاتب السّيرة بكتابة كُتُب إلى النّواب بتفويض نيابة الشّام لعزّ الدّين أيدَمِر ، فجاءت نحو ثمانين كتاباً في يوم وليلة . وسَيَّر تشريفاً للنّجيبي وأمره بعمل شغله ، فتوجّه إلى الشام . وباشر الأمير عزّ الدّين نيابة الشام في بُكرة نهار الإثنين .

وأنفق السّلطان في الذين صحبوه جملة من المال والتّفاصيل والفراء والخيول ، وركب في ليلة سادس عشر صَفَر ، ونزل بظاهر حَماة بالجَوْسَق .

(الرّوض الزّاهر ، 391-392)

* * *

ذكر توجّهه إلى الحصون لمشاهدتها

[أواخر سنة 670 هـ]

وضحّى السّلطان بدمشق ، وأحسن إلى صاحب حَماة ، وأمر بجلوسه معه بطرّاحة ومسند وكرسي في راس السّماط مُسامتاً للسّلطان . وتوجّه بعد ذلك إلى حُصن الأكراد ، فوصلها حادي عشرين ذي الحجّة ، فشاهد العمائر ، وأمر أمراءه وجميع مَن كان في صُحبته بنقل حجارة المجانيق من خارج القلعة إلى داخلها ، ونقل بنفسه وبالمذكورين . وكان في الخندق مكان يحتاج إلى العمل ، فنزل بنفسه وبمن معه وعمل فيه وحفر بيده[1] .

وترك الثَّقل وتوجه إلى حصن عكّار ، فشاهد عمائره وعمل فيه بيده وبمن معه . وأمر برمي المنجنيقات التي بالحصن ، وشاهد مواضع سقوطها . وعاد إلى حصن الأكراد ، وخلع على مَن بها من الأمراء وأرباب الوظائف . وعاد فتصيّد في الطريق ، وخلع مقدار خمسمائة تشريف على مَن أحضر صيداً . ودخل دمشق في خامس المحرّم سنة إحدى وسبعين وستمائة[2] .

وعند دخوله إلى دمشق في التاريخ المذكور ، استشار خواصّ الأمراء في أن التّتار تواترت عنهم أخبار الحركة . . .

(الرّوض الزّاهر ، 402-403)

* * *

(1) هذا سلطانٌ يُقتدى بالرّوح . يذكر ابن عبد الظاهر قبل هذا الخبر عنايته بعمل النّشاب بيده حتى صار يتقن نحته وتريشه وتنصيله ، وذلك كنوع من أعمال الجهاد والإعداد له .

(2) دخل السّلطان دمشق في 5 محرّم ، وركب ليلة 6 (يوم وصوله) متوجّهاً إلى مصر فدخلها بغتةً في يوم السبت 13 منه . ثم في ليلة 27 جهّز عسكره المتوجّه إلى الشام ، وليلة 29 من الشهر توجّه مجدّداً إلى الشام ، فوصل دمشق في 3 صفَر ودخل القلعة في الليل . فأي رجل هو ! ألا هكذا تكون السّلاطين وعُظماء الرّجال . أما سبب هذه التحركات المباغتة فهو اقتراب جيش التّتر من الشمال ، كما سنرى في النصّ التالي .

ذكر حضور رُسُل أبغا [إلى دمشق]

[صَفَر سنة 671 هـ]

وفي صَفَر وردت الأخبار بحضور رُسُل أبغا ورُسُل الرّوم ، فرسم أن لا يُحتَفَل بهم ، وأنهم إذا وصلوا يضربون الجُوك ثلاث مرّات قدّام نائب السّلطنة بحلب ، وكذلك قدّام صاحب حَماة . وأُحضِروا إلى دمشق ، وكان مضمون مشافهتهم أن أبغا قال للأمراء : «الصُّلح أيّ شيء جاء منه من المضرّة ؟ والعداوة أيّ شيء جاء منها من الفائدة ؟ وهو يقول إن السّلطان يُسيِّر سُنْقُر الأشقَر يمشي بيننا في الصّلح» .

وأُنزلوا في بُرج عند سوق الخيل[1] ، وتوالت العَساكر من صَفَد وغيرها ، وهم يشاهدونها . ثم استحضرهم ، فغيّروا كلامهم ، وقالوا : «أبغا يقول يمشي السّلطان أو مَن يكون بعده في المنزلة إلى أبغا لأجل الصّلح» . فأجابهم السّلطان : «بأن أبغا إذا قصد الصُّلح يمشي فيه هو أو واحد من أخوته» . ثم أمر بلُبس أجود العساكر العُدّة الكاملة ، ولعبوا في الميدان[2] ، والرُّسُل حاضرون ، وكذلك رُسُل الملك مُنكوتَمر ، ورُسُل الأشكري[3] . وسفَّروا في ربيع الأول[4] .

(الرّوض الزّاهر ، 404)

* * *

---

(1) موقع سوق الخيل القديم ما زال معروفاً بالاسم إلى اليوم بدمشق ، أما البرج المذكور فمن المؤكد أنه زال بُعيد عصر الظاهر ، وهناك أقيمت المدرسة التَّغري وَرْمِشيّة عام 830 هـ .

(2) أي الميدان الأخضر ، موضع معرض دمشق الدّولي الذي جري هدمه مؤخراً .

(3) الاسم تحريف سركيس ، والمقصود به إمبرطور بيزنطة ميخائيل پالايولوغوس الثامن .

(4) في هذا الشهر ذاته وقع المصافّ بين جيش المماليك والتّتر على نهر الفُرات ، فجرت معركة هائلة قادها السّلطان بنفسه ، فانتصر نصراً ساحقاً وأبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما لا يُحدّ ، وعاد إلى دمشق في 3 جُمادى الآخرة والأسرى بين يديه . وتأكد للتّتر أنه منذ وقعة عين جالوت 658 هـ وبعدها وقعة حمص 659 هـ وهذه الآن ، ليس لهم على جيش المماليك بقيادة السّلطان الظاهر من سبيل ، ولو أنهم سيحاولون كما سيمرّ .

ذكر توجه السلطان إلى الشام

[المحرّم سنة 672 هـ]

وكانت الأخبار قد وردت بحركة أبغا ملك التّتار[1]، فخرج السّلطان في ليلة السّادس والعشرين من المحرّم، وصحبته جماعة من أمرائه الخاصّة، فحمل كُلَفهم في هذه السّفرة. وفي أثناء الطريق قوي الخبر بحركة التّتار، فكتب بخروج العساكر جميعها والعُربان من الدّيار المصريّة صُحبة الأمير بدر الدّين الخَزْنَدار، ورَسَم بأن جميع مَن في مملكته ممّن له فَرَس يركب للغَزاة، وأن يُخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيّالة على قَدر حال أهل القرية، ويقومون بكُلَفهم.

ودخل دمشق في سابع عشر من صَفَر من هذه السنة، وكان رحيل العساكر من مصر في العشرين من صَفَر من هذه السنة، ووصلوا يافا، وورد المرسوم على الأمير بَدر الدّين الخزندار بالنّزول قريباً من يافا. ولمّا علم السّلطان خروج العساكر من مصر وحضورهم، ركب من دمشق في جماعة يسيرة مقدار أربعين نفراً جرائد، ولم يستصحبوا ركاب داراً من دمشق ولا غيره.

فوصلوا وقد طُلّبت العساكر وقاربت المنزلة، فاعترضهم السّلطان وجماعته مُلثّمين، فاعتقدهم الحُجّاب تُركماناً، فرسموا لهم بالترجّل فما ترجّلوا، وساق السّلطان مُنفرداً وجاء من خلف السّناجق، وحَسَر اللّثام عن وجهه فعرفه السّلاح داريّة[2]، ودخل وساق في موكبه، فنزل النّاس وقبّلوا الأرض، وساق ونزل بدهليزه فرتّب مصالح.

---

(1) أبغا هذا هو ابن خان التّتر هولاكو، الذي فشل في عام 658 هـ في غزو مصر بسبب سفره إلى قَرَاقُوروم عاصمة إمبراطورية التّتر، لوفاة أخيه منكو خان التّتر الأكبر، كما ذكرنا في نصّ الصّارم أزبك أعلاه. لكن أبغا فشل فشلاً ذريعاً في تحقيق ما عجز عنه أبوه.

(2) هذه الجرأة لا يُقدم عليها إلا أشدّاء الرّجال، فعادة السّلاطين ألا يتحركوا إلا بالطبول والزّمور والحرس والجيوش والصّخب واللّغط. وفي عصر المماليك اشتهر سلاطين أظهروا بطولات شخصية وجرأة نادرة، مثل: الظاهر بيبرس، والأشرف خليل ابن قلاوون، والنّاصر فَرَج، والأشرف قايتباي.

وأصبح في اليوم الثاني ركب في موكبه ، ونزل فقضى أشغال النّاس ، ولمّا أمسى ركب هو ومَن حَضَر معه ، وعاد إلى دمشق المحروسة . وأصبح فركب في موكبه . وفي مدّة غيبته رتّب الأمير سيف الدّين الدّوادار - رحمه الله - بدمشق ، وجعل عنده علائم على أوراق بِيض ليكتب فيها أجوبة البريد .

(الرّوض الزّاهر ، 420-421)



ذكر توجّه الملك السّعيد إلى الشام

[رمضان سنة 672 هـ]

في هذه السّنة رأى السّلطان أنه لا يُخلي مملكةً من ممالكه من تشريف دست سلطانها بحلول صاحبه ، ولا مَن يقوم بواجبه ، وكانت الأخبار متواردة بحركة التّتار ، فرَسَم السّلطان لعيسى بن مهنّا الإغارة[1] . . .

وجَرَّد الأمير شمس الدّين أستاذ الدّار ، وجماعة من أكابر الأمراء والخواصّ صُحبة الملك السّعيد[2] ، فتوجّه ليلة الثاني عشر من رمضان بعد عشاء الآخرة ، ولم يعلم بذلك أحد . وفي سادس وعشرين منه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ولم يدرِ نائب السّلطنة بالشام[3] به إلا وهو بينهم في سُوق الخيل ، فقبّلوا الأرض ، ودخل قلعته كما يدخل الغَمض بين الأجفان ، أو كما تعود العافية إلى جسد الإنسان . وأراد أن يلعب القَبَق[4] فتأخَّر من أجل كثرة الأمطار .

وفي ليلة العيد خلع على أمراء الشام والمقدّمين والمفاردة والأكابر ، وخرج متصيّداً بالمَرج[5] ، ثم توجّه إلى الشَّقيف وصَفَد شاهدهما ، وعاد إلى مصر فوصلها في حادي عشر شوّال .

(الرّوض الزّاهر ، 426)

* * *

---

(1) يروي المؤلف انهزام قوّات التّتر من جرّاء هذه الغارة .

(2) ابن السّلطان الظاهر ، سمّي الملك السّعيد بَرَكة خان كاسم جدّه لأمّه حسام الدّين بركة خان ابن دَولَة خان الخوارزمي ، لا نسبةً لبركة خان ابن عمّ هولاكو كما يُظنّ .

(3) الأمير عزّ الدّين أيْدَمر ، عيّنه الظّاهر في 670 هـ وبقي حتى 678 هـ أيام ابنه الملك السّعيد .

(4) القَبَق كلمة تركية : kabak ، أي ثمر القَرع (اليَقطين) ، كان يُنصب على سارية مُرتفعة ليرميه الخيّالة بالنّشّاب أثناء جري خيلهم ، وهذا من فنون الرّماية التي برع بها المماليك أيّ براعة . انظر صورته في كتابنا هذا ، وراجع الرّوض الزّاهر ، 424 .

(5) المَرج إلى الجنوب الشرقي من غُوطة دمشق ، به ضياع كثيرة شُربها من نهر الأعوج .

ذكر توجّه السّلطان إلى دمشق

[ذو الحجّة سنة 673 هـ]

ولمّا فرغ السّلطان من الأمور المتعلّقة بالقُصَير[1]، توجّه إلى دمشق فدخلها في منتصف ذي الحجّة، وفرّق العساكر في الجهات طلباً لرخص الأتبان والأسعار. فأقامت جماعة منهم في بانياس، وجماعة في عَجلون، وجماعة في نَوى وغيرها، وبقي الأمراء في خدمته.

(الرّوض الزّاهر، 448)

* * *

(1) القُصَير من حصون إمارة أنطاكية الصليبية. وخبره أن أحد أمراء السّلطان (سيف الدّين الدّوادار) أسر صاحبه - يسمّيه ابن عبد الظاهر «كليام»، أي Guillaume بالفرنسية - في 15 شوّال 673 هـ، ثم عيّن السّلطان جماعة من أمراء حلب لحصار الحصن. ويروي ابن عبد الظاهر: «وتوجّه السّلطان إلى دمشق، واستصحب كليام معه - وكان شيخاً كبيراً - وكان أبوه في الأسر، فمات كليام بدمشق بعد اجتماعه بأبيه. ولمّا اشتدّ الحصار على القُصير وعدموا الأقوات، سلّموا الحصن المذكور في ثالث وعشرين جُمادى الأولى سنة أربع وسبعين وستمائة».

ذكر حضور الملك السّعيد إلى دمشق

[صَفَر سنة 674 هـ]

وفي الرّابع والعشرين من المحرّم من هذه السّنة ، رَسَم السّلطان[1] للأمير بَدر الدّين الخزاندار بالتّوجّه إلى الدّيار المصريّة لإحضار الملك السّعيد[2] ، وتقدّم إلى الأمراء بإحضار أولادهم . فتوجّه الأمير بَدر الدّين الخزاندار على خيل البريد ووصل مصر ، فسَيَّر له الملك السّعيد ألف دينار وتشريفاً ، وجُهّزت بيوت الأمراء وأولادهم ، وخرج الملك السّعيد من مصر على خيل البريد[3] سَلخ المحرّم [ووصل إلى دمشق في سادس صَفَر ، وركب السّلطان للقائه ، وحضر بعد ذلك طُلْبه ومماليكه][4] .

* * *

. . . للّعب ، ولبست المماليك السّلطانية الجواشن والخُوَذ ، وعُملت الأبرجة الخشب على الأفيلة ، ودخلوا في أخذ الحلقة أحسن دخول وساقوا أجمل سَوق . ثم نُصِب القَبَق ورموا بالنّشّاب ، وجُعِل لكل من يصيب القَبَق فرساً من الجنائب الخاص بتشاهيره[5] . وصار السّلطان يأخذ بقلوب النّاس ويخلع عليهم ويعطيهم ، وساق بالرُّمح أحسن سَوق ، وعجب النّاس من فروسيّته وشجاعته . وانقضى هذا اليوم على هذا التّرهب .

---

(1) كان السّلطان بدمشق آنذاك منذ منتصف ذي الحجّة 673 هـ ، راجع الفقرة السابقة .

(2) والسبب في ذلك أنه كان يجهّز لعقد قران ابنه الملك السّعيد على بنت الأمير سيف الدّين قلاوون الألفي ، أما العُرس فتمّ بعد عام بالقاهرة في 5 جُمادى الأولى 675 هـ .

(3) من أهم أعمال السّلطان الظّاهر كان تأسيسه لنظام مراسلة بريد منظّم وفعال للغاية ، كان عماد اتّصالاته السريعة وحركته الدّائبة . وفي كتاب «بدائع الزّهور في وقائع الدّهور» لابن إياس (1 : 308-342) وصف شيّق للبريد في أيام الظاهر ، فليُراجع .

(4) التّتمة من «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنّويري ج 29 . وفي نصّ «الرّوض الزّاهر» أدناه خُرم بمخطوطة مكتبة الفاتح بإستانبول التي اعتمدها الخويطر في نشرته ، مقداره ورقة واحدة على الأقل . ولاستكمال النّقص ينبغي الرّجوع إلى «نهاية الأرب» .

(5) يردف المؤلف هنا كل عبارة يكتبها بأبيات شعر غثّ ، أسقطتُه كلّه .

وفي اليوم الثالث ركب ولعب ورمى في القَبَق ، والسّلطان يطاعن بالرّمح . وفي يوم الأحد ترتّب العسكر من جهتين ، واصطدم الجيشان وتطاعنت الفُرسان ، والسّلطان بَينا يُرى آخراً قد شُوهد أولاً [شعر] وهو لا يسأم الكرّ والفرّ .

وشاهد النّاس من هذا السّلطان وولده الملك السّعيد ، الأسد وشبله ، والسّهم ونَصله ، والرُّمح وسِنانه ، والكَفّ وبَنانه ، والطَّرف وإنسانه ، واستبشرت بالملك السّعيد الأمم ، وجرى بسعادته القلم [شعر] وهو ثاني والده إذا كافح ، وتالي علمه إن طارَدَ أو طارَح ، وملبّي ندائه إن دعى نزال ، ومرتمي أمره إن تفوّه بمَقال . يتقرّب بالإحسان إلى مَن ساوَقه ، ويتباعد عمّن سابقه [شعر] .

وتواصل الطّعن بغير جراح ، وتحاربت الأجساد وتحابت الأرواح ، وكأنّ الرّماح في أيديهم تذكّرت عهدها القديم من التّبريح بهبوب النَّسيم . وصار الطّعن في هذا الميدان أكثر من الطّعن في الحرب ، ولم يعدم في هذه الأيام من أيام المعارك غير سفك الدّماء والضّرب . والسّلطان بين تلك الصّفوف لا يخاف دركاً ولا يخشى ، ولا مكيدةً تُعمل أو تُنشا .

وفي يوم الثلاثاء أنعم على جميع أكابر دولته من الأمراء والمُقدّمين والوزراء والقضاة والكتّاب بالتشاريف . وكان على السّلطان تشريف كامل بشربوش[1] ، أنعم به على الأمير سيف الدّين قلاوُن الألفي . ولعبوا وكأنّهم زهر الرّبيع ألواناً مختلفة ، وزهر النّجوم أنواراً مؤتلفة [شعر][2] .

(الرّوض الزّاهر ، 449-452)

* * *

---

(1) أي الزيّ الرّسمي لأمراء المماليك ، أما الشّربوش فعَمرة عسكرية رسمية للرأس يلبسها السّلطان والأمراء ، ويبدو أنها كانت مثلّثة الشكل . وخير مرجع لألبسة المماليك كتاب المستشرق السويسري ليو ماير : L. Mayer: *Mamluk Costume* .

(2) بعد هذا وصف متكلّف متقعّر للولائم والتّقدمات يدعو للسّأم فأسقطتُه .

رحلة السّلطان الأخيرة إلى دمشق ووفاته بها

[المحرّم سنة 676 هـ]

وفي الخامس من المحرّم دخل السّلطان دمشق ، وقد ترنّح للنّصر أعطافه وروّى من دماء الأعداء أسيافه ، وقدّامه مقدّمو التّتار قد ركبوا دُهم القيود عوض شُهب الجياد ، وبعد أن كانوا مُقرّبين صاروا مُقرّنين في الأصفاد . ونزل بقصره بالميدان الأخضر ، مُعتقداً أن الدّنيا في يده قد حصلت ، والبلاد التي حلّها ركابه عنها ما انفصلت ، وأن سَعده استخلص له الأيام وأصفاها ، والممالك شرقاً وغرباً لو لم يكن بها غيره لكفاها .

وإذا بالمنيّة قد أنشَبَت أظفارها ، والأمنية قد وضعت حربها أوزارها ، والعافية قد شمّرت الذّيل ، والصحّة قد قالت لطبيبه : «أهلك والليل» ، ورماح الخِط وقد قالت لأقلام الخَط : «أصبتِ في لبس الحِداد من المداد» ، والقلوب وقد قالت عند شَقّ الجيوب : «نحن أحقّ منكِ بهذا المُراد» ، والحُصون وقد قالت لقصره الأبلق : «ما كان بناؤكَ على هذه الصّورة إلا فألاً بما تسودّ الجدران[1] به عن الفجائع من السّواد» [2] .

وكان ابتداء مرضه ، الذي اعتلّ به الوجود وتباشرت به الأكفان واللّحود ، ليلة السّبت خامس عشر مُحرّم ، فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشره ، وكأنه يودّع لأخدانه ورؤية موكبه وركوب حصانه . ونزل والتاثَ جسمه تلك الليلة بعض الالتياث . . . وقبض الله روحه الزّكيّة ، ورجعت إلى ربّها راضيةً مَرضيّة ، وذلك بعد الزّوال من يوم الخميس سابع عشرين محرّم .

---

(1) في هذا كناية عن بناء القصر الأبلق بحجارة سود وحجارة صُفر ، مدماكاً من هذه وآخر من تلك ، وهذا القصر بناه الظاهر في عام 665 هـ ، وكان موضع تكيّة السّلطان سليمان القانوني المعروفة اليوم ، شرقي الميدان الأخضر الذي تكرر ذكره هنا حيث يجري لعب الكرة والرّمي على القَبَق . وسيرد أدناه في نصّي الحِميَري وابن فضل الله العُمَري أقدم وصف لهذا القصر الباذخ ، الذي هدمه مع الأسف الطاغية تيمورلنك عام 803 هـ .

(2) يطيل المؤلف كثيراً هنا في سرده المتكلّف المسجوع ، ممّا يضطرّنا إلى بعض اختصار .

وكانت مدّة مرضه – قدّس الله روحه – ثلاثة عشر يوماً ، وهي مدّة مرض الشهيد صلاح الدّين ، رحمه الله تعالى .

ذكر نقله إلى تُربته المُباركة

واستمرّ الشهيد بقلعة دمشق ، إلى أن ابتاع ولده الملك السّعيد دار العَقيقي ، وبناها له تُربة[1] ، وأنفق عليها رُبع مُلكه [شعر] .

وحُمل إلى تُربته ليلة الرّغائب من رَجَب سنة ستّ المذكورة ، وتولّى حمله الأمير عزّ الدّين نائب السّلطنة بالشام ، وعزّ الدّين الدّوادار ، وصفيّ الدّين جوهر الهندي [شعر] ، وألحَدَه القاضي عزّ الدّين الشافعي .

(الرّوض الزّاهر ، 472–475)

* * *

(1) المقصود بها المدرسة الظاهرية بمحلّة باب البريد إلى الشمال الغربي من الجامع الأموي الكبير ، عمّرها الملك السّعيد في سنة وفاة أبيه الظاهر 676 هـ ، ونقل جُثمانه إليها . وكانت داراً للأمير أحمد بن الحُسين العَقيقي أحد أمراء سيف الدّولة الحمداني ، ثم اشتراها نجم الدّين أيوب والد النّاصر صلاح الدّين ، حتى اشتراها السعيد بمبلغ 48 ألف درهم وبنى فيها القبّة ودفن بها والده كما تقدّم ، ثم دُفن هو فيها أيضاً عام 680 هـ .
والمدرسة إلى اليوم أجمل بناء مملوكي بدمشق ، تزيّنها واجهة رائعة تحمل اسم مهندسها المُبدع «إبراهيم ابن غنائم» ، الذي صمّم عمارة القصر الأبلق أيضاً (برواية ابن طولون الصالحي) . وبها قاعة بقبّة تضمّ ضريحي السّلطانين الظاهر والسّعيد (انظر الصّور) ، لكن النّقش الذي بساكفتها يحمل اسم الملك المنصور قلاوون في عام 678 هـ .

مُلحق[1]

حول رحلة السلطان الملك السعيد إلى دمشق

[ذو الحجّة سنة 677 هـ]

وفي يوم الثلاثاء خامس ذي الحجّة ، دخل السّلطان السّعيد إلى دمشق وقد زُيِّنت له وعُملت له قبابٌ ظاهرة ، وخرج أهل البلد لتلقّيه وفرحوا به فرحاً عظيماً لمحبّتهم والده . وصلّى عيد النّحر بالميدان ، وعمل العيد بالقلعة المنصورة ، واستَوزَر بدمشق الصّاحب فتح الدّين عبد الله بن القَيْسَراني ، وبالدّيار المصرية - بعد موت بهاء الدّين بن الحنّا - الصّاحب برهان الدّين بن الخضر بن الحَسَن السّنجاري .

وفي العَشر الأخير من ذي الحجّة ، جهّز السّلطان العساكر إلى بلاد سِيْس صُحبة الأمير سيف الدّين قلاوون الصّالحي ، وأقام السّلطان بدمشق في طائفة يسيرة من الأمراء والخاصكيّة والخواص ، وجعل يُكثر التردّد إلى الزنبقيّة[2] .

وفي يوم الثلاثاء السّادس والعشرين من ذي الحجّة ، جلس السّلطان بدار العدل داخل باب النّصر ، وأسقط ما كان حدّده والده على بساتين أهل دمشق ، فتضاعفت له منهم الأدعية وأحبّوه لذلك حبّاً شديداً ، فإنه كان أُجحف بكثير من أصحاب الأملاك ، ووَدَّ كثير منهم لو تخلّص من مُلكه جُملةً بسبب ما عليه . وفيها طُلب من أهل دمشق خمسين ألف دينار ضُربت أجرةً على أملاكهم مدّة شهرين ، وجُبيت منهم على القَهر والعَسف .

(البداية والنّهاية ، 13 : 280)

* * *

---

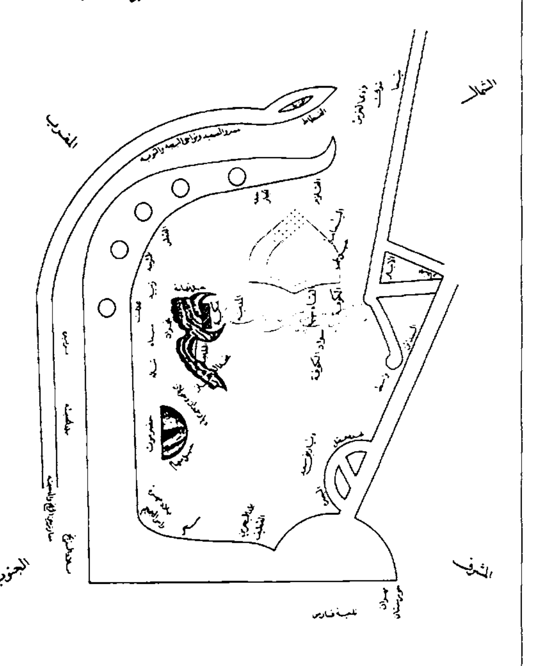
(1) لا علاقة لهذا النّصّ بكتاب «الرّوض الزّاهر» الذي يعدّد رحلات الظاهر ، بل نقله عن «البداية والنّهاية» لابن كثير ، نقلاً عن «المُقتَفى» لعَلَم الدّين البِرزالي (665-738 هـ) .

(2) تسمية غريبة ، لا ندري إن كانت صحيحة أم مصحّفة في طبعة «البداية والنّهاية» الغثّة .

صورة ديار العرب

لابن سعيد المغربي (٦١٠-٦٨٥هـ: ١٢١٤-١٢٨٦م)

تحقيق الدكتور احمد سوسه



- 45 -

ابن سعيد الغرناطي

(توفي 685 هـ / 1286 م)

أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي الشهير بابن سعيد ، أحد كبار علماء الأندلس وأدبائها في القرن السابع الهجري . كما كان عمّه أيضاً من مشاهير الجغرافيين ، ويُعرف بابن سعيد الأندلسي عبد الرحمن بن محمد ، صاحب كتاب «المُغرِب في حلى المَغرِب» ، تُوفي عام 617 هـ . ولد علي بن موسى في قلعة يحصب قرب غرناطة حوالي عام 610 هـ ، وتلقّى العلم بإشبيلية ثم أمضى الجانب الأكبر من حياته متنقّلاً في طلب العلم ، فقد جال من المغرب الأقصى إلى الخليج العربي والتقى بأكابر العلماء ودرس خيرة الكتب والتآليف .

صحب أباه عام 638 هـ في رحلة إلى شمال أفريقية ومصر ، التي بقي بها حتى عام 648 هـ ، ثم غادرها إلى الشام وأقام حيناً بالموصل وبغداد والبصرة وزار إيران . وقبل تدمير هولاكو لبغداد (سنة 656 هـ) بأعوام قليلة حظي ابن سعيد بالدراسة في مكتباتها البالغ عددها 36 مكتبة ، ثم رحل إلى حلب ودمشق بصحبة المؤرّخ الشهير ابن العديم ، كما حجّ إلى مكّة ، وعاد إلى الإسكندرية وحلب وأرمينيا . وذكر بعض المؤرّخين أنه توفي بدمشق في طريق عودته من رحلته الأخيرة عام 673 هـ ، بينما المقبول عموماً أنه توفي بتونس 685 هـ .

إنّما يهمنا هنا أنه كان ممن زاروا دمشق ورأوها بأمّ العين ، وإن كان وصفه لها - مع الأسف - لا يتجاوز التعداد الموجز ، على ما هو مألوف في أسلوب المؤلّفات الجغرافية العامة في عصره ذاك .

يُعدّ ابن سعيد بصفة عامّة من أخصب الكتّاب على الرغم من أسفاره التي لم تنقطع ، هذا إلى جانب ميوله نحو الأدب والشعر والتاريخ . وأما في الجغرافيا فلم يصل إلينا ما كتبه عن رحلاته المشرقية ، لكنّه اشتهر بمختصره لكتاب بطليموس في الجغرافيا ، الذي سمّاه «كتاب الجغرافية في الأقاليم السبعة» ، وهو يُعدّ من الآثار الكبرى التي ظهرت في محيط الأدب الجغرافي العربي عقب الغزو المغولي للمشرق الإسلامي .

وعلى الرغم من الطابع النقلي الذي يغلب على الكتاب ، فهو مصدر غنيّ حافل وبخاصّة عن آسيا الصغرى وسواحل أفريقية ، وأوروبا الغربية كفرنسا وهنغاريا وجنوب إيطاليا وجزرها مثل مثل سردينيا وكورسيكا ، كما عن أوروبا الشرقية والصقالبة والرّوس وجبال القفقاس والصين .

قام بنشر كتاب «الجغرافية في الأقاليم السبعة» المستشرق الإسباني خوان خينيس J. V. Gines ، تحت عنوان آخر : «بَسط الأرض في الطول والعرض» ، وصدر عن معهد مولاي الحسن بتطوان عام 1958 . ومنه أخذنا النصّ المتعلق بدمشق . غير أن الباحث إسماعيل العربي أثبت في نشرته لكتاب الجغرافية (صدر في بيروت سنة 1970) أنه كتاب آخر غير «بَسط الأرض» ، وأن الثاني هو بمثابة مختصر للكتاب الأول ، وكلاهما لابن سعيد .

المصادر :

الجغرافية في الأقاليم السبعة لابن سعيد الغرناطي ، مقدّمة خينيس .
المُغرِب في حلي المَغرب للغرناطي ، مقدّمة شوقي ضيف .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 356 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 192 .
تاريخ الفكر الأندلسي للمستشرق بالنثيا ، 247 .

دمشق

وتقع قاعدة الشام دمشق حيث الطول ستّون درجة ، والعرض أربع وثلاثون ، وفي الأصطرلاب ثلاث وثلاثون ، مثل بغداد وتونس . وإنما كثر الثّلج فيها من الجبال التي في جهاتها ، لايبرح الثّلج عليها[1] .

ويقال : جنان العالم أربع : صُغْدُ سَمَرقند ، وشُعْبُ بَوّان ، وأُبُلّةُ البَصْرة ، وغُوطَة دمشق . قال أبو بكر الخوارزمي : والغوطة تفضُل على هذه الجهات الثلاث ، كما تفضُل الثلاثُ على سائر جِنان العالم .

(الجغرافية في الأقاليم السبعة لابن سعيد ، 85)

* * *

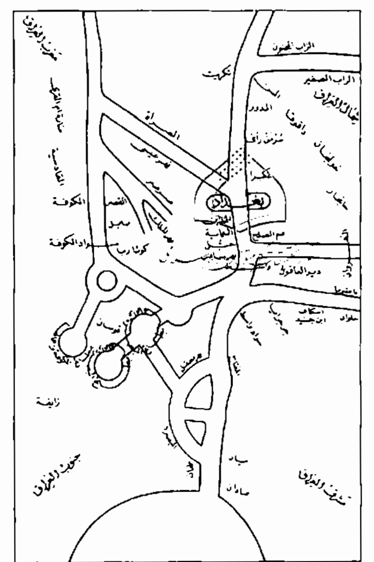
(1) المقصود بذلك جبل الشيخ (حرمون) ، سمّاه جغرافيو القرون الوسطى : جبل الثّلج ، لأن الثلج عليه كان يدوم حقاً من العام إلى الذي يليه ، حتى أنه كان «يدوِّد» كما يقول أهل القرى المتاخمة له ، ويؤكدون ظهور دود أبيض بداخله ، ويضيفون أن دودة الثّلج إن وُضعت في كأس ماء فاتر انقلب بارداً ! وطبعاً هذا خيال ، لكننا في عصرنا لم نشهد أبداً امتداد الثّلج 12 شهراً ، بل يذوب بأسره بين شهري تموز وأيلول .

صورة العراق

لابن سعيد المغربي (٦١٠-٦٨٥هـ) - (١٢١٤-١٢٨٦م)

هو نور الدين ابو الحسن علي بن الوزير ابي عمران موسى بن سعيد المغربي الغرناطي الاندلسي، ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ (١٢١٤م) وفي رواية اخرى ولد عام ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م) فلحة بقلعة يحصب بالقرب من غرناطة، ودرس في اشبيلية، جال في بلاد المغرب والديار المصرية والعراق والشام ووصل الى ارمينية من طريق الاسكندرية وحلب وحج مع والده الى مكة. واشتغل بخدمة صاحب تونس الامير ابي عبد الله المستنصر فنال الدرجة الرفيعة من حظوته. وقد صنف في رحلته كتابًا سماه - النفحة المسكية في الرحلة المكية، وله تآليف عديدة منها - المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق، وكتاب، عدة المستنجز وعقلة المستوفز. توفي عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) وتقول رواية اخرى انه توفي عام ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) في تونس.

- تحقيق الدكتور احمد سوسة -



ملاحظة : ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة اي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها طبقًا للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة.

– 46 –

محمّد بن إبراهيم الوطواط

(توفي 718 هـ / 1318 م)

محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري الكتبي جمال الدين المعروف بالوطواط ، أديب مترسّل كتبي من العلماء . من أهل مصر ، ولد عام 632 هـ وكانت صناعته الوراقة وبيع الكتب . صنّف كتباً منها «غُرر الخصائص الواضحة» و«مباهج الفِكَر ومناهج العِبَر» في الكيمياء والطبيعة ، وقد ضمّنه أموراً جغرافية كثيرة في ستة مجلدات ، و«الدُّرَر والغُرَر» ورسائل سمّاها «عين الفُتوّة ومرآة المروّة» . توفي بالقاهرة عام 718 هـ .

أما كتابه «مباهج الفِكَر» فلمّا يزل مخطوطاً ، وفيه نبذة يسيرة عن دمشق وبعض أوصافها . وقد نقل هذه النّبذة أستاذنا الجليل الدكتور صلاح الدين المنجّد عن مخطوطة مكتبة كوبريلي بإستانبول ، رقم : 1170 . وعنه نقلتُها .

المصادر :

الوافي بالوفيّات للصفدي ، 2 : 18 .

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 194 .

دمشق

وأمّا جُند دمشق فمدينة تسمى جِلَّق ، وهي مدينة أزليّة عاديّة سهلية جبلية ، زعم بعض المفسرين للكتاب العزيز إنها إرَمُ ذات العماد .

ولها الجامع الذي هو أحد عجائب الدنيا ومبانيها ، والنهر الذي ينبعث منه عدة أنهار وهي : نهر يزيد ، ونهر باناس ، ومنه مياه البلد التي تجري في شوارعها ودُورها والقلعة ، ونهر القنوات . ويسمى عمود النهر بَرَدَا ، ومنبعه من حيث تنبع عين الفيجة[1] ، وهي في واد بين جبلين ، تكون مسافته من حيث ينبع إلى حيث يصبّ في بُحيرة المرج شرقي دمشق يومين .

ولدمشق من البلاد بعلبك ، وهي مدينة . . . إلخ .

(مباهج الفكر للوطواط ، مخطوطة كوبريلي ، 1 : 444)

* * *

(1) هذا غير صحيح ، فلبَرَدى نبعه الخاص في سهل الزَّبَداني ، ولعين الفيجة نبعها الخاص في قرية تُعرف باسمها ، إلا أن مياه الفيجة كانت تنضمّ لمجرى بردى فيصبحان نهراً واحداً قوي الجريان ، لا كما هو اليوم مجرّد ساقية واهية ! وكان بساتنة الصالحية يدركون في أواسط القرن العشرين عُمق نهر يزيد (من فروع بردى) 3 أمتار في بساتين الصالحيّة ، وعمق ثورا (فرع آخر لبردى) ما يزيد على المترين . لكن منذ أن استفحل سرطان الإسمنت والأسفلت بدمشق منذ عام 1960 فصاعداً ، فقدت دمشق بهاءها وجمالها ، حتى أضحت في أيامنا مجرّد مدينة رماديّة كالحة لا تمتاز بشيء !

- 47 -

ابن رُشَيْد الفِهْري

(توفي 721 هـ / 1321 م)

زار دمشق عام 684 هـ

أبو عبد الله محمد بن عمر الفِهْري الأندلسي ، عالم أندلسي كبير برع في الأدب والحديث . ولد في سَبْتَة بالمغرب عام 657 هـ ، وتلقّى العلم في جامع القرويين بمدينة فاس عاصمة بني مَرين ، وأقام بها حيناً ثم انتقل إلى المدينة البيضاء الملاصقة لها التي أسّسها السلطان يعقوب ، وخرج من المريّة لأداء فريضة الحج ، فمرّ في طريقه بشمال أفريقية ومصر والشام . وعند عودته اشتغل بالتدريس في غرناطة ، ثم أمضى بقية عمره بفاس إلى أن توفي بها عام 721 هـ .

وإذا كان ابن جبير أول رحالة أندلسي كتب وقائع رحلته الحجازيّة ، فإن ابن رُشيد بالمثل هو أول رحّالة من العَدوة المغربية سجّل انطباعاته برحلة حجازيّة . واشتهر عنه رحلتان تضمّان أخبار جولاته في المشرق ، أما الأولى فيصف فيها طريقه في أفريقية ومصر والشام والحجاز ، وعنوانها : «مَلء العَيبة ممّا جُمع بعد طُول الغَيْبة في الوُجهة الواجهة إلى الحرمين مكّة وطَيْبة» . ومنها أجزاء مخطوطة في دير الإسكوريال بإسپانيا ، وأصلها في خمسة أجزاء ، ومن المؤسف أن الجزء الرابع الذي يذكر فيه دمشق وعلمائها مفقود ، وكان زارها عام 684 هـ أوائل عهد المماليك في أيام السّلطان المنصور قلاوون . وفي الجزء الخامس يتحدّث عمّا رآه بعد خروجه من دمشق ، على أن المقّري التّلمساني (توفي 1041 هـ) حفظ لنا قطعة من رحلته تتعلّق بدار الحديث الأشرفية ، ونعل الرّسول التي كانت فيها .

أما الرّحلة الثانية ففيها عن علماء الأندلس ، فرغ منها عام 689 هـ . وتمتاز كتابات ابن رُشيد بغزارة المعلومات التي جمعها عن الأحوال الاجتماعية للبلاد التي زارها ، وخاصّة مكّة والمدينة . والجدير بالذكر أن في مكتبات مكّة المكرّمة عدّة نسخ مخطوطة من رحلتي الفِهري .

نقلتُ نصّ الفِهري المتعلّق بدمشق من «مَلء العيبة» عن أستاذي العلاّمة صلاح الدّين المنجّد ، من مخطوطة الإسكوريال رقم 1736 ، والنصّ الذي أورده أحمد بن محمّد المقّري في «فتح المتعال في وصف النِّعال» عن المنجّد أيضاً من مخطوطة مكتبة ڤاروجان سَلاطيان الخاصة (من أرمن دمشق) التي كُتبت عام 1033 هـ ، مع معارضتها بطبعة حيدر آباد بالهند عام 1234 هـ .

كما أشير إلى أن جزئين من «مَلء العَيبة» قد نُشرا مؤخّراً ، وهما :

الجزء الثاني : تونس عند الورود ، تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1982 .

الجزء الخامس : الحرَمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصُّدور ، تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1988 .

المصادر :

الدرر الكامنة لابن حجر ، 4 : 111 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 368 و 382 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 196 .
الرحّالة المغاربة وآثارهم لمحمد الفاسي ، 4 .
رحلة الفِهري للفاسي ، مجلة معهد المخطوطات ، مجلّد 5 (1959) .
الفكر الأندلسي للمستشرق الإسباني بالانثيا ، 318 .
الرّحلة والرّحّالون المسلمون لأحمد رمضان أحمد ، 343 .

ميدان الحَصَا بدمشق

ثم توجّهنا من دمشق حماها الله إلى مدينة النبي ، أهلّ هلال شوّال ليلة الجمعة عام 684 هـ ، وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحَصَا[1] ، عصر يوم الإثنين الحادي عشر من شوّال . وعاينّا في ذلك اليوم عند خروج الناس للوادع ما يُسيل الدموع . فبتنا تلك الليلة بالموضع المعروف بالقيسارية على ضفّة النهر ، ورحلتُ سحر اليوم الثاني عشر . ونزلنا منازل بالطريق ، سالكين إلى مدينة بُصْرى ، وهي مدينة حوران . وضبطُ هذا الاسم بضمّ أوله وإسكان ثانيه ، وفيه يقول المُتلمّس :

لم تدرِ بُصْرى بما آلَيْتُ من قَسَم ولا دمشقُ إذا دِيْسَ الكَراديسُ

أراد دِيسَ زَرعُ الكراديس ، وهو موضع بدمشق ، وفيها يقول أيضاً :

فبيدُ المشاني والمشارفُ دونَهُ فروضةُ بُصرى أعرضتْ فسيلُها

ورأيتُ بلداً مُحكم الأسوار قديم الآثار ، أبواب دُوره من منحوت الأحجار . . . ولم نلق بها أحداً من العلماء ، ومنها يتزوّد الناس بالماء إلى الموضع المعروف بوادي الأزرق . ولقينا هناك الشيخين الفاضلين عفيف الدين عبد الرحيم بن بدر الدين الزجّاج وابن أخيه أبا القاسم ، قدما من بغداد .

(مَلء العيبة ، جزء 5 ، مخطوطة الإسكوريال)

---

(1) مَيدان الحصا هو المعروف في أيامنا اختصاراً وتحديداً بحي الميدان ، وهو من أحياء دمشق الجنوبية ، على الطريق السلطاني المتّجه إلى الحجاز وفلسطين ومصر . كان مُبتدأ أمره تجمعاً سكنياً صغيراً نشأ في أيام الفاطميين وعُرف بالقُبيبات لقيام دُور صغيرة ذات قباب طينية ، على النّسق الموجود إلى يومنا في الشمال بمحافظتي حلب وإدلب . ثم نما الحي في عهد المماليك والعثمانيين إلى : الميدان التحتاني والوسطاني والفوقاني ، بأحياء وأزقة كثيرة (منها السّلطاني والقُرَشي وأبو حَبل والثريّا والقاعة والجزماتية والحَقلة) . وغَدَت للميدان أصوله الخاصّة في التراث الشعبي الدمشقي وتنافس مع حي الشاغور ، وتباهى أهله بكرمهم ونخوتهم و«عزيمتهم الميدانيّة» . تعود أصول سكّان الميدان إلى الأرياف الشاميّة عموماً ، ومنهم من ورد من بلدان المغرب العربي والعراق وسواها . وظهر منهم في العهد العثماني فئة من طبقة الأغوات ، كآل العابد وسكّر والمهايني .

نعل الرسول بدمشق

ونقل المقّري عن الرحلة فقال :

وقال ابن رُشيد في «مَلء العَيْبة» عند ذكره المدرسة الأشرفيّة[1] وأنها إحدى المدارس الحافلة ، مع علوّ ساحتها وتشديد بنيانها وإتقان أبوابها ، ما نصّه :

وبها إحدى نعليّ النبي صلّى الله عليه وسلم ، فقصدتُها للتبرّك بها والشفاء من مرض أصابني ، فوجدتُ بركتها . وهذه المدرسة ابتُني في قبلتها بيتان : أحدهما عن يمين المحراب ، وُضع فيها نسخٌ من المصاحف ، والآخر عن يساره فيه النعل الكريمة ، فردة واحدة . وقد وَضع لهذا البيت بابٌ مصفّح بالنحاس الأصفر كأنه صفايح ذهب ، وعُلّقَ عليه كِلَلُ حرير ثلاث : خضراء وحمراء وصفراء ، ووُضعت النّعل الكريمة على كرسي من آبنوس ، ثم وُضع على النّعل لوحٌ من آبنوس ، ونُقر في وسط اللوح بمقدار ما ظهرت النعل الكريمة منخفضة عن اللوح بمقدار النقر . ولا شكّ أنّه بقي منها تحت أطراف اللوح مقدار ما ثُبّتَ به تحت اللوح ، وما أخذته المسامير التي طوّقت به ، فإن الدائر المحيط بها كلّه مُكوكب بمسامير فضّة . ويُملأ ذلك الظاهر منها الذي هو منقور عليه بأنواع الطيب ، حتى إن الذي يلثمها يمرغ فمه من طيبها . فإذا أراد أن يحذو عليها مثالها جاء بكاغد ورق ووضعه على مقدار النقر ، وحزّه بظفره فارتسم مقدارُ النعل مثالاً . وقد وُكِّل بها قيّم ، له عليها مرتّب بلغنا أنه أربعون درهماً ناصريةً ، وأُمر بفتح يوم الإثنين ويوم الخميس للناس يتبرّكون بلثمها .

فاتّفق أني جئتُ إلى الشيخ زين الدين الفارقي شيخ التدريس بها في غير هذين اليومين ، فألفيتُه مريضاً لزيماً للفراش . فتحفّى وأمر الخديم القيّم بفتحها لي ، ففعل . وتمكنتُ من لثمها والتبرّك بها .

---

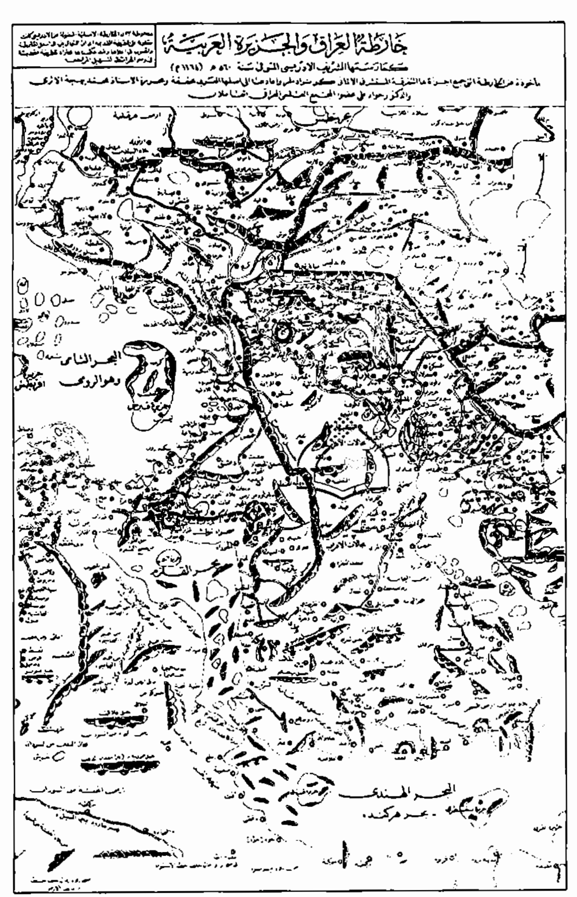
(1) دار الحديث الأشرفيّة الجوّانيّة في محلّة العصرونيّة ، بناها الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل أخي صلاح الدّين الأيوبي عام 630 هـ . كان بها إحدى فردتي نعل الرّسول ، والأخرى في المدرسة الدّماغية شماليها ، فأخذهما تيمورلنك عام 803 هـ .

وكان من قصّة هذه النّعل حسبما أخبرني به صاحبنا المقرئ أبو عبد الله محمد بن علي بن القصّاب في الحادي والعشرين من شعبان المكرّم عام سبعة وسبعين وستّماية . . . أن القدم التي قاس عليها كانت مما تصيّرت لميمونة بنت الحارث الهلاليّة أم المؤمنين مما تركه النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، فتوارثها ورثتُها من بعدها إلى أن حصل بيد بني أبي الحديد . ولم يزالوا يتوارثونه إلى آخرهم موتاً ، فترك ثلاثين ألف درهم وترك ذلك القدم ، وولدين له . فقال أحدهما للآخر : تأخذ المال أو تأخذ القدم ؟ فاصطلحا على أن أخذ أحدهما المال والآخر القدم . فذهب به إلى أرض العجم ، فكان يغدو به على الملوك يتبرّكون به ، حتى رجع إلى بلاد خلاط ، فبعث به إلى الملك الأشرف ابن العادل يتبرّك به ، فطلب منه أن يقطع منه قطعة يتبرّك بها . ثم إن الملك تحرّى عن ذلك ، فطلب منه أن يعوّضه منه قرية ويعطيه إيّاه . وقال له : أنت شيخ كبير فما تصنع به ؟ فأجابه إلى ذلك .

ثم إن الملك الأشرف مَلَكَ الشام ، واستوطن مدينة دمشق ، فابتنى دار الحديث الأشرفية ووقف لها وقفاً كثيراً ، وجعل الجانب القبلي منها مسجداً للصّلاة ، وجعل شرقي محراب المسجد بيتاً لتلك النعل المذكورة . فسمّرها بمسامير فضّة على تابوت من أبنوس ، وجعل له قفلاً من فضّة ، وأرخى عليه ثلاث ستور من حرير أخضر وأحمر وأصفر ، كل سترٍ منها بمال ، وجعل له باباً كبيراً مصفّحاً بالنّحاس ، كأنه الذهب . وجعل عليه فيما رتّب له أربعين درهماً ناصريّة ، مبلغاً ثمانون درهماً من دراهمنا كل شهر ، يفتح في كل يوم اثنين وكل يوم خميس لمن يتبرّك به .

(فتح المتعال في وصف النّعال للمقّري
مخطوطة ڤاروج سلاطيان ، نقلاً عن
المنجّد ، مع المقابلة على طبعة الهند)

* * *



خريطة العراق والجزيرة العربية للشريف الإدريسي

- 48 -

شيخ الرّبوة الدّمشقي

(توفي 727 هـ / 1327 م)

وصفه لدمشق بمطلع القرن الثامن الهجري

شمس الدّين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدّمشقي ، من علماء القرنين السابع والثامن للهجرة . ولد بدمشق عام 654 هـ ، أي قبل سقوط بغداد بيد التّتار بعامين ، فعاصر منذ بداية حياته موجة أحداث حاسمة عصفت بالعالم الإسلامي ، كما تزامن ذلك مع قيام دولة المماليك الأولى (البحرية) في مصر والشام .

أمضى الرّجل معظم حياته بمسقط رأسه دمشق ، وأمّ بمسجد الرّبوة غربي دمشق ، ولاّه عليه نائب الشام آقوش الأفرم (حكم بين 698-709 هـ) وكان يعتقد فيه الفضل بمعرفة علم الكيمياء ، ومن هنا غلب عليه لقب «شيخ الرّبوة» ، كما عُرف بالصّوفي لميوله الصّوفيّة . ويبدو أن هذه الميول هي التي أدّت إلى اعتزاله العالم في أواخر حياته ، فقد أقام ببعض نواحي فلسطين متزهّداً ، وغلب عليه هناك لقب «شيخ حطّين» إلى أن توفّي بصَفَد عام 727 هـ ، أي قبل وفاة الجغرافي أبي الفداء بخمسة أعوام . وكان في أواخر أيامه أصابه صَمَم وفقد إبصار إحدى عينيه ، بانفصال الشبكيّة كما يبدو .

كان شيخ الرّبوة ذكياً فَطناً حلو الحديث متقشّفاً صبوراً على الفقر والوحدة ، ينظم الشّعر ويصنّف في شتّى العلوم لفَرط ذكائه ، وترك عدّة مؤلّفات من أشهرها كتاب «السّياسة في علم الفراسة» ، اشتُهر في حينه .

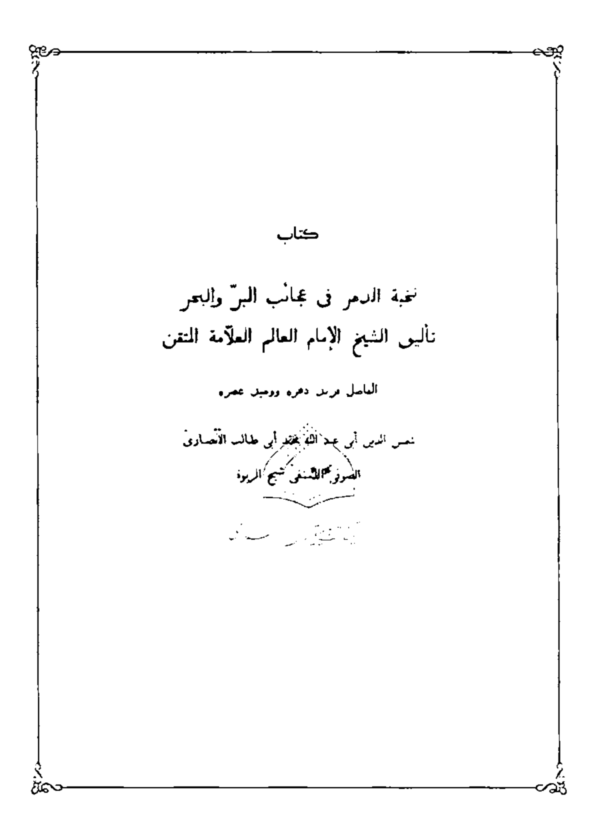
على أن اسم شيخ الرّبوة ارتبط بكتابه الكوزموغرافي الشهير : «نُخبَة الدَّهر في عجائب البرّ والبحر» ، وهو من أثمن الكتب وأغزرها مادّةً . وطريقة تصنيف الكتاب تنطبق على طريقة القزويني بشكل عام في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» ، غير أن بعض المستشرقين اعتبروا شيخ الرّبوة دون القزويني وسواه بكثير ، إلا أنه يفضُل كتاب أبي الفداء من حيث تبويب مادّته . وهو على كل حال يضمّ معلومات غير قليلة نفتقدها في المؤلّفات الأخرى ، وبخاصّة فيما يتعلّق بموطنيه الشام وفلسطين ، ويُعدّ كتابه مصدراً أساسياً لجغرافيتهما وتاريخهما ، وبالتالي فهو من أكمل وأضبط ما عُرف في هذا الصّدد .

ووصف دمشق وضواحيها وأنهارها ومسجدها يحتلّ أهميّة خاصّة بين ما كُتب عن المدينة في عصر شيخ الرّبوة بمطلع القرن الثامن للهجرة ، وذلك قُبيل قيام النّهضة العمرانية والمعمارية العظيمة التي شهدتها دمشق المملوكيّة في ذلك القرن ، وبخاصّة في عهد نائبها تنكز 712-740 هـ بأيام السّلطان الملك النّاصر محمد ابن قَلاوون . ومن أجلّ تفاصيل نصّه تعداده النّادر لكُوَر دمشق ووصفه الدّقيق لصناعة تقطير الورد بها ، وانفراده بذكر هُوّة الشّير منصور بالزّبداني .

قام بنشر كتاب «نُخبَة الدّهر» المستشرق الدّانيماركي ميْرن A. Mehren عام 1866 م في سان بطرسبورغ ، كما صدرت له طبعة أخرى عام 1886 م . ثم أعيد طبعه في دار أوتو هاراسوڤيتس بلايبتسيك عام 1923 بتحقيق مِيْرن أيضاً مع ترجمة فرنسية . وعن هذه الطبعة أخذتُ النّص المتعلّق بدمشق .

المصادر :

نُخبة الدّهر لشيخ الرّبوة ، مقدّمة مِيْرن بالفرنسية .
الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، 3 : 458 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 386 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 202 .



كتاب

نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر

تأليف الشيخ الإمام العالم العلّامة المتقن

الفاضل فريد دهره ووحيد عصره

شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري

الصوفي الدمشقي شيخ الربوة

عنوان طبعة لايبتسيك عام 1923 بتحقيق مِيرن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور [1] وأوحى في كل سماء أمرها [2] وأدار الفلك الدوّار وفرش الأرض مهادًا وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كلّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهارَ وبثّ فيها من كلّ دابّة وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها رزقًا للإنسان ومتاعا للحيوان وجعل فيها قطعًا متجاورات وجنّات من أعناب وزرعا ونخيلا صنوان وغير صنوان [3] وصلّى الله على سيّدنا محمّد المبعوث إلى كافّة البريّة أحمرها وأسودها وأعجامها وأعرابها والذي بلغ ملك أمّته ما زُوِيَ له من مشارق الأرض ومغاربها وأطلع ليلة الإسراء على ملكوت السموات والأرض وأملاكها وعجائبها وعلى آله البررة الكرام الطيّبين الأطهار وعلى أصحابه الهادين المهديّين المقتدى بهديهم في السرّ والإجهار وسلّم تسليمًا كثيرًا وبعد فهذا كتاب سمّيته نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر يشتمل على العلم بهيئة الأرض وأقاليمها وتناسبها واختلاف القدماء في ذلك وعلاماتها ومعمورها من البحار المتّصلة والمنفصلة والجزائر والجبال والأنهار والمدارات [4] والآجام العظيمة والعيون [5] والممالك ومسالكها والأمصار الكبار ورساتيقها والآثار القديمة والعمائر العظيمة والعيون والآبار والينابيع العجيبة

1) Voyez le Koran Sour. VI v. 1. 2) V. Sour. XLI v. 11. 3) Les derniers passages sont de même empruntés au Koran Sour. LXXVIII v. 6, XIII v. 3—4, II v. 159, XLI v. 9. 4) والمدارات omis dans les manuscrits de St.-Petersb. et de Leyde; celui de Londres a البحيرات 5) العظيمة والعيون om. dans les manuscrits de St.-Petersb., de Leyde et de Londres.

نموذج عن طبعة لايبتسيك عام 1923 بتحقيق ميرن

الفصل التاسع

في وصف فلسطين والأردن

وإلى حدود ساحل البحر الرومي بالشام

قالوا : سُمّي الشامُ شاماً لشامات في أرضه بيض وسُود ، ولأنه في جهة الشمال من جزيرة العرب ، أو لأن ساماً بن نُوح نزل فيه ، وإنما أُبدلت السين شيناً للتفاؤل .

وحَدُّه الأول طولاً من مَلَطية وإلى العَريش ، ومسافته سبعة وعشرون يوماً ، وعرضه الأعرض من مَنْبِج وإلى طَرْسُوس . وكان مقسوماً في أيام الرُّوم بأربعة أقسام : قسم قصبته دمشق ، وقسم قصبته طَبَريّة وتُسمّى الأردنّ ، وقسم قصبته حمص ، وقسم قصبته إيليا وتُسمّى فلسطين . وكان لهم في كلّ عمل بطريق من البَطارقة يحفظه . فلمّا جاء الإسلام وأراد أبو بكر الصدّيق - رضي الله عنه - أن يفتح الشام بعث إلى كل عمل جُنداً وأمّرَ عليهم أميراً ، فبعث إلى حمص أبا عُبيدة بن الجرّاح ، وإلى دمشق يَزيد بن أبي سُفيان ، وإلى الأردنّ شُرحبيل ابن حَسنة ، وإلى فلسطين عَمْرواً بن العاص وعَلقَمَة بن مُحرز ، وأمره إذا فرغ منها بترك علقمة بفلسطين ، فتركه وسار إلى مصر .

وسُمّيت هذه الأعمال يومئذ أجناداً ، وكانت قنّسرين مُضافة إلى حمص ، إلى أن ولي معاوية بن أبي سُفيان الخلافة ، فقصده أهل العراق فأتوا عليّاً فأنزلهم قنّسرين والعواصم والثّغور وصيّرها جُنداً وأفردها عن حمص . وبقي الأمر على هذا إلى أن ولي الرّشيد الخلافة ، فأفرد العواصم والثّغور وجعلها جُنداً واحداً ، وذلك في سنة سبعين وماية . فصار الشام مقسوماً إلى ستّة أجناد ، ثم قُسّم الشام في الدّولة التّركية[1] إلى تسعة أقسام ، منها قسم ملكوه التّتار والأرمن والرّوم ، وانفصل عن الشام وسُمّي رُوماً .

(نُخبة الدّهر ، ص 192)

---

(1) المقصود بالدّولة التركية دولة المماليك البحرية الذين كان أكثرهم من التُّرك .

دمشق

والقسم الأول من الثّمانية وبه دار الإمارة الكبرى في عصرنا دمشق ، وتُسمّى جلّق الخضراء والغُوطة وذات العماد ، وهي مدينة عاديّة أزليّة سهليّة جبليّة من أنزه بلاد الأرض وأطيبها وأحسنها وأبهجها . وبها الجامع المُتفرّق الحُسن والجمال والكمال ومن أعاجيب الدّنيا ، تُوقَد فيه في ليلة النّصف من شعبان اثنا عشر ألف قنديل بخمسين قنطاراً دمشقية زيت الزّيتون ، غير ما يوقَد بالمدارس والمساجد والتُّرَب والخَوانق والرُّبط والمارستانات . وترخيم حيطانه من أعجب شيء يراه الإنسان ، والرّخام في سائر حيطانه ، وفوق الرّخام تفصيص بشبك الزّجاج المصبوغ والمذهّب والمفضّض وعُروق اللؤلؤ ما هو ملء الجامع من داخل حيطانه .

وسائره منقوش بتلك الأصباغ على صور الأشجار والمُدن والحصون والبحار وكل ما أمكن تصويره من غير المُحرّم منه . ويُقال إن عُمَر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة قال : لو علمتُ أنّ هذا الفُسَيْفساء يردّ ما أُنفق عليه قلعتُه . والمنفوق على زخرفته في أيام سُليمان بن عبد الملك بن مَروان أربعون صندوقاً من الذّهب الأحمر ، غير الرّخام والبناء القديم .

وسعة الجامع طولاً من المشرق إلى المغرب مائتان واثنان وثمانون ذراعاً ، وعرضه مائتان وعشرة أذرع . وعلى سطحه الرّصاص ألواح مفروشة بدلاً من الطّين ، كلّ لوح نحو من نصف قنطار دمشقي إلى ما دونه . ومن خصائصه أنه لا يوجد فيه عنكبوت أصلاً ، لا في سقوفه ولا في حيطانه ، ولا يفرّخ فيه عصفور مع كثرته فيه ولا يعشّش فيه ، ولا يوجد فيه وَزَغَة . وشُهرته تُغني عن وصفه .

ودمشق مقسومة ثلاث قسمات : قسم مَبثوث العمارة في غوطتها ، لو جُمع لكان مدينة عظيمة ما بين جَواسق وقُصور وقاعات وإسطبلات وطواحين وحَمّامات وأسواق ومدارس وتُرَب وجوامع ومساجد ومشاهد ، غير القُرى والضّياع الأمّهات ، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد بغيرها أصلاً .

والقسم الثاني : تحت الأرض منها مدينة أخرى من مُتصرّفات المياه والقنيّ وجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلّها ، حتى لو حفر الإنسان أين ما حفر من أرضها وجد مجاري الماء تحته مشتبكة طبقاتٍ يُمنةً ويُسرة ، شيئاً فوق شيء .

والقسم الثالث : مُسَوّرها وما فيه وحوله من المعمور . وكأنّما هي في وصفها طائرٌ أبيض في مرج أخضر يترشّف ما يصل إليه من الماء أوّلاً فأوّلاً .

ومن خصائص دمشق أيضاً أن الحيّات لا تلدغ داخل سُورها أبداً ، وهنّ قليلات الوجود فيها وفي غوطتها ونواحي أرضها .

وعدد بساتينها ماية ألف وأحد وعشرون ألف بستان تُسقى بماء واحد يأتي إليها من أرض الزّبداني . ومن وادي بَرَدا عين تنحدر من أوّل الوادي ومن عين الفيْجة ، وينبعث نهراً واحداً يُسمّى بَرَدا ، ثم يتفرّق سبع فرقات ، كل فرقة نهر يُسمّى باسم . منهم : نهر يزيد : فتحه يزيد بن معاوية فسُمّي به . ونهر ثُورَة : فتحه ملك من ملوك الرّوم اسمه ثُورة فسُمّي باسمه . ونهر بانياس : فتحه بلنياس الحكيم اليوناني فسُمّي باسمه . ونهر القنوات ، وكلاهما[1] يجريان إلى داخل المدينة ويتفرّقان في المصارف والبِرَك والقنيّ والحمّامات والطهارات . ونهر مزّة : منسوب إلى قرية تُسمّى المزّة ، وكان اسمها المُنَزَّه لما بها من صحّة الهواء وصفاء الماء وحُسن القصور وطيبة الثّمار وكثرة الزّهور والورد واستخراج الماء منه ، حتى أن حُراقته تُلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقّتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ، ويكون ألذّ من المسك إلى مدّة انقضاء الورد[2] .

ثم نهر داريّا سادس النّهور ، وهو أرفعها مجرىً وأبعدها مقسماً . وداريّا قرية عظيمة المُغل والأرض ، وبها قبر أبي مُسْلم الخولاني وقبر أبي سُليمان الدّاراني .

---

(1) يريد بذلك نهري بانياس والقنوات اللذين يجريان بداخل دمشق القديمة ضمن السّور .
(2) يذكر المؤلف هنا صفة تقطير ماء الورد بدمشق ، لكنني أؤخّر ذلك إلى ختام النص .

ومّا ورّخه المؤرّخون في سنة تسع وتسعين وستماية[1] أن الزُرّاع زرعوا المباطخ بغرارتين ونصف بزر بطّيخ أصفر ، ثم أصابه البرد فأهلكه ، فاستأنفوا زرعه بمثله بزراً . وحضر ذلك مُشدّ الشام بَلَبان[2] الجوكندار الذي كان نائب قلعة صَفَد ، أخبر به ووُرّخ عنه .

وسابع النهور نهر البَرَدا الجاري في قرارة الوادي ، ولا يقبل إلا الارتفاع من مجراه ، منه تقسّمت الأنهار المذكورة . ثم ينقسم من هذه الأنهار فرق وجداول وتتفرّق متشعّبة بأراضي الغوطة ، حتى لا يبقى منها بقعة يمكن وصول الماء إليها إلا ويصل ويركبها سقياً لها بحساب وتسقيط معلوم في الليل والنهار بساعات معلومة لا تزيد ولا تنقص . ثم يخرج عمود بعد ذلك وينبعث في جهة الشرق ويسقي قرايا وضياعاً وأراضي مَرْجيّة وصحراويّة ، حتى يصب آخره في بحيرة شرقي دمشق بأرض عَذراء ينبُت بها القصب .

وهذه البحيرة[3] يصبّ فيها نهر آخر يُسمّى الأعوج ، يجتمع عند تحلّل الثّلج ومن عُصارات المياه والمواصي فيكون نهراً كبيراً .

(نُخبة الدّهر ، ص 193-198)

* * *

(1) يدلّ هذا التاريخ أن تأليف شيخ الربوة لكتابه نُخبة الدّهر إنما كان في مطلع القرن الثامن بُعيد عام 700 هـ ، فهو يذكر سنة 699 هـ كتاريخ مضى لا ينطبق على أيامه .

(2) في المطبوع : بلُبنان ، تصحيف . وترجمه ابن حجر في الدّرر الكامنة ، 1 : 493 : بَلَبان الجوكَندار : كان من المماليك القدماء ، ثم ترقّى إلى أن ولي نائب صَفَد سنة 699 ، ثم ولي نيابة قلعة دمشق وشدّ الدّواوين بها قبل ذلك ، ثم نيابة حمص ومات بها سنة 706 .

(3) هذا غلط نستغربه من شيخ الرّبوة العارف بطبوغرافية دمشق فالمعروف أن نهر بردى يصبّ في بحيرة العتَيْبة أما الأعوج ففي بحيرة المَرج (الهيجانة) ، وليستا بحيرة واحدة !

[أقاليم دمشق]

ومن الأقاليم والكُوَر والأحواز والرَّساتيق لدمشق تسعون إقليماً ، وهي بالغُوطَة : إقليم داريّا وإقليم بيت لَهيَا وإقليم المزّة وإقليم الزنّار وإقليم بَرْزة وإقليم الغُوطَة وإقليم المَرج وإقليم الجَبْهة وإقليم سَنير وإقليم لُبنان وإقليم القران .

وحول ذلك : وادي التَّيم وجُبّة عسال وقارَى والنَّبك والقُطَيْفَة وصَدَد ومهين ووادي بَرَدا والكفور والصَّحرا وبيت جَنّا[1] والعجر[2] والجولان وعَقْرَبا والجَيْدُور حول ذلك . ونَوَى والشَّعرا من اللّجاة ، والسَّماوَة وبوارِش وبقاع العَزيز وبقاع بعلبك[3] . وبأذيال لُبنان مدينة كامد[4] ، وهو عَمَل من أعمال بعلبك ، وكسروان من عَمَل بعلبك ، والجُرد والبصّة وجبل الصنّين .

ومن أعمال دمشق أيضاً شُوف الميادنة[5] وشُوف العدسي وشُوف الخنطي وشُوف الخَرّوب وشُوف الشُّوْمَر وإقليم التفّاح وإقليم العَيْشيّة وجبل الظَنّيّة وجبل عاملة وجبل البَقيْعة من صَفَد . وحصن الصُّبَيْبَة من عَمَل دمشق ، وجواره مدينة بانياس ، ومدينة زرع ومدينة أذرعات ومدينة بُصرى ومدينة حَوْران وقلعة صَرْخَد ، والبَثَنيّة من عَمَل أذرعات ، ومدينة عمّان وعَمَلها البَلقاء ، ومدينة مرِد وعَمَلها السَّواد ، وإقليم جَرَش ومدينة عَجلون ، وإقليم بيت رأس وإقليم سُوسْيا ، وإقليم سامرة ومدينته نابلس[6] . وإقليم فِحْل والغَور الأعلى والقَصير ومدينة بَيْسان . والغَور مقسّم ثلاثة أقسام : الأعلى هذا ، والأوسط غَور حمقا وأريحا ، والأسفل غَور زغر ومدينة زغر .

---

(1) يعني بلدة «بيت جَن» في اللحوف الشمالية لجبل الشيخ ، وهذا الصحيح في نُطق الاسم الآرامي ܒܝܬ ܓܢܐ الذي يعني : موضع البساتين والرياض (جمع ܓܢܬܐ) .

(2) كذا بالأصل ولعلها مصحّفة عن : العَجَم ، أي إقليم وادي العَجَم جنوب غربي دمشق . وهو الذي تقع به بلدة قطنا المعروفة ، وما يليها جنوباً .

(3) بعد ذلك تتمّات حول ما في بعلبك من آثار ، تشوّش انسياب النصّ فاطّرحناها .

(4) هي بلدة كامد اللّوز المعروفة في البقاع تتبع جب جنين .

(5) ننقل الفقرات هنا أيضاً باختصار ، لاستخلاص أسماء الأقاليم دون تشويش المعنى .

(6) يفصّل شيخ الربّوة هنا بذكر نابلس وأهميتها التجارية ، لكنني أسقطتُ ذلك .

ومن أعمال دمشق أيضاً كُورَة بيت جبْريل وكُوْرة عَمْواس وكُورة بني عطيّة وبلد الخَليل ، وغَور مدينة عَمّتا وغَور دامية ، ومدينة السَّلط ولها عَمَل كبير كالزَّرْقا والصَّويت وجبل بني عوف وجبل بني هلال .

ومن أعمال دمشق وجُندها أيضاً البيت المقدّس بمدينة القُدس ، وأرضها الأرض المقدّسة المُبارك حولها ، وحدود الأرض المقدّسة طولاً من أذيال جبل السّنير - وهو جبل الثّلج - شمالاً عند مرج عيون وإلى آخر جبل الخليل عليه السّلام وأوّل التِّيْه ، وعرضها من الأردنّ إلى البحر الرّومي غرباً . ومن مدن الأرض المقدّسة مدينة الرَّمْلة ولُدّ ، ومن المدن أيضاً مدينة سَبَسْطيَة ومنها طالوت وكذلك عين جالود واسمها عين جالُوت .

ولدمشق أيضاً من المدن السّاحلية بَيْرُوت وصَيْدا ، ثم مدينة عَسْقَلان وقَيْسارِيّة ويافا . وممّا حول القُدس بيت لَحم وبيت جالا وما معهما . ومن جهة قبلة دمشق حَبْراص وعملها ، والسُّويدا وحسبان . ومن مدنها التي في جهة المشرق الرَّحبة الفُراتيّة وعُرْض[1] وتَدْمُر والسُّخْنة[2] .

(نُخبة الدّهر ، ص 198-202)

* * *

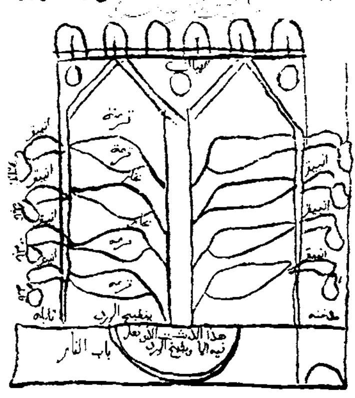
(1) يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان (4 : 103) : عُرْض بُلَيْد في بَرّيّة الشّام يدخل في أعمال حلب الآن ، وهو بين تَدْمُر والرُّصافة الهشاميّة .

(2) نذكّر أننا ننقل هنا باختصار ، لاستخلاص أسماء الأقاليم والكُوَر والأحواز والرّساتيق والمدن التابعة لدمشق بغير أوصاف أو تفاصيل .

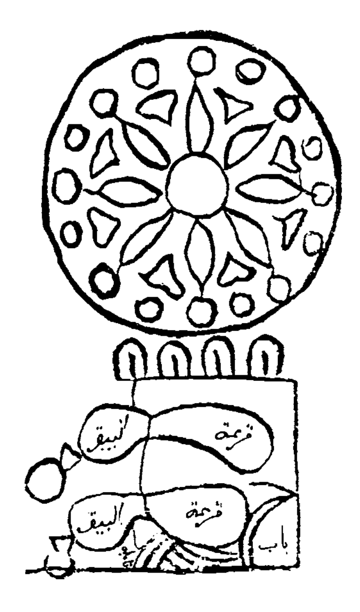
[تقطير ماء الورد بدمشق]

وصفة إخراجه في الكَرَكـات : وهـو أن البنّـائين يحفـرون في الأرض حفـيرة قدر ذراعين ونصف في مثلها ، ويعقـدون عليها بـالطوب أزَجـاً لـه بـاب مـن جهـة ومُتنفّس للهـواء مـن جهـة ، ولـه منفس مـن أعـلاه يصعـد منه بعـض بُخـار ، ثـم يضعون دستاً كبيراً فوق الأزَج ويوقدون تحته بجزل الحطب ، ويبنون على الدّست طـاراً كصـورة خزانـة الحمّام ارتفاعـه نحـو نصـف ذراع ، ثـم يرصّـون فوقـه مـن القصب الفارسي الحيّ القويّ الغليظ شـباكاً مُحكماً ، ثـم يضعـون فـوق القصب المشتبك القرعيّات الزّجاج ويجعلون حُلوقها وأفواهها إلى خارج .

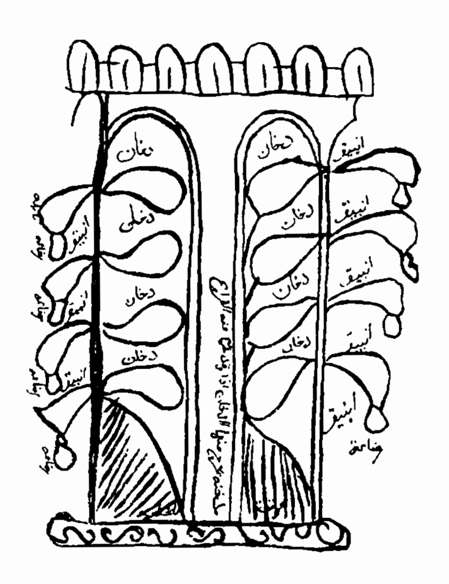
فإذا أداروهـا دوراً وكمـل دورهـا بنـوا علـى الطّـار مثلـه مرقّعـين فيـه إلـى أن يرتفع نحواً من أربعـ[ـة] أصابع مطبوقة ، ثم يرصّون قصباً فارسياً ثانياً ثم قرعيّـات كذلك ، ثم يبنون عليها فوق الطّار مرقّعين البناء كذلك إلى أن يشرف البناء على طول قامة الإنسان ونصف قامته ، ساقاً قرعيّات وساقاً قصباً شباكاً . ويكون في الوسط قـد أقاموا عموداً من الخشب قائماً من وسـط الدّسـت إلـى أعلـى البنـاء مسـقوف عليه سقفٌ قبّته كهذه الهيئة ، فاعلم ذلك إن شاء الله تعالى وبه التوفيق .



ثم يعلّقون القوابـل ، وتُسمّى الرَّضّاعـات ، وذلـك بعـد حشـو القِـراع مـن الورد أو مثله ممّا يُستخرج ماؤه . كلّما مُلئت رَضّاعة فرغت في وعـاء كبـير زجاج يُسمّى قرابة ، أو في وعاء كبير من نحاس يُقال له قُمْقُم :



وغير هذه الكَرَكة كَرَكة أخرى يُستخرج منها الماورد وغيره من المياه بـلا مـاء بوقود الحطب ، وذلك بعد حشو القراع بالورد وبلسان الثّور وبزهر النَّوفر أو البـان أو زهـر النّـارنج والشّـقيق والهندبا ، أو بـورق القُرُنْفُـل المزروع بدمشـق ، وهـذه صورتها ، فافهم ذلك إن شاء الله تعالى وبه التوفيق وهو حسبُنا ونعم الوكيل .



وهو أنهم يبنون أزَجاً أتوناً موقداً مجموعاً في صورة بئر مقلوبة ، يصعد فيه اللهب والدّخان كالمدخنة ، ويحيطون عليه بسور مبني مثله كهيئة الدائرتين ، ثم يضعون القِراع المزجّجة بين السّور وبين البئر ، أسفلهنّ إلى البئر وحلوقهنّ خارجات من السّور . ويبخشون بين القَرعيّات في البئر أبخاشاً يخرج منهن الحمو والدّخان ، ويدور تحت القرعيّات فيحمين بهنّ بمقدار الحاجة .

ثم يرفعون البناء من البئر والسّور والقِراع أبداً كذلك ، بمقدار أن يكون البناء أزيد من قامة إنسان ، ثم يسقفون ما بين البئر والسّور ويضيّقون رأس البئر الذي هو المدخنة ويوقدون بالحطب الجزل دون غيره .

وأما الذي يخرج من الماء البيتوني فإنه في تنّور الورد وفي المقلى الرّصاص مبني مثل البرج الصغير طبقتين : الأولى فيها نار الفحم الدّقّ وغيره والحطب الجزل ، والثانية للحطب من فوقه ، وهي مبخّشة لصعود الدّخان منها والحرارة إلى القِراع ، وهو من الأربعة إلى الثلاثة فما دونها .

وأما المقلى الرّصاص فإنه يُتخذ شبكاً في قوالب من تُراب ، فإذا جُعل فيها كان كهذه الصّورة :



ويُسمّونه اليونان أثال(1) ، وله غطاء وهو إنبيقه ، وقد يكون الغطاء زجاجاً وقد يكون رصاصاً . فإذا حرّروا عمله جعلوا تحته فرشاً من الملح والطوب ، ثم يوقدون النّار من تحت ذلك فيقطر ماؤه معتدلاً حسن اللون والنّضج والرّائحة .

وأما الزّجاج الحكمي فإنه من آلات اليونان وأهل الحكمة ، والاستقطار فيه لا يكون إلا ببُخار الماء المغلي تحته . وهذه صورة مثاله كما ترى :



---

(1) لم نجدها في اليونانية لا بلفظ : αθαλ ولا ατaλ .

ويُحمل الورد المُستخرج بالمزّة إلى سائر البلاد الجنوبيّة[1] ، كالحجاز وما وراء ذلك ، وكذلك يُحمل الورد المزّي إلى الهند وإلى بلاد السّند وإلى الصّين وإلى وراء ذلك ، ويُسمّى هناك الزّهر[2] .

وممّا أرّخوه أنه كان لقاضي قضاة الحنفيّة[3] ولأخيه الحريري قطعة بأرض تُسمّى «شُوْر الزَّهر» ، طولها ماية وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة ، أباع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين ألف درهم ، وذلك سنة خمس وستين وستّماية . وهذا لم يُسمع بمثله !

(نُخبة الدّهر ، ص 195-198)

* * *

(1) كتب ابن فضل الله العُمَري - الذي يرد نصّه أدناه - في كتابه الشهير «مسالك الأبصار» : «وإلي وردها وبنفسجها النهاية ، حتى أنه عطّل وَرْدُها وما يُستخرج من مائه ما كان يُذكر من جوري نَصيبين . وماء الورد يُنقل إلى غالب البلاد» .

(2) كم يؤلمنا هذا الوصف ، فبعد أن كانت دمشق جنّة الدنيا بطبيعتها وآثارها ورونقها ، صارت اليوم كتلاً قبيحة من سرطان الإسمنت والأسفلت تنفث السّموم وتعكس الحرارة المحرقة . ورحم الله المزّة القديمة وزهرها وماء وردها ، لم يبق من ذلك كله إلا هذه الصفحات . . وداعاً يا دمشق !

(3) هو قاضي القضاة الحنفيّة شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الحَسَن بن عبد الوهاب الأنصاري المعروف بابن الحريري (653-728 هـ) ولي قضاء دمشق سنة 699 هـ . ترجم له ابن كثير في البداية والنهاية ، 14 : 142 ، وابن حجر في الدّرر الكامنة ، 4 : 39 ، وابن طولون في الثّغر البسّام ، 193 . أما رواية شيخ الرّبوة في عام 665 هـ فإما أنها صحيحة أثناء طفولة شمس الدين وكون أخيه أكبر منه سناً ، أو أن تصحيفاً وقع في النسخ ، والله أعلم .

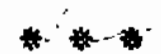
من الفصل الثالث من الباب الثالث
في ذكر الأنهار الجرارة
والعيون والآبار وينابيعها المختلفة

ونهر دمشق ، وسيأتي وصفه عند وصفها[1] .

وانبعاثه من مرج الزّبداني ومن عين الدلّة[2] من فوق الزّبداني ومن عين الفيجة ومن أعين في طول وادي بَرَدا . وأصل عين بَرَدا من تحت جبل في مرج الزّبداني بجنب قرية يقال لها السّفيرة[3] .

وفي هذا الجبل هُوّة عظيمة[4] لم يُعلم لها قرار ، بل يُؤخذ حجر عظيم يحمله رجلان أو ثلاثة فيُلقى في هذه الهُوّة لم يُسمع له حسّ . ومن عجائبه أنه إذا طلع من الهوّة بُخار ، ولو كان في أيام الصيف ، تخرج السُّحُب وتُمطر ، وهذا صحيح مجرَّب .

(نُخبة الدّهر ، ص 114)



---

(1) قدّمنا ذلك أعلاه بوصف دمشق ونهرها .

(2) ما زالت عين الدلّة معروفة بالاسم ذاته شمالي بلدة الزبداني قرب سرغايا ، يجري ماؤها فيحمل اسم (نهر الدلّة) . انظر : الريف السوري لأحمد وصفي زكريا ، 2 : 268 .

(3) لا وجود لقرية فعلية بهذا الاسم في أيامنا ، إلا أن هناك تلاً باسم (تل السّفيرة) جنوب غرب الزبداني ، على الطريق الآخذ إلى نبع بردى .

(4) ينفرد شيخ الربوة بذكر هذه الهوّة العجيبة التي تخلو من ذكرها جميع المصادر الجغرافية والتاريخية القديمة والمعاصرة أيضاً ، وهي ما تزال ماثلة في إحدى ظهرات جبل الشّير منصور ، ويعرف موقعها باسم (ظهر الهوّة) . تبدو كتقب شاقولي مهول عميق جداً (167 متراً حتى قعرها المرئي ، يضاف إليها حوالي 300 متر وصولاً إلى الحوض الجوفي لنبع بردى) . وهذه الهوّة من أعمق الآبار الكارستية الطبيعية في سورية ، تليها في ذلك هوة مضايا (حوالي 300 متر) . وكنا قد قمنا باستكشاف هاتين الهوّتين وزرناهما مراراً في السنوات السبع الماضية مع أصدقائنا في الجمعية الجغرافية السّورية .

من الفصل الرابع من الباب الثالث
في وصف الأعين والمنابع وذكر بقاعها العجيبة
وخواصها وما فيها من العجائب

وبثنيّة العُقاب من أرض دمشق ، بأعلى الثنيّة ، كهف معبد فيه نُقرة منقورة بقدر الطاسة الكبرى ، لا تزال ملآنة ماءً لو أخذ منها ألف رجل دَرّت بما يكفيهم ، وإذا تُركت كان ماؤها واقفاً لا يزيد ولا ينقص . ولا عُمق ولا خَرق فيها سوى أن النُّقرة مملوءة ماءً[1] .

(نُخبة الدّهر ، ص 120)

* * *

(1) هذا الموقع الأثري لا يُعرف في أيامنا ، ولا ذكر له في أي مرجع جغرافي أو أثري . وكنا بحثنا عنه مليّاً أثناء قيامنا بجمع موسوعتنا التي لم ترَ النور بعد «ريف دمشق» ، ما بين 1996 - 2001 ولم نظفر بأيّة نتيجة . وقبلنا كان العلاّمة الباحث الكبير أحمد وصفي زكريّا ذكر في كتابه «الريّف السوري» 1 : 74 : وقد سألتُ أحد معمّري القطيفة وكبيرها في سنة 1930 عن هذه النّقرة فلم يعرفها ولم يسمع بها ، فمن أين أتى شيخ الرّبوة بهذا الخبر ؟

قلتُ : لا نشك بدقة كلام شيخ الرّبوة وصدقه ، لكن أجزم بأنّ الموقع الأثري (المعبد كما يذكره) قد زال واستعملت حجارته لبناء بعض الأبنية الأخرى عبر القرون السبعة التي تفصل بين عصر المؤلّف وعصر زكريّا .

COLLECTIO EDITIONUM RARIORUM ORIENTALIUM

NOVITER IMPRESSARUM

II

ED-DIMICHQUI

NUKHBAT AD DAHR FÎ 'ADSCHÂ'IB AL BARR WAL BAHR

COSMOGRAPHIE

PUBL. PAR

A. Mehren

OTTO HARRASSOWITZ, LEIPZIG

1923

- 49 -

محمد بن عبد الله الحِمْيَري

(توفي غالباً في 727 هـ / 1327 م)

محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الصِّنهاجي الحِمْيَري ، يُكنّى أبا عبد الله ويُعرف بابن عبد المنعم ، من أهل سَبْتَة بالمغرب ، الأستاذ الحافظ . كان صالحاً عابداً كثير الأوراد ، قرأ كبيراً وسنّه تنيف على سبع وعشرين . أخذ ببلده عن عدد من العلماء كالغافقي وابن الشّاط ، وقدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده عندما صارت سَبْتَة إلى إيالة الملوك من بني نَصر عام 705 هـ .

لا يُعرف تاريخ ولادته أو وفاته بالضبط ، يذكر ابن حجر وفاته في 727 هـ ، بينما يزعم حاجي خليفة في «كَشف الظنون» أنه توفي عام 900 هـ ، وهذا غلط بيِّن مردّه ثبوت هذا التاريخ على إحدى نسخ كتاب الحميري ، فظنّه حاجي خليفة تاريخ وفاته . ولأستاذنا د. إحسان عبّاس آراء أخرى بهذا الشأن .

ألّف الحميري معجماً جغرافياً كبيراً سمّاه : «الرّوض المعطار في خَبَر الأقطار» ، ذكر فيه معلومات جغرافية وأخباراً تاريخية . والمستشرق الفرنسي ليفي پروفنسال يذكر أن المؤلف جمع كتابه عام 866 هـ ، بدلالة ما جاء في خاتمة إحدى النّسخ المخطوطة ، وواضح أن هذا خطأ بحسب وفاة المؤلف في حدود عام 727 هـ . وكان القَلقَشَندي المتوفى عام 821 هـ نقل عنه في كتابه «صُبح الأعشى» الذي فرغ من تأليفه عام 814 هـ ، كما أن المَقريزي المتوفى عام 845 هـ اختصره في كتاب سمّاه «جَني الأزهار من الرَّوض المعطار» ، منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم 458 جغرافيا .

وأول من نشر نصاً من «الرّوض المعطار» كان ليڤي پروڤنسال ، الذي انتقى منه ما يتعلّق بمدن الأندلس ، وطبعه مع ترجمة فرنسية ومقدّمة واسعة بعنوان : *La Péninsule Ibérique au Moyen-Age* «شبه جزيرة إيبيريا في القرون الوسطى» ووَسَمه بالعربية بـ «صفة جزيرة الأندلس» ، صدر بالقاهرة عام 1937 .

ثم قام بنشر الكتاب كاملاً أستاذنا الدكتور إحسان عبّاس - رحمه الله - وصدر ببيروت عام 1975 في منشورات مكتبة لبنان .

* * *

أما ما كتبه الحِميَري عن دمشق فقد نقل غالبه عمّن سبقه من الجغرافيين والرّحّالين ، وخاصّة من «نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق» للشّريف الإدريسي ، ومن رحلة ابن جُبير الشهيرة (الذي زار دمشق عام 580 هـ ، في أيام النّاصر صلاح الدّين الأيوبي) . وكان هذا النّقل دون صَوغ أو ترتيب ، بل أردف بعضه ببعض فجاء متناقضاً أحياناً .

غير أن الحمْيَري مع ذلك أتحفنا بفوائد جديدة لم ترد لدى سواه : كتسميته باب توما «باب المُصادمة» ، وتفصيله النّادر جداً بوصف منشآت القصر الأبلق (وهو أقدم مَن وصفه) ، وذكره لدير مُرّان وبقربه قصر ابن طُولون ، وهذا أمر كان يغلط فيه مؤرّخو دمشق بالقرنين السابع والثامن للهجرة (كأبي شامة وابن فضل الله) فيظنّون أن الدّير كان عند المدرسة المُعظّميّة بالسَّفح (بأعلى حيّ بير التّوتة فوق الفواخير بالصالحية) ، وإنما كان هناك دير سمعان . وهذا ما سنتوسّع في بحثه أدناه ، في التعليق على نصّ ابن فضل الله العُمَري .

أما قصر خُمارَوَيْه ابن أحمد ابن طُولون فلم يذكره أحد من مؤرّخي دمشق وبلدانييها ، كالحافظ ابن عساكر (توفي 571 هـ) وعزّ الدّين ابن شدّاد (684 هـ) وابن طولون الصالحي (953 هـ) . فيما نقل ابن تَغْري بَرْدي في «النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة» أن خُمارَوَيْه بنى قصراً بسَفح قاسيون أسفل دير مُرّان يشرب فيه الخَمر ، وفيه ذُبح سنة 282 هـ .

بالإجمال ، يقدّم لنا الحِمْيَري نصّاً فريداً ومعلومات جديدة مهمّة عن دمشق ، بالإضافة إلى قصص ومواد أخرى لا نجدها البتّة لدى سواه . وما وصمه به بعض الباحثين - كأستاذنا الدكتور صلاح الدّين المنجّد - من كون نصّه منقولاً برمّته عن المصادر المعروفة ، لا نرى فيه نصيباً كبيراً من الصحّة .

برغم ذلك كلّه ، لا نستطيع أن نجزم بأن الحِميَري زار دمشق ، كما بيّنا في تعليقاتنا أدناه . لكن بعض ملاحظاته الدّقيقة في وصفها تدلّ على أنه نقل عمّن رآها رأي العين وخَبِرَها بدقّة ، بيد أن مصدره هذا يبقى مجهولاً ، وإن كنتُ أظنّه من بعض رحّالي المغاربة . أو فالاحتمال الآخر الوحيد هو أن يكون نقل عن نسخة أكمل ممّا بين يدينا من «نزهة المُشتاق» للإدريسي (توفي عام 560 هـ) ، فمن خلال مقارنة بسيطة نجد أن الحميري ينقل عبارات هذا الأخير ، ويضيف إليها عبارات وتفاصيل أخرى لاندري مصدرها . أما وصفه الأنيق للقصر الأبلق فما مصدره فيه ، طالما أنه بُني عام 665 هـ بعد وفاة الإدريسي وابن جُبَيْر ؟!

أما فرضيّة الدكتور إحسان عبّاس حول احتمال وقوع وفاة الرّجل بحدود عام 749 هـ في وباء (مَوَتان) ألمّ بالمغرب ، فقد يؤيّدها ما يذكره الحميري أدناه عن إصابة الأموي بحريقين اثنين «فأدركه الحريق مرّتين» ، فأما الحريق الأول فهو بلا مراء الذي وقع عام 461 هـ ، لكن هل يكون الثاني هو حريق عام 740 ؟ وهل كان الحميري حيّاً آنذاك ؟ أستبعد ذلك ، والعلم عند الله وحده .

المصادر :

الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، 4 : 32 .
صفة جزيرة الأندلس ، مقدّمة پروڤنسال بالفرنسية .
الرّوض المعطار للحِميَري ، مقدّمة إحسان عبّاس .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ، 1 : 447 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 294 . وفيه غلط بعصر المؤلف .

كِتَاب

الرَّوْضُ المِعْطَار

في خبر الأقطار

(معجم جغرافي مع مسرد عام)

تأليف

محمد بن عبد المنعم الحميري

حققه

الدكتور إحسان عباس

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت

عنوان كتاب «الرّوض المعطار» بتحقيق أستاذنا الرّاحل إحسان عبّاس

دمشق

هي قاعدة الشّام ودار مُلك بني أُميَّة ، سُمّيت باسم صاحبها الذي بناها ، وهو دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وقيل سُمّيت بدماشق بن نمرود بن كنعان . قال عيّاض : هي بكسر الدّال وفتح الميم ، ومنهم من يكسر الميم . وهي ذات العِماد ، في قول عوف بن خالد وعكرمة وغيرهما ، وقيل غير ذلك .

قال مؤرّخو أخبار العجم : في شهر أيار بنى دمشومش الملك مدينة جلّق ، وهي مدينة دمشق ، وحفر نهرها بردى ونقره في الجبل حتى جرى إلى المدينة . وحُكي أن دمشق كانت دار نوح ، ومن جبل لُبنان كان مبدأ السفينة ، واستوت على الجودي قبل قَرَدَى ؛ ولمّا كثر ولده نزلوا بابل السّواد ، في مُلك نمرود ابن كوش أول ملك كان في الأرض .

وسُور دمشق تُراب ، ولها أربعة أبواب : الباب الغربي وهو باب الجابية ، والباب الجنوبي ويسمى باب توما ويقال له اليوم باب المصادمة[1] ، والباب الشرقي وهو باب الغوطة ، ومن الباب الشرقي دخل خالد بن الوليد ومنه فتح دمشق ، والباب الشمالي هو باب الفراديس ، وهو باب كيسان[2] .

ونهرها يحيط بمدينتها من كل ناحية حتى يلتقي من جهة الغوطة ، وفي باب توما أربعة أنهار : نهر بَرْزَة ونهر ثورا ونهر يزيد ونهر القناة ، وتسير في مدينة دمشق حتى تنتهي إلى باب الفراديس ، مقدار ميل إلى دير مُرّان[3] ، وهي ثلاث ديارات ، وقصر ابن طولون[4] إلى جانبه .

---

(1) بل الباب إلى الشمال الشرقي ، والتسمية غريبة ينفرد بها الحِميري لكنها قد تكون تصحيفاً .
(2) هذا غلط ، فباب كيسان في الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة ، وكان مسدوداً .
(3) بالأصل : عين حرّان ، والصّواب ما أثبتنا . وقوله : 3 ديارات يقدّم جديداً . أما قوله : مقدار ميل فنقلاً عن الإدريسي : باب الفراديس ودير مُرّان يقابله ، بظنّه عند المعظميّة .
(4) إشارة نادرة لقصر خُمارويه بن أحمد بن طولون الذي كان بالدّوّاسة (أعلى حديقة تشرين في أيامنا) ، تحت دير مُرّان (عند قصر تشرين اليوم) ، لا زالت آثار حجارته بادية .

ومما يلي الباب الغربي - وهو باب الجابية - المصلّى ، وتسير من المدينة في بساتين إلى باب صغير وعليه خمس صوامع للرّهبان[1] .

وفي سور دمشق فُتح كالأبواب ، تدخل منها الأنهار إلى المدينة وهي تجري داخل المدينة وتخرق دُورها وأسواقها ، والأسواق كلها مسقفة على هيئة سقوف المسجد الجامع بها ، وأرضها مفروشة .

ومسجد جامعها بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين ، وهو داخل المدينة ، وليس على وجه الأرض مثله بناءً ولا أحسن صنعةً ولا أتقن إحكاماً ولا أبدع منه تلميعاً ، بأنواع الفُصوص المذهبة والآجرّ المحكوك والمرمر المصقول ، فمن جاء من ناحية باب جيرون صعد إليه في درج رخام نحواً من ثلاثين درجة ، ومن قصده من ناحية باب البريد والقبّة الخضراء وباب الفراديس كان مدخله مع الأرض بغير درج . ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت ، ولا يدخله الطائر المعروف بالخُطّاف .

وفيه آثار عجيبة منها الخزّان ، والقبّة التي فوق المحراب عند المقصورة ، يقال إنها من بناء الصابئة ، وكان مصلاّهم بها ، ثم صار في أيدي اليونانيين فكانوا يعظّمون فيه دينهم . ثم صار بعدهم لعبّاد الأوثان ، فكان موضعاً لأصنامهم . ثم انتقل إلى اليهود ، فقُتل في ذلك الزمان يحيى بن زكريا فنُصب رأسه على باب المسجد المسمّى بباب جيرون ، ثم تغلّب عليه النّصارى فحولّته بَيْعَةً يُقيمون بها دينهم .

ثم افتتحها المسلمون فاتّخذوه جامعاً ، فلما كان في أيام الوليد بن عبد الملك ابن مروان جعل أرضه رُخاماً ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً ، ومحرابه مُذهباً وسائر حيطانه مرصّعة بأشباه الجوهر ، والسّقف كله مكتّب بأحسن صنعة وأبدع تنميق . وأُنفق في هذا المسجد خَرَاج الشّام كلّه سنتين .

---

(1) أظنّه يريد الأديرة والكنائس التي كانت خارج السّور بظاهر الباب الشرقي وباب كيسان ، وما يليها من جهة المقابر المسيحية ، أي في عصرنا تجاه الطبّالة والدّويلعة .

وكان بعث إلى ملك الرُّوم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألف صانع من جميع بلاده ، وتقدّم إليه بالوعيد في ذلك إن توقّف عنه ، فامتثل أمره مُذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك .

فشرع في بنائه وبلغ الغاية في التأنّق فيه ، وأُنزلت جدره كلها بفُصوص الفُسَيْفساء وخُلطت بأنواع من الأصبغة الغريبة ، وقد مُثّلت أشجاراً وفُرّعت أغصاناً منظومة بالفُصوص ببدائع من الأصبغة الغريبة ، فجاء يُعشي العيون وَمِيضاً . وكان مبلغُ النّفقة حسبما ذكره ابن المعلّى الأسدي في بنيانه أربعمائة صندوق ، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار .

والوليد هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النّصارى وأدخلها فيه ، لأنه كان قسمين : قسماً للمسلمين وقسماً للنّصارى ، وهو الغربي ، لأن أبا عبيدة ابن الجرّاح رضي الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية ، فانتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصُّلح بينه وبين النّصارى ، ودخل خالد ابن الوليد رضي الله عنه عَنْوةً من الجهة الشرقية وانتهى إلى النّصف الثاني ، وهو الشرقي ، فاختاره المسلمون وصيّروه مسجداً .

وبقي النّصف المصالح عليه ، وهو الغربي ، كنيسة بأيدي النّصارى ، إلى أن عوّضهم منه الوليد ، فأبوا ذلك ، فانتزعه من أيديهم قَسرا وطلع لهدّه بنفسه ، وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يجنّ ، فبادر الوليد وقال : أنا أول من يجنّ في الله تعالى ، وبدأ بالهدم بيده فبادر المسلمون هدمه . واستعدَوا عُمَر ابن عبد العزيز رضي الله عنه أيام خلافته ، وأخرجوا العهود التي بأيديهم من الصحابة رضي الله عنهم في إبقائه عليهم ، فهمّ بصرفه اليهم فأشفق المسلمون من ذلك ، ثم عوّضهم عن ذلك بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه .

ويقال إن أوّل من وضع جداره القبلي هودُ عليه السّلام ، وفي أثرٍ أنه يُعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

وذَرْعُه في الطول من المشرق إلى المغرب مائتا خطوة ، وهما ثلثمائة ذراع ، وعرضُه من القبلة إلى الشمال مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع ، فيكون تكسيره من المراجع أربعة وعشرين مرجعاً ، وهو تكسير مسجد رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، غير أن الطول في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من القبلة إلى الشمال .

وبلاطاته المتّصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق إلى المغرب ، سعة كل بلاطة ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف ، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً ، منها أربع وخمسون سارية وثماني أرجل جصيّة واثنتان مرخّمة ملتصقة معها في الجدار الذي يلي الصّحن ، وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص الرخام ملوّنة قد نُظمت خواتيم وصُوِّرت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الأوسط ، دَوْر كل رجل منها اثنان وسبعون شبراً .

ويستدير بالصحن بلاط[1] من ثلاث جهات : الشرقية والغربية والشمالية . وسعة الصحن حاشا المُسَقَّف القبلي والشمالي مائة ذراع ، وعدد شمسيّات الجامع الزّجاجية المذهبة الملوّنة أربع وسبعون . وفي الجامع ثلاث مقصورات : مقصورة الصّحابة رضي الله عنهم ، وهي مقصورة مُعاوية رضي الله عنه ، هو أول من وضعها . وبإزاء محرابها باب حديد كان يدخل منه معاوية إلى المقصورة ، وبإزاء محرابها مصلّى أبي الدَّرْداء رضي الله عنه ، وخلفها كانت دار معاوية رضي الله عنه ، وهو اليوم سِماط عظيم للصفّارين بطول جدار الجامع القبلي .

وفي الجامع عدّة زوايا ، يتّخذها الطّلبة للنّسخ والدّرس والانفراد عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق الطلبة . وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون باباً قد علّتها قِسيٌّ جصّية كلها مُخرّمة على شبه الشّمسيات[2] .

---

(1) يقصد بذلك الأروقة المعمّدة portiques الثلاثة ، والتعبير ذاته ورد في نصّ ابن بطّوطة .

(2) هذه الأوصاف تنطبق على الجامع الأموي قبل حريق عام 740 هـ ، وهي طبعاً تختلف عمّا هو قائم بعصرنا ، خاصّة بعد حريق 1893 م المدمّر .

وللجامع ثلاث صوامع[1] : واحدة في الجانب الغربي ، وهي كالبُرج المشيّد ، تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة يسكنها أقوام من الغُرباء أهل الخير ، وبها كان مُعتَكف أبي حامد الغزالي ، [وثانية بالجانب الشرقي] ، وثالثة بالجانب الشمالي . وللجامع مالٌ عظيم من خراجات ومستغلاّت تنيف على الثمانية آلاف دينار في السنة .

وكان هذا الجامع ظاهراً وباطناً منزلاً كلّه بالفصوص المذهبة ، مُزخرفاً بأبدع زخارف البناء ، فأدركه الحريق مرتين[2] فتهدّم وجُدِّد وذهب أكثر رخامه واستحال رونقُه .

ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة ، يتَّقد ذهباً كلّه ، قد قامت في وسطه محاريب صغار ، وفي الركن الشّرقي من المقصورة الحديثة في صفّ المحراب خزانة كبيرة ، فيها مصحف عثمان الذي وجّه به إلى الشّام ، وتُفتح الخزانة كل جمعة إثر الصلاة فيتبرّك الناس بلمسه وتقبيله ، ويكثر الزحام عليه . وهناك مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي ، رضي الله عنهما ، ثم نُقل إلى القاهرة .

وعن يمين الخارج من باب جَيْرون غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صُفْرٌ ، وقد فُتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودُبِّرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النّهار سقطت صنجتان من صُفْرٍ من فمي بازيين مُصوّرين من صُفْرٍ قائمين على طاس صُفْرٍ تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان .

---

(1) المُراد بهذه الصوامع مآذن الأموي الثلاث : الغربية والشرقيّة والشمالية (العروس) ، علماً أن الغربية كما يذكرها المؤلف أعيد بناؤها فيما بعد ، عام 893 هـ بأمر السّلطان قايتباي . سنفصّل في ذكرها بالجزء الثالث عند الحديث عن لوحة سفير البندقيّة .

(2) كانت الأولى عام 461 هـ في قتال بين المصريين والمغاربة بأيام الفاطميين ، راجع نصّ ابن فضل الله العمَري أدناه . أما الثانية فلعلها حريق 562 هـ أو 570 هـ أو 646 هـ أو 681 هـ . لكن أشهر حريق كان عام 740 هـ ، بمحاولة دنيئة قام بها بعض الفرنجة ، راجع خبرها في الجزء الثالث من كتابنا هذا . غير أن المفترض أن الحميري لم يُدرك هذه الحادثة !

ويستدير بالجامع أربع سقايات في كل جانب سقاية ، واحدة منها كالدّار الكبيرة مُحدقة بالبيوت والماء يجري في كل بيت ، وإحدى هذه السّقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها ، فيها من البيوت نيّف على ثلاثين ، والبلد كله سقايات قل ما تخلو سكّة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية .

قالوا : ورأس يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، مدفون بالجامع في البلاط القبلي قبالة الرّكن الأيمن من المقصورة الصحابية ، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة إلى الأسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلّور مجوّف ، كالقدح الكبير .

وفي الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فَرْسَخ منه[1] ، غارٌ مستطيل ضيّق قد بُني عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغُرف المطلّة ، وعليه صَوْمعة عالية ، ومن ذلك الغار رأى إبراهيم الخليل صلّى الله عليه وسلّم الكوكب ثم القمر ثم الشمس ، حسبما ذلك مذكور في الكتاب العزيز ، ذكر ذلك ابن عساكر . وهناك مغارة صلّى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب صلوات الله وسلامه عليهم . ولكل مشهد من تلك المشاهد أوقاف معينة .

وهناك الرّبْوة المباركة التي أوى إليها المسيح عليه السلام وأمّه ، وهناك بيت يقال إنه مصلّى الخضر ، وهذه الرّبْوة رأس بساتين البلد ، ومنها ينقسم الماء على سبعة أنهار ، ولهذه الرّبْوة أوقاف من بساتين وأرض بيضاء .

وبغربي البلد جبّانة تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من قبور الصّحابة والتابعين والأئمة الصالحين ، فمنها قبر أبي الدّرداء وزوجته أم الدّرداء رضي الله عنهما ، وفضالة بن عبيد ، وسهل ابن الحنظلية ، ومعاوية بن أبي سفيان وأخته أم المؤمنين أم حبيبة ، وواثلة بن الأسقع ، وبلال بن رباح مؤذّن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وأُويس القَرَني ، وخُلفاء بني أميّة رضي الله عنهم .

---

(1) يعني بذلك مقام إبراهيم الخليل بقرية برزة شمال شرق دمشق . راجع كتابي : «وصف دمشق في القرن السابع عشر» ، ص 62 .

ولدمشق ثمانية أبواب[1] : باب شرقي ، وهو شرقي [المدينة] وفيه منارة بيضاء يقال إن عيسى عليه السّلام ينزل فيها كما جاء في الأثر أنه ينزل في المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويلي هذا الباب باب توما ، ثم باب السّلامة ، ثم باب الفراديس ، ثم باب الفَرَج ، ثم باب النّصر ، ثم باب الجابية ، ثم باب الصغير .

والأرباض تُطيف بالبلد كله ، إلا من جهة الشرق ، مع ما يتصل بالقبلة يسيراً وله أرباض كثيرة ، والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول . وفي داخل البلد كنيسة لها عند الرُّوم شأن كبير تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي بأيدي الرُّوم لا اعتراض عليهم فيها .

وبالبلد نحو عشرين مدرسة ومارستانان ، أحدهما جاريه في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قَوَمة برسم المرضى والنّفقة التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية ، والأطباء يُبكرون إليه كل يوم ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية . وفيه مجانين معتقلون لهم ما يخصّهم من العلاج ، وهم في سلاسل مُوثقون ، نعوذ بالله من البلاء .

ومن أغرب أحاديثهم أن رجلاً كان يعلّم القرآن ، وكان يقرأ عليه صبيّ من أهل البلد اسمه «نصر الله» ، هام به المعلّم وزاد كَلَفه به حتى اختلّ عقله وأوى إلى المارستان ، واشتهرت علّته وفضيحته بالصبي ، فقيل له : اخرج وعُدْ إلى ما كنت عليه من القرآن ، فقال متماجناً : وأيُّ قراءة بقيت لي ؟ ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى : ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ﴾ . فضُحك منه ، نسأل الله العافية . وما زال هناك حتى مات ، لَطَف الله به .

وأما رباطات الصوفية التي يسمّونها الخوانق فكثيرة ، وهي قصور مزخرفة ، في جميعها الماء يطّرِد . وهناك ديار موقوفة لقراءة كتاب الله تعالى يسكنونها ، ومرافق الغرباء أكثر في البلد من أن تحصى ، لاسيما لحفّاظ كتاب الله تعالى والمنتمين للطّلب .

---

(1) أصل أبواب دمشق سبعة من أيام الرّومان ، زيد عليها 3 : السّلامة والفرج والنّصر .

وبهذه البلدة قلعة يسكنها السّلطان[1] مُنحازة في الجهة الغربية ، وهي بإزاء باب الفَرَج ، وبها جامع السّلطان . وبهذه البلدة قرب مائة حمّام ، وفي أرباضها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها ، وهي أحسن البلاد للغريب لكثرة المرافق ، وأسواقها من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً ولاسيما قيساريّتها .

وأهل دمشق يمشون أمام الجنازة بقرّاء يقرأون القرآن بأصوات شجيّة وتلاحين مُبكية برفيع أصواتهم ، وكلهم يمشون وأيديهم إلى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسّلام على تلك الحالة ، والمحتشم منهم من يسحب أذياله على الأرض شبراً ويضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى . ويستعملون المصافحة إثر الصلوات لاسيما إثر صلاة الصبح وصلاة العصر .

ودمشق جامعة لصنوف المحاسن وضروب الصناعات وأنواع الثياب الحرير كالخزّ والديباج النّفيس ويُتجهّز به إلى جملة الآفاق . وفي داخل دمشق [و] على أوديتها أرحاء كثيرة جداً[2] .

وبها من الحلاوات ما لا يوجد بغيرها ، وأهلها في خصب أبدا . وهي أعزّ البلاد الشّامية وأكملها حسناً .

وكان الوليد فرش داخل المسجد بالرُّخام الأبيض المختّم باللازورد تختيماً متداخلاً من أصل الحلقة ، وحيطان المسجد بالفسيفساء وسقفه لا خشب فيه وهو مذهب كله ، وله ثلاث منارات : المنارة الواحدة التي في مؤخّر المسجد [واثنتان في غربه وشماله ؛ والمسجد] مذهب كله من أعلاه إلى أسفله ذهباً وفسيفساء .

---

(1) لا يعني ذلك أن السّلطان المملوكي كان يقيم بدمشق ، بل ينزل بها أو بالقصر الأبلق (موضع التكيّة اليوم) أو بدار الذّهب (موضع قصر العَظم اليوم) إن زار المدينة (كزيارات السّلطانين الظاهر وقايتباي) . فدمشق لم تكن في عهد المماليك قاعدة للسّلطنة ، ومنذ أن أسّس السّلطان النّاصر صلاح الدّين دولة بني أيوب في عام 570 هـ جعل عاصمتها القاهرة ، وبقيت كذا إلى نهاية عهد الدّولة الأيوبية عام 648 هـ ، وقيام السّلطنة المملوكية في أعقابها . ثم استمرّت أيضاً إلى سقوط الدّولة المملوكية في عام 922-923 هـ .

(2) كنا في بحث «خطط ريف دمشق» اكتشفنا مجموعة من الطواحين تعود لعهد المماليك .

وفي صحن المسجد قُبّة قد أُحكمت صنعتها وأُتقنت أشد الإتقان ، فيها فوّارة من نُحاس محكمة العمل يفور منها الماء ويرتفع نحو القامة ثم ينزل في حوض رخام بديع . ويستدير بهذه القبّة شباك من حديد ، وسطح الفوارة فسيفساء ، فيه صور غزلان وغيرها من الحيوان ، فإذا أشرفتَ على الفوّارة وهي مملوءة ماء رأيتَ منظراً أنيقاً .

وعند الباب الشرقي من المسجد قبّة في أعلاها قناة رصاص ولها أنابيب من نحاس قد أُخرجت من حدود القبّة توقد فيها السُّرُج ، وفي حيطان المسجد قناة للماء ، بأقفال ينزل ماؤها في حياض رخام في وسط كل حوض عمود من نحاس يندفع منه الماء مرتفعاً علواً .

وفي أعلى مسجد دمشق قُبّة خضراء مُشرفة جداً . وجبّانة دمشق في الجنوب منها ، يكون طولها ميلاً في مثله .

* * *

قالوا : ومرّ الوليد بن عبد الملك حين بنى مسجد دمشق برجل ممّن يعمل في المسجد وهو يبكي ، فقال : ماقصّتك ؟ قال :

يا أمير المؤمنين كنتُ رجلاً جمّالاً فلقيني رجل فقال : أتحملني إلى مكان كذا وكذا ؟ ، موضعاً في البرّية ، قلتُ : نعم ، فلمّا حملته وسرنا بعض الطريق التفتَ إليّ فقال لي :

إن بلغنا الموضع الذي ذكرتُه لك وأنا حيّ أُغنيك ، وإن مُتُّ قبل بلوغي إليه فاحملني إلى الموضع الذي أصف لك ، فإنّ ثَمَّ قصراً خراباً ، فإذا بلغته فامكث إلى ضحوة النهار ثم عُدَّ سبع شرافات من القصر ، واحفر تحت السابعة على قدر قامة فإنك ستظهر لك بلاطة فاقلعها فإنك ترى تحتها مغارة فادخلها ، فإنك ترى في المغارة سريرين على أحدهما رجل ميت ، فاجعلني على أحد السريرين ومدّني عليه ، وحمّل جمالك هذه وحمارتك مالاً من المغارة وارجع إلى بلدتك .

قال : فمات في الطريق ، ففعلتُ ما أمرني به ، وكان معي أربعة جمال وحمارة ، فأوسقتها كلها مالاً من المغارة ، وسرتُ بعض الطريق . وكانت معي مخلاة فنسيت أن أملاها من ذلك المال وداخَلني الشَّرَه ، فقلت : لو رجعت فملأت هذه المخلاة . فرجعتُ وتركت الجمال والحمارة في الطريق ، فلم أجد المكان الذي أخذتُ منه المال ، فدرتُ فلم أعرف ، فلما يئستُ رجعتُ إلى الجمال والحمارة فلم أجدها . فجعلت أدور في البرّية أياماً فلم أجد لها أثراً ، فلمّا يئست رجعت إلى دمشق وقد ذهبت الجمال والحمارة فلم أحصل على شيء .

وألجأني الأمر إلى ما ترى يا أمير المؤمنين ، فها أنا أعمل كل يوم في التراب بدرهم ، فكلّما تذكّرتُ بكيت . فقال له الوليد : لم يقسم الله لك في تلك الأموال شيئاً ، وإليّ صارت فبنيتُ بها هذا المسجد .

وفي غربي دمشق لأقل من ميل منها قصر الإمارة[1] ، وهي مدينة مسوّرة ، ولها بابان كبيران ، يسمى أحدهما باب الربّوة والثاني باب حوران ، وبينهما أبواب كثيرة تسمى الخوخات ، وفيها مسجد جامع متقن إلا انه لا يبلغ إتقان مسجد المدينة الكبرى ، وفيها أسواق كثيرة ، وبين قصر الإمارة والمدينة بساتين وأنهار جارية ، وعلى قصر الإمارة قبّة حمراء مشرفة ، ويحيط بقصر الإمارة نهر من جميع جوانبه .

وجبل اللُّكام[2] جبل شاهق لاصق بمدينة دمشق ، وبينهما نهر عليه قنطرة لطيفة ، وهي تسقي بساتين الغوطة . وثنيّة العُقاب على مقربة من مدينة دمشق تسير من الثنيّة في قرى النّصارى حتى تُفضي إلى باب توما .

والخضراء من دمشق كان ينزلها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

---

(1) هذا وصف نادر للغاية للقصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس عام 665 هـ ، في موقع التكيّة السّليمانية في أيامنا . والتفاصيل التي يذكرها فريدة جداً لا نجد مثالها لدى سواه ، حول أبوابه ومسجده وأسواقه وقبّته الحمراء . فعمّن نقل الرّجل هذه الأوصاف كلها ؟!

(2) هذا غلط فاللّكام (الأمانوس) من جبال السّاحل ، والصواب جبل قاسيون المعروف من سلسلة جبال سنير . أما الثنيّة فهي المعروفة بـ«طلوع الثنايا» على طريق حمص .

ومُرابَط أهلِ دمشق بيروت ، وهي مدينة على شاطىء البحر ، وفيها كان أبو الدّرداء رضي الله عنه .

وفُتحت دمشق في زمان عُمَر ، رضي الله عنه ، سنة أربع عشرة ، بعد أن لقيتهم جُموع الرُّوم بمرج الصُّفَّر عند طاحونة المرج فهُزمت الرُّوم . ويقال إن الطاحونة طحنت في ذلك اليوم من دمائهم ، وهرب هِرَقل إلى أنطاكية ثم إلى القسطنطينية[1] .

(الرّوض المعطار ، طبعة بيروت ، 237-241)

* * *

بردى

نهرٌ يُقال له بالفارسيّة بهردان[2] ؛ وهو نهر دمشق ينبعث من جبالها ، فيجتازها فيقسمها ، ويشقّ غُوطَة دمشق ثم يصبّ في البحر . وإيّاه عنى حسّان في قصيدته التي يمدح فيها آل جَفْنة ، يقول فيها :

لله دَرُّ عصابةٍ نادَمْتُهُم ... يوماً بجلّقَ في الزّمان الأوّلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تهرُّ كلابُهُم ... لا يسألون عن السّواد المُقبلِ
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابُهم ... شُمّ الأنوف من الطّراز الأوّلَ
يَسقُون مَن وَرَدَ البَريصَ عليْهُمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيق السَّلْسَلِ

(الرّوض المعطار ، 89)

* * *

---

(1) يلي هذا النصّ أشعار مطوّلة حذفتُها لعدم جدواها .

(2) تسمية غريبة للنهر ينفرد بذكرها الحِميَري . لكن الصحيح أن اسم بردى آرامي القالب والمعنى : حدوا ، النهر البارد ، ومثله نبع البَردُونِه في زحلة ، بالتصغير والجمع .

برزة

مدينة بالشام من عَمَل الغُوطَة ، كان من أهلها رجل صالح وكان أعور ، قال الرّاوي : قلتُ له : «ما سبب ذهاب عينك ؟» . فقال : «أمرٌ عجيب» ، وامتنع أن يُخبرني شهوراً ، ثم حدّثني قال : جاءني وأنا شاب رجلان ، فدفعا إليّ ثمن غرارة قمح وقالا : «اعجن لنا كل يوم رُبعاً ، وأنفق لنا خمسة دراهم في لحم وشيء من الحَلوى» .

فأقاما عندي جُمعة ثم قالا لي : «في قرية بَرْزة وادٍ» ، قلتُ : «نعم» ، فخرجا إليه نصف الليل وأخذاني معهما ونزلا إلى الوادي ، وكانت معهما دابّة محمّلة ، فحَطّا عنها وأخرجا خمس مجامر وأوقدا فيها ناراً وجعلا فيها بخوراً كثيراً ، وأقبلا يعزّمان والحيّات تُقبل إليهما من كل مكان فلا يعرضان إليها ، إلى أن جاءت حيّة نحو ذراع وعيناها تقدان مثل النّار ، فلمّا رأياها استبشرا وقالا : «الحمد لله ، من أجلها جئنا من خُراسان» .

ثم قبضا عليها ، ثم أدخلا في عينيها ميلاً واكتحلا به . فقلتُ لهما : «أكحلاني كما اكتحلتما» ، فقالا : «ما يصلح لك» ، فقلتُ : «لا بُدّ من ذلك» ، قالا : «يا هذا ما لك فائدة فيها» ، فقلتُ : «والله لا زايلتُكما أو تكحّلاني ، أو لأصرخنّ بالوادي حتى يخرج [مَن فيه] فيُؤخذ كل ما معكما» .

فلمّا لم يريا لهما مني مخلصاً قالا : فنُكحّل عينك الواحدة ، فكحّلا عيني اليمنى ، فحين وقع ذلك في عيني نظرتُ إلى الأرض تحتي مثل المرآة ، أنظر تحتها كما تؤدّي المرآة . ثم قالا لي : سِرْ معنا قليلاً ، فسرتُ معهما وهما يُحدّثاني ، حتى إذا بعدنا عن القرية كتّفاني ، ثم أدخل أحدهما إصبعه في عيني فقلعها ورمى بها وتركاني مُلقىً ومَضيا ، فكان آخر العهد بهما . ولم أزل مُكتّفاً إلى الصُّبح ، حتى جاءني نفرٌ من النّاس فحلّوني ، فهذا ما كان من خبر عيني[1] .

(الرّوض المعطار ، 87)

---

(1) رواية الرّجل يصعب تصديقها ، والظاهر أنها من تلفيقات أهل المطالب (الكنوز) .

الغوطة

قيل هي قصبة دمشق ، وقيل هو موضع متّصل بدمشق من جهة باب الفراديس ، جبال ومزارع[1] . وطول الغُوطة مرحلتان في عرض مرحلة ، وبها ضياع كالمُدُن وجامع قريب الشّبه بجامع دمشق[2] . والغُوطَة أشجار وأنهار ومياه مُحدقة تشقّ البساتين ، وبها من أنواع الفواكه ما لا يحيط به تحصيل ، خصباً وطيباً .

وفي الخبر أن مُعاوية رضي الله عنه لمّا رأى القتل في أهل الشام يوم صفّين ، وكلب أهل العراق عليهم ، تجهّم لنُعمان بن جَبَلة التّنوخي ، وكان صاحب راية قومه من تَنوخ وبَهراء ، وقال له : «والله لقد هممتُ أن أولّي قومَك من هو خيرٌ منك مقاماً وأنصح جيباً» . فقال له النُّعمان : «إنّا لو كنا ندعو إلى حيسٍ مجموع لكان في الرّجال بعض الأناة ، فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف قاطعة ورُدينيّة شارعة ، وقوم ذوي بصائر نافذة ؟ والله لقد نصحتُك على نفسي ، وآثرتُ مُلكك على ديني ، وتركتُ لهواك الرّشد وأنا أعرفه ، وحدتُ عن الحقّ وأنا أبصره ، وما وفقتُ لرشدي حين أقاتل عن مُلكك ابن عمّ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وأوّل مؤمن به ومهاجر معه ، لو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرّعيّة ، وأجزل في العطيّة ، ولكن قد بذلنا لك أمراً لا بُدّ من إتمامه ، غيّاً كان أو رَشَداً ، وحاشا أن يكون رَشَداً . وسنقاتل عن تين الغُوطَة وزيتونها إذ حُرمنا ثمار الجنّة وأنهارها» . وخرج إلى قومه وصَمَد للحرب .

---

(1) هذا دليل واضح على أن المؤلف لم يزر دمشق أصلاً ، فكلمة «قيل» أولاً تفيد بذلك صراحة ، ثم قوله إن بالغوطة جبالاً ومزارع يدلّ على أن من مدّه بوصف دمشق كان يجهل طبوغرافية الغوطة ، التي تمتدّ بسهل لُحقي منبسط حتى أكناف البادية . أما إن كان في قوله إشارة إلى أرباض دمشق الشمالية ، من بساتين شرقي الصالحية (أبو جرش في أيامنا) وما والاها كبرزة وحرنة ومَعْرَبا إلى منين والتلّ ، فهذا ممّا لا يدخل في حدود الغوطة أصلاً . ويذكر البدري ، لاحقاً في كتابنا هذا ، أن بساتين شرقي الصالحية كانت تُعرف في ذلك العصر باسم : أراضي المزارع .

(2) يلوح لنا أن المقصود به إما مسجد دوما أو عربين ، المشهورين منذ القدم بكبرهما .

ويخرج ماء الغُوطة من عين تنحطّ من أعلى الجبل[1] كالنّهر العظيم ، لها صوتٌ هائل ودويّ عظيم يُسمع على بُعد .

(الرّوض المعطار ، 431)

* * *

دير سمعان

بنواحي دمشق[2] حواليه قصور ومتنزّهات وبساتين لبني أميّة ، وهنالك قبر عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، توفي سنة إحدى ومائة ، وكان قد انتقل إليه واشترى موضع قبره من سمعان صاحب الدّير بثلاثة دنانير ، وقيل بدينارين .

وقال رجلٌ يرثيه :

قد غيّبوا في ضريح التُّرب وانصرفوا   بدير سمعان قسطاس الموازين
من لم يكن همّه عيناً يفجّرها   ولا النّخيل ولا ركض البَراذين
أقولُ لمّا أتاني ذكرُ مَهْلكِهِ   لا يبعدنّ قوام العقل والدّين

وكان مُعاوية وجّه ابنه يزيد لحرب الرّوم ، فأقام بدير سمعان ووجّه الجنود فأصابهم الوباء[3] ، وتلك غزوة الطّوانة . فقال يزيد :

أهْوَنْ عليّ بما لاقتْ جموعُهمُ   يومَ الطّوانة من حُمّى ومن مُوم
إذا اتّكأتُ على الأنماط مُرتفقاً   بدير سَمعان عندي أمُّ كُلثومَ

(الرّوض المعطار ، 251)

(1) العبارة منقولة عن الإدريسي حرفياً ، لكن عين الفيجة تنبع على مستوى منخفض .
(2) ثمّة التباس حول دير سمعان ، ومن الواضح أن المقصود هنا ليس بدمشق ، بل دير سمعان بالمعرّة . انظر ما سيرد أدناه في نصّ ابن فضل الله العُمري .
(3) يا له من قائد عظيم ، يقذف بجنوده إلى الحرب والوباء ويصمد هو للخمر والنساء !

مشهد عام لدمشق من [illegible] قديمة من القرن التاسع عشر ، عام 1873

– 50 –

أبو الفِداء صاحب حَمَاة

(توفي 732 هـ / 1331 م)

أتمّ كتابه عام 731 هـ

ينتسب أبو الفداء ، عماد الدّين إسماعيل بن علي ، إلى فرع دَوحة عريقة هي أسرة بني أيّوب التي أسّسها السّلطان النّاصر صلاح الدّين ، والتي تولّت زمام الحُكم في الشرق بالقرون الوسيطة لنيّف وثمانين عاماً (569–652 هـ) ، وانفرد بين سائر أمراء أسرته في كونه مؤلّفاً كبيراً خلّف مُصنّفين كبيرين وهامّين في التاريخ والجغرافيا . كما نظم الشّعر والموشّحات وبرع في علم الهيئة .

ولد بدمشق عام 672 هـ حيث استقرّ ذووه بعد فرارهم من وجه المغول . كان جدّه أميراً على حلب ، واستعادت أسرته مجدها في عصر السّلطان المملوكي الملك النّاصر محمد بن قلاوون ، الذي نصّب أبا الفداء ملكاً لمملكة حَمَاة ، ولُقّب بالملك المؤيَّد ، وأقام على ذلك 12 عاماً . وكان قد شارك منذ نُعومة أظفاره في مجاهدة الصّليبيين ، وعندما تولّى الملك النّاصر المذكور السّلطنة لم يترك أبو الفداء حملة من الحملات الشاميّة التي خرجت لمحاربة الرّوم والمغول إلا اشترك فيها .

أدّى انتماء أبي الفداء إلى الأسرة الحاكمة في مدينة حَمَاة إلى سُهولة انخراطه في طبقة المثقّفين والتمرّس على أيدي كبار المؤرّخين ، فترك عدّة مؤلفات منها : «تاريخ الدّولة الخُوارزميّة» و «نوادر العلم» و «الكنّاش» و «الموازين» . هذا فضلاً عن كثرة رحلاته ، ومُصاحبته للسّلطان النّاصر في رحلات الصّيد والقَنْص ، وكان النّاصر يحبّه وأقامه في حَمَاة سلطاناً مستقلاً ليس لأحد أن ينازعه السّلطة .

وهكذا تبوّأ الرّجل مركزاً مكّنه من أن يُصبح أحد أهمّ كتّاب عهد المماليك ، فسجّل لنا ما دار في أيامه من أحداث سياسيّة وعُمرانيّة في الشام ومصر وغيرها في كتابه الشهير «المُختصر في أخبار البَشَر» الذي يُعرف أيضاً باسم «تاريخ أبي الفداء» . وقد جعله ذيلاً على تاريخ ابن الأثير المشهور ، ثم ذيّل عليه من بعده المؤرّخ المعروف زين الدّين عُمَر ابن الوَردي .

أما في مجال الجغرافيا فقد استجمع أبو الفداء خُلاصة رحلاته الكثيرة واطّلاعه على أمّهات كتب الجغرافيا ، ووضع كتابه الشهير «تقويم البُلدان» الذي لا يقلّ أهميّة وشأناً عن مؤلّفه التّاريخي الآنف الذكر ، وأتمّه عام 721 هـ . وقد عدّ كثير من المستشرقين أبا الفداء أعظم مؤرّخ جغرافي في عصره على الإطلاق لأهميّة كتابه وشُموليّته ، ففيه معلومات جديدة عن الأقطار غير الإسلاميّة في كل من آسيا وأوروبا وأفريقيا .

قام بنشر كتاب «تقويم البُلدان» المستشرقان الفرنسيان رينُو Reinaud و دي سْلان De Slane ، وطُبع في المطبعة الملكيّة بباريس عام 1840 .

المصادر :

المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ، 4 : 41 .

تقويم البُلدان لأبي الفداء ، مقدّمة رينو و دي سلان بالفرنسية .

الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، 1 : 371 .

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 389 .

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 207 .

أعلام التاريخ والجغرافيا للمنجّد ، 7 : 56 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 5 : 27 .

الأعلام للزّركلي ، ط 2 ، 1 : 317 .

من فصل
سادس الأقاليم العُرفيّة
وهو بلاد الشام

دمشق : بكسر الدّال وفتح الميم وسكون الشين المُعجمة ثم قاف في الآخر .

أما طول دمشق فلم يُختلَف فيه أنه عن الجزائر الخالدات سبعون فقط ، وعن السّاحل ستّون فقط من غير كسر ، وأمّا عرضها فقد اختُلف فيه ، وأثبتنا في الجدول ما صحّ عندنا[1] .

ودمشق مدينةٌ أولّيّة مشهورة ، وهي قاعدة الشام . وغُوطتها إحدى الجِنان الأربع المُفضّلة على متنزّهات الأرض ، وهي غُوطة دمشق ، وشِعب بَوّان ، ونهر الأُبُلّة ، وصِغد سَمَرقَند . وقد فضلت دمشق على الثلاث المذكورات .

وفي شماليها جبلٌ يُعرف بجبل قاسيون ، يُقال إن عنده قتل قابيل أخاه هابيل . ومن مُتنزّهاتها المشهورة الربّوة ، وهو كهفٌ في فم واديها الغربي الذي عنده تنقسم مياهها ، يقال إن به مهدُ عيسى عليه السّلام .

(تقويم البُلدان ، ص 252-253)

* * *

---

(1) أثبت أبو الفداء ذلك في جداوله الدقيقة المرتّبة على النحو التالي :
الطول : درج : س ، دقائق : هـ .
العرض : درج : لح ، دقائق : ل .
الإقليم الحقيقي : من آخر الثالث . الإقليم العُرفي : قاعدة الشام .

من فصل
ذكر الشام

قارة

ومن الأماكن المشهورة قارَة ، وهي قرية كبيرة بين دمشق وحمص على نحو منتصف الطريق ، وهي منزلة للقوافل ، وغالب أهلها نصارى . وهي عن حمص على مرحلة ونصف ، وعن دمشق على مرحلتين .

(تقويم البُلدان ، ص 229)

* * *

قال ابن حَوْقَل : ومَخرج أنهر دمَشق من تحت كنيسة يُقال لها الفيجة ، وهو أول ما يخرج مقداره ارتفاع ذراع في عرض ذراع ، ثم يجري في شِعب يتفجّر منه العيون ، ثم يجتمع منَ نهر يُقال له بَرَدا ويُستخرج من ذلك سائر أنهار دمشق .

وبها مسجدٌ ليس في الإسلام أحسن ولا أكثر نفقة منه ، فأمّا الجدار والقبّة التي فوق المحراب عند المقصورة فمن بناء الصّابئين ، وكان مُصلاّهم . ثم صارت لليهود وعَبَدَة الأوثان ، فقُتل في ذلك الزّمان يحيى بن زكريّاء عليه السّلام ، ونُصب رأسه على باب هذا المسجد المسمّى باب جيرون .

ثم تغلّب عليه النّصارى وعظّموه ، حتى جاء الإسلام ، فصار للمسلمين مسجداً . وعلى باب جيرون حيث نُصب رأس يحيى بن زكريّاء ، نُصب رأس الحُسين بن علي ، رضي الله عنهما . ولمّا كان في أيام الوليد بن عبد الملك عمّره ، فجعل أرضه رُخاماً موشّىً ومَعاقد رؤوس أساطينه ذَهَباً ، وسطحه رصاصاً . ويُقال إنه أنفق عليه خَراج الشام .

قال المُهلّبي إنه وُجد في رُكن من أركان الجامع بدمشق مكتوبٌ : «بنى هذا البيت ذامِسقيوس على اسم آلهة زيوش» . قال : وذامسقيوس[1] اسم الملك الذي بناه ، وزيوش تفسيره بالعربية المُشتري .

(تقويم البُلدان ، ص 230)

* * *

مرج راهط

ومن الأماكن المذكورة مَرْجُ راهِط[2] . قال في المُشترك[3] : وهو في غوطة دمشق من ناحية المشرق ، وبه كانت الوقعة بين اليمانية والقَيْسيّة ، وكانت الغَلَبَة فيها لمروان واليمانية ، وانهزمت القَيْسيّة واستقرّ أمر مروان بن الحَكَم المذكور في الخلافة . وكان ذلك في سنة أربع وستّين للهجرة ، وأكثرت الشّعراء ذكر هذه الوقعة ومَرج راهِط .

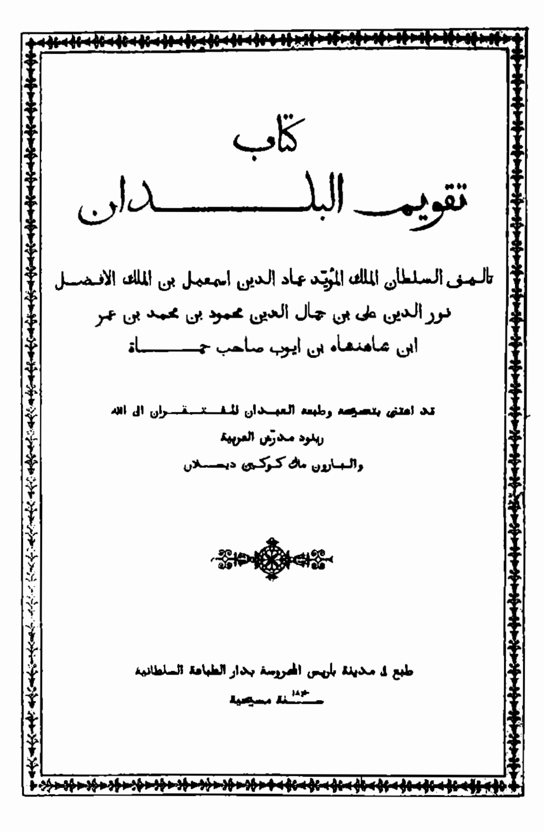
(تقويم البُلدان ، ص 230-231)

* * *

(1) ذامسقيوس هو اسم دمشق باللاتينية : Damascus وباليونانية Δαμασκος ، نقلاً عن اسمها الآرامي القديم : [illegible] (دَرْميسِق) ، أي الأرض الريّانة . أما زيوس فهو أبو الآلهة الإغريقية Zeus ، ولدى الرّومان : Jupiter ، أي المُشتري . ولا شك أن هذه الكتابة القديمة باليونانية كانت تُكرّس معبد دمشق الوثني لزيوس .

(2) يُعرف اليوم اختصاراً باسم المرج ، وهو يقع إلى الجنوب الشرقي من قرى الغوطة بما يلي النشّابية ، ويضمّ قرى كثيرة ، منها دير سلمان والكفرين وحرّان العواميد وجديدة الخاص والهيجانة والعبّادة وسكّا والدّلبة وغسّولة والغزلانية وقرحتا .

(3) هو كتاب «المُشترك وضعاً والمُفترق صَقعاً» ، لياقوت الحموي الرّومي صاحب معجم البُلدان الشهير (توفي 626 هـ) .



كتاب

تقويم البلدان

تأليف السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل بن الملك الافضل
نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر
ابن شاهنشاه بن ايوب صاحب حماة

قد اعتنى بتصحيحه وطبعه العبدان المفتقران الى الله
رينود مدرّس العربية
والبارون ماك كوكين ديسلان

طبع في مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية
سنة مسيحية ١٨٤٠

عنوان كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء ، طبعة باريس 1840

- 51 -

شهاب الدّين النُّوَيري

(توفي 733 هـ / 1333 م)

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القُرَشي التَّيْمي البكري النُّويري ، عالم بحّاثة واسع الاطلاع ، نسبته إلى نُويرة في مصر العليا ، ولد بقُوص عام 677 هـ ونشأ بها ، وكان من المقرّبين إلى السّلطان النّاصر محمد ابن قلاوون ، الذي شمل أبا الفدا المؤرّخ والجغرافي المشهور برعايته . وكّله السلطان ببعض أموره ، وتقلّب في المناصب الديوانية ، فباشر نظر الجيش في طرابلس الشام ثم نظر الديوان بالدقهليّة والمرتاحية بمصر .

كان النُّويري أديباً وله نظم ونثر جيّدان ، ويُعدّ خير مثال لمؤلّفي عصر الموسوعات العلمية والأدبية والجغرافية في بدايات العهد المملوكي . أشهر آثاره على الإطلاق موسوعته الكبيرة «نهاية الأرب في فنون الأدب» ، وهي موسوعة عامّة كبيرة جداً في 30 مجلداً ، أشبه بدائرة معارف لما وصلت إليه العلوم عند المسلمين في عصره . ويشتمل الكتاب على خمسة فنون ، كل فن يتفرّع إلى خمسة أقسام يحتوي كلّ منها على عدد من الفصول : فالفن الأول مُفرد للسماء والأرض ، أما الفن الثاني فعن الإنسان ، والثالث للحيوان ، والرابع للنبات ، والخامس للتاريخ . أما القسم الجغرافي من الموسوعة فيشغل القسمين الرابع والخامس من الفن الأول ، وفيه فصّل النويري في خلق العالم والأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان والمدن وسكّانها وآثار المنازل والمحالّ .

وفي الكتاب معلومات ذات أهمية كبرى عن شمال أفريقية والأندلس وعن جزير صقلية ، نقلها عن مؤرّخين قدماء فقدت كتبهم ، مثل ابن الرّقيق وابن رشيق وغيرهما ، كما بيّنت أبحاث المستشرق الألماني تيزنهاوزن Tiesenhausen والمستشرق الروسي ڤاسيلييڤ Vassiliev .

وقد قامت بنشر الكتاب دار الكتب المصرية بطبعة فاخرة ، بدءاً من عام 1923 . وفي القسم الجغرافي من الكتاب ذكر النّويري دمشق ومسجدها الجامع وغُوطتها ، ونقلنا ذلك من طبعة دار الكتب . لكن من الواضح أن الرّجل أورد معلوماته اعتماداً على النّقل عن السّابقين ، وكان هذا النّقل عن مراجع قديمة لا تقدّم فكرة عن دمشق في العصر ذاته الذي عاش به النّويري ، نعني عصر سلاطين المماليك . وهو في ذلك يشابه إلى حدّ ما ما فعله من بعده القَلقَشَندي ، وإن كان هذا نقل عن خيرة مصادر عصره : العُمَري في مسالكه .

المصادر :

الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، 1 : 197 .
البداية والنهاية لابن كثير ، 14 : 164 .
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، 9 : 299 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 408 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 209 .
مؤرّخو مصر الإسلاميّة لمحمد عبد الله عنان ، 62 .

مسجد دمشق

الذي ما عُمِّر على وجه الأرض مثله ، وكانت عمارته في سنة ست وثمانين ، عمّرَه الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريق فيه في سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة .

وعن قتادة قال : أقسم الله بمساجد أربعة ، قال : ﴿والتين﴾ وهو مسجد دمشق ، ﴿والزَّيتون﴾ وهو بيت المقدس ، ﴿وطُورِ سِينين﴾ وهو حيث كلَّم اللهُ موسى ، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وهو مكَّة . وقال محمد بن شُعيب : سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التين مسجد دمشق ، وأنهم قد أدركوا فيه شجراً من تين قبل أن يبنيه الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لمّا أمر الوليد ببناء مسجد دمشق وجدوا في الحائط القبلي من المسجد لوحاً فيه نقش فأتوا به الوليد ، فبعث إلى الرّوم وغيرهم فلم يستخرجوه ، فدُلَّ على وهب بن منبِّه فبعث إليه ، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح ، فإذا الحائط الذي وُجد فيه بناء هُود عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكّلني الوليد على العمّال في بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه مغارة ، فعرّفنا الوليدَ ذلك . فلمّا كان الليل وافي وبين يديه الشمع ، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففُتح فإذا فيه سَفَط ، وفي السَّفَط رأس يحيى بن زكريًّا عليهما السلام ، مكتوب عليه : «هذا رأس يحيى بن زكريّا» ، فأمر الوليد فرُدَّ إلى مكانه ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مُغيّراً من الأعمدة ، فجعلوا عليه عموداً مُسفَّط الرأس . وكانت البشرة والشعر على رأسه لم تتغيّر .

وقال أبو زُرعة : مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بن الجرَّاح ، وكذلك مسجد حمص . وقيل : لمّا قدم المهدي يريد بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعري كاتبه ، فقال : يا أبا عبد الله سَبَقَنا بنو أميّة بثلاث . قال : وما هنَّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعني المسجد) ، لا أعلم على وجه

الأرض مثله ؛ وبنُبل الموالي ، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم ؛ وبعُمَر بن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبداً !.. ثم أتى بيت المقدس فدخل الصّخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة !

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصاري ، قال : حَسَبوا ما أُنفق على الكرمة التي في قبلة مسجد دمشق ، فإذا هو سبعون ألف دينار . وقال أبو قُصَيّ : أُنفق في عمارة مسجد دمشق أربعمائة صُندوق ، كل صُندوق أربعة عشر ألف دينار .

وقال بعض شُعراء المُحدَثين في وصفه :

دمَشْقُ قد شاع ذكرُ جامعها ... وما حَوَتْه رُبى مَرابعها
بديعةُ المُدْن في الكمال لِمَا ... يُدْرِكُه الطَّرْفُ من بَدائعها
طَيِّبةٌ أرضُها مُباركةٌ ... باليُمْن والسَّعد أخْذُ طالِعها
جامعها جامعُ المحاسن قَدْ ... فاقَتْ به المُدْنَ في جَوامعها
تُذكَرُ في فَضْلِه ورفعَتِه ... أخبارُ صِدقٍ راقتْ لسامِعها
قد كان قبلَ الحريق مُدْهِشَةً ... فغيّرتْه نارٌ بلافعها
فأذهبتْ بالحريق بهجَتَه ... فليس يُرجى إيابُ راجعها
إذا تفكَّرتَ في الفُصوص وما ... فيها تيقَّنتَ حِذق واضعها
أشجارُها لا تزالُ مثمرةً ... لا ترهبُ الرِّيحَ في مَدافعها
كأنّها من زُمُرُّدٍ غُرِسَتْ ... في أرضِ تِبْرٍ تُغشَى بفاقعها
فيها ثمارٌ تخالُها يَنعتْ ... وليسَ يُخشى فسادُ يانعها
تُقطفُ باللّحْظ لا بجارحةِ ... الأيدي ولا تُجتَنى لبائعها
وتحتها من رُخامِه قِطَعٌ ... لا قَطَّع اللهُ كفَّ قاطعها
أحكمَ ترخيمها المُرَخِّمُ قد ... بان عليها إحكامُ صانعها
وإن تفكَّرتَ في قناطره ... وسَقْفِهِ بانَ حِذْقُ رافعها
وإن تَبَيَّنتَ حُسنَ قُبَّتِه ... تحيَّر اللُّبُّ في أضالعها
تخترق الرِّيحُ في مخارمها ... عَصْفاً فتقوى على زعازعها

وأرضُـهُ بالرُّخـام قـد فُرشَـتْ   يَنْفَسـحُ الطَّـرْفُ في مواضعهـا
مجـالـسُ العِلـم فيـه مُونِقـةٌ   ينشـرحُ الصَّـدرُ في مَجامعهـا
وكـلُّ بـابٍ عليـه مَطْهَـرةٌ   قـد أمِـنَ النّـاسُ دَفـعَ مانعهـا
يرتفـقُ الخلـقُ مـن مرافقهـا   ولا يُصَـدُّون عـن منافعهـا
ولا تـزالُ الميـاهُ جاريـةً   فيهـا لمـا شُـقَّ مـن مشـارعها
وسُـوقُها لا تـزالُ آهلـةً   يزدحـمُ النّـاسُ في شـوارعها
لمـا يشـاؤون مـن فواكههـا   ومـا يريـدون مـن بضائعهـا
كأنّهـا جنّـةٌ مُعجّلـةٌ   في الأرض لولا سُـرى فجائعها
دامـتْ برغـم العِـدا مُسَـلَّمةً   وحاطَهـا اللهُ مـن قَوارعهـا

وقال عبد الله بن سلام : بالشأم من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر ، وقبر موسى بدمشق معقل الناس في آخر الزمان .

وعن ابن عبّاس ، رضي الله عنهما أنه قال : من أراد أن ينظر إلى الموضع الذي قال الله عزَّ وجلّ فيه : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ فليأتِ النَّيرب الأعلى بدمشق بين النَّهرين ، وليصعد الغار في جبل قاسيون فليُصَلِّ فيه ، فإنه بيت عيسى وأمّه . ومن أراد أن ينظر إلى إرَمَ ، فليأت نهراً في دمشق يُقال له بَرَدَى . ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عُمران والحواريّون ، فليأتِ مقبرة الفراديس .

ومن خصائصها التُّفّاح الذي يُضرب به المثل في الحُسن والطِّيب ، وكان يُحمل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفّاحة .

وبها الغُوطة ، وهي أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة ، وهي أجلُّها . وسنذكر وصفها في باب الرِّياض إن شاء الله تعالى .

(نهاية الأرب للنويري ، 1 : 328)

* * *

غُوطة دمشق

غُوطة دمشق التي هي شَرَكُ العقول وقَيد الخواطر ، وعِقال النفوس ونُزهة النواظر ، خَلخَلت الأنهار أسوُق أشجارها ، وجاست المياه خلال ديارِها ، وصافحت أيدي النسيم أكُفَّ غُدرانها ، ومُثِّلتْ في باطنها موائسُ أغصانها ، يَخالُ سالكُها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانيرَ لا يستطيع أن يقبضها ببنَان ، ويتوهَّم المتأمِّل لثمراتها أنها أشربةٌ قد وقفت بغير أوان في كلِّ أوان . فيا لها من رياض من يَطُفْ بزَهرها من قبل أن يحلق فقد قصَّر ، ومن غياضٍ من لم يشاهدها في إبَّانها فقد فاته من عمره الأكثر .

(نهاية الأرب للنويري ، 11 : 261)

* * *

GÉOGRAPHIE

D'ABOULFÉDA

TEXTE ARABE

PUBLIÉ

D'APRÈS LES MANUSCRITS DE PARIS ET DE LEYDE

AUX FRAIS DE LA SOCIÉTÉ ASIATIQUE

PAR M. REINAUD

MEMBRE DE L'INSTITUT DE FRANCE
ET DU CONSEIL DE LA SOCIÉTÉ ASIATIQUE

ET

M. LE B^on^ MAC GUCKIN DE SLANE



PARIS

IMPRIMÉ PAR AUTORISATION DE M. LE GARDE DES SCEAUX

A L'IMPRIMERIE ROYALE

M DCCC XL

راموز طبعة كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء، طبعة باريس 1840 م



مدخل المدرسة الظاهريّة ومقرنصاته الرّائعة، أهمّ وأجمل مبنى مملوكي بدمشق



تفصيلة من مقرنص المدرسة الظاهريّة
تحمل اسم معمارها ابن غنائم المهندس



رنك الملك النّاصر فرج بن برقوق على
قنطرة الباب الشمالي للقلعة مع كتابات



لوح كتابي جميل في أحد الأبراج الشمالية للقلعة ، فيه رنك الظاهر بَيْبَرس (الفهد) واسم قانصوه الغوري



تفصيلة من اللوح الكتابي ، حلية تحمل اسم السلطان الأشرف قانصوه الغوري



تفصيلة من اللوح الكتابي المذكور آنفاً، وتحته رنك الملك النّاصر فرج بن برقوق

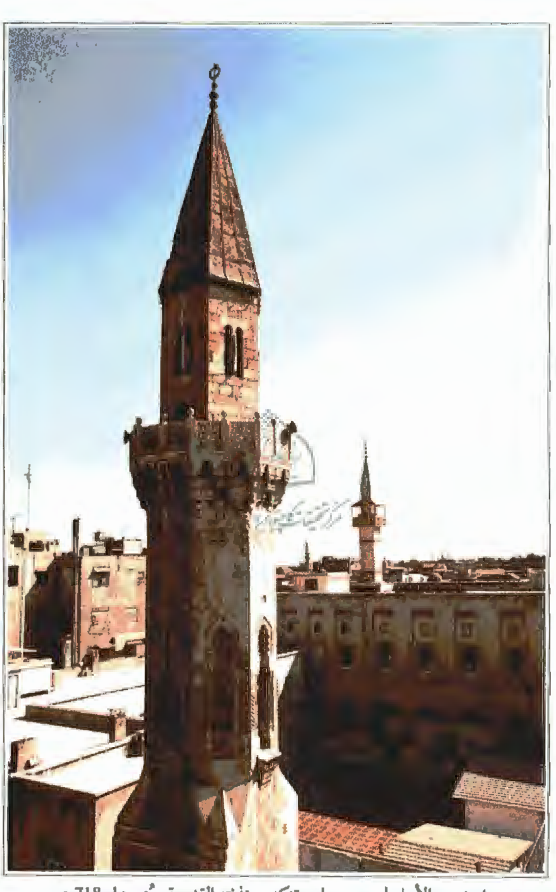




تفصيلان رائعان من الأبواب النّحاسيّة للجامع الأموي ، يحملان اسم الملك النّاصر فرج ورنكه



تفصيل لأعلى مئذنة جامع تنكز ، إحدى أجمل أربع مآذن بدمشق المملوكية



مشهد من الأعلى لصحن جامع تنكز ومئذنته القديمة، بُني عام 718 هـ



تفصيل لأعلى مئذنة جامع تنكز، إحدى أجمل أربع مآذن بدمشق المملوكية



مئذنة جامع تنكز المضلّعة البديعة في الجهة الجنوبيّة من الجامع



دار القرآن والحديث التنكزيّة شرقي سوق البزوريّة ، بُنيت عام 739 هـ



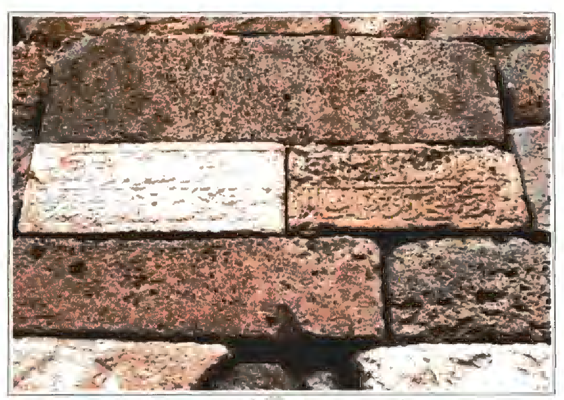
دار القرآن والحديث التنكزيّة شرقي سوق البزوريّة ، بُنيت عام 739 هـ



طاحون الأمير سيف الدّين منجك غربي قرية الكسوة على فرع نهر الأعوج



تفصيلة لقناطر العَقد فوق فرع النّهر ، منها يدخل الماء إلى الحالول



تفصيلة للكتابة التأسيسيّة التالفة التي ميّزتُ فيها بصعوبة اسم الأمير منجك



تفصيلة تبيّن رنك الأمير منجك على الطاحون ، بشكل سيف بحمائل



قصر ابن فضل الله العُمري في المدرسة الرّكنيّة ، بوضعه الحالي المجدّد



قصر ابن فضل الله العُمري ، منظر لواجهته الغربيّة والعَقد الرّاكب على الدّرب

– 52 –

صَفيّ الدّين البغدادي

(توفي 739 هـ / 1338 م)

عبد المؤمن بن عبد الحقّ بن عبد الله البغدادي الحنبلي ، أبو الفضائل صفيّ الدّين ، ولد ببغداد عام 658 هـ . شيخ العراق في القرن الثامن الهجري ، ارتحل إلى دمشق ومكّة ومصر وسمع الكثير من علماء هذه الأقطار فضلاً عن العراق ، مهر في علم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة . له مؤلّفات كثيرة في الفقه ، واختصر كثيراً من الكتب الفقهيّة ، وكذلك اختصر تاريخ الطبري المشهور .

وممّا اختصره أيضاً كتاب «مُعجم البُلدان» الذّائع الصّيت لياقوت الحموي ، وسمّاه «مَراصد الاطّلاع على أسماء الأماكن والبقاع» . وقد فعل ذلك بعد مئة عام من تأليف ياقوت لمعجمه ، هذا رُغم أن ياقوتاً حذّر في مقدّمته من أن يختصره أحد بقوله : «ولقد التَمَس مني الطلاّب اختصار هذا الكتاب مراراً فأبيتُ . ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيّع نَصَبي ونَصَب نفسي له وتعبي ، بتبديد ما جمعتُ وتشتيت ما لَممتُ . . فإن أجبتني فقد بَررتني ، وإن خالفتني فقد عَقَقتني ، والله حَسبُك في عُقبى الدّار !» .

وأول من نشر «مَراصد الاطّلاع» كان المستشرق الهولندي تيودور ينبُول T. Juynboll في لايدن بهولاندة عام 1850 م ، وصدرت هذه الطبعة في ستة أجزاء أحاطها ناشرها بكثير من العناية والاهتمام . ويوم صدرت أثارت في الأوساط العلمية بأوروبا جدلاً كبيراً بخصوص نسبتها إلى مؤلفها ، فقد وضع المستشرق

الفرنسي رينو Reinaud لذلك ثلاث فرضيّات : فإمّا أن يكون المؤلف صفيّ الدّين ، أو حتى ياقوت نفسه (وهذا ممّا يُستبعد حكماً للسّبب الذي ذكرناه آنفاً) ، أو للمؤرّخ السّيوطي المشهور . غير أن هذه الفرضيّات كلّها تلاشت مع الأيام ، والثابت في عُرف الباحثين اليوم أن مؤلّف «مَراصد الاطّلاع» ما هو إلا صاحبُنا البغدادي ذاتُه .

هذا وقد صدرت في القاهرة طبعة أخرى للكتاب ، بعناية علي محمد البجّاوي عام 1954 . وعنها نقلتُ النّصّ الخاص بدمشق ، ومن الواضح أنه نصّ مبتور لا يفي بشيء ، ولولا قصد الجمع لكنت أهملته أصلاً .

المصادر :

مَراصد الاطّلاع للبغدادي ، مقدّمة البجّاوي .
الدُّرر الكامنة للعَسقلاني ، 2 : 418 .
شَذَرات الذّهب لابن العماد الحنبلي ، 6 : 121 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 343 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 216 .

دمشق

دِمَشْق : بالكَسر ثم الفتح وشين مُعجمة وآخره قاف ، البلدة المشهورة وقَصَبة الشام . هي جنّة الشام لحُسن عمارتها ونُضرتها ، وكثرة أشجارها وفواكهها ، ومياهها المتدفّقة في مساكنها وأسواقها وجامعها ومدارسها .

قيل : سُمّيت بذلك لأنهم دَمْشَقوا في بنائها ، أي أسرعوا . وقيل : هو اسم واضعها ، وهو دمشق بن كنعان . وقيل غير ذلك . وهي مشهورة .

(مراصد الاطّلاع للبغدادي ، 2 : 534)

* * *



مشهد عام للدمشق من الصالحية ، لقطة قديمة من القرن التاسع عشر

خارطة الكرة الأرضية

للشريف الادريسي (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ) - (١٠٩٩ - ١١٦٤ م)

هو ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي الصقلي، ولد في سبتة سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) ودرس في جامعة قرطبة ثم طاف في الأندلس وشمال افريقيا وآسيا الصغرى وبعض البلدان الأوروبية حتى اصبح من أشهر علماء الإسلام الذين نبغوا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). [illegible]



[illegible]

- 53 -

ابن فضل الله العُمَري

(توفي 749 هـ / 1349 م)

وصفه لدمشق بين عامي 738–749 هـ

أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَري الدمشقي ، كاتب كبير عاش في العهد المملوكي بدمشق ، ومولده فيها عام 700 هـ . نشأ في أسرة علم عاشت في ظل السَّلاطين ، ونال ثقافة رفيعة أفردته في عصره ، وتولّى كتابة أسرار السُّلطان في مصر ثم كتابة الأسرار في الشّام ، فرأى وسمع وعرف ما لم يره أو يسمعه أو يعرفه غيره . أوتي ثقافة واسعة في الشّعر والتّرسُّل والتاريخ ومعرفة الممالك والمسالك والأقاليم ومعرفة الأسطرلاب ، وحلّ التقويم وصور الكواكب . شهد ببراعته كثيرون ، وعلى رأسهم الصّلاح الصّفدي ، وقال ابن شاكر الكتبي ممتدحاً كتابه «مسالك الأبصار» : «كتابٌ حافل ما أعلم أن لأحد مثله» .

صنّف العُمَري كتاباً هاماً في أصول كتابة الدّواوين ، سمّاه «التّعريف بالمُصطلح الشّريف» ، وهو مصدر هام للتاريخ والجغرافيا التاريخية . أما كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ، فهو من نوادر تُراثنا العربي وأكثرها مادة وأوسعها أطرافاً ، وهو من أضخم وأحسن الموسوعات الجغرافية والكوزموغرافية الشّاملة للمعارف العامة التي شاعت في العهد المملوكي إبّان القرن الثامن الهجري ، فقد فاق به الوطواط في «مباهج الفِكَر ومناهج العِبَر» ، والنُّويري في «نهاية الأَرَب في فنون الأدب» ، على اختلاف في مادّة كل كتاب . ولا ريب أن هذا يرجع إلى بيئة العُمَري التي عاش فيها وثقافته التي اكتسبها والمناصب التي تولاّها .

فكان كتابه بحكم ذلك كله غنياً جداً ، يمتاز بسعة المادّة ودقة الملاحظة وحُسن الاختيار ، ويبدو فيه جلياً رأي المؤلّف وجهده وشخصيته ، فهو لا يكتفي بالجمع بل نجد فيه أثر ثقافته واضحاً .

والمؤسف أن أثر العُمَري الكبير «مسالك الأبصار» البالغ في مخطوطاته الأصلية 27 مجلداً (وفي بعض النسخ 32) لم يُنشر نشرة كاملة إلى يومنا هذا ، خلا الجزء الأول منه فقط الذي نشره بالقاهرة أحمد زكي باشا عام 1924 ضمن مطبوعات دار الكتب المصرية . وعدا ذلك ظهرت منه قطع متفرّقة نُشرت أو نُقلت إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية ، وغالب ما نُشر أو نُقل إلى هذه اللغات يتعلّق بالبلدان ، دون سواها من موادّ الكتاب .

ولقد كتب عنه كل من كاترمير وأماري وتيزنهاوزن وشيفر ، ونشر منه حسن حسني عبد الوهاب بتونس عام 1921 ما يخصّ أفريقية والمغرب والأندلس ، ونشر فرانتس تيشنر بلايبتسيك عام 1929 قسماً يتعلّق بمملكة الأتراك ، ونشر كلاوس ليخ في ألمانيا عام 1968 قسماً يتعلق بممالك بيت جنكيز خان ، ونشر أيمن فؤاد سيّد في القاهرة عام 1985 قسماً يتعلق بمملكة مصر والشّام والحجاز واليمن . ونشرت دوروتيا كرافولسكي قسماً عن قبائل العرب في بيروت عام 1985 ، أتبعته بدراسة وافية بعنوان : «مسالك الأبصار - دولة المماليك الأولى» مع نصوص من أصول الكتاب المخطوطة ، صدرت في بيروت عام 1986 .

ثم قام الباحث التركي فؤاد سزگين بنشر نسخة مصوّرة من مخطوط الكتاب الأصلي المحفوظ بمكتبة قصر طوپ قاپی سرايی بإستانبول في 27 جزءاً ، أصدرها معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بجامعة فرانكفورت عام 1988-1989 . وفي أيامنا يقوم بإعادة نشر الكتاب المجمّع الثقافي في دولة أبو ظبي ، وننتظر أن يتمّ كاملاً بطبعة علمية مُستوفاة على غرار ما سبقه إلى النشر من موسوعات عصره ، مثل «نهاية الأرَب في فنون الأدب» للنُّويري ، و«صُبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقَلْقَشَنْدي ، و«السُّلوك لمعرفة دُوَل الملوك» للمقريزي ، وغيرها .

شهد الصفدي بأن ابن فضل الله كان إمام وقته في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان ، وهذا يبدو أوضح ما يكون فيما كتبه عن مصر والشّام وما عقده من موازنة بينهما . فقد أُتيح له أن يعيش فيهما زمناً يبلغ نصف قرن بين 700–749 هـ ، فتحدّث عنهما حديث المشاهد ووصفهما وصف العارف وتحرّى في كل ما كتبه الصحّة كما قال : «. . . لكوني من أهل هذه البلاد وتحت ظل ملوكها ، وربِّيتُ أنا وآبائي في نِعَم سلاطينها . فمعاذ الله أن أقول إلا الحق ، أو يُسطّر عني غير الصحيح ، لا سيّما فيما يتحدّث به جيلٌ بعد جيل» .

شرع العُمري في تأليف «مسالك الأبصار» لمّا اعتُقل وصُودر ، أثناء التّرسيم (أي الإقامة الجبرية) الذي فرضه عليه السُّلطان النّاصر محمد ابن قلاوون بمصر عام 738 هـ ودام حتى عام 740 هـ . واستمرّ يتابع تأليفه في داره بدمشق بجسر النّحّاس على نهر يزيد ، فمات كهلاً عام 749 هـ في طاعون دمشق دون أن يتمّه . وجعله في قسمين : الأول في الأرض ، والثاني في سكّان الأرض .

ووصفُ العُمَري لدمشق جاء في فترة شهدت فيها المدينة ذُروة بهائها ونموّها العُمراني ، وانتشار الرّخاء والأمن ، خلال عهد النّاصر ونائبه بالشّام الأمير سيف الدّين تنكز النّاصري ، الذي ولي بالمدينة بين 712–740 هـ وكان من أدنى مقرّبي السُّلطان ، ثم تغيّر عليه النّاصر وأمر بإعدامه في عام 740 هـ . ويتّضح من خلال نصّ ابن فضل الله ، أنه قد كتب بعضه أيام تولّي تنكز ، بدلالة قوله : «وقد بنى في هذه السّنين نائب السّلطنة بها على الشَّرَف القبلي منها جامعاً بديعاً تليه تربةٌ ضخمة ، وداراً ملوكية» . أما البعض الآخر فقد أتمّه بعد مقتل تنكز ، فهو يذكره في أواخر نصّه عن الشّام ثم يُردف بقوله : «رحمه الله» .

ذكر العُمَري دمشق موطنه الأم في أماكن عدّة من كتابه ، أبرزها ما تحدّث به عن مسجدها في الجزء الأول ، ثم ما تحدّث به عنها مُقايساً إياها بمصر . فعند ذكر القاهرة وأمورها وما فيها من وظائف وزروع وأنهار ورياحين ومبانٍ ومدارس وما يُتداول فيها من نقد ، نجده كلّما ذكر ما في مصر أردفه بما كان في الشّام .

وهذا الفصل من كتابه هام لدراسة الشّام ومصر في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، إبّان ذروة النهضة الحضارية لمصر والشّام في عهد دولة المماليك البحرية ، وبخاصّة عهد السُّلطان النّاصر محمد ابن المنصور قلاوون ، الذي تسلطن بولايته الثالثة بين 709-741 هـ . وعلى ذلك فهو أول نصّ مفصّل عن القطرين في دولة المماليك الأولى يصلنا من كاتب معاصر لها .

ثم إنه عند كلامه على الشّام ومُدُنها تحدّث عن دمشق ، وهذا الفصل من أحسن ما وُصفت به المدينة في القرن الثامن ، فقد فاق ما كتبه عنها آنذاك النّويري في «نهاية الأرب» ، وشيخ الربّوة في «نُخبة الدهر» ، وأبو الفداء في «تقويم البلدان» ، وابن عبد الحق البغدادي في «مراصد الاطّلاع» ، بل هو فاق ما كتبه ابن بطّوطة في القرن نفسه من بعض النّواحي . ولا يضارعه في جمال صورته وأناقة عبارته إلا ما كتبه أبو البقاء البدري عن دمشق في القرن التاسع .

ونقل العُمَري عن التّيفاشي في كتابه «سُرور النَّفْس» بعض ما يتعلّق بتاريخ دمشق ، غير أن نص التّيفاشي نفسه منقول عن ابن عساكر ، ولا ندري لماذا لم ينقل عنه رأساً . ثم أضاف إلى ذلك مواداً من عنده هي ثمرة معرفته وملاحظته الخاصّة ، فذكر ما فيها من الوظائف ، وخزائن السلاح ، والصُّنّاع ، ووصف المباني ، والدّيار ، والبساتين ، والحواضر ، والأنهار ، والقلعة . وكذلك خصّ القصر الأبلق الذي شاده الملك الظاهر بيبرس بوصف دقيق ، ووصفه الشّيّق هذا يُعدّ - من بعد وصف الحِميَري - أهم وثاني أقدم ذكر له .

هذا وسنرى أدناه أن القلقشندي نقل عن العُمَري غالب وصفه لدمشق بلفظه ، ولم يُضف إليه شيئاً ذا شأن رآه هو بنفسه ، رغم أن وفاته تتأخر عن العُمَري بما يقرب من سبعين عاماً . وعلى هذا فإن كثيراً مما ذكره القلقشندي عن البلدان في صُبح الأعشى لا يمثّل عصره تماماً ، لأنه نقل عمّن سبقه ولم يضف شيئاً جديداً . بينما نرى الوصف الذي كتبه العُمَري عن دمشق ولم ينقله عن غيره غنياً صادقاً وأصيلاً ، نلمس فيه الدّقة كما تظهر لنا فيه شخصية كاتبه .

اخترتُ من «مسالك الأبصار» ما يتعلّق بوصف دمشق ، ورجعت في ذلك إلى نشرة أستاذي صلاح الدّين المنجّد الصّادرة في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد الثالث 1957 ، ص 113-117 . وصحّحتُها على طبعة سزگين المصوّرة من مخطوطة طوپ قاپي (رقم : 2797) ، وعلى ما نشرته كرافولسكي من المتن ، بالرّجوع إلى مخطوطتي آيا صوفيا (رقم : 3416) وطوپ قاپي . وفي النصّ التّالي ، رمزتُ بالحرف (ص) لترقيم نسخة آيا صوفيا ، الجزء 3 ؛ أما الرّمز (ط 2) فيعني نسخة طوپ قاپي ، الجزء 2 من المخطوط .

ثم نقلتُ بعد ذلك ما جاء في وصف الجامع الأموي وديارات دمشق ، عن الجزء الأول من الكتاب ، طبعة أحمد زكي باشا بالقاهرة ، 1924 .

المصادر :

مسالك الأبصار للعمري ، الجزء الأول طبعة دار الكتب المصرية ، 178-203 .

مسالك الأبصار للعمري ، طبعة سزگين المصوّرة عن مخطوطة طوپ قاپي .

وصف دمشق في مسالك الأبصار للمنجد ، مجلة معهد المخطوطات ، مجلد 3 .

مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى لكرافولسكي ، 170-191 .

التعريف بالمصطلح الشريف ، مقدمة الدّروبي .

البداية والنهاية ، لابن كثير ، حوادث 739-768 هـ .

الدّرر الكامنة للعسقلاني ، 1 : 331 .

الوافي بالوفيات للصفدي ، 8 : 252 .

فوات الوفيات لابن شاكر ، 1 : 157 .

تاريخ ابن قاضي شُهبة الأسدي ، 1 : 570 .

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 410-415 .

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجد ، 218 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 3 : 430 .

دار الكتب المصرية

احيـاء الآداب العربيـة

مسالك الأبصار

فى

ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمرى

بتحقيق

الأستاذ أحمد زكى باشا

الجزء الأول

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م

نموذج الطبعة الأولى للجزء الأول من «مسالك الأبصار»

من الباب السادس
في مملكة مصر والشام والحجاز

قلتُ : وأما الشّام فيُزرع غالبه على المطر ، وهو من جميع ما ذُكر في مصر من الحبوب . ومنه ماهو على سقي الأنهار وهو قليل . وبها أنواع الأشجار وأجناس الثمار [ط2/ 382] من التين ، والعنب ، والرّمّان ، والسّفرجل ، والتفاح ، والكمّثرى ، والأجاص ، والقراصيا ، والتّوت ، [ص 128 ب] والفرصاد ، والمشمش ، والزّعرور ، والخوخ ، وهو المسمّى عندهم الدّرّاقن . وأجلّها بدمشق من غالب ذلك على أنواع منوّعة وأجناس متعدّدة شتّى .

ومنها فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الرّبيع كالسّفرجل ، والتفّاح ، والرّمّان ، والعنب . وبها الجوز ، واللّوز ، والفُستق ، والبُندق . وبها الليمون ، والأترج ، والنارنج ، والكبّاد ، والموز ، وقصب السُّكّر من أغوارها يُحمل إليها من نحو يومين وأزيَد . وبها البطيخ الأصفر والأخضر على أنواع ، والخيار ، والقثّاء ، واليَقطين ، واللّفت ، والجزر ، والقَنّبيط ، والهَليون ، والباذنجان ، والمُلوخيّة ، والبَقْلة اليمانية ، والرِّجْلة ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة .

ونهردمشق الخاص بها «بَرَدَا» ، وبها غيره من الينابيع والأنهار المادّة فيما حولها .

وبها الإوز ، والدّجاج ، والحمام وكثير من أنواع الطير . ولا تكون الفراريج إلا بحضانة لا كما يُعمل في مصر ؛ ولهذا ذُكر أنه جاءها شخص من مصر في زمن المصيف وعمل بها في حاضرة العُقَيْبة معمل الفراريج ، وطلعت به الفراريج . فلمّا أتى زمن الخريف لم تطلع معه وخسر وترك ذلك وعاد إلى مصر[1] . وأسعار اللّحم أرخص من مصر ، وأما الدّجاج فنظيرها ، وأما الإوزّ فأغلى .

وبها العسل متوسط ، ويُعمل بها السكّر ومنه المكرّر ، وهو بأزيَد من سعره بمصر ، ولا يكثُر .

---

(1) والسّبب في ذلك بالطبع أن معدّل درجات الحرارة في إقليم الشام أخفض شتاء من مصر .

وبها أنواع الرّياحين : الآس ، والورد ، والبنفسج ، والنَّيلوفر ، والخِلاف ، والنّرجس ، والمنثور ، والياسمين ، والتّرنجان ، والمرزنجوش ، والنمّام ، والنّسرين . وإلى وردها وبنفسجها النهاية ، حتى أنه عطّل وَرْدُها وما يستخرج من مائه ما كان يُذكر من جُوري نَصيبين . وماء الورد يُنقل [ص 129 أ] إلى غالب البلاد .

وبالشّام الزّيتون الكثير ، ومنه يُحمل إلى كثير من البلاد . وبها أشياء كثيرة خاصّة بها .

وغالب مباني الشّام بالحجر ، ودُورها أصغر مقادير من دور مصر ، ولكنها أزيد زخرفة منها ، وإن كان الرُّخام بها أقل وإنما هو أحسن أنواعاً . وعناية أهل دمشق بالمباني كثيرة ، ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به [ط2/ 383] وتحسن أوضاعه . وإن كانت حلب أجلّ بناءً لعنايتهم بالحجر ، فدمشق أزين وأكثر رونقاً لتحكّم الماء على مدينتها وتسلّطه على جميع نواحيها .

وبجميع الشّام وجوه الخير كثيرة ، من المدارس ، والخوانق ، والرُّبُط ، والزّوايا للرجال والنساء ، والمارستانات ، وأوقاف البرّ والصدقات على اختلافها ، وخصوصاً دمشق فإنه لا يُطاوَل في ذلك باعها ولا يُحاوَل في هذه الغاية ارتفاعها . فأما مسجدها الجامع فهو الفارق بينها وبين ما سواها ، والفائق بحسنه على كل المباني .

وفي هذه المملكة مصر والشّام من محاسن الأشياء ولطائف الصنايع ما تكفي شهرته . وبها من أنواع الصنّاع في الأسلحة ، والقماش ، والزّركش ، والمصبوغ ، والكفت[1] وغير ذلك مما يكاد يُعدّ تفرّدها به ، والرّماح التي لا يُعمل في الدّنيا أحسن منها .

---

(1) التكفيت من صنائع دمشق المخصوصة البديعة ، يتمّ بتشطيب سطح المشغولات المعدنية ، ثم تطريزها بخيوط الفضة أو الذهب الخالصين عن طريق الدّق . وانتقلت الصنعة إلى طُليطلة بالأندلس باسم : Damasquinados . وفي الفرنسية تسمّى Damasquinage .

ذكر المملكة الثانية
وهي مملكة الشّام

وقاعدتها مدينة دمشق . وكانت الشّام يقال لها أرض كنعان ، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها ، وبقيت الشّام لبني إسرائيل إلى أن غلبت عليهم الرّوم وانتزعوها منهم ؛ قال التيفاشي في كتاب «سُرور النفس» .

قال الشريف الإدريسي في حدود الشّام : إنها من المشرق الجزيرة بينه وبين العراق ، وسميت الجزيرة لأنها بين نهري دجلة والفرات ، وهي أدنى الأرض التي ذكر الله عز وجل في سورة الرّوم . ومن بلاد الجزيرة نينوى مدينة يونس عليه السّلام ، وقاعدتها اليوم الموصل . ومنها الرّقة ، ونصّيبين ، وديار ربيعة وبني تغلب . والجزيرة هي التّخوم الفاصلة بين الشّام والعراق ، وحدّها النّهران : دجلة والفرات . وحدود الشّام من الجنوب وادي القُرى ، ومن الغرب عسقلان والحاجز الذي بين البحرين حيث مدائن لُوط عليه السّلام . وطوله أكثر من شهر ونحوه ، بعضه في الإقليم الرابع وبعضه في الثالث . والتّوجه في قبلته إلى الميزاب إلى الركن الشّامي من جهة الشرق ، وأكثر أهله يمن ، وفيهم مَعَدّيّة .

ثم قال : [ص 158 ب] روى الحافظ ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن في «تاريخ الشّام» بسنده إلى الشعبي قال : لما هبط آدم من الجنّة وانتشر ولده أرّخ بنوه من هبوط آدم ، وكان [ط2/ 429] ذلك التأريخ حتى بعث الله نوحاً فأرّخوا بمبعث نوح حتى كان الغرق فهلك من كان على وجه الأرض . فلما هبط نوح وذريته وكل من كان في السفينة إلى الأرض ، قسم الأرض بين ولده أثلاثاً فجعل لسام وسط الأرض ، فيها بيت المقدس ، والنيل ، والفرات ، والدّجلة ، وسيحان ، وجيحان ، وذلك ما بين فَيْسون إلى نهر النيل ، وما بين منحر الرّيح الجنوب إلى منحر الشمال . وجعل لحام قسمة غربي النيل فما وراءه إلى منحر ريح الدّبور ، وجعل قسمة يافث في فيسون فما وراءه إلى منحر ريح الصّبا . ثم تفرّق بنو نوح من بابل إلى سائر جهات الأرض ، فلحقت كلّ طائفة منهم بجهة .

وفي رواية الحافظ من طريق أخر عن هشام بن محمد عن أبيه قال :

كان الذين عُقد لهم الألوية ، يعني ولد نوح عليه السّلام ، فنزل بنو سام المجدل سُرّة الأرض ، وهو ما بين ساتِيدَما إلى البحر ، وما بين اليمن إلى الشّام . وجعل الله النبوّة ، والكتاب ، والجمال ، والأدمة ، والبياض فيهم .

ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدّبور ، ويقال لتلك الناحية الدّاروم ؛ وجعل الله فيهم أدَمَةً وبياضاً قليلاً ، وأعمر بلادهم ، ورفع عنهم الطاعون ؛ وجعل في أرضهم الأثل ، والأراك ، والعُشَر ، والغار ، والنّخل ؛ وجرت الشمس والقمر في سمائهم .

وبنو يافث الصقور مجرى الشّمال [ص 159 أ] والصَّبا ، وفيهم الحُمرة والسَّنا ، وأجلا الله أرضهم ، فاشتدّ بردها ، وأخلا سماءهم فليس يجري فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية لأنهم صدروا تحت بنات نعش ، والجدي والفرقدين ، وابتُلوا بالطاعون .

ثم لحقت عاد بالشّحر فعليه هلكوا بواد يقال له مغيث . ولحقت عَبيل بموضع يثرب ، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء . ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عبيلاً ونزلوا موضع الجُحفة ، وأقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسمّيت الجُحفة . ولحقت ثَمُود بالحِجر ومايليه فهلكوا ثَمَّ . ولحقت طسم وجَديس باليَمامة ، وإنما سميت اليَمامة بامرأة منهم ، فهلكوا . [ط2/ 430] ولحقت أميم بأرض أبار فهلكوا بها ، وهي بين اليمامة والشّحر ؛ ولا يصل اليوم إليها أحد ؛ غلبت عليها الجنّ ، وسُمّيت أبار بأبار بن أميم . ولحقت بنو يقطن ابن عابر باليمن فسُمّيت اليمن حين تيامنوا إليها .

ولحق قوم من بني كنعان بن حام بالشّام فسُمّيت الشّام حين تشاءموا إليها . وكانت الشّام يقال لها أرض كنعان ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها ، وكانت الشّام لبني إسرائيل . ووثبت الرّوم على بني إسرائيل فقتلوهم وأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم . وجاءت العرب فغلبوا على الشّام .

قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري : الشّام فيه وجهان ؛ يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشّؤمى وهي اليُسرى ، ويجوز أن يكون فُعْلَى من العلوم . ويقال أنجد ؛ أتى نجداً ، وأعرق ؛ دخل العراق ، وأعمن ؛ أتى عمّان ، وأشأم ؛ أتى الشّام [ص 159 ب] ، ومَصَّر ، وكوَّف .

وفي التّنزيل العزيز : ﴿وأصحابُ المَشْأمَة﴾ ، ورجلٌ شآم من أهل الشّام . وسُمّيت اليمن لأنها عن يمين الكعبة ، وسُمّيت الشّام لأنها عن شمال الكعبة . قيل : كان اسم الشّام أول الأمر سُوْرِيَة[1] .

* * *

(1) هذا نحرٌ علمي طيّب من المؤلّف ، فهو لم يفتهُ تبيان هذه المسألة الهامة حول اسم سورية القديم . وإن كان كتّاب العربية على امتداد العصور قد اقتصروا على اسم (الشام) فقط للإقليم الجغرافي الطبيعي ذاته ، الواقع في أقصى غرب قارّة آسيا ، بشرقي حوض البحر الأبيض المتوسّط ، والذي يضم سورية ولبنان وفلسطين والأردن .
أما حول التسمية القديمة (سورية) ، فأول من تطرّق إلى بحثها في عصرنا كان المستشرق الألماني الشهير تيودور نولدكه Theodor Nöldeke في عام 1871 م ، وهو يرى أنها تسمية يونانية Συρια ، أطلقت بالأصل على بلاد آشور (أسوريا باليونانية) ، ثم انتقلت الدّلالة بعد سقوط نينوى الآشورية عام 612 ق . م . وتوسّعت جغرافياً لتشمل المنطقة المُتاخمة لها غرباً (أي إقليم سورية الطبيعية) .
واعتبر المؤرخ الإغريقي الكبير هيرودوتُس التسمية تشمل سائر مناطق بلاد الشام كالتالي : سورية الداخلية الشمالية ، سورية السّاحلية (فينيقية) ، سورية الجنوبية (فلسطين) . وفي وصفه لوقائع الحرب الفارسية - اليونانية الثانية (481-479 ق . م) ، أورد في تاريخه الشهير (الكتاب السابع ، 63) في وصف جنود الآشوريين ، المؤلفين من مختلف شعوب الإمبراطورية الفارسية : «وكان اليونانيون يسمّونهم سُوريين ، والبرابرة آشوريين» .
هذا ما أراه الأصوب في اشتقاق اسم سورية ، برغم تعدّد الآراء العلمية وتباينها الكبير .

ذكر دمشق وبنائها

رُوي عن كعب الأحبار قال : أول حائط وُضع على وجه الأرض بعد الطُوفان حائط حرّان ودمشق ثم بابل . وفي رواية أخرى أن نوحاً لما نزل من الجبل أشرف فرأى تل حرّان بين نهري جلاّب وديصان ، فأتاه فبنى حائط حرّان ، ثم سار فبنى دمشق ، ثم رجع إلى بابل فبناها .

وفي رواية أخرى ، أن جيرون بن سعد بن عاد بن عُوص نزل دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون ، وهي ﴿إرَم ذات العِماد﴾ ، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق . قال الجاحظ : وجدتُ في بعض الكتب أن جيرون وبريد كانا أخوين وهما ابنا سعد بن لُقمان بن عاد ، وهما اللذان يُعرف جيرون وباب البريد بدمشق بهما .

وفي رواية عن وهب بن منبّه قال : ودمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل ، عليه السّلام ، وكان حبشياً [ط2/ 431] وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسم الغلام دمشق ، وكان متصرّفاً في جميع مال إبراهيم .

وروى الحافظ أنه وجد في كتاب أبي عبيدة ابن المثّنى المسمى بـ «فضائل الفُرس» أن بيوراسب الملك الكبراني بنى مدينة بابل ، ومدينة صور ، ومدينة دمشق .

[ص 160 أ] قال الحافظ : بلغني من وجه آخر أنه لما رجع ذو القرنين من المشرق وعمل السدّ بين أهل خُراسان وبين يأجوج ومأجوج[1] سار يريد المغرب ، فلما بلغ الشّام وصعد على عقبة دُمَّر ، أبصر هذا الموضع الذي فيه اليوم مدينة دمشق . وكان هذا الوادي الذي فيه نهر دمشق غيضة أرز ؛ قيل إنّ الأرزة التي وُجدت في سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة من بقايا تلك الغيضة .

---

(1) هو السدّ المذكور في القرآن الكريم (الكهف : 94) ، ومن خلال الشائع لدى الجغرافيين العرب في القرون الوسطى - كالعُمَري - نجد أنهم ربما ينسبونه لسور الصّين العظيم ؟

فلما نظر ذو القرنين إلى تلك الغيضة ؛ وكان هذا الماء الذي هو في هذه الأنهار اليوم مفترقٌ ؛ مجتمعاً في وادٍ واحد ؛ فأخذ ذو القرنين يفكّر كيف يبني فيه مدينة ، وكان أكثر فكره فيه وتعجبه منه ، أنه نظر إلى جبل يدور بذلك الموضع وبالغيضة كلها . وكان له غلام يُقال له دمشقش على جميع ملكه .

ولما نزل ذو القرنين من عقبة دمّر ، سار حتى نزل في موضع القرية المعروفة بيَلْدا من دمشق على ثلاثة أميال ، فأمر ذوالقرنين أن يُحفر له في ذلك الموضع حفيرة ففعلوا ذلك ، ثم أمر بردّ التراب الذي أُخرج منها . فلما رُدّ التراب لم تمتلىء الحفيرة ، فقال لغلامه دمشقش : إرحل فإني كنت نويتُ أن أؤسّس في هذا الموضع مدينة ، فأمّا إذ بان لي منه هذا فما يصلح أن يكون هاهنا مدينة . قال : ولِمَ ؟ قال ذو القرنين : إن بُني هاهنا مدينة فإنها لا يكون زرعُها يكفي أهلها !

قال : ثم رحل ذو القرنين حتى وصل إلى البثنيّة وحوران [و] أشرف على تلك السّعة ، ونظر إلى تلك التّربة الحمراء ، فأمر أن يُناول من ذلك التّراب ؛ فلما صار في يده أعجبه لأنه نظر إلى تُربة كأنها الزّعفران . فنزل هناك وأمر أن تحفر حُفرة [ص 160 ب] فحُفرت ، وأمر بردّ التراب إلى المكان الذي أُخرج منه فملأه وفضل منه تراب كثير ؛ فقال ذو القرنين لغلامه دمشقش : إرجع إلى ذلك الموضع الذي فيه الأرز ، فاقطع ذلك الشجر ، وابنِ على حافّة الوادي [ط2/ 432] مدينة وسمّها على اسمك ، فهناك يصلح أن تكون مدينة ، وهذا الموضع منه قُوتها وعليه ميرتُها .

قال الحافظ : وعلامة صحّة ذلك أن أهل غوطة دمشق لاتكفيهم غلاّتهم حتى يتكفّوا من البثنيّة وحوران .

فرجع دمشقش وبنى المدينة ، وعمل لها حصناً ، وهي المدينة الدّاخلة . وعمل لها أربعة أبواب : جيرون ، مع باب البريد ، مع باب الحديد في سوق الأساكفة ، مع باب الفراديس الداخلة . هذه كانت المدينة ؛ إذا أُغلقت هذه الأبواب فقد أُغلقت المدينة ، وخارج هذه الأبواب كان مرعى .

فبناها دمشقش وسكنها ، ومات فيها . وكان قد بنى الموضع الذي هو الآن مسجدها الجامع كنيسةً يعبد الله فيها إلى أن مات .

ورُوي أن باني دمشق بناها على الكواكب السّبعة ، وأن المُشتري كان طالع بنائها . وجعل لها سبعة أبواب وصوّر على كل باب أحد الكواكب السبعة ، وصوّر على باب كيسان صورة زُحَل ، فخربت الصّور التي على الأبواب كلها إلا باب كيسان فإن صورة زُحل باقية عليه إلى الآن[1] .

وروى الحافظ عن أبي القاسم تمّام بن محمد قال : قرأتُ في كتاب عتيق : باب كيسان لزحل ، باب شرقي للشمس ، باب توما للزُّهرة ، باب الصغير للمُشتري ، باب الجابية للمرّيخ ، باب الفَراديس [ص 161 أ] لعُطارد ، باب الفراديس الآخر المسدود للقمر .

وروى الحافظ عن أبي مسهر قال : إن ملك دمشق بنى حصن دمشق الذي حول المسجد داخل المدينة على مناحة مسجد بيت المقدس ، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس فوضعها على أبوابه ، فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب مسجد بيت المقدس .

* * *

(1) إن ما رآه ابن فضل الله على باب كيسان ، في الزاوية الجنوبية الشرقية لسور المدينة ، وظنّه صورة الرّمز الفلكي لكوكب زُحَل ، ما هو في نظري إلا شعار بولس (صليب وحرف P) ناشر الدّيانة المسيحية في أوروبا ، والذي أتى دمشق في حوالي عام 37 م ، فجرت له بها وقائع شهيرة ثم هرب من المدينة عبر الباب المذكور . فارتبطت الحادثة بأذهان مسيحيي دمشق ، ولعلّهم جعلوا على الباب صليب بولس الذي يحمل حرف P باللاتينية ، في أيّام الرّوم البيزنطيين قبل الفتح الإسلامي . وفي عصرنا في عام 1939 لمّا قام المعمار الفرنسي أوتاش دُلوريه Eustache de Lorey ببناء كنيسة داخل الباب تخليداً للحادثة ، قام بوضع الصليب المذكور على البناء الخارجي للباب ، وهو ماثل إلى أيامنا .

أسماء بعض جهاتها

خرّج الحافظ مرفوعاً ، أن إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السّلام ، ولـد لـه اثنا عشر ولداً فسمّى منهم دُوماً وبه سُمّيت دومة الجَنْدَل . وفي رواية أخرى أنه كان للُوط أربعة بنين وابنتان : مآب ، وعمّـان ، وجلاّن ، وملكـان ؛ والبنات : زُغَر ، [ط2/ 433] والرُّبّة . فعمّان مدينة البلقاء سُمّيت بعمّان ، ومُآب من سائر البلقاء سُمّيت بمآب ، وعين زُغَر سُمّيت بزُغر بنت لوط ، والرُّبّة سُمّيت بالرُّبّة .

قال الشّرقي ابن القطامي : وسُمّيت صَيْدا بصَيْـدون بن صَدُوقا بن كنعان ابن حام بن نُوح ، وسُمّيت أريحا بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بـن نُوح ، وسُمّيت البلقاء بأبلق بن عمّان بن لوط ، لأنـه ملكها وسكنها . قـال : وقيل إن الكسوة سمّيت بذلك لأن غسّان قتلت بها رُسُل ملك الرُّوم ، قدموا عليهم في طلب الجزية فقتلوهم وأخذوا كسوتهم . هذا آخر مانقله التّيفاشي .

قلتُ : وبدمشق مهبط عيسى عليه السّلام ، وهي فُسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى ، وقد تقدّم القول إن الخوارزمي قال : طُفتُ جوانب الأرض الأربعة ، فكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على غيرها ، كأنها الجنّـةُ صُوِّرت [ص 161 ب] على وجه الأرض .

وأما وصفُها فكثير جداً ، يعجبني منه قول ابن عُنَيْن (من الطويل) :

دمشقُ فبي شوقٌ إليها مُبَرِّحٌ ... وإن لـجّ واشٍ أو ألـحّ عَـذُولُ
بلادٌ بها الحصباءُ دُرٌّ ، وتُربُها ... عَبيرٌ ، وأنفاس الشَّمال شَمولُ
تَسَلسَلَ فيها ماؤها وهو مُطْلَقٌ ... وصَحَّ نسيمُ الرَّوضِ وهو عَليلُ

وقول عَرْقَلَة (من البسيط) :

ما بين سَطَرا ومُقْرى جَنّةٌ عَرَضَت ... أنهارَها من خلال الآس والبان
يظلُّ منثورُها في الأرض منتثراً ... كأنّما صِيغَ من دُرٍّ ومُرجان
فالطَّيرُ يصدحُ في أغصانها سَحَراً ... هـذا هو العَيْشُ إلا أنّـه فاني

وكذلك قول ابن عُنَين وقد نُفي منها (من الكامل) :

فسَقى دمشقَ ووادييها والحمى ... متواصلُ الإرعاد مُنفصمُ العُرى
حتى ترى وجهَ الأرض بعارض ... أحوى ووجهَ الدَّوْح أزهرَ نَيِّرا
وأعادَ أياماً قطعتُ حميدةً ... ما بين حرّة عالقين وعُكبَرا
[2/ 434] تلك المنازلُ لا أعقّةُ عالج ... ورمالُ كاظمة ولا وادي القُرى
أرضٌ إذا مرّت بها ريحُ الصَّبا ... حملتْ عن الأغصان مِسكاً أذْفَرا
فارقتُها لا عن رضىً وهجرتُها ... لا عن قِلىً ورحلتُ لا مُتخيِّرا

وقول البُحتُري (من البسيط) :

العيشُ في ظلِّ داريّا إذا بَرَدَا ... والرّاحُ نمزجُها بالرّاح من بَرَدَا
إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلد ... مُستحسنٍ وزمانٍ يُشبه البَلَدَا
أما دمشقُ فقد أبدتْ محاسنَها ... وقد وفى لك مُطريها بما وَعَدَا
يُمسي السَّحابُ على أجبالها فِرَقًا ... ويُصبحُ النَّبتُ في صحرائها بَدَدَا
فلستَ تُبصرُ إلا وادياً خَضِراً ... أو يانعاً خَضِلاً أو طائراً غَرِدَا
كأنّما القيظُ ولّى بعد جيئته ... أو الرّبيعُ أتى من بعدما بَعُدَا

ومُدامتها هي الموصوفة في الآفاق ، المعروفة في مغارسها بكَرَم الأعراق ، تنشر كاساتها ألويةً حُمْرا ، تتوقّد في صفحات الخدود جَمْرا ، فمن حمراء كنار تتلهّب ، ومن صفراء كالزّجاج المذهّب ، ومن بيضاء كأنها نقطة غدير ، أو فضّة طافت بها قوارير ، أو وردية تتضاحك في الشّفاه اللُّعْس ثغورها المفتَّرة ، ويخالطها الصّفار كخدٍّ أبيض تشرّبَ بحُمرة ، تضيء في دُجى الليل مصباحاً ، وتُهدي إلى الجلساء بريّحها تُفاحاً .

وببلاد «الشُّوف» منها ما يرقُّ عن الزُّجاج ، ويخفُّ عن مخالطة الامتزاج ، فيعلق فوق الماء على الأقداح ، وتتعلّى حمرتُه عليه كالشَّفَق على المصباح ، يطيرُ عليها الشُّعاع ، ويطيبُ إلى قهقهة قِيانها السَّماع .

و«صَيْدنايا»[1] معدن ذهبها ، وأفق كوكبها ، وإليها أشار ابن عُنَين بقوله (من الكامل) :

ومُدامة من صَيْدنايا نشرُها ... من عَنْبر وقميصها من صندل
مسكيّة النَّفحات يَشْرُفُ أصلُها ... عن بابل ويَجلُّ عن قُطْرَبُّل

وقد خالف القاضي الفاضل الناس حيث قال يذمّ دمشق :

«ودخلتُ دمشق وأنا [ط2/ 435] مُلْتاثٌ لتغيّر مائها وهوائها وأبنيتها وأبنائها وأوديتها ، ومن لي بمصر فإني أبيع بَرَدًا بشُربة من مائها ، فالطَّلل [ص 162 ب] هايل ولا طائل ، وما سمعناه من تلك الفضائل مُتضائل» .

وقال فيها وقد وقع عليها الثلج : «وأما دمشق فآدرها اليوم للثّلج قوالب ، وقد أخذ في أن يذوب ، فالشّوارع تحتاج إلى مراكب» .

وبدمشق من كل ما في مصر من الوظائف . وليس هذا في بقية بلاد الشّام ، مثل قضاء القضاة الأربعة من المذاهب الأربعة ، وقاضي عسكر ، وخزانة تخرج منها الإنفاقات والخِلع ، وخزائن سلاح وزردخانات[2] ، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة ، حتى لو حضر السُّلطان إليها جريدةً ، وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته .

وكلّ أمير فيها أو في غيرها من الشّام ، أو أُوليَ ربٌّ وظيفة من عادة متولّيها أن يخلع عليه ، أو خَدَمَ أحدٌ خدمةً في مهمّ من المهمّات ، أو أمر من الأمور يستوجب عليه خلعةً أو إنعاماً ، ولم يُخلع عليه من مصر أو لم يُنعَم عليه من مصر ، كان من دمشق خلعتُه وإنعامُه .

---

(1) بلدة معروفة في هضبة القلمون ، إلى الشمال من دمشق بـ 32 كلم . ذكر ياقوت : بلد من أعمال دمشق ، مشهور بكثرة الكروم والخمر الفائق . معجم البلدان 3 : 438 .

(2) حول وظيفة قضاء القضاة انظر صبح الأعشى 4 : 34 ، وحول قضاء العسكر 4 : 36 ، وحول خزانة الخاص (للإنفاقات) 4 : 31 ، وخزائن السّلاح 4 : 32 . وراجع : Gaudefroy-Demombynes: *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, Paris 1923.

ومنها تخرج أعلام الأمراء وطلائعهم وشعار الطبلخانات . وفي خزائن السّلاح بها يعمل المجانيق والسّلاح والزّردخانات ويُحمل إلى جميع الشّام وتُعمر به البلاد والقلاع ، ومن قلعتها يُجرَّد الرّجال وأرباب الصنايع إلى جميع قلاع الشّام ، ويُندب في التجاريد والمهمّات .

وهي مدينةٌ جَليلة ، وقلعتها مُرَجّلة على الأرض[1] ، يحيط بها وبالمدينة أسوار عليّةٌ ، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة ، وإذا دعت الحاجة أُطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيُعمّها .

وهي [ص 163 أ] في وطاءة مستوية من الأرض ، بارزة عن الوادي المنحطّ عن مُنتهى ذيل الجبل ، مكشوفة الجوانب لمرّ الهواء ، إلا من الشّمال فإنه محجوب بجبل قاسيون ، وبهذا تُعاب وتُنسب إلى الوخامة ، ولولا جبلها الغربي الملبَّس بالثلوج صيفاً وشتاءً لكان أمرُها في هذا أشدّ وحال سكانه أشقّ ، ولكنه دِرياقُ ذلك السُّم ، ودواء ذلك الداء .

وهي مدينةٌ حَسَنةُ الترتيب ، جليلةُ الأبنية [ط2/ 436] بالحجر والخشب . والآجرُّ مُضبَّبٌ بين مداميك البناء بالخشب الملبَّن . وأخشابها من خير أخشاب الأرض يسمى الحَوْر ، يُنصب في بساتينها ويُربّى ويُقطع في انتهائه يُعطي اللّيان ، فاذا انكسر عودٌ منها يبقى في مكانه متماسكاً عدة سنين وأكثر ، ولو أنه متعلق بقدر شعرة واحدة .

ولهذه المدينة حواضرُ فسيحةٌ من جهاتها الأربع ، والماء حاكمٌ عليها من جميع نواحيها بإتقان مُحكم ، على ما نذكره في صفة نهرها . وهذه المدينة مُقسَّمةٌ على جوانب الجامع بها ، لا على أنه واسطتُها من كل الجهات ، فإن ما بينه وبين نهاية المدينة من القبلة ، وما بينه وبين نهاية المدينة من الشرق ، أوسع مدى مما بينه إلى نهاية المدينة من الجانبين الآخرين الشمالي والغربي . وأشرف هذه المدينة ما قَرُبَ إلى جامعها .

---

(1) أي على مستوى أرض المدينة لانعدام وجود تل تقوم عليه ، مثلها في ذلك قلعة بُصرى .

وبها الدّيار الجليلة ، المُذهبة السُّقوف ، المفروشة بالرُّخام ، ومنها ما هو مؤزَّر الحيطان بالرُّخام المنوّع المفصَّل بالصَّدَف والذّهب ، وبرك الماء الجارية . وقد يجري الماء في الدّار في أماكن[1] . وبها الطِّباق الرفيعة ، والأفنية [ص 163 ب] الوسيعة ، والأسواق المليحة التّرتيب ، والقياسر الحصينة .

وبها الصنّاع المَهَرَة في كل فن من البنّائين ، وصنّاع السلاح ، والمَصُوغ ، والزَّركش ، وغير ذلك . و تُعْمَل بها لطائف الأعمال من كل نوع ، وصنّاعها تفخر على بقية صنّاع هذه المملكة إلا فيما قلّ ، مما بمصر والشّام والعراق والرُّوم ، فتستمدّ من لطائفها خصوصاً في القسي ، والنُّحاس المطعَّم ، والزّجاج المذهّب ، وجلود الخراف المدبوغة بالقَرَظ المضروب بها المثل .

وهي إحدى جنات الدّنيا الأربع . قال [أبو بكر] الخوارزمي : رأيتُ جنّات الدنيا الأربع ، وكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على سواها ، كأنها الجنّة على وجه الأرض . حسبما ذكرناه .

وبها البساتين الأنيقة تتسلسلُ جداولُها ، وتفيء دوحاتها ، وتتمايل أغصانها ، وتغرّد أطيارها ، وفي بساتين النُّزَه بها العمائر الضخمة ، والجواسق العليَّة ، والبرك العميقة ، والبحيرات [ط2/ 437] الممتدّة ، عليها العُرُش الممدّدة المظلّلة ، تتقابل بها الأواوين والمجالس ، وتحفُّ بها الغِراس والنصوب المطرّزة بالسّرو الملتفّ البُرود ، والحَوْر الممشوق القُدود ، والرّياحين المتأرّجة الطِّيب ، والفواكه الجنيَّة ، والثّمرات الشهية ، والبدائع التي تغنيها شهرتها عن الوصف .

---

(1) لم يبق بدمشق دُور من عهد المماليك ، لكن الوصف ينطبق أيضاً على ما بُني بعدُ في العهد العثماني ، فطراز العمارة والإكساء والزّخرفة دام بدمشق مُتوارثاً . ودور دمشق القديمة يعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، لكن ثمّة أمثلة بقيت بها أجزاء مملوكيّة : دار أُردُبُش من مطلع القرن السادس عشر ، أظنّها دار سعيد باشا القوتلي في الكلاّسة ؛ دار العقّاد بسوق الصّوف ؛ دار بقصر حجّاج ؛ دار ابن فضل الله التالي ذكرها أدناه ؛ دار الكمال الحمراوي (دار الأسطواني اليوم) ؛ تفاصيل بقصر العظم ؛ وسقف خشبي قديم مملوكي بدير عطيّة . وكذلك فثمّة مثال هامّ وفريد على نمط يشبه عمارة القصور الخاصّة بدمشق في عهد المماليك ، يلوح في عمارة المدرسة الجَقْمَقيّة الرّائعة بأناقتها .

وبها في سفح قاسيون الصالحية ، وهي مدينة ممتدّة في سفح الجبل بإزاء المدينة في طول مدىً . ذات بيوت ، وجنائن ، ومدارس ، [ص 164 أ] وربُط ، وتُرَب جليلة ، وعمائر ضخمة ، ومارستان ، وأسواق حافلة بالبزّ وغيره . وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة . وجميع الصالحية مُشرف على دمشق وغوطتها ، وكل بساتينها وشَرَفَيْها وميادينها ومجرى واديها ، وبجانبها القُرى .

وبجانبها الغربي كان دير مُرّان المشهور . ومكانه الآن من المدرسة المعظّمية إلى قريب عقبة دُمَّر . ومنه هناك بقايا آثار .

وأما حواضر دمشق ، فهي كما قدّمنا القول جليلة من جميع جهاتها ، وأجلُّها ما هو في جانبها الغربي والشمالي . فأما الغربي ففيه قلعتها . وتحت القلعة ساحة فسيحة بها سوقُ الخَيْل ، على ضفّة الوادي ، ويُخرج إليها من جوانب المدينة من أمتعة الجند ، فتباع في أيام المواكب بها ، وتنتهي فيما يليها من الوادي إلى شَرَفَين محيطين به قبلة وشآماً ، في ذيل كل منهما ميدان أخضر بالنّجيل ، والوادي يشقّ بينهما .

وفي الميدان القبلي منهما «القصر الأبلق»[1] ، بناه الملك الظاهر بَيْبَرس البُنْدُقْداري الصّالحي . مبنيٌ من وجه الأرض الى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر ، مدماكاً من هذا ومدماكاً من هذا ، بتأليف غريب وإحكام عجيب . ويُدخل من دَركاه له على جسر راكباً بعقد على مجرى الوادي إلى إيوان برّاني يطلّ على الميدان القبلي ، استجده آقوش الأفرم زمان نيابته بها . ثم يُدخل إلى القصر من دهاليز فسيحة ، تشتمل على قاعات ملوكية تستوقف الأبصار ، وتستوهب الشّموس من أشعّتها الأنوار ، بالرُّخام الملون ، قائماً ونائماً ، في مفارشها وصدورها ، وأعاليها وأسافلها ، مموّهة بالذهب [ط2/ 438] واللازَوَرْد والفصّ المذهب ، وأُزُر من الرُّخام إلى سِجْف السُّقوف .

---

(1) بني القصر بين 665-668 هـ ، وبقي في عهد المماليك منزلاً رسمياً للوافدين من السّلاطين والأمراء إلى أن أخربه المغول 803 هـ ، ثم بُنيت موضعه تكيّة السّلطان سليمان القانوني عام 967 هـ . راجع ما نشرتُه من الجزء الثاني من مفاكهة الخلاّن لابن طولون ، 32 .

وبالدّار الكبرى بها إيوانان متقابلان تطلّ شبابيكُ شرقيّهما على الميدان الأخضر الممتدّ ، وغربيهما على شاطيء الوادي المخضرّ ، والنّهر به كأنه ذائب الفضّة . وله الرّفارف العالية المناغية للسُّحُب ، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة . والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكيّة والإصطبلات السُّلطانية ، والحمّام ، والمنافع المكمّلة لسائر الأغراض .

وتجاه باب القصر باب يُتوصل من رحبته إلى الميدان الشمالي ، وعلى الشَّرَفين المقدَّم ذكرهما أبنية جليلة من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربُط وخوانق وزوايا وحمامات ، ممتدّة على جانبين ممتدّين طول الوادي[1] .

وقد بنى في هذه السنين نائب السّلطنة[2] بها على الشَّرَف القبلي منها جامعاً بديعاً ، تليه تُربة ضخمة ، وداراً مُلوكية . ومدَّ قُبالة الجامع سُوقاً لطيفاً وحمّاماً فائقاً زاد المكان حُسناً على حُسن ، وإبداعاً على إبداع .

وأما حاضرها الشمالي ، ويسمى العُقَيْبَة ، فهو مدينة مستقلّة بذاتها ذات جوامع ومساجد ومدارس وربُط وخوانق وزوايا وأسواق جليلة وحمّامات . وبها ديار كثيرة للأمراء والجُند .

وأما نهر دمشق ، وهو بَرَدَا ، فمجراه من عينين : البعيدة منهما دون قرية تسمّى الزَّبَدَاني ، ودونها عينٌ بقرية تُسمّى الفِيجة بذيل جبل عَزَّتا ، والماء خارج من صدع في نهاية سفل الجبل ، وقد عُقد على مخرج مائه قبو رُومي البناء[3] ، ثم ترفده منابع في مجرى النّهر .

---

(1) انظر ما تقدّم أعلاه من وصف هام للقصر الأبلق في نصّ الحِمْيَري . وكذلك وصفه ابن طولون في «ذخائر القصر» (مخطوط) ، والأيّوبي في «الرّوَض العاطر» (نشرناه منه) .

(2) أي سيف الدّين تنكز النّاصري ، نائب دمشق بأيام النّاصر محمد ابن قلاوون ، تولى بين 712-740 هـ . الوافي بالوفيات للصّلاح الصّفدي 15 : 423 ؛ الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني 1 : 55 . بنى جامعه عام 718 هـ ، بقي منه مئذنته البديعة ومحرابه والتّربة .

(3) هذا صحيح ، فالبناء بيزنطي وفيه اسم الإمبراطور مرقيانوس (حكم 450-457 م) ، كما قرأتُه منقوشاً باليونانية بداخل حَرَم النّبع ، وأوردتُه في بحث «خطط ريف دمشق» .

ثم يُقسم النهر أربعة : اثنان عن اليمين واثنان عن الشمال ، مرفوعان على مجرى النهر في قرارة الوادي ، دائمة بمقسم معلوم .

وعليه ألفاف البساتين ممتدّة من الجانبين ، الى أن يمرّ على المكان المسمّى بالرّبوة . وقد بنى الملك العادل الشهيد نور الدّين محمود بن زنكي ، رحمه الله ، بها المقام المعروف بمهد عيسى[(1)] . يقال إن مريم أوَتْ إليه بولدها عيسى عليه السّلام ، وإن هذه الرَّبوة هي المعنيّة بقوله تعالى : ﴿وآويناهما إلى رَبْوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين﴾ .

ومنظر هذا الوادي [ط2/ 439] من أعجب المناظر لتراكم الظلّ والماء ، وإظلال الشّمس والهواء ، وافتراش الجبلين المُحدقين به في أرضه بالبنفسج ، تحت الأشجار المتمايلة على غصون البان ، تتفتّح بينهما خدود الورد ، وتفترّ مباسم الياسمين ، وتندلق ألسنُ السَّوْسَن ، ويتجاوب فيها هدير الماء والحمام ، [ص 165 ب] وتتلاقى خيول النّسيمين ، الظّاهر من الشّمال على منابت الشّيح ، ومن القبلة على الحدائق الفيح .

وإلى جانب هذا الوادي ، في قبلته بشمال ، سطحٌ[(2)] يمتدّ على ظاهر المزّة كأنه قطعة بَيداء مُقفرة ينبت بها الشّيح والقَيصوم ، وتتلاعبُ بها الصَّبا والدَّبور ، عُرِفت بصحّة الهواء وفُسحة الفضاء ، فطاب به ما جاورها ، وصحّ لأجله ما قاربَها .

---

(1) ذكر العُمري مهد عيسى بالرّبوة في الجزء الأول من كتابه ، 1 : 206-208 . لكن لم أنقل ذلك هنا على اعتبار يقتصر على المرويات الدّينية دون وصف ؛ وانظر رحلة ابن بطوطة أدناه ، وهو معاصر للعُمري ؛ والإشارات إلى معرفة الزّيارات للهروي ، 11 .

(2) يرد ذكر «سطح المزّة» موضع استسقاء أهل دمشق في مصادر العهد المملوكي بالقرنين الثامن والتاسع للهجرة ، كتاريخ ابن قاضي شُهبة ويوميّات الشّهاب ابن طوق وكتب ابن طولون لكن المُراد به كان مُبهماً ، إلى أن وضّحه لنا العُمري هنا . ويمكننا تحديده للمزّة الأولى بأنه شرقي المزّة القديمة ، بما يشمل السّيلون (مشفى المواساة) وساحة المواساة وأول طريق الشيخ سَعد ومبتدأ الطريق الآخذ إلى أوتوستراد المزّة وكفرسوسة جنوباً ، وإلى الجمارك شرقاً . ويُلاحظ بوضوح أن قرية المزّة القديمة تنخفض فعلاً عن هذا السّطح .

ثم نعود إلى ذكر النهر ، وتُسمّى الأنهار السّبعة : مجرى الوادي والستّة المقسومة . فمجرى الوادي بَرَدَا ، فاق عليه هذا الاسم لا يُعرف بغيره . وعلى سَمْت بَرَدَا في الجانب الغربي الأعلى الآخذ قبلةً نهرُ داريّا ، ودونه المزّة ، ودونه نهر القَنَوات ، ودونه نهر باناس . وعلى يُسرة بَرَدَا في الجانب الشرقي الآخذ شمالاً نهرُ يزيد ، ودونه نهر ثورا .

فأما القنوات وباناس فهما نهرا المدينة ، حاكمان عليها ومسلّطان على ديارها . يدخل باناس القلعة بها ، ثم ينقسم قسمين : قسم للجامع وقسم للقلعة ، ثم ينقسم كل قسم منهما على تقاسيم تتفرّق في المدينة بأصابع مقسومة وحقوق معلومة . وكذلك ينقسم القنوات في المدينة ، ولا مدخل له في القلعة ولا الجامع .

ويجري الماء في قنيّ مدفونة في الأرض إلى أن يصل إلى مستحقاتها وتتّسع في منافعها . ثم تنصبّ فضلات الماء والبِرَك ومجاري [ص 166 أ] الميضاوات والمُرتفقات إلى قُنيّ وفُسَح معقودة تحت أزجات الماء المشروب . ثم تتجمع وتتنهّر وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقي الغيطان .

وأما بقيّة الأنهر ، خلا مَجَر بَرَدَا ، فإنّها تنصرف إلى البساتين والغيطان وعليها القُصور والبُنيان ، خصوصاً ثورا فإنّه نيلُ دمشق ، عليه أجلُّ مبانيهم وبه متنزهاتهم ، وإليه أكثر تسيارهم وتوجّهاتهم ، يخالُه من يراهُ زُمُرّدةً خضراء لتراكم الأفياء عليه ، والتفاف الدَّوح من جانبيه .

ويجري [ط2/ 440] يزيد في ذيل الصالحيّة ، يشقّ خطّاً في عمارتها .

وأمّا مجرّ بَرَدَا فإنه تتفرّق منه فرقةٌ بجانب المدينة تدخل إلى داخل سُورها وتدور به أرحاؤها ، وينصبُّ باقيها في مجرى الوادي ، إلى أن يخرج من حدود العمارة والأرحاء المنصوبة عليه إلى تتمّة الوادي ، تحفّ به الغياض المتكاثفة من السَّفَرجل والحور ، والبساتين . ثم يرمي إلى ظاهر قرى دمشق يسقي ما يَحْكُم عليه ، ثم ينصبّ في بحيرة هناك متّصلة بالبريّة .

هذه أمّهات الأنهار من بَرَدَا وما ينقسم منه[1] . على أن كلّ نهر من هذه الأنهار تنقسم منه أنهار كبار وصغار . وتتشعّب من تلك الأنهار جداول ، ثم تتفرّق في البساتين والغيطان لسقي أراضيها وإدارة أرحائها مما لا يكاد يُعدّ كثرةً .

فأما مسجدها الجامع ، فصيتُه دائر في الدنيا . كان هيكلاً لعُبّاد الكواكب ، ثم كنيسةً للنّصارى ، إلى أن فُتحت دمشق على أيدي أبي عبيدة ابن [ص 166 ب] الجرّاح وخالد بن الوليد ، رضي الله عنهما . فجرى عليه حُكم المناصفة ، فوقع نصفه الشّرقي للمسلمين وبقي نصفه الغربي بأيدي الرُّوم إلى خلافة الوليد ابن عبد الملك ، فاستخلصه وأتمّه جامعاً للمسلمين .

فهو بيت عبادة من قديم ، وقد ذكرناه فيما تقدّم[2] .

(مسالك الأبصار ، مخطوط متحف
طوپ قاپي ج 2 ، ق 3 ، 428-440)



(1) وصف العُمري لأنهار دمشق هام جداً على اختصاره ، وبخاصّة ما يذكره عن ثورا . أما حول اشتقاق أسمائها فنقول : بَرَدى بالآرامية [illegible] البارد ، وبانياس : بانا [illegible] أو باناس [illegible] نهر الحمّام ، وتُورا [illegible] الثور ، وقنوات [illegible] القَصَب والقني . وهذا خلاف المشتهر المغلوط . أما يزيد فنسبته معروفة ، والمزّاوي والدّاراني نسبة إلى المزّة وداريّا .

(2) أعود فيما يلي فأنقل هذا النص التفصيلي عن الجامع الأموي ، الذي كان ذكره ابن فضل الله في الجزء الأول من كتابه مسالك الأبصار . غير أنني لم أستفض في بداية النصّ بنقل النصوص المطوّلة التي أتى بها المؤلّف عن المصادر السالفة ، كتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، وذكر الرّوايات والأساطير القديمة . بل أبقيتُ على ما له صلة بالتاريخ العمراني والأثري للجامع ، وعلى ما له صلة بمشاهدات العُمَري الشخصية كرحّالة وجغرافي ، يصف ويكتب عمّا يراه بعينه .

مسجد دمشق

مسجدٌ عظيم ومعبد قديم . لا يُعرف على الحقيقة بانيه ولا زمن بنائه ، فَتَح المسلمون الشّام ، وهو كنيسة لأهل دمشق يُتعبَّد فيها ، زمن الرُّوم . وقد كان قبلهم معبداً لأمم مختلفة . وتزعم الكلدانية أنه من بنائهم ، وأنهم بَنَوه فيما بَنَوا من الهياكل السبعة التي اتخذوها للكواكب السبعة . جعلوه بيتاً للمشتري . قالوا : ولهذا استمرّ التعبُّد فيه ، إذ كان المشتري طالع الديانات والتألُّه . هذا ما زعموه[1] .

. . . وقال أحمد بن ابراهيم بن هشام : سمعت أبي يقول : ما في مسجد دمشق من الرُّخام بشيء ، إلا رُخامتا المقام الغربي . فإنه يقال إنهما من عرش سبأ ، وأما الباقي فكله مَرْمَر . المقام هو مقصورة الخطابة والرُّخامتان هما السمّاقي والبرّاق ، لا يُدرى ما قيمتها .

قلتُ : قوله في ذلك مردود .

فقد أجمعت الحكماء على أن الرُّخام هو الأبيض . فأما الملوّن فكلّه حجارة . وبمسجد دمشق من الرُّخام الأبيض وِقْر مئين من الإبل . وإن كان الثاني رُخاماً بزعمه ، ففيه من الملوَّن كالغرابي والمنقّط والمشحّم والأخضر والسُّمّاقي غير اللوحين شيء كثير . والناس تطلق على كل ذلك اسم الرُّخام .

وقد استجدّ شيء كثير منه في الحائط الشّامي ، جدّده الظاهر بَيْبَرس . واستجدّ بعد ذلك كثير .

وقوله المقام الغربي ، إشارة إلى محراب مقصورة الخطابة . فإن المسجد لم يكن في حائطه القبلي في ذلك الوقت إلا هذا المحراب ، والمحراب الشرقي المعروف بمحراب الصحابة .

---

(1) هذا صحيح ، فأقدم ما يُعرف عن تاريخ دمشق ومعبدها يعود إلى مملكة آرام قبل 25 قرناً وكان المعبد للإله بَعل حَدَد (ܒܥܠ ܚܕܕ) الآرامي ثم إله الإغريق زيوس ، ثم أضحى في عهد الرّومان 64 ق . م – 395 م للإله جوبيتر Jupiter ، وهو المشتري .

. . . قلتُ : وحكى لي شيخنا أبو عبد الله محمد بن أسد النجّار الحرّاني الكاتب المجوِّد ، وكان يباشر به بعض العمائر ، أنه فُتح في حضرته الشرقية المعروفة بتحت السّاعات لكشف قني الماء . فإذا تحت المسجد أقباء معقودة وعُمُد منصوبة يفرق بينهما عضائد محكمة ، قد أُحكم بناؤها ، وشُدَّت في سلاسل الأساس معاقدها . قد بُنيت بالصُّفَّاح والعُمُد ، والبناء الذي ما هو في قدرة أحد . قال : ودخلناها و جُلنا في جوانبها .

وحكى لي المعلم علي بن محمد بن التّقي المهندس ، قال : حدّثني أبي عن أبيه ، قال : كان لهذه الكنيسة رواقٌ يُحيط بها من الجهات الأربع بأبواب أربعة . في كل جهة باب . فالشرقي باب جَيْرون[1] ؛ وكان الباب الغربي تلقاءه ، وراء المسرورية ، ما بين العَصْرونية وبينها . وبقي إلى زمن العادل أبي بكر ، ففكّه لما عمَّر القلعة . ونقل حجارته وعمده إليها .

قال : وكان في هذا الرواق قلاليٌّ وصوامعُ .

قلت : ومن آخر ما نُقِض منها البابُ وما يجاوره برأس القباقبيين ، مما يلي عقبة الكتّان . و بُني منه منارة الجامع الشرقية ، بعد الحريق الكائن سنة أربعين وسبعمائة . و ثَمَّ بقايا من سُور ذلك الرواق وباب قديم ، موجود بين المدرسة النُّورية وبين المدرسة المجاهدية المعروفة بقصر هشام .

. . . قال أحمد بن ابراهيم : وحدّثنا أبي أن المأمون لما دخل مسجد دمشق ومعه المعتصم ويحيى بن أكثم قال : ما أعجبُ ما في هذا المسجد ؟ قال المعتصم : دهنه وبقاؤه ، فإنا ندعُه في قصورنا فلا يمضي عليه عشرون سنة حتى يتغير . قال : ما ذاك أعجبني منه . فقال يحيى بن أكثم : تأليف رُخامه ، فإني رأيت فيه عقداً ما رأيت مثلها . قال : ما ذاك أعجبني . قالا : فما هو ؟ قال : بُنيانه على غير مثال متقدِّم .

---

(1) حيكت حول اسم باب جيرون أساطير كثيرة ، وأرى أنه آرامي : ܓܪܢܐ (جَرنـا) بالتصغير ويعني المشرق (وهو الباب الشرقي للمعبد) ، أو ܓܪܘܢܐ (جارونا) المسلّة .

وقال الشافعي : عجائب الدنيا خمس : منارة ذي القرنين ، والثانية أصحاب الرّقيم بالروم ، والثالثة مرآة ببلاد الأندلس معلقة على باب مدينتها الكبيرة إذا غاب الرجل من بلادهم على مسافة مائة فرسخ وجاء أهله إليها ، يرون صاحبهم من مسافة مائة فرسخ ؛ والرابعة مسجد دمشق ، والخامسة الرُّخام والفسيفساء ، فإنه لا يُدرى له موضع . قلتُ : وكذا ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر .

والفُسَيْفساء مصنوع من زجاج يُذهّب ثم يُطبق عليه زجاج رقيق[1] . ومن هذا النوع المسحور . وأما الملوّن فمعجون . وقد عُمل منه في هذا الزّمان شيء كثير برسم الجامع الأموي ، وحُصِّل منه عدّة صناديق ، وفسدت في الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة ، وعُمل منه قِبل للجامع التنكزي ما على جهة المحراب .

غير أنه لا يجيءُ تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر . والفرق بين الجديد والقديم أنّ القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد ، والجديد قطعه مختلفة . وبهذا يُعرف الجديد والقديم .

وروى الوليد بن مسلم عن ابن ثَوْبان قال : ما ينبغي أن يكون أحدٌ أشدُّ شوقاً إلى الجنّة من أهل دمشق ، لما يرون من حُسن مسجدها .

وروى أحمد بن البُرامي بسنده عن عبد الرّحيم الأنصاري قال : سمعتُ الأعراب وهم يدورون المسجد ، يقولون : لا صلاةَ بعد القُلَيْلَة . فقيل له : رأيتَ القُلَيْلَة ؟ قال : نعم ، وهي تضيء مثل السّراج . قلتُ : مَنْ أخذها ؟ قال : أما سمعتَ المثل ؟ «منصور سرق القلّة ، وسُليمان شرب المرَّة» ، منصور الأمير ، وسليمان صاحب الشرطة ، يعني صاحب شرطته . وذلك أن الأمين كان يحب البلّور . فكتب إلى صاحب شرطة متولّي دمشق أن يُنْفِذ إليه القُلَيْلَة . فسرقها ليلاً ، وبعث بها إليه . فلما قُتل الأمين ردَّ المأمون القُلَيْلَة إلى دمشق ليُشنّع بها على الأمين .

---

(1) الفُسَيْفساء يونانية : Ψηφιδωτον پسيفيدوتون ، ومنها Ψηφοσις پسيفوسيس : رَقْم .

وكانت في محراب الصحابة . فلما ذهبتْ جُعل موضعها برنيَّة زجاج رأيتُها ، ثم انكسرت ، فلم يُجعل مكانها شيء .

وقال علي بن أبي حملة : كنا نستر مسجد دمشق في الشتاء بلُبود حسنة ، فدخلته الرّيح فهرّته ، فسار الناس فخرّقوا اللُّبود .

قلتُ : وأما بناؤه ، فهو وثيق البناء ، أنيق البهاء ، قد بُني بالحجر والكلس إلى منتهى حوائطه ، وشُرِّف بالشراريف في أعاليه ، واتخذت له ثلاث منائر : اثنتان في جناحي قبلته ، شرقاً وغرباً . والثالثة في شآمه وتُعرف بالعروس .

ويُدخل إليه من ستة أبواب ، منها أربعة أصول ، واثنان مستجدّان . فالأصول باب الزيادة ، وهو في حائطه القبلي ، وباب السّاعات ، وهو في حائطه الشرقي ، يفضي إلى حضرة الساعات المعمولة لمعرفة الأوقات ، تُدار بالماء ، وتعلق بها أبواب الساعات ، وتجاهه في الحائط الغربي باب البريد ، وهو أشهر من الشمس في الآفاق ، وأكثر ذكراً من «ذكرى حبيبٍ ومنزلِ» للرفاق ، وهو حضرة فسيحة في جانبيها حوانيت للفواكه والشمع والعطر والشراب وأطايب المأكول . وبها القُني ، من المياه الجارية ، توقد عليها المصابيح بالليل فيموّه الماءُ شعاعها ، وتُطرب أنابيبها الأسماعَ بلذّة إيقاعها . والرابع : باب النطّافين . وهو في حائطه الشمالي ، تلاصقه الخانقاه الشميساطية ، وتقاربها الأندلسية .

وأما البابان المستجدّان ، فهما الباب النافذ إلى الكلاسة ، والباب النافذ إلى الكاملية . وهما جناحا باب النطّافين .

والمسجد ذو صحن يُصاقب باب النطّافين ، قد فُصِّصَت حوائطه بالفسيفساء الرومي المذهب والملون بغرائب الأشجار والصياغة .

ويدور به رواقٌ قد أُزِّرَت جُدُره وسواريه بالرُّخام الملون ، وعُقِدت رؤوسُ عُمُدِه وسواريه بالقناطر . وجُعل على قنطرة منها طاقات صغار ، يفصل بين كل اثنتين منها عمود رُخام أو سارية .

وفي قبلته ثلاثة أروقة ، وفي وسطها القبّة المعروفة بالنسر : قد عُقدت على المحراب الكبير الذي يصلّي به خطيبُ الجامع وعامّةُ الناس ، ومقصورة الخطابة وبها المنبر ، وأمامه سُدَّة الأذان .

وإلى جانبه الأيسر المصحف العثماني بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ، رضي الله عنه .

وفي شرقي هذه المقصورة المحرابُ المعروف بمحراب الصحابة . وهو محراب المسلمين الأول . وبه تصلّي المالكية الآن .

ثم يليه باب الزيادة ، ويليه من الغرب محرابٌ تصلّي به الحنابلة .

ولكل من هذه المحاريب الثلاثة إمام ومؤذن . وقد وُقف في كلٍ محراب منها وقفٌ على مدرِّس وجماعة من الفقهاء من المذاهب الثلاثة : كلٍّ طائفة في محرابها .

وكلُّ أروقته بالعُمُد والعضائد ، عليها طاقاتُ القناطر المعقودة بعضها على بعض . وقد أُزِّرت جُدُر هذه الأروقة بالرُّخام الأبيض والمجزَّع والأحمر المنقَّط والأخضر المرشوس والأسود الغُرابي والأبقع والمعجون الأزرق .

وأما أركان القبة الأربعة وجناحا النّسر القبلي والشّامي فمن الرُّخام إلى أعلى الجدر والأركان معمولٌ بالفسيفساء ، مسقوفٌ بالبطائن المعمولة بالذّهب واللازورد والزنجفر والإسفيداج والأصباغ الخالصة من لونٍ والمركبة من لونين .

وقد جُعل في أركان المسجد الأربعة أربعةُ مَشاهدَ اتُّخذت على أسماء الصحابة الأربعة . فالشرقي بقبلةٍ على اسم أبي بكر ، وبه عدّةُ خزائن كتب وقف . وشآميه مشهدٌ على اسم علي . والغربي بقبلة مشهدٌ على اسم عُمَر ، ويعرف الآن بمشهد عُروة ، وبه شيخ حديث وجماعةٌ من العلماء يستمعون الحديث ، بوقف مستقل ، وعدة خزائن كتب وقف . وشآميه مشهدٌ على اسم عُثمان . وبه يصلّي نائب السُّلطان في شبّاكه والحاكم الشافعي إلى جانبه .

وبهذا الشبّاك يحكم الحاكم بعد الصلاة ، كأنه كرسي ملك له .

وبهذا المشهد تُعقد مجالسُ الحكام الأربعة والعلماء لفصل القضايا المعضلة التي لا ينفرد بها حاكم . فيجتمعون بأمر نائب السُّلطان وينظرون في تلك الحكومة ويحكمون فيها بأجمعهم .

وداخلِ مشهد علي مشهدٌ لطيف يُعرف بالسِّجن . يقال إنه سُجِن به زين العابدين حين أُقدم على يزيد . وجواره في زاوية الرّواق الشّامي - شرقي الباب النافذ إلى الكاملية - مقصورةٌ قد جاور بها جماعةٌ من الفقراء ، وتُعرف بالحلبية . وبها خزانة كتب وقف .

وفي كلٍّ من ذلك إمامٌ يؤتمُّ به ، ومؤذِّنٌ يقيم الصلاة ويُبلِّغ .

وفي هذا المسجد زياداتٌ في شماله اتّسع بها فناؤه ، وتفسّحت أرجاؤه : منها الزاوية الحلبية المذكورة في أول حدّه الشمالي من الشرق . ثم التربة الكاملية ، ولها مسجد له إمام ومؤذِّن . والكلاسة ، وبها إمامان ومؤذِّنان .

وفي شآمها ، الأشرفية والمدرسة العزيزية يُنفذ إليهما ، ولكل منهما إمام ومؤذِّن . وجوار المدرسة العزيزية التربةُ الصلاحيّة من غربها[1] . هذا إلى عدة أئمّة تقوم فيه احتساباً .

وقد فُرش المسجد بالمرمر ، ومقطعه من جبل المزّة ، وعُمد قائمة بالرُّخام الملون والمنقوش المذهب .

وكذلك عُملت عضائده وذُهّب قواعد عُمده ورؤوسها . وأُجري الماء في صحنٍ عُقدت عليه قبّةٌ في صحنه ، وفي صحنٍ في ركن النسر من داخل الرّواق ، وفي جميع مشاهده وزياراته ، وفي ميضأةٍ اتُّخذت أسفل المنارة الشرقية منه . هذا ما في حضرة باب البريد والزيادة وتحت الساعات من مياه جارية ، وأسواق قائمة ، وسُرُج تتّقد ليلاً كالأنجم ، وبيوت ذات مناظر تملأ عين الناظر المتوسِّم .

---

(1) أي تُربة السّلطان النّاصر صلاح الدّين ، وشرقيها العزيزية ثم الأشرفيّة دَرَستا كلاهما .

فأما القبّة فما لا يجول مثلها في ظنّ ، ولا يدور في فكر . قد تعلّق رفرفها بالغمام عابثاً ، وحلّق طائرها إلى أخويه النسرين يبغي أن يكون لهما ثالثاً ، قد بنيت على قناطر ممتدة على قناطر ، بعقود مُحكمة ، وقطع صخور منظّمة ، إلى سقوف مُذْهبة ، ومحاسن موجزة مسهبة ، وعلى رأس القبة هلالٌ عال في أنبوبة طول الرّمح . قد غُلّفت هي وكل الأسطحة بالرّصاص . وحُكّمت ميازيبه ، وجمع فيه من كل حسن غريبه .

قال أبو محمد ابن زَبْر القاضي : سُمّي باب الساعات ، لأنه عُمل هناك بيكار الساعات ، يُعلم بها كل ساعة تمضي . عليها عصافير من نحاس ، وحيّة من نحاس ، وغُراب من نحاس . فإذا تمّت الساعة خرجت الحيّة ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاةٌ في الطّست .

وكان في الجامع قبل حريقه طِلّسمات لسائر الحشرات ، معلّقة في السقف فوق البطائن . ولم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق . فلما احترقت الطلّسمات وجدت . ومما كان فيه طلّسم للصنّونات لا تعشّش فيه . ولا يدخله غراب ، وطلّسم للفأر ، وطلّسم للحيات والعقارب . وما أبصر الناس فيه من هذا شيئاً إلاّ الفأر . وفيه طلّسم للعنكبوت .

وكان حريقُ الجامع في نصف شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة[1] . وكان سببه أن أمير الجيوش بدر الجمالي وَرَدَ من مصر إلى دمشق في هذه السنة . فلمّا كان بعد العصر يوم نصف شعبان ، وقع القتال بين المشارقة والمغاربة ، فضربوا داراً كانت مجاورة للجامع بالنار ، فبادرتْ الى الجامع . وكانت العامّة تعاون المغاربة ، فتركوا القتال وقصدوا إطفاء النار من الجامع . فجلّ الأمر وعظُم ، فجعلوا يبكون و يتضرّعون .

---

(1) راجع وصف واقعة هذا الحريق في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، 96 . ولقد وصف الجامع قبل حريقه عام 461 هـ ، بأواخر القرن الرّابع الرّحالة الكبير البشاري المقدسي في «أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم» ، لايدن 156-160 . ثم وصفه الإدريسي بعد الحريق ، عام 510 هـ ، في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، وابن جُبير عام 580 هـ .

ووصف العماد الكاتب هذا الحريق في كتاب فقال : وفي النصف من شعبان هذه السّنة ، احترق جامع دمشق ، ففُجع الإسلام بمصابه ، وصلَّت النار في محرابه ، واشتعل رأس القبّة شيباً بما شبّت ، وأكلت النار أمُّ الليالي منها ما ربَّت ، وطار النسر بجناح الضِّرام ، وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام ، فكأن الجحيم استجارت به فتمسكت بذيله ، وكأن النهار ذكر ثأراً عنده فعطف على ليله .

فواهاً له من مسجد أحرقته نفحات أنفاس الساجدين ، وعلقت فيه لفحات قلوب الواجدين ، ثم تداركه الله بالألطاف والإطفاء ، وأتاه بالشفاء بعد الاشتفاء . وقال : حسبهُ اصطلاءً واصطلاماً . وحقّق فيه قوله : ﴿قُلنا يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلاَما﴾ .

وقال ابن العَيْن زَرْبي في الحريق المذكور :

لهفَ نفسي على دمشق التي كا　　نت جمال الآفاق والأقطار
وعلى ما أصاب جامعها الجا　　مع للمُعجبات والآثار
إذ أتتهُ النّيران طولاً وعرضاً　　عن يمين من قُطره ويسار
ثم مرّت على حدائق نَخل　　فإذا الجمرُ موضعُ الجُمّار

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أُقيمت القُبّة الرُّخام التي فيها فوّارة الماء في سنة تسع وستين وثلثمائة . قال : وقرأتُ بخط ابراهيم بن محمد الحنّائي : أُنشئت الفوّارة المنحدرة[1] في وسط جيرون سنة ست عشرة وأربعمائة . وأمر بجرّ القصعة من ظاهر قصر حجّاج الى جيرون وأجرى ماءَها الشريف فخر الدولة حمزة بن الحسن بن العبّاس الحُسيني .

وتحته بخط محمد بن أبي نصر الحُميدي : وسقطت في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، في جمال تحاكّت بها ، فأُنشئت كَرّةً أخرى .

---

(١) ذكرتُ سابقاً أنها هي التي تُعرف في عصرنا بمحلّة النّوفرة عند باب جيرون شرقي الجامع .

قال ابن عساكر : ثم سقطت عُمُدها وما عليها في حريق اللبّادين ورواق دار الحجارة ودار خديجة ، في سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

قال الحافظ أبو عبدالله الذهبي : ثم عُمل لها الشّاذروان ، في آخر دولة الملك العادل سنة نيّف عشرة وستمائة .

قال : ورأيتُ القصعة وهي أكبر من التي في وسط طهارة جيرون . وفي زنّارها الأوسط ستُّ أنابيب صغار ، تفور حول الفوّارة ، وعليها درابزينات . فلما احترقت اللّبادين سنة إحدى وثمانين وستمائة ، تلفت هذه القصعة وبُني عوضَها هذه البركة المثمّنة . وينبع الماء في هذه البركة من قناة دفنت إليها من مكان مرتفع . فيعلو بها الماء نحو قامة . وسُمعة الفوّارة أعظم من مرآها ، واسمها أجلّ من معناها .

قلتُ : ولما وقع الحريق سنة أربعين وسبعمائة[1] بسوق الدّهشة والطرائفيين ، وتشعّث وجه الجدار الذي للمشهد المعروف بأبي بكر ، وتعلّت شرر النار حتى وصلت إلى دائر المنارة الشرقية وشرعوا في إصلاح ما وهى من ذلك ، وجدوا أعاليها متداعية ، وحجارتها مفخّرة مفطّرة .

فوقف عليها الحكام وقامت البيّنة بالضرورة الدّاعية إلى نقض المنارة وتجديد بنائها . فنُقضت جُدُرها الأربعة إلى حد أوتار الرّواق القبليّ ، و نُقض الجدار القبلي والجدار الشرقي إلى الأرض ، وحُفر ما بين الجدران في وسط المنارة عدّة قامات . وبُني ذلك لَبِنةً واحدة ، وبُنيت المنارة بُنياناً جليلاً لم يُبن من زمن الوليد أجلُّ منه ولا أوثق .

---

(1) يريد واقعة إحراق الجامع الأموي عام 740 هـ على أيدي عميلين فرنجيين . وفي نصّ ابن فضل الله هذا فوائد بليغة حول إعادة إعمار ما تخرّب ، وبخاصّة المنارة الشرقية . وذكر الواقعة الحافظ عماد الدّين ابن كثير في البداية والنّهاية ، بمطلع حوادث سنة 740 هـ . كما أن مؤرّخ مصر الكبير تقيّ الدّين المقريزي ذكر وقائعها في موسوعته التاريخية الإدارية كتاب السّلوك لمعرفة دول الملوك ، 2 / 2 : 496 . وسأقدّم في الجزء الثالث من كتابي هذا بحثاً مفصّلاً لهذه الواقعة ، مع محضر رسمي كُتب عنها في حينها .

وقال الفاضل صلاح الدّين أبو الصّفاء الصفديّ ، من مقامة أنشأها في الحريق المذكور ، من فصل يتعلق بالجامع :

فسألتُ الخبر ، ممن غَبَر ، فقال : إن الحريق وقع قريباً من الجامع ، وانظر الى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع ! فبادرتُ إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشّحم . ورأيتُ النار ، وقد نشرت في حداد الظلام مُعصفراتِ ذوائبها ، وصعّدت الى السّماء عَذَباتِ ذوائبها :

ذوائبُ لجّت في علوٍّ كأنما تحاولُ ثأراً عند بعض الكواكب

وعَلَت في الجو كأنها أعلام ملائكة النّصر ، وكان الواقف في الميدان يراها وهي ﴿ترمي بشَرَرٍ كالقصر﴾ ، فكم ﴿زُمَر﴾ أضحت لذلك ﴿الدُّخان﴾ ﴿جاثيةً﴾ . وكم نفسٍ كانت في ﴿النّازِعات﴾ وهي تتلو ﴿هَلْ أتاكَ حديثُ الغاشِيَة﴾ ! ولم تزل النار تأكل ما يليها ، وتفني ما يستقلها ويعتليها ، إلى أن ارتفعت إلى المنارة الشرقية[1] ، ولعبت ألسنتها المسودّة في أعراض أخشابها النقيّة ، وثارت إليها من الأرض لأخذ الثأر ، وأصبح صخرُها كما قالت الخنساء «كأنّه عَلَمٌ في رأسه نارُ» . فنُكِّست وكانت للتوحيد سبّابة ، ولمعبدها المطرب شبّابة ، وابتُلي رأسها من الهدم والنّار بشقيقه ، وأدار الحريق على دائرها رحيقه :

وبالأرض من حبّها صُفرةٌ فما تُنبتُ الأرض إلا بَهارا

وأصبح «باب الساعات» وهو من آيات الساعة ، وخَلَت «مصاطب الشهود» من السنّة والجماعة ، وعادت «الدّهشة» ، وقد آل أمرها إلى الوحشة ، وحُسنها البديع وقد ثلّت النارُ عرشه . كأنْ لم أرَ بها سميرا ، ولا شاهدتُ من بنائها وقماشها جنّةً وحريرا .

---

(1) من خلال وصف ابن كثير وابن قاضي شهبة لحريقها في سنة 740 هـ وترميمها ، يتأكّد لنا أن القائم اليوم يمثّل 90 ٪ من هذا الترميم المملوكي ، فيما خلا رأس المئذنة كما يبدو في لوحة الرسّام البُندقي عام 1511 م . ونجمتها السّداسيّة عنصر زخرفي لا أكثر .

وقال جمال الدّين عبدالله بن غانم ، من كتاب عن كافل الشّام تِنْكِز (رحمه الله) إلى نائب طرابلس في هذه الواقعة :

وأضحى فم «الفوّارة» يُصاعد جمرات أنفاس ، و «سوق النحّاسين» ، يرسل منه إلى سور الجامع ﴿شُواظٌ من نارٍ ونُحاس﴾ ، وأُقعِد «بيت السّاعات» إلى قيام السّاعة ، ودُخل إلى باب الجامع لكن لغير طاعة ، وكاد يُصْلى من به يصلِّي ، ويُقبل على صفِّ العابدين فيولي . واهتزّت المأذنة بحُمّى نافِض ، وتشعّث وجه المشهد الأبي بكري ، فكأنما أصابته عين الرّوافض ، وترقرقت عيون العابدين من الألم ، ورقّ صحن الجامع لمأتم هُداة الساجدين من المأذنة بنارٍ على عَلَم ؛ ومازالت مرآة اللَّهب حتى خرّبت المنار ، وصَفّ بعد ذلك في صحن الجامع ما فضل عن أكل النار .

قلتُ : وهذا المسجد معمورٌ بالناس كلّ النهار وطرفي الليل ، لأنه ممرّ المدارس والبيوت والأسواق . وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمّة والقرّاء ، ومشايخ العلم والإقراء ، ووجوه أهل التصدير والإفتاء ، ووظائف الحديث وقرّاء الأسباع ، والمجاورين من ذوي الصّلاح .

فلا تزال أوقاته معمورة بالخير ، آهلة بالعبادة . قلّ أن يخلو طرفة عين في ليل أو نهار من مصلٍّ ، أو جالس في ناحية منه لاعتكاف ، أو مرتّل لقرآن ، أو رافع عقيرته بأذان ، أو مكرر في كتاب علم ، أو سائل عن دين ، أو باحث في معتقد ، أو مقرر لمذهب ، أو طالب كل مشكل : من سائلٍ ومسئول ، ومُفْتٍ ومُسْتَفتٍ .

هذا إلى من يأتي هذا المسجد مستأنساً لحديث ، أومرتقباً لقاء أخ ، أو متفرّجاً في فضاء صحنه ، وحُسن مرأى القمر والنجوم ليلاً في سمائه . هذا إلى فُسحة الفضاء وطيب الهواء و بَرد رُواقاته أوقات الهجير ، وحُسن مرائي ميازيبه أحيان المطر ، وفي كل ناحية من وجهها قمر .

* * *

وعلى هذا الجامع من الوظائف المرتبة ما لا يستقل به ديوان ملك . وعليه جلائل الأوقاف . إلا أن الأيدي العادية قد استولتْ على كثير منه لسبّة الأكابر والمناصبات ، وغير ذلك مما عُمل عليه على سبيل النَّصَبات .

وقد أُضيف إليه وقْف المصالح ، وقد كان أُفرد زمن نور الدّين رحمه الله . وهو لايجاوز تسعين ألفاً في السنة ، جُعل لها مصارف أُخذ بحجتها كل مال المسجد ، وغُلَّ بالباطل ورُتِّب منه لغير ذوي الاستحقاق وحُمِّل حتى كَلَّ مطاه ، وأُخذت حتى قَصُرتْ خُطاه .

وها هو الآن قد اختلّت أحواله ، وأُكلَتْ وشُربَتْ أمواله . أصبح نَهْباً مُقَسَّماً ، وسواماً صيح في حجراته ، وآلَ حالُ مُباشريه إلى أسوأ الحال ، وشرٌّ المآل .

وكانوا غِياثاً ثم أضحوا رزيّة ألا عَظُمتْ تلك الرَّزايا وجَلّتِ

وقد اتفقت كلمة السُّفّار في الآفاق على أنه فردٌ في محاسنه ، بديعٌ في نُظرائه[1] .

(مسالك الأبصار ، طبعة أحمد زكي باشا ، 1 : 187-203)

* * *

(1) بعد ذكر الجامع الأموي سأورد أدناه نصوصاً نادرة من الجزء الأول من «مسالك الأبصار» أيضاً ، خصّها العُمَري بذكر نهر بردى وبعض قصور الشام ودياراتها وحاناتها القديمة ، وضمّنها مشاهدات وروايات شخصية هامة ، فيها ما يشوق ويُفيد .

نهر بَرَدى

ويخرج من عَين في صحراء الزَّبَداني بين بعلبك ودمشق ، ثم يمدّه نهرٌ يخرج من الجبل الممتدّ على الشام من مكان يُعرف الآن بالفيْجة ، تحت حُصن عَزَّتَا[1] ، ويمدّ إلى دمشق . وينقسم قبلها وبعدها أنهاراً ، يعمّ دورها وبساتينها ، ويسقي قُراها ومزارعها ، ثم يُحر فاضل مائه شمالي الغُوطة في بُحيرة هناك .

(مسالك الأبصار ، 1 : 81)

* * *

---

(1) عَزَّتَا اسم آرامي : حُـــــنَّا بالنّصب وتشديد الزاي ، أي الأرض العَذيّة ، وهي الأرض الطيّبة البعيدة عن الماء والوَخم . ومن نافل القول أن أسماء الأرضين والمياه بدمشق وما حولها آراميّة صرفة ، قولاً واحداً لا يعتوره شك ولا التباس .

قصر هِرَقْل

وهو بالشَّرَف الأعلى الشمالي ، ويُعرف في زماننا بقصر شمس المُلوك[1] . ولم يبق منه اليوم إلا الجَوْسَق والحَمّام . والجَوسَق الآن خانقاه للفقراء[2] . ولم يزل منزلاً للملوك ومَنْزَهاً لأهل البلد ، لإشرافه [على] نهر بَرَدى والوادي . ونزله السّلطان صلاح الدّين .

وحكى ابن ظافر قال : دخل أبو خالد بن صغير القَيْسَراني على الأمير تاج المُلوك بُوْرُى[3] بن طُغْتَكِين صاحب دمشق ، وبين يديه بركة فسيحة الفناء صحيحة البناء ، قد راق ماؤها وصَفا ، وجَرَّ النّسيمُ ما رَقّ من أذياله وضَفا ، وهو تارةً يرشُف رُضابها ويجعّد ثيابها ، وتارةً يسكبُها مِبْرَداً ويحبكها مِسْرَداً . فأمره بوصفها ، فقال :

أوَ ما تَرى طَرَبَ النَّسيـ ـم إلى الغَديـر إذا تَحَرَّك ؟
بل لَو رأيتَ الماءَ يلـ ـعبُ في جوانبـه لَسَرَّك !
وإذا الصَّبا هَبَّتْ عليـه أتاكَ في ثَوْبٍ مُفَرَّك !

(مسالك الأبصار ، 1 : 249-250)

---

(1) ينفرد ابن فضل الله بوجه الإطلاق بذكر تسمية «قصر هرقل» هذا ، أما قصر شمس الملوك الذي أدرك جوسقه وحمّامه فهو تُربة بنتها الأميرة السّلجوقيّة صَفوة المُلك لابنها دُقاق ابن تُتُش المتوفى سنة 497 هـ ، وتمّ بناؤها سنة 504 هـ ، ثم دُفنت الخاتون المذكورة فيها إلى جانب ابنها سنة 513 هـ . ودُقاق من ملوك السّلاجقة بدمشق ، حكم بين 488-497 هـ ، ثم تولّى الحكم من بعده أتابكه طُغْتَكِين . انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ، 2 : 89 .

(2) مع التُّربة كانت خانقاه للصّوفية لها قبّة تُعرف بقبّة الطواويس وبها كتابات كوفيّة وزخارف جصيّة رائعة ، نشر عنها صوراً الباحث الفرنسي جان سوفاجيه في الجزء الأول من كتابه : «الآثار الأيوبيّة بدمشق» *Les Monuments Ayyoubides de Damas* في عام 1938 ، ثم تم هدم القبّة ! وموقعها اليوم عند مقهى الهافانا والنادي العربي وسينما الأهرام ، بينما يشيع اسمها بالغلط على المسجد المقابل لها (الطاووسيّة) ، وهو الخانقاه اليونسيّة .

(3) يغلط الباحثون بنُطق اسم هذا الأمير ، فهو في التركيّة القديمة : Börü بُورُو ، أي ذئب . وكانت حروف العلّة فيها بأواخر الكلمات تُرسم ألفاً مقصورة على وجه الإطلاق .

دير صليبا[1]

ويُعرف بدير السّائمة ، وهو بدمشق مُطلٌّ على الغُوطَة . ويَليه من أبوابها باب الفَراديس . نزل دُونه خالد بن الوليد ، أيام مُحاصرة دمشق . وهو في موضع نَزِه ، كثير البساتين ، وبناؤه حَسَنٌ عجيب . وإلى جانبه ديرٌ للنّساء ، فيه رهبان ورواهب . وإيّاه أراد جريرٌ بقوله :

إذا تذكّرتُ بالدَّيرين أرَّقني صوتُ الدّجاج وقَرْعٌ بالنّواقيسِ

قال الخالدي : وممّا يدلّ على أنه يلي باب الفراديس ، قول جرير في هذا الشعر :

فقلتُ للرّكْبِ إذ جَدَّ النَّجاء بهم يا بُعدَ يبرينَ من باب الفَراديسِ

وأنشد فيه قولـ[ـه] الآخر ، وهو :

يا دَيرَ بابِ الفَراديسِ المُهيِّجَ لي بَلابِلاً بقَلاليه وأشجارِهِ
لو عشتُ تسعينَ عاماً فيك مُصطبحاً لَمَا قضى منكَ قلبي بعضَ أوطارِهِ

وحُكي أن الوليد بن يزيد كان كثير المُقام في هذا الدَّير ، يخرج إليه ومعه حُرَمه استحساناً له ؛ وأنّه كان يجلس في أيام مُقامه فيه في صحنه كلّ يوم ساعةً من النّهار ، ثم يأكل ويشرب في مواضع منه طيّبة حَسَنَة .

وحكى الخالدي عن أحد من كان ينادمه ، أنه : دعا يوماً بطعامه ، وأمَرَني بالغداء معه . وحضر نُدماؤه ، وكان فيهم حُنَينٌ المغنّي . فنحنُ على المائدة ، إذ قال له : يا حُنَين ! غَنّيتني البارحة في آخر المجلس - وقد أخذ الشّرابُ منّي - بشعر صاحبكم ، عيسى بن زَيد ، فلم أستكمل الطّرب ، لأجل سُكري[2] . فأعِدهُ عليّ السّاعة . قال : فأخذ حُنَينٌ رِقاقه ، ووقّع عليها وغنّى :

---

(1) الاسم سرياني واضح بمبناه ومعناه : ܨܠܝܒܐ (بتسكين الصاد) ، ويعني الصَّليب .
(2) يرى القارئ لهذه الحكاية - إن صحّت - ما يندى له الجبين بأن يصدر عن خليفة .

يـا لُبينـي أوقـدي النّـارا	إنَّ مـن تهويـنَ قـد جـارا
رُبَّ نـار بِـتُّ أرمقُهـا	تقضـمُ الهنـديَّ والغـارا
عندهـا ظبـيٌ يُؤجِّجُهـا	عـاقدٌ في الخَصـر زُنّـارا

قال : فطرِبَ طرباً عظيماً ، وأخذ رِقاقه وقام وترك الغداء ، وجعل ينقر عليها مع حُنَين . وأخذ كل من على المائدة رِقاقه ، وجعلوا ينقرون عليها مثله . ومضى يطلب باب الدّهليز ، وحُنَين والنُّدماء حوله ؛ والحاجب قد جلس ينتظر جلوسه ، وقد حضر وجوه العَرَب .

فلمّا رآه الحاجب على تلك الحال ، صاح بالنّاس : الحُرَم . . الحُـرَم ! انصرفوا . . انصرفوا ! فخرجوا . فقال له : يا أمير المؤمنين ! وفودُ العرب تنتظر جلوسك ، وأنت تخرج إليهم على تلك الحال ؟! فقال : ثكلتكَ أمُّك ! أدخُل . ودعا له برَطل ، فحلَفَ أنه ما ذاقه قَطّ . فقال : والله ، لتشربنّ معي حتى أسكر . ولم يزل يسقيه حتى مات سُكراً ، وانصرف محمولاً .

* * *

قلتُ : وهذا الدَّير اليوم لا عينَ لـه ولا أثـر ، وإنّما صار دُوراً وأبنيةً ومساجد ومدافن . وهي بناحية محلّة حمّام النَّحّاس[1] ، والله أعلم . وبهذه المحلّة داري التي بنيتُها ومساكني[2] ، وهُنّتُها .

(مسالك الأبصار ، 1 : 349-350)

---

(1) تُسمّى اليوم «جسر النَّحّاس» ، شرقي محلّة الرُّكنية (حي رُكن الدّين) . نسبتها لعماد الدّين ابن النَّحّاس (توفي 654 هـ) ، أنشأ بها مسجداً وتُربة وحمّاماً . الدّارس للنُّعيمي 2 : 441 .

(2) حدّد موقع دار ابن فضل الله الباحث المُجيد الأستاذ زهير ظاظا ، فيذكر ابن كثير وفاته في البداية والنهاية (حوادث 749 هـ) : «وعمّر داراً هائلة بسَفح قاسيون بالقُرب من الرُّكنيّة شرقيّها ، ليس بالسَّفح مثلها» . يدلّ ذلك أن القصر القديم القائم شرقي الرُّكنية اليوم على نهر يزيد (دار المَلاطيّة لي اليوم) كان أصلاً قصر العُمَري ، تتّصل به بيوت وبستان أميري (حاكورة «حَمُو ليلى») وأروقة تفضي رُدهاتها إلى زقاقين ، وفي حضنه كان مسجد طالوت الذي ذكره ابن عبد الهادي (ثمار المقاصد : 130 ، 149) .

دير يَوَنّا[1]

وهو بجانب غُوطَة دمشق ، ليس بكبير ولا رُهبانه بكثير ، ولكنّه في رياضٍ مُشرفة وأنهار متدفّقة . ويُقال إنه من أقدم دِيَرَة النّصارى ، بُني بعد المسيح عليه السّلام بقليل .

واجتاز به الوليد بن يزيد ، فرأى حُسنه وطِيبه ، فأقام فيه أياماً في تَخَرُّق ومُجُون ، وقال فيه[2] :

حَبَّذا يومُنا بديرِ يَوَنّا حيثُ نُسقى براحةٍ ونُغَنّى !
واستهنّا بالنّاس فيما يقولو ن إذا خُبِّروا بما قد فَعَلنا !

قلتُ : وهذا الدّير اليوم لا وجود له ، قد أقفرت الأرض منه من رَسْم وطَلَل ، ومضى وحادث كل دير بعده جَلَل[3] .

(مسالك الأبصار ، 1 : 351)

* * *

(1) في الأصل : دير بَوَنّا ، وَهِم العُمري بضبطه كما وهم ياقوت وابن شدّاد ، والتسمية صيغة يونانيّة واضحة لاسم «يوحنّا» ، ممّا يدل على أنه كان من أديرة الرّوم الملكيين .

(2) في ذكر ثلاثة من هذه الأديرة هنا نجد ذكراً لقصص مُجون الوليد بن يزيد . كذلك راجع ما ورد أعلاه في نصّ الحِمْيَري عن أبيه يزيد بن مُعاوية وتخلّفه عن حرب الرّوم في غزاة الطّوانة ، ليعاقر الخمرة مع النساء .

(3) لا يفي كلام ابن فضل الله بتحديد موقع الدّير قديماً ، فقد نقل أخباره من كتب السابقين دون أن يعلم موقعه . والمؤسف أن خبر هذا الدّير ساقط من مخطوط كتاب «الدّيارات» الشهير للشّابُشتي (المتوفى 388 هـ) في نسخة برلين ، ولا ندري إن كان مذكوراً في نسخ كتب الدّيارات للأصبهاني والخالدي . لكن له ذكراً في معجم البلدان لياقوت (2 : 502) والأعلاق الخطيرة لابن شدّاد (ص 279) ، وللباحث الدّمشقي حبيب الزّيات بحث عنه في مجلّته الخزانة الشرقية وكتابه «الدّيارات النّصرانيّة في الشام» .

دير سمعان

قال الخالدي : هو بنواحي دمشق ، بالقُرب من الغوطة . على قطعة من الجبل ، يُطلّ عليها ، وحوله بساتين وأنهار ، وموضعُه حَسَنٌ جداً ، وهو من كبار الأديرة ، وعنده دُفن عُمَر بن عبد العزيز بظاهره .

قلتُ : وهذا غلطٌ من الخالدي . وهكذا ذكره أبو الفَرَج[1] ، وغَلط أيضاً ، فإنّ هذا الدّير في قرية تُعرف بالبقرة ، من قبليّ معرّة النّعمان ، وبه قبر عُمَر بن عبد العزيز ، مشهور لا يُنكَر . وليس يُسمع بدمشق لهذا الدّير نابسة ، ولا يُعرف لمكانه في غوطتها خضراءُ ولا يابسة[2] .

(مسالك الأبصار ، طبعة أحمد
زكي باشا ، I : 352)

* * *

(1) يعني أبا الفَرَج علياً بن الحُسين الأصبهاني (توفي بعد 362 هـ) ، صاحب الدّيوان الأدبي النّفيس الذائع الصّيت «كتاب الأغاني» . له مؤلّفات أخرى ، منها كتابه «الدّيارات» ، الذي كان بحكم المفقود ، عُني فيه بتعداد الأديرة المشتهرة في زمانه ، في المدن وأرباضها وفي الفَلَوات النائية ، بالعراق والشام وفلسطين والجزيرة وغيرها ؛ مع ما يتعلّق بها من الأخبار والأشعار والمُلح والنّوادر الأدبية . وأخصّ ما ظهر من هذه المؤلّفات في القرن الرابع الهجري اثنان : كتاب الأصبهاني هذا ، وكتاب الدّيارات للشابُشتي (توفي 388 هـ) .
هذا ، ولم يصلنا من كتاب الدّيارات سوى نُتَف متفرّقة في كتب الأدب ، قام بجمعها جليل العطيّة مؤخراً ، وصدرت عن دار رياض نجيب الرّيّس بلندن 1991 .

(2) يتابع العُمَري بعد ذلك أخبار الدّير الآخر بمعرّة النّعمان ، لكننا نؤكّد وجود دير كان يُعرف بدير سمعان بدمشق (ذكره ابن طولون في القلائد الجوهرية ، I : 133) ، كان بسفح قاسيون شمالي المدرستين العزيزية والمعظّمية (أي ما ينطبق في أيامنا على مقبرة الحُرْش بأعلى حيّ بير التّوتة الواقع شمالي الفواخير) . وسنرى أن ابن فضل الله أدناه ظنّ موضع دير مُرّان في هذا الموقع ، وهو غلط شائع في عصره كما يلوح ، فيذكر المؤرّخ الدمشقي أبو شامة المقدسي بأواسط القرن السابع (ذيل الرّوضتين ، 200) : «المقبرة المُعظّميّة بدير مُرّان» . هذا رُغم أن بين موقع المُعظّمية (بأعلى حي بير التّوتة اليوم) ودير مُرّان (بنواحي قصر تشرين) مسافة كبيرة يشغلها حي المهاجرين بأكمله ، من شوري شرقاً إلى ساحة آخر الخط غرباً . وسأفرد لأديرة قاسيون السّريانية القديمة الأربعة بحثاً خاصاً .

دير مُرّان

وهو بالقُرب من دمشق على تلّ في سفح قاسيون ، وبناؤه بالجصّ الأبيض ، وأكثر فَرشه بالبلاط الملوّن . وكان في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني . وقَلاليه دائرةٌ به ، وأشجاره مُتراكبة ، وماؤه يتدفّق .

وحُكي عن المبرّد أنه قال :

وافيتُ الشأم - وأنا حَدَثٌ في جماعة أحداث - لأكتب الحديث وألقى أهل العلم . فاجتزتُ بدير مُرّان ، فأحببتُ النّظر إليه ، فصعدناه فرأينا منظراً حَسَناً . وإذا في بعض بيوته كهلٌ مشدود حَسَن الوجه ، عليه أثر النّعمة . فدَنونا منه وسلّمنا عليه ، فردّ السّلام ، وقال : من أين أنتم يا فتيان ؟ قلنا : من أهل العراق . قال : بأبي ، ما الذي أقدمكم هذا البلد الغليظ هواؤُه ، الثقيل ماؤُه ، الجُفاةُ أهله ؟ قلنا : طلبُ الحديث والأدب . فقال : حَبَّذا ! أتنشدوني أم أُنشدكم ؟ قلنا : بل أنشدنا . فقال :

اللهُ يعلمُ أنّني كَمِدُ ... لا أستطيعُ أبُثُّ ما أجدُ
رُوحان لي : رُوحٌ تَقسَّمها ... بلدٌ ، وأُخرى حازها بلدُ
وأرى المُقيمةَ ليس ينفعُها ... صبرٌ وليس يصونُها جَلَدُ
وأظنُّ غائبتي كشاهدتي ... بمكانها تجدُ الذي أجدُ

ثمّ أغمي عليه . فأفاق ، فصاح بنا فقال : أتُنشدوني أم أُنشدكم ؟ قلنا : بل أنشدنا . فقال :

لمّا أناخوا قُبيل الصُّبح عِيرَهُمُ ... ورحّلوا فتنادَت بالهوى الإبلُ
وأبرزَتْ من خلال السَّجف ناظرها ... يَرنُو إليّ ودمعُ العين مُنهملُ
فودَّعَتْ ببنان حَمْلُهُ عَنَمٌ ... فقُلتُ : لا حَمَلَتْ رجلاكَ يا جَمَلُ
وَيلي من البَيْن ماذا حلَّ بي وبها ... مِن بارِح الوَجد حَلَّ البَين فارتحلوا
إنّي على العهدِ لم أنقُض مودَّتهُم ... فليتَ شِعري لطولِ العهدِ ما فعلوا ؟

فقال له فتى من المُجّان الذين كانوا معـي : مـاتوا . قـال : فـأموت ! فقـال له : مُتْ ! فتمطّى وتمدّد . وما بَرَحنا حتى دفنّاه !

* * *

وللصّنوبري فيه من شعر يقوله :

أمُــرُّ بديــر مُــرّان فأحيَـــا ... وأجعلُ بيتَ لَهوي بيتَ لهيا
صَفَتْ دُنيا دمشقَ لُمصطفيهـا ... فليسَ يُريدُ غيرَ دمشـقَ دُنيـا
مُظلَّلــةٌ فواكههــنّ أبهـــى ... وأنضـرُ في نواظرنـــا وأهْيَـــا
فمــن تُفّاحــة لــم تعــدُ خــدّاً ... ومــن رُمّانــة لــم تَعــدُ ثديــا

* * *

وقد ذكره أبو الفرَج ، وقال :

هو على تلعةٍ مُشرفة على زعفـران ورياض حسـان ، نزلـه الرّشـيد وشـرب فيه ، ونزله المأمون بعده . وكان الحسين بن الضحّاك مـع الرّشـيد لمّا نزلـه ، فـأمَرَه أن يقول شعراً ، فقال :

يـا ديـرَ مُـرّانَ لا عُرِّيـتَ مـن ... قد هجْتَ لي حُزناً يا ديرَ مُرّانـا
حُثَّ المُدامَ فإنّ الكـأسَ مُترعـةٌ ... مما يَهيجُ دَواعي الشّوق أحيانـا

وأمَرَ عمرو بن بانة ، فغنّى فيه لَحْنين .

* * *

وحُكي عن إبراهيم الموصلي أنه قال : مرّ الرّشيد بدير مُرّان[1] ، فاستحسـنه ونزلـه . وأمر أن يُؤتـى إليـه بطعـام خفيـف ، فـأُتي بـه فـأكل . وأُتـي بالشّـراب والنُّدماء والمُغنّين .

---

(1) اسم الدّير سرياني واضح بمبناه ومعناه : ܡܪܢ (موران) ويعني : سيّدنا ، إلهنا . من اسم ܡܪܐ : السيّد ، الرّب ، بإضافة نون المتكلمين .

فخرج إليه صاحبُ الدّير ، وهو شيخ كبير هَرم ، فوقف بين يديه ودَعا له . واستأذنه في أن يأتيه بشيء من طعام الدّيارات ، فأذن لـه ، فأتـاه بأطعمـة نظـاف ، وإدام في نهاية الحُسن والطّيب . فأكل منها أكثر أكل ، وأمره بـالجلوس ، فجلـس معه يُحدثّه ، وهو يشرب .

إلى أن جرى ذكرُ بني أميّة ، فقال لـه الرّشيد : هـل نـزل بـك أحدٌ منهـم ؟ قال : نعم ، نزل بي الوليـد بـن يزيـد ، وأخـوه الغَمْرُ ، فجلسـا في هـذا الموضـع ، فأكلا وشربا وغنّيا . فلمّا دبّ فيهما السُّكر ، وَثَبَ الوليد إلى ذلك الجُرن ، فملأه وشربه ، وملأه وسقى أخاه الغَمْر . فمـا زالا يتعاطيانـه حتـى سَكِرا ، وملآه لـي دراهم .

فنظر إليه الرّشيد ، فإذا هو عظيم لا يقدر على أن يُقلّه ، ولا يقـدر علـى أن يشرب ملأه . فقال : أبى بنو أميّة إلا أن يَسبقوا إلى اللّذّات سَبقاً لا يُجاريهم أحدٌ فيه . ثم أمَرَ برفع النّبيذ ، وركب من وقته .

* * *

قلتُ : والنّاس في اختلاف أين كان ديرُ مُرّان . فمن قائل إنـه كـان بمشـارق السَّفح ، نواحي بَرْزة . والأكثر على أنـه كـان بمغاريـه ، وأن مكانـه الآن المدرسـة المُعظّميّة[1] . وأما الذي كان بمشارق السَّفح ، فهو دير السّائمة المُسمّى دَير صَليبـا . وقد ذكرناه .

(مسالك الأبصار ، 1 : 353-356)

---

(1) ذكر المؤرّخ الدمشقي أبو شامة المقدسي بأواسط القرن السابع (ذيل الرّوضتين ، 200) : «المقبرة المُعظميّة بدير مُرّان» . رغم أن المفترض أن المدرسة المُعظميّة كانت تحت دير سمعان وليس مُرّان . فالمتعارف عليه لدى الباحثين بآثار دمشق أن دير مُرّان القديم كان يقع على إحدى التّلاع الغربية بقاسيون عند عقبة دُمَّر ، تحت القمّة التي قامت عليها قبّة السيّار . وفي مفهوم عصرنا إلى الجنوب الغربي من ساحة آخر الخط ، عند موقع قصر تشرين ، بأعلى حديقة تشرين . وكذا أثبته دهمان في مخططه للصّالحية . وراجع قول العُمَري المتقدّم : ومكانه الآن من المدرسة المعظّمية إلى قريب عقبة دُمَّر .

دير صيدنايا

وهما اثنان :

أحدهما يقصده النّصارى بالزّيارة[1] ، هو في دِمْنَة القرية .

والآخر على بُعد منها ، مُشرف على الجبل ، شماليّها بشرق . وهو دير مار شَرْبين[2] ، ويُقصد للتّنزه ، من بناء الرُّوم بالحجر الجليل الأبيض . وهو دير كبير ، وفي ظاهره عين ماء سارحة . وفيه كُوىً وطاقات تُشرف على غوطة دمشق وما يليها ، من قبليّها وشرقيّها . وفيه ما يطلّ على ما وراء ثنيّة العُقاب ، ويمتدّ النّظر من طاقاته الشمالية إلى ما أخذ شمالاً[3] عن بعلبك .

وأما الذي في القرية[4] ، فمن بناء الرُّوم بالحجر الأبيض أيضاً ، ويُعرف بدير السّيدة . وله بُستان ، وبه ماء جار ، في بركة عُملت به . وعليه أوقافٌ كثيرة ، وله مغلاّت واسعة ، وتأتيه نُذورٌ وافرة . وطوائف النّصارى من الفرنج تقصد هذا الدّير وتأتيه للزّيارة .

وكنتُ أراهم يسألون السُّلطان في أن يُمكنّهم من زيارته ، وإذا كَتَبَ لهم زيارة قُمامة ولم يكتب معها صيدنايا ، يُعاوِدون السّؤال في كتابتها لهم . ولهم فيها مُعتَقَد .

---

(1) أي دير السّيدة الشهير ، كما سيأتي أدناه .

(2) يقع الدّير فوق صيدنايا بأعلى إحدى قمم سلسلة القَلَمون الأعلى ، على ارتفاع حوالي 1910 متراً عن سطح البحر . كان في عصرنا خراباً يباباً ، إلى أن تمّ إعادة إعماره بأواخر القرن العشرين . واليوم يقصده الزوّار من أنحاء سورية ، وموقعه رائع جداً ، والطريق الصاعد إليه شاق ، وقمّته ترى من أكثر أنحاء ريف دمشق الغربي وسلسلة جبال لبنان . سُمّي اليوم «دير الشيروبيم» من الآرامية «كِرُوبيم» כרובים : كبار الملائكة . لكن هذا ليس اسمه الأصلي ، بل ما زال على ألسنة الناس : دير شَربين .

(3) بل الأصح : إلى الشمال الغربي .

(4) في الأصل المخطوط : وفي قرية صيدنايا دير . وقد كتب المؤلف فوق الكلمتين الأوليين كلمتي : «أما الذي» لتصحيح السّياق المتقدّم ، ولكن فاته أن يضرب على تلك الكلمات الأربع .

والنّصارى تزعم أن بها صَدعاً يقطُر منه ماء ، يأخذونه للتبرّك ، ويَدَعُونه في أوان لطاف من الزُجاج ، ويكسونها من فاخر الثّياب ، ولهم فيه أقوال كثيرة . وسمعتُ نصرانيّة[1] كانت معروفة بينهم بالعلم ، تقول : إنّ ذلك الماء إذا أُخذ على اسم شخص وعُلّق في بيته ، ثمّ ازداد مقداره عنده عمّا أخذه ، دلّ على زيادة ماله وجاهه ؛ وإذا نقص ، دلّ على نقص ماله وجاهه وقُرب أوان موته .

ورأيتُ هذا الماء ، وله دُهنيّة تشبه الشَّيرَج أو الزّيت الصّافي ، وليس بهما .

وجاءت مرّة كُتُب ريدَفْرَنس وكُتُب الأذفونش[2] ، على أيدي رُسُلهم . وممّا سألوا فيه تمكين رُسُلهم من التّوجّه إلى صيدنايا للتبرُّك بها . فأجاب السُّلطان سؤالهم ، وحمل الرُّسُل على خيل البريد إليها .

* * *

وممّا قلتُه فيه :

في جانب الدَّير لنا منزلٌ ... ومَنْهلٌ عذبٌ به ننهلُ
وشادنٌ قد جاءنا أحْوَرٌ ... في كفّه كأسٌ له تشعلُ
وروضةٌ تُشرقُ أنهارُها ... قد شَقَّها في وَسْطها جدولُ
ومُطربٌ تُطربُ ألحانُه ... كأنّه إسحاقُ أو زَلْزَلُ
فدُونَك الرَّاحَ ففي دَنّها ... شَهْدٌ وفي الطَعم بها فُلْفُلُ
وافي بها في الكأس لكنّها ... عذراءُ من خُطّابها تخجلُ

(مسالك الأبصار ، 1 : 356-357)

* * *

(1) يُلاحظ أن مصادر العُمَري كانت منوّعة ومباشرة ، وبعضها بالمشافهة مع أبناء النّواحي .
(2) ريْدَفْرَنس أي ملك فرنسا : Roi de France . أما الأذفونش فهو ملك إسبانيا ألفونسو ، واسمه عند الإسبان : Ildefonse .

دير شِقّ معلولا

وهو بباطن جُبّة عَسّال ، وهو بناءٌ رُوميّ بالحجر الأبيض ، معلّق بسُقَيف . وبها صَدْعٌ فيه ماءٌ ينقُط[1] ، نحو الذي بصيدنايا . ويأخذه النّصارى للتبرُّك ، مُعتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر . وإنّما الاسمُ للّذي بصيدنايا .

(مسالك الأبصار ، 1 : 358)

* * *

دير بلوذان

وبناؤه قديمٌ بديعُ الحُسن[2] ، وافرُ الغَلّة ، كثير الكُروم والفواكه والماء الجاري بقرية بلوذان[3] ، وهي مُحاذية لكَفْر عامِر ، تُطلّ من مُشترفها على جهة الزّبداني ، ببلاد دمشق . وبه رُهبانٌ نظاف ، وغلمان من أبناء النّصارى ظُراف .

---

(1) المقصود دير مار تَقْلا Αγια Θεκλα الشهيرة من أوائل شهداء القرن الأول .

(2) هذه إشارة نادرة ينفرد بها العُمَري حول «دير مار جرجيوس» للرُّوم الأرثوذوكس في قرية بلودان ، وهو خرب في أيامنا ، إنما لا تزال أطلاله وآثاره ماثلة قرب كنيسة الرّوم الحالية (بُنيت عام 1924) . ذكر حبيب الزيّات (مقالته دير مار جرجس بمجلته الخزانة الشرقية) أنه بدأ خرابه في القرن الثامن عشر ، لكن بقيت بعض جدرانه وأبوابه ماثلة حتى مطلع القرن العشرين ، وكان قوم في بلودان يذكرون أبوابه السبعة . ولقد قدّمنا عنه دراسة وافية في موسوعة «خطط ريف دمشق» (لم تنشر) .

(3) يُلاحظ أن المؤلّف ينطق الاسم بالذّال ، على طريقة اللغة السّريانية المحكية ، وهذا دليل على أن أهل بلودان في عصره كانوا لا يزالون يتحدّثون السّريانيّة . أما في عصرنا ، فلا يُتحدّث بها إلا في ثلاث قرى من القلمون : معلولا ، جُبّعَدين ، بَخْعَة . وهؤلاء ينطقون بسريانية هي الأقرب إلى الآرامية القديمة ، وتختلف في مبناها ولفظها عن الكلدانية الشرقية ، والسّريانيّة الغربية (بشمال سورية كالقامشلي) . غير أن السّريانية تركت آثارها الواضحة في اللهجة العربية العاميّة بالقلمون بأسره ، وبخاصّة لهجة صيدنايا المحكية . أما بلودان اليوم (وننطقها بالدّال) ، فهي من المصايف الشهيرة ، تقع على السّفوح الغربية للجبل الشرقي المطلّ على الزّبداني . ارتفاعها 1500 متراً .

مررتُ عليه ، ونزلتُ إليه . ورأيتُ به غُلاماً يفوق الظّبي حُسناً[1] ، ويُشبه البدر أو أسنى ، بخصر نحيل وطَرف كحيل . قد قطع الزُّنّار بين خصره وردفه ، ونَفَثَ السِّحرُ بين جفنه وطَرْفه . ثم ما كان بأعجل مما استتر بدرُه ، ولاح ثم خفيَ فجرُه . فقلتُ فيه :

حبّذا الدَّيرُ من بلوذانَ دارا ... أيُّ ديرٍ وأيُّ نَصَارى
فيهمُ كلّ أحْوَر الطَّرْف أحوى ... فائق الحُسن في حَياء العَذارى
وغُلام رأيتُهُ كهلال ... ما بَدَا للعُيون حتّى تَوَارى
بقَوَام إذا تَمايلَ نَشْوا ... ناً فألحاظُ مُقلتيه سُكارى
ناحل الخصر حلَّ عقدَ اصطباري ... عندما شَدَّ خَصْرَهُ زُنّارا
قبلَ رُؤياهُ ما رأيتُ غزالاً ... باتَ يسقي من مرشفيه العُقَارا

(مسالك الأبصار ، 1 : 358)

* * *

(1) ليت المؤلّف كان استفاض في وصف الدّير في أيامه ، بدلاً من التّشبيب بالغلمان ، وهو الوحيد الذي ذكره في ذلك العصر . ولو فعل لكان أفادنا أيَّ إفادة ، لكن قاتل الله المجون وأفانينه .

حانة هُشَيْمَة[1]

وكانت بدمشق ، وكانت تخدُم الوليد بن يزيد في شرابه وتتولّى اتّخاذه له . وكان يُقال إنه لم يُرَ أعرفُ منها به ولا أنظف آلةً وصنعة ، ولا أليق في الخدمة .

وقد ذكرها يزيدُ في شعره ، إذ قال :

قــد شـربنا وحَنَّــتِ الزُّمّــاره ... فاسقني يـا بُدَيْـحُ بالقَرْقــاره !
مـن شَـرابٍ كأنّـهُ دَمُ خِشْـفٍ ... عَتَّقَتْــهُ هُشَــيْمَةُ الخَمّــارَه !
اسقني ، اسقني ، فإنّ ذنوبي ... قد أحـاطَتْ فمـا لهـا كَفّـارَه !

وعُمِّرَت حتى أدركت الرَّشيد وماتت في أيامـه ، مـاتت يـوم مـات الكسـائي النّحوي والعبّاس بن الأحنَف الشاعر ، فصلّى المأمون عليهم[2] .

(مسالك الأبصار ، 1 : 398)

* * *

---

(1) لا يعني نقل ابن فضل الله لهذا الخبر أنه أدرك الحانة في أيامه ، بل نقلناه عنـه هنـا اسـتكمالاً لتقييد كل ما أورده في «مسـالك الأبصار» من فوائد في خطط دمشـق ، أي في طبوغرافيتهـا التاريخية . وهذا هو آخر خبر يرد في الجزء الأول من الكتاب .

(2) انظر كتاب «الأغـاني» لأبـي الفـرج الأصبهـاني (5 : 254) حـول مـوت إبراهيـم الموصلـي والكسائي النّحوي والعبّاس بن الأحنف وهُشَيْمة الخمّـارة ، والرّواية الطريفـة حـول أمـر الرّشيد للمأمون بالصّلاة عليهم .



قبة المدرسة الظاهرية وخلفها تبدو أسوار القلعة ، نقيشة من القرن التاسع عشر



صورة فوتوغرافية قديمة لبونفيس عام 1868 ، تبدو فيها المدرسة الظاهرية



صورة فوتوغرافية پانورامية لبساتين النّيرب الفوقاني
وفي مقدّمتها تربة السّلطان الملك العادل كتبُغا المنصوري (التربة العادلية البرّانيّة)
تصوير : ڤيلهلم هامرشميت Wilhelm Hammerschmidt حوالي عام 1870
وموقعها اليوم ضمن حديقة المالكي ، كان يسميها أهل المنطقة : ستّي خيتونة



منطقة المرجة المذكورة في العهد المملوكي ، صورة لبونفيس حوالي عام 1870



مجموعة التكية السليمانية ومدرستها ، قامت بموضع القصر الأبلق

صورة قديمة من كتاب *Damaskus, die islamische Stadt* ، برلين 1924

- 54 -

ابن بَطوطة المغربي

(توفي 770 هـ / 1368 م)

زار دمشق عام 726 هـ وعام 749 هـ

يُعدّ ابن بَطوطة ، بلا شك ، أعظم الرّحّالين المسلمين قاطبة وأكثرهم تطوافاً في الآفاق ، وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار ، وأشدّهم عناية بالتحدّث عن الحياة الاجتماعية في البلاد التي تجوّل فيها . وحديث رحلاته الطويلة غني بالأحداث يشعّ بالحياة ، يشهد بأنه كان من المغامرين الذين لا يقرّ لهم قرار ، ومن الذين يدفعهم حبّ الاستطلاع والرّغبة في الاستمتاع بالحياة إلى ركوب المخاطر والصّعاب .

ولد محمد بن عبد الله اللّواتي الشهير بابن بَطوطة في مدينة طنجة بالمغرب عام 703 هـ لأسرة بربريّة رفيعة القدر ، أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى المناصب العُليا في القضاء والفقه . غادر وطنه عام 725 هـ لأداء فريضة الحج ، وكان فتياً ابن 22 عاماً ، فظلّ حوالي 28 سنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة . وألقى عصا التّسيار أخيراً في مدينة فاس ، واتّصل بسلطانها أبي عنان المريني . وأعجب هذا السُّلطان بما كان ابن بَطوطة يقصّه من أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد ابن جُزَيّ الغرناطي الكلبي أن يدوّن ما يمليه عليه الرَّحّالة الكبير .

تولّى ابن جُزيّ رواية الرّحلة وتلخيصها وترتيبها وإضافة بعض الأشعار إليها وتحقيق أجزائها ، مُستعيناً بكتب الرّحلات المعروفة في عصره ، ولا سيّما رحلة ابن جُبير . وسمّاها : «تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

وفرغ ابن جُزَيّ منها عام 757 هـ ، وختمها بعبارة أجزل فيها الثّناء على ابن بَطوطة ، ولم ينس مولاه السلطان ، فافتخر بأن ذاك الرَّحّالة العظيم إنما اختار الاستقرار في دياره دون غيرها .

غير أن شيئاً من الاضطراب في نصّ الرّحلة يراه القارئ ، ربما كان مرجعه إلى أنه لم يدوّن أخبار رحلته بنفسه ، وأن ابن جزيّ عدّل في بعض أجزائها وغيّر فيها بالحذف والإضافة ، حتى جاءت بعض الأخبار بعيدة عن الدقة ، ولا سيّما أحاديثه عن الصين ، مما حدا ببعض الناقدين إلى اتّهامه بأنه لم يصل إلى تلك البلاد كما زعم في رحلته ، ويرى كراتشكوفسكي أن نصّه عن الصّين لا تزيد قيمته عما جاء في «أسفار السِّندباد» أو «عجائب الهند» لبُزُرْك بن شهريار .

غادر ابن بَطوطة بلاد المغرب الأقصى عام 725 هـ إلى الأراضي الحجازية ، فمرّ ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس ، ثم وصل إلى الإسكندرية والقاهرة ومنها إلى البحر الأحمر وعيذاب . ثم عاد إلى فُسطاط القاهرة ورحل عنها إلى الشام فزار بعض مدن فلسطين ولبنان وسورية ، حيث كان في نيّته أن يتابع طريقه إلى الحجاز مع ركب الحج الشامي .

وتنقّل ابن بَطوطة بين مدن الشام تنقلاً يبدو غير منتظم في أخبار رحلته ، ووصف غزّة وبيت المقدس وانتقل إلى وصف صور وطرابلس الشام وحلب ، وسرد بعض الأخبار التاريخية المتعلقة بالنزاعات المشتجرة بين السّلطان المملوكي النّاصر محمد بن قلاوون ودولة إيلخانات المغول بالعراق .

دخل ابن بَطوطة دمشق عام 726 هـ ، في أيام الملك النّاصر وكان كافلها آنذاك الأمير سيف الدّين تنكز النّاصري ، الذي وليها بين 712-740 هـ ، وكان عهده من أزهى وأبهى العهود التي شهدتها دمشق ، فنزل بها كما ذكر في مدرسة المالكية المعروفة بالشرابيشية ، التي كانت بداخل باب الجابية (في المنطقة المعروفة اليوم بالحريقة) . وأسهب في الحديث عن دمشق ، فوصف مسجدها الجامع وصفاً دقيقاً ، ونَقَل الكثير عن سابقه ابن جُبير الأندلسي .

ثم عدّد ما بالبلد من أوقاف عامة لمختلف الشؤون الاجتماعية . كما عُني بالكلام على ما يلقاه المغاربة من الإكرام وحُسن الوفادة بدمشق ، فلا يحتاج أحد منهم إلى بذل وجهه في السؤال . وبالجملة أفاض في ذكر فضائل أهل دمشق .

أدّى ابن بَطوطة بعد ذلك فريضة الحج ووصف مناسكها ، وتحدّث عن الحجازيين وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية ، ثم غادر الحجاز عام 726 هـ مع الرَّكب العراقي وعرّج على واسط والبصرة ، ثم زار بعض المدن في غربي إيران ، مثل تستر وأصبهان وشيراز وكازرون ، ثم رجع عُقب ذاك إلى العراق فأقام بالكوفة وبغداد .

وقام ابن بَطوطة برحلات من بغداد إلى تبريز والموصل ونصّيبين وسنجار وماردين ، ثم رافق ركب الحاج العراقي إلى الحجاز فأدى الفريضة ثانية ، وأقام يدرّس بمكة سنة كاملة . ثم حج ثالثة ، وركب البحر ماراً بسواكن ، وزار زُبيداً ودخل بلاط سلطان اليمن في صنعاء ، وسافر إلى عدن وبلاد الزّيلع بالصّومال ومقديشو وجال على السّاحل الشرقي لأفريقية .

ثم عاد إلى بلاد العرب طائفاً حول سواحلها الجنوبية والشرقية ماراً بمدينة ظُفار ، ثم مرّ بهرمز وسيراف والبحرين ، وعبر الخليج الفارسي إلى القطيف في إقليم اليمامة ، وانحدر منها إلى مكة فأدى الفريضة مرة رابعة وشاهد بها السّلطان المملوكي النّاصر محمد ابن قلاوون .

ثم رغب في أن يُبحر إلى اليمن والهند ، ولكنه عاد إلى مصر وسافر إلى الشام ثم اللاذقية ، وطاف بعدها في بلاد الأناضول قبل أن تدخل في سلطة بني عثمان . وبعدها أبحر إلى شبه جزيرة القرم وكانت تابعة للسلطان المغولي محمد أوزبك خان . ثم انتقل إلى القوقاز ، ومنها اصطحب دليلاً إلى مدينة البلغار على نهر إتل (الڤولغا) ، راغباً بالصعود شمالاً لزيارة أرض الظلمة (سيبيريا وشمالي روسيا) ، ولكنه أحجم لعدم المؤونة ولصعوبة السّفر في البرد القارس وارتفاع الكلفة .

عاد ابن بَطوطة بعد ذلك إلى بـلاط أوزبـك خـان في القوقـاز ، وغـادره إلـى القسطنطينية برفقة زوجة السّلطان ، وهي ابنة الإمبراطور البـيزنطي . ودخـل ابـن بَطوطة بيزنطة فلقي فيها من حفاوة القيصر وكرم الاستقبال ، ما اعتاد أن يلقاه مـن سلاطين المسلمين .

وسافر بعد ذلك إلـى شـرقي إيران وتركسـتان وأفغانسـتان ، فـزار خـوارزم وبُخاري وسَمَرقند وترْمِذ وبَلْخ وهَرَاة وطُوس ونيسابور وبسطام وغَزْنـة وكـابُل . ثم دخل بلاد الهند عام 734 هـ ، وولي بها منصب القضاء في دهلـي التـي أقـام بهـا حوالي ثمانية أعوام ، وترك في رحلته وصفاً كثيراً لمدنهـا وآثارهـا وحياتهـا وأمـراء المسلمين فيها ، وفصّـل في ذكـر عـادات الهنـود وأحوالهـم الاجتماعيـة ، فوصـف مثلاً كيفية إحراق نساء الهندوس أنفسهن لدى موت أزواجهن .

ولما أراد سلطان دهلي محمد شاه ابن تُغْلُق إرسال وفـد إلـى الصـين ، عيّـن لرياسته ابن بَطوطة لما علمه من حبه للأسفار والمغامرات . غير أن رحالتنا لـم يشـأ العودة بعد هذه الزيارة إلى سلطان دهلي ، بل تنقل بين الساحلين الغربي والشرقي لشبه القارة الهندية وزار جزيرة سيلان ، ثم سافر إلى جزائر ذيبـة المُهـل (الملديـف) وتولى القضاء فيها ، وتزوّج فيها 4 نساء .

وعرّج ابن بَطوطة على سُومطرة وأرخبيـل الملايـو ، واسـتأنف أسـفاره إلـى الخليج العربي والعراق . ثم وصل إلى دمشق للمرة الثانية وكانت مدة غيبته عنهـا عشرين سنة كاملة ، وكان قد ترك فيها زوجة له حاملاً . وقال إنه علم بـلاد الهند أنها ولدت ولـداً ذكـراً ، فعنـد وصولـه لدمشـق في هـذه الكـرّة لـم يكـن لـه هـمّ إلا السؤال عن ولده ، فعلم أخيراً أنه توفي منذ 12 سنة ، وأن أباه توفي منـذ 15 سـنة ، وأن أمه ما زالت على قيد الحياة في طنجة .

وكان ابن بَطوطة بالشام حين انتشر الطاعون في مدنها عام 749 هـ ، فخـرج عنها إلى مصر والحجاز ثم فلسطين وعاد إلى القاهرة . ومنها أبحر إلى تونـس عام 750 هـ ووصل إلى فاس وطنجة موطنه الأصلي .

غير أن نفس ابن بَطوطة تاقت إلى التّرحال من جديد ، فقام برحلة ثانية إلى الأندلس عام 751 هـ ، وبعدها عاد إلى فاس عاقداً العزم على السفر في رحلة ثالثة ليزور بلاد المسلمين في السودان الغربي عام 753 هـ ، فوصل إلى مالي ونهر النيجر ووصف أحوال سلطنة مالي وعجائب حيواناتها وحياة سكانها عموماً . ثم عاد في العام التالي إلى مدينة فاس فأقام بها حتى وفاته عام 770 هـ .

وما من شك في أن رحلات ابن بَطوطة تحتل موقع الصدارة المطلقة بين مصادر تراثنا الأدبي الجغرافي ، وهي من أكثرها أهمية وفائدة وطرافة وإمتاعاً ، وأكثر ما يميّزها أن صاحبها لم يكن ناقلاً عن غيره فيما كتب بل كان يصف ما رآه بأم عينه في محيط أسفاره الواسعة التي تجاوزت 175 ألف ميل ، أي أكثر من محيط الأرض بأربعة مرّات ونيّف . ولم يتجاوز ابن جُزيّ الصواب عندما وصف ابن بَطوطة بأنه «رحّال العصر» ، بينما يرى كراتشكوفسكي أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية ، وأنه يعتبر المنافس الأبرز لمعاصره الرَّحّالة البندقي ماركو پولو الذي طبّقت شهرته الآفاق .

وأحسن تصوير لأهمّيّة رحلات ابن بَطوطة الثلاث ، ما رواه العلاّمة الكبير ابن خلدون في مقدّمته بأواخر القرن الثامن الهجري ، إذ قال :

«وَرَدَ بالمغرب ، لعهد السّلطان أب عنان ، من ملوك بني مرين ، رجلٌ من مشيخة طَنْجَة يُعرف بابن بَطوطة ، كان رحل من عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلّب في بلاد العراق واليمن والهند . ودخل مدينة دهلي ، حاضرة ملك الهند ، وهو السّلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان ، واستعمله في خُطّة القضاء بمذهب المالكيّة في عمله» .

«ثم انقلب إلى المغرب ، واتّصل بالسّلطان أبي عنان . وكان يُحدِّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند ، ويأتي من أحواله بما يستغرب به السّامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السَّفر ، أحصى أهل مدينته من الرّجال والنّساء والولدان ،

وفرض لهم رزق ستّة أشهر تُدفع لهم من عطائه . وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود ، يبرز فيه النّاس كافّة إلى صحراء البلد ، ويطوفون به . وينصب أمامه في ذلك الحقل منجنيقات على الظهر ، ترمي شكائر الدّراهم والدّنانير على النّاس ، إلى أن يدخل إيوانه . وأمثال هذه الحكايات . فتناجى النّاس بتكذيبه !» .

وقد كتب أولريخ ياسْپِر زيتْسِن Ulrich Jasper Seetzen ، الرّحالة الألماني المشهور في مطلع القرن التاسع عشر ، بشأن رحلات ابن بَطوطة[1] :

«أيّ مسافر أوروبي في هذا العصر ، يمكنه الافتخار بأنّه خصّص قدر هذا الزّمن ، الذي يبلغ نصف حياة الإنسان ، في سبيل ارتياد مثل هذا العدد من البلدان القاصية ، وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء ، وبتحمّل المشقّات العديدة ؟ بل أيّة أمّة أوروبية كان يمكنها ، لخمسة قرون خَلَت ، إخراج مسافر يجوب المناطق الأجنبيّة ، بمثل هذا الاستقلال في الحكم ، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة ، وبمثل هذه الدّقّة في كتابة الملاحظات ، التي اتّصف بها هذا الشيخ المرّاكشي المشهور ، في المجلّدين من كتابه ؟» .

«إن معلوماته عن كثير من المقاطعات الأفريقية المجهولة ، وعن نهر النّيجر ، وعن بلاد الزّنج (زنجبار) ، إلخ . . . ، لا تقلّ فائدة عن معلومات ليون الأفريقي . أما جغرافية بلاد العرب وبُخارى وكابُل وقَنْدَهار ، فإنها تستفيد كثيراً من كتابه ؛ حتى أخباره عن الهند وسيلان وسُومطرة والصّين ، فإنه من الواجب على إنكليز الهند أن يقرأوها باهتمام خاصّ» .

أما المستشرق الهولندي راينهارت دوزي Reinhart Dozy ، فلقد حمله إعجابه بدقّة بَطوطة على أن نعته بعبارة : «هذا الرّحالة الأمين !» .

---

(1) في كتاب رحلاته الشهير :
Seetzen, U.J.: *Reisen durch Syrien, Palästina, Phönicien, die Tansjordan-Länder, Arabia Petraea, und Unter-Ägypten*. Berlin, 1854-1859. (4 Bände)

هذا ، ومن المفيد للغاية مقارنة أقوال ابن بَطوطة وصدق أقواله ، بمقابلتها بنصوص الرّحالين الأوروبيين المعاصرين له ، وهؤلاء لم ينقلوا عنه ولا اطّلعوا حتى على كتابه . نذكر منهم خاصّة الرّحالة الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي L. Frescobaldi (يرد في الجزء الثالث) الذي زار مصر عام 1384 م ، أي بعد ابن بَطوطة بنحو 60 سنة ، وروى عنها أشياء مشابهة تماماً لأقوال رحّالتنا .

* * *

وأول طبعة للرحلة صدرت في پاريس مع ترجمة فرنسية بأربعة أجزاء ، على يد المستشرقين ديفريمري وسانغوينيتّي ، بين عامي 1853–1858 :

C. Defrémery et B. R. Sanguinetti: *Voyage d'Ibn Batoutah*, 4 volumes, Paris, 1853-1858.

صدر في القاهرة طبعتان نقلاً عن طبعة پاريس ، إحداهما عام 1322 هـ . ثم نشر المستشرق غِب Gibb ملخّصاً لها بالإنكليزية ، وصدرت عن دار نشر Routeledge بلندن عام 1929 . وصدرت طبعة جديدة بدار صادر ببيروت عام 1960 . ثم أعاد نشرها علي المنتصر الكتّاني مؤسسة الرّسالة ببيروت عام 1972 ، وهي طبعة تجارية سقيمة لم تأت بجديد . لكن أحسن نشرة للرحلة هي التي أصدرها العلاّمة المغربي عبد الهادي التازي في الرّباط عام 1997 .

أما دمشق ، فقد زارها ابن بَطوطة كما يذكر في نصّه مرتين : الأولى عام 726 هـ ، في عهد نائبها المملوكي سيف الدّين تنكز ، والثانية عام 749 هـ ، في عهد نائبها أرغون شاه . ويرى القارئ في نصه وصفاً دقيقاً وحيّاً جميلاً للمدينة إبّان ذروة بهائها في العهد المملوكي آنذاك ، وهو يفيدنا بالتعرّف إلى بعض الدّقائق اللطيفة في حياتها الاجتماعية ، وحُسن ائتلاف أهلها وعنايتهم بالضيف والغريب وبخاصة من المغاربة ، ولا ريب أن ما ذكره عن قصة المملوك والصحن المكسور ، وعن تسابق الدمشقيين إلى دعوة الفقراء للإفطار في رمضان ، إنما يعتبر نهاية ما بعدها نهاية في التّراحم والتكافل الاجتماعي .

وقد أفادنا الرَّحّالة الكبير عموماً بإعطاء وصف شامل للمدينة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، وطعّم ذلك ببعض المشاهدات الغريبة التي أبدى رأيه فيها ، فاستحسن تارة واستنكر تارة أخرى . ويبدو أن مذهب الشيخ ابن تيميّة الذي كان بدمشق آنذاك لم يَرُق له ، وكان شهده بدمشق يدرّس ويخطب . ولقد كتب الشيخ محمّد بهجة البيطار عن هذا الموضوع مقالة طريفة في مجلة «دمشق» ، العدد 10 (سنة 1940) ، ص 3-11 .

هذا ولقد رجعتُ في نص الرّحلة إلى طبعة دار صادر ودار بيروت للنشر ، المنقولة عن طبعة باريس ، والصّادرة ببيروت عام 1960 .

المصادر :

رحلة ابن بَطوطة ، طبعة دار صادر ببيروت .
رحلة ابن بَطوطة ، طبعة الكتاني ببيروت .
رحلة ابن بَطوطة ، طبعة التّازي بالرّباط .
الدّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، 3 : 480 .
ابن بَطوطة ورحلاته ، لحسين مؤنس ، 164 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 421-433 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجد ، 248 .
الرَّحّالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسن ، 136-171 .
روّاد الشرق العربي لزيادة ، 180-192 .
الرّحلة والرَّحّالة المسلمون لأحمد رمضان ، 369 .
الفكر الأندلسي للمستشرق بالنثيا ، 319 .
دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 367 .
Gallent, Guillermo: *El viajero infatigable Ibn Batuta*, Tetúan, 1950.
Gibb, H.A.R.: *Travel of Ibn Batuta*, Routeledge, London, 1929.
Janssens, H.F.: *Ibn Batuta, Le Voyageur de l'Islam*, Bruxelles, 1948.

دمشق

ووصلتُ يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظَّم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام . فنزلتُ منها بمدرسة المالكيّة المعروفة بالشرابيشيّة[1] .

ودمشقُ هي التي تفضُل جميع البلاد حسناً ، وتتقدّمها جمالاً ، وكلّ وصف وإن طال فهو قاصرٌ عن محاسنها ، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جُبَيْر رحمه الله تعالى في ذكرها ، قال[2] :

جنَّة المشرق ، ومَطلعُ حُسنه المُؤنق المُشرق ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت في حُلَلٍ سُندسيّة من البساتين ، وحلَّت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزيَّنت في منصّتها أجمل تزيين ، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمّه ، صلى الله عليهما ، منها إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين .

ظلٌّ ظليل ، وماءٌ سلسبيل ، تنساب مَذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يُحيي النفوسَ نسيمُها العليل ، تتبرّج لناظريها بمُجتلىً صقيل ، وتناديهم : هلُمّوا إلى مُعرَّس للحُسن ومَقيلٍ . قد سئمت أرضُها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء ، فتكاد تُناديك بها الصُمُّ الصّلاب : ﴿ارْكُضْ بِرِجلِكَ هذا مُغْتسلٌ باردٌ وشراب﴾ .

قد أحدقت البساتين بها إحداقَ الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتنافَ الكمامة للزَّهر ، وامتدّت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتدادَ البصر ، فكلّ موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قيدَ النظر ، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنَّة في الأرض فدمشقُ لا شك فيها ، وإن كانت في السّماء فهي بحيث تُسامِتُها وتحاذيها .

---

(1) أوقفها حوالي عام 670 هـ التاجر علي الشّرابيشي داخل باب الجابية ، زالت بحريق 1925 .

(2) راجع رحلة ابن جبير ، طبعة دار صادر ببيروت 1964 ، ص 234-271 . ونشرتُ منها وصفه لدمشق في في كتابي هذا أعلاه (رقم 37) .

قال ابنُ جُزَيّ : وقد نظم بعضُ شعرائها في هذا المعنى فقال :

إنْ تكن جنّة الخُلود بأرض فدمشقُ ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها قد أبدّت هواءها وهَواها
بلدٌ طيبٌ وربٌ غفورٌ فاغتنمها عشيةً وضُحاها

وذكرها شيخنا المحدّث الرحّال شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن جابر ابن حسّان القيسي الوادي آشي نزيل تونس - ونقل نص كلام ابن جبير - ثم قال :

ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوّق الأنفسَ للتطلّع على صورتها بما أفاد . هذا وإن لم تكن له بها إقامة ، فيُعرب عنها بحقيقة وعلامة ، ولا وصف ذهبيّات أصيلها ، وقد حان من الشمس غروبها ، ولا أزمانَ جفولها المنوّعات ، ولا أوقات سرورها المنبّهات ، وقد اختصر من قال : ألفيتُها كما تصفُ الألسنُ ، وفيها ما تشتهيه الأنفسُ ، وتلذُّ الأعين .

قال ابن جُزَيّ : والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يُحصر كثرةً . وكان والدي رحمه الله كثيرا ما يُنشد في وصفها هذه الابيات ، وهي لشرف الدّين بن عُنْين ، رحمه الله تعالى[1] :

دمشقُ بنا شوقٌ إليها مبرّحٌ وإن لجَّ واشٍ أو ألحّ عَذُولُ
بلادٌ بها الحَصْباءُ دُرٌّ ، وتُرْبُها عَبيرٌ ، وأنفاسُ الشَّمال شَمُولُ
تَسَلسلَ فيها ماؤها وهو مُطْلَقٌ وصَحَّ نسيمُ الرَّوضِ وهوعَليلُ

وهذا من النّمط العالي من الشعر . وقال فيها عَرْقَلَةُ الدمشقيّ الكلبي :

الشامُ شامةُ وَجْنَةِ الدّنيا كما إنسانُ مُقْلَتها الغضيضة جِلَّقُ
من آسِها لك جنةٌ لاتنقضي ومن الشَّقيقِ جهنّمٌ لاتُحْرِقُ

---

(1) هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن عُنين الأنصاري الدمشقي ، نشر ديوانه بدمشق خليل مردم بك ، في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1946 . ص 68 .

وقال أيضاً فيها :

أمّا دمشقُ فجنّاتٌ مُعَجَّلَةٌ للطّالبين بها الولدانُ والحُورُ
ما صاحَ فيها على أوتاره قَمَرٌ إلا يُغنّيه قمريٌّ وشحرورُ
يا حَبّذا ودوعُ الماء تنسجُها أناملُ الرِّيح إلا أنّها زُورُ

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك .

وقال فيها أبو الوحش سَبْع بن خَلَف الأسدي :

سقى اللهُ دمشقَ غَيثاً مُحسناً من مُستهلٍّ ديمة دهاقها
مدينةٌ ليس يُضاهي حُسنُها في سائر الدُّنيا ولا آفاقها
تَوَدُّ زَوْراءُ العراق أنّها منها ولا تُعزى إلى عراقها
فأرضُها مثلُ السّماء بهجةً وزَهرُها كالزُّهر في إشراقها
نسيمُ رَوضها متى ما قد سَرى فَكَّ أخا الهُموم من وثاقها
قد رَتّعَ الرَّبيعُ في رُبوعها وسِيقَت الدُّنيا إلى أسواقها
لا تسأمُ العيونُ والأنوفُ من رُؤيتها يوماً ولا استنشاقها

وممّا يناسب هذا ، للقاضي عبد الرّحيم البَيْساني فيها من قصيدة ، وقد نُسبت أيضاً لابن المُنَيِّر :

يا برقُ هل لكَ في احتمال تحيّة عَذُبَتْ فصارت مثلَ مائكَ سَلسلا
باكِر دمشقَ بمَشْق أقلام الحيا زهرَ الرِّياض مُرَصّعاً ومُكلَّلا
واجرر بجيرون ذيولَك واختصص مغنىً تأزَّرَ بالعُلى وتَسَرْبَلا
حيثُ الحيا الرَّبعيُّ محلولُ الحيا والوابلُ الرّبعيُّ مفريُّ الكَلا

وقال فيها أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد العَنْسي الغرناطي ، المدعو نور الدّين :

دمشقُ منزلنا حيثُ النَّعيمُ بَدا — مُكمَّلاً وهو في الآفاق مُختصرُ
القُضْبُ راقصةٌ والطَّيرُ صادحةٌ — والزَّهرُ مُرتفعٌ والماءُ مُنحدرُ
وقد تجلَّتْ من اللّذات أوجُهُها — لكنّها بظلال الدَّوْح تستترُ
وكلُّ وادٍ به موسى يُفجِّرُهُ — وكلُّ رَوض على حافّاته الخَضِرُ

وقال فيها أيضاً :

خَيِّم بجلَّقَ بين الكأس والوَتَر — في جَنَّة هي ملءُ السَّمع والبَصَر
ومَتِّع الطَّرْفَ في مرأى محاسنها — وروِّض الفكرَ بين الرَّوض والنَّهر
وانظُر إلى ذهبيّات الأصيل بها — واسمع إلى نَغَمات الطير في الشجر
وقُلْ لمن لام في لذّاته بَشَرا — دَعْني فإنّك عندي من سوى البشر

وقال فيها أيضاً :

أمّا دمشقُ فجنّةٌ — ينسى بها الوطنَ الغريب
لله أيامُ السُّبُو — تِ بها ومنظرُها العجيب
أنظرْ بعينكَ هل تَرَى — إلا مُحبّاً أو حبيب
في موطنٍ غنّى الحمام — به على رقص القضيب
وغَدَتْ أزاهرُ رَوضه — تختالُ في فَرَح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً[1] ، إنّما يخرجون الى المتنزّهات ، وشُطوط الأنهار ، ودَوحات الأشجار ، بين البساتين النضيرة ، والمياه الجارية ، فيكونون بها يومهم إلى الليل . وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق ، فلنرجع إلى كلام الشيخ أبي عبدالله .

* * *

---

(1) كتب الباحث الدمشقي الشهير حبيب الزيّات عن أيام السّبوت بدمشق مقالة شائقة طريفة في مجلته الخزانة الشرقية ، 1 : 24 .

ذكر جامع دمشق
المعروف بجامع بني أميّة

وهو أعظم مساجد الدّنيا احتفالاً ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً ، ولا يُعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه . وكان الذي تولّى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان . ووجّه إلى ملك الرُّوم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصنّاع ، فبعث إليه اثني عشر ألف صانع .

وكان موضع المسجد كنيسة . فلما افتتح المسلمون دمشق ، دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه ، من إحدى جهاتها بالسيف ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، ودخل أبو عبيدة ابن الجرّاح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحاً ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً ، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة .

فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد ، طلب من الرُّوم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض ، فأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم . وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجنّ ، فذكروا ذلك للوليد فقال : أنا أول من يجنُّ في سبيل الله . وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه . فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الرُّوم .

وزُيِّن هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحُسن . وذَرْعُ المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة ، وهي ثلاث مئة ذراع . وعرضه من القبلة إلى الجوف مئة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مئتا ذراع . وعدد شمسيات الزجاج الملوّنة التي فيه أربع وسبعون . وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب ، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة ، وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني أرجل جصيَّة تتخللها ، وست أرجل مرخمة مرصّعة بالرُّخام الملوّن ، قد صوّر فيها أشكال محاريب وسواها .

وهي تقلّ قبة الرّصاص التي أمام المحراب المسمّاة بقبّة النسر ، كأنهم شبّهوا المسجد نسراً طائراً والقبّة رأسه ، وهي من أعجب مباني الدنيا ، ومن أي جهة استقبلتَ المدينة ، بَدَتْ لك قبّة النّسر ذاهبةً في الهواء ، مُنيفةً على جميع مباني البلد .

وتستدير بالصحن بلاطات ثلاث من جهاته الشرقية والغربية والجوفية[1] ، سعة كل بلاط منها عشر خطاً ، وبها من السّواري ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة .

وسعة الصحن مئة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمّها حسناً ، وبه يجتمع أهل المدينة بالعشايا ، فمن قارىء ومحدِّث وذاهب ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة . وإذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباً له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحطّ رأسه .

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها في غربيّه وهي أكبرها ، وتسمّى قبة عائشة أم المؤمنين ، وهي قائمة على ثمان سَوَارٍ من الرُّخام مُزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقّفة بالرّصاص ، يقال إن مال الجامع كان يُختزن بها .

وذُكر لي أن فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كل سنة .

والقبّة الثانية من شرقيّ الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها قائمة على ثمان من سواري الرُّخام ، وتسمى قبّة زين العابدين .

والقبّة الثالثة في وسط الصحن ، وهي صغيرة مثمّنة من رُخام عجيب مُحكم الإلصاق ، قائمة على أربع سَوَار من الرُّخام الناصع ، وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس يمجّ الماء إلى علوّ ، فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين ، وهم يسمونهم قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب .

---

(1) يريد بهذه البلاطات الأروقة المعمّدة ، وقوله : الجوفية ، يعني الشمالية .

وفي الجانب الشرقي من الصحن ، بابٌ يفضي إلى مسجد بديع الوضع ، يُسمَّى مشهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفي ، موضع يقال إن عائشة رضي الله عنها ، سمعت الحديث هنالك .

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤمّ فيها إمام الشافعية . وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجّهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام(1) ، وتُفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثْم ذلك المصحف الكريم ، وهنالك يحلّف الناس غُرماءهم ومن ادّعوا عليه شيئاً .

وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ، ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وُضع في الإسلام ، وفيه يؤمّ إمام المالكية . وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤمّ إمامهم ، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤمّ إمامهم .

ولهذا المسجد ثلاث صوامع إحداها بشرقيه ، وهي من بناء الرُّوم وبابها داخل المسجد ، وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضأون ، والصَّوْمعة الثانية بغربيه ، وهي أيضاً من بناء الرُّوم ، والصَّوْمعة الثالثة بشماله وهي من بناء المسلمين .

وعدد المؤذّنين به سبعون مؤذناً .

وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء ، وهي لطائفة الزَّيالعة السُّودان ، وفي وسط المسجد قبر زكريّا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين ، مكسو بثوب حرير أسود معلّم فيه مكتوب بالأبيض : ﴿يا زكريّا إنّا نُبَشِّرُكَ بغُلامٍ اسمُهُ يَحيَى﴾ ، وهذا المسجد شهير الفضل .

(1) هذا المصحف كان أصلاً في طبريّة ، فأُتي به إلى الجامع الأموي بدمشق ، لكنه احترق عندما دمّر المغول المدينة عام 803 هـ . فجُلب آخر من بصرى ، فاحترق أيضاً في كارثة حريق الأموي الكبير في 4 ربيع الثاني 1311 هـ ، الموافق 15 تشرين الأول 1893 م .

وقرأتُ في فضائل دمشق عن سُفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق ، بثلاثين ألف صلاة . وفي الأثر عن النبي ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، أنه قال : يُعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة . ويقال : إن الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام ، وإن قبره به . وقد رأيتُ على مقربة من مدينة ظُفار اليمن ، بموضع يقال له الأحقاف بُنية فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هُود بن عابر ، عليه السّلام .

ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو من قراءة القرآن والصلاة إلا قليلا من الزمان كما سنذكره . والناس يحتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح ، فيقرأون سُبعاً من القرآن ، ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمًّى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . وللمجتمعين على هذه القراءة مرتّبات تجرى لهم ، وهم نحو ست مئة إنسان ، ويدور عليهم كاتبُ الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه ، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك . ويتوضأون من المطاهر التي بداخل الصَّوْمعة الشرقية التي ذكرناها . وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك .

وفي هذا المسجد أربعة أبواب :

باب قبلي يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعة من الرّمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه . ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ، ومنه يُذهب إلى دار الخيل ، وعن يسار الخارج منه سماط الصفَّارين ، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي ، من أحسن أسواق دمشق ، وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه ، وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقاً .

وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جَيْرون ، وله دهليز عظيم يُخرج منه إلى بلاط عظيم طويل ، أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال . وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم ، كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه . وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عُمَر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وبه ماء جار . وقد انتظمت أمام البلاط درج يُنحدر فيها الى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع ، تحته أعمدة كالجذوع طوال ، وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستطيلة ، فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين ، وصنّاع أواني الزّجاج العجيبة .

وفي الرّحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ، منها دكانان للشافعية ، وسائرها لأصحاب المذاهب ، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول ، والعاقد للأنكحة من قِبَل القاضي ، وسائر الشهود مفترقون في المدينة .

وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الورّاقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد . وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرُّخام كبير مستدير ، عليه قبة لا سقف لها تقلّها أعمدة رخام ، وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يدفع الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمّونه الفوّارة ، منظره عجيب .

وعن يمين الخارج من باب جيرون ، وهو باب الساعات ، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتّحة ، لها أبواب على عدد ساعات النهار ، والأبواب مصبوغ باطنها بالخُضرة وظاهرها بالصُّفرة ، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً ، والظاهرُ الأصفر باطناً . ويقال : إن بداخل الغرفة من يتولّى قلبها بيده عند مضي السّاعات .

والباب الغربيّ يُعرف بباب البريد ، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية ، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين ، وسماط لبيع الفواكه ، وبأعلاه باب يصعد إليه في درج له أعمدة سامية في الهواء . وتحت الدّرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان .

والباب الجوفي[1] يعرف بباب النّاطفانيين ، وله دهليز عظيم ، وعن يمين الخارج منه خانقاة تعرف بالشميْصاتية ، في وسطها صهريجُ ماء ، ولها مطاهر يجري فيها الماء . ويقال : إنها كانت دارَ عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء ، يكون فيها نحو مئة بيت تجري فيها المياه الكثيرة .

ذكر الأئمَة بهذا المسجد

وأئمته ثلاثة عشر إماماً ، أولهم إمام الشافعية ، وكان في عهد دخولي إليها إمامهم قاضي القضاة جلال الدّين محمد بن عبد الرّحمن القزويني ، من كبار الفقهاء ، وهو الخطيب بالمسجد . وسكناه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة ، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه . وقد تولى جلال الدّين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدّى عنه الملك النّاصر نحو مئة ألف درهم كانت عليه ديناً بدمشق .

وإذا سلّم إمام الشافعية من صلاته ، أقام الصلاة إمامُ مشهد عليّ ، ثم إمامُ مشهد الحسين ، ثم إمام مشهد الكلاّسة ، ثم إمام مشهد أبي بكر ، ثم إمام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين . ثم إمامُ المالكيّة ، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الأصل الغرناطيَ المولد نزيل دمشق ، وهو يتناوب الإمامة مع أخيه رحمهما الله . ثم إمامُ الحنفية ، وكان إمامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدّين الحنفي المعروف بابن الرّوحي ، وهو من كبار الصوفية ، وله شياخة الخانقاة الخاتونية ، وله أيضا خانقاة بالشّرَف الأعلى . ثم إمامُ الحنابلة ، وكان في ذلك العهد الشيخ عبدالله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق .

(1) من الواضح أن ابن بَطوطة يعني بالجوفي : الشمالي ، فهو هنا يذكر محلّة الكلاسة شمالي الجامع الأموي . وهذا من تعبيرات المغاربة .

ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت ، فلا تزال الصلاة في هذا المشهد من أول النهار الى ثلث الليل ، كذلك قراءة القرآن ، وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك .

ذكر المدرّسين والمعلّمين به

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم . والمحدّثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة ، وقُرّاء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء .

وبه جماعةٌ من المعلّمين لكتاب الله ، يستندُ كلٌ واحد منهم الى سارية من سواري المسجد يلقّنُ الصبيان ويُقرئهم ، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً . ومعلّمُ الخط غير معلّم القرآن ، يعلّمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرفُ الصبيُ من التعليم الى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لأنه المعلم للخطّ لا يعلّم غيره .

ومن المدرّسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدّين بن الفركاح الشافعي ، ومنهم العالم الصالح نور الدّين أبو اليسر ابن الصايغ من المشتهرين بالفضل والصلاح . ولما وُلي القضاء بمصر جلال الدّين القزويني ، وجّه الى أبي اليسر ابن الصايغ الخلعة والأمر بقضاء دمشق ، فامتنع من ذلك .

ومنهم الإمام العالم شهاب الدّين ابن جَهْبَل من كبار العلماء ، هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفاً من أنه يقلّد القضاء ، فاتصل ذلك بالنّاصر فولّى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلّمين علاء الدّين القونوي ، وهو من كبار الفقهاء .

ومنهم الإمام الفاضل بدر الدّين علي السّخاوي المالكي ، رحمة الله عليهم أجمعين .

ذكر قضاة دمشق

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعية بها جلال الدّين محمد بن عبد الرحمن القزويني . وأما قاضي المالكية فهو شرف الدّين ابن خطيب الفيّوم . حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء ، وهوشيخ شيوخ الصوفية . والنائب عنه في القضاء شمس الدّين ابن القفصي ، ومجلس حكمه بالمدرسة الصَّمصامية .

وأما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدّين الحوراني ، وكان شديد السطوة ، وإليه يتحاكم النّساء وأزواجهن ، وكان الرجل إذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول اليه . وأما قاضي الحنابلة فهو الإمام الصّالح عزّ الدّين ابن مسلم ، من خيار القضاة ينصرف على حمار له ، ومات بمدينة رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، لما توجّه للحجاز الشريف .

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدّين بن تَيْمية كبير الشام ، يتكلم في الفنون ، إلا أن في عقله شيئاً[1] . وكان أهل دمشق يعظّمونه أشدّ التعظيم ويَعِظُهم على المنبر .

وتكلَّم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه إلى الملك النّاصر ، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك النّاصر ، وتكلّم شرف الدّين الزّواوي المالكي ، وقال : إن هذا الرجل قال كذا وكذا ، وعدّد ما أنكر على ابن تَيْمية ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدي قاضي القضاة .

وقال قاضي القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟ قال : لا إله إلا الله . فأعاد عليه ، فأجاب بمثل قوله . فأمر الملك النّاصر بسجنه ، فسُجن أعواماً .

(1) يبدو أن ابن بَطوطة ، المالكي المذهب ، لم يعجبه مذهب ابن تيميّة الحنبلي السّلفي ، فكتب فيه هذا الكلام . ولنقد العلماء الأعلام أصول تُتّبع غير هذه !

وصنّف في السّجن كتاباً في تفسير القرآن سمّاه بالبحر المحيط في نحو أربعين مجلداً . ثم إن أمّه تعرّضت للملك النّاصر وشكَت إليه ، فأمر بإطلاقه ، إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية .

وكنتُ إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكّرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل الى سماء الدنيا كنُزولي هذا . ونزل درجة من درج المنبر . فعارضه فقيه مالكي يُعرف بابن الزّهراء ، وأنكر ما تكلّم به . فقامت العامّة الى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه شاشيّة حرير ، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدّين بن مسلم قاضي الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزّره بعد ذلك .

فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدّين تنكز ، وكان من خيار الأمراء وصُلحائهم ، فكتب الى الملك النّاصر بذلك ، وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بأمور مُنكرة منها : أن المطلّق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقة واحدة ، ومنها أن المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف (زاده الله طيباً) لا يقصر الصلاة ، وسوى ذلك ممّا يشبهه ، وبعث العقد الى الملك النّاصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسُجن بها حتى مات في السجن .

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية ، وبها يحكم قاضي القضاة . وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر ، وبها جلوس نواب القاضي . ومن نوابه فخر الدّين القبطي ، كان والده من كتّاب القبط وأسلم ، ومنهم جمال الدّين بن جملة ، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعُزل لأمر أوجب عزله .

حكاية

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدّين العجمي ، وكان سيف الدّين تنكز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظّمه ، فحضر يوماً بدار العدل عند ملك الأمراء ، وحضر القضاة الأربعة ، فحكى قاضي القضاة جمال الدّين بن جملة حكاية ، فقال له ظهير الدّين : كذبت . فأنف القاضي من ذلك ، وامتعض له ، فقال للأمير : كيف يكذّبني بحضرتك ؟! فقال له الأمير : أحكم عليه ، وسلّمه إليه ؛ وظنّه أنه يرضى بذلك ، فلا يناله بسوء .

فأحضره القاضي بالمدرسة العادلية ، وضربه مئتي سوط ، وطيف به على حمار في مدينة دمشق ، ومُنادٍ ينادي عليه ، فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة ، وهكذا العادة عندهم .

فبلغ ذلك ملك الأمراء ، فأنكره أشد الإنكار ، وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضي ، وحكمه بغير مذهبه ، فإنّ التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحدّ . وقال قاضي قضاة المالكية شرف الدّين : قد حكمتُ بتفسيقه .

فكتب إلى الملك النّاصر بذلك فعزله .

* * *

وللحنفية مدارس كثيرة ، وأكبرها مدرسة السّلطان نور الدّين ، وبها يحكم قاضي قضاة الحنفية ، وبها قعوده للأحكام ، والمدرسة النّورية عمّرها السّلطان نور الدّين محمود ابن زنكي .

وللمالكية ثلاث مدارس إحداها الصمصاميّة ، وبها سَكَنُ قاضي قضاة المالكية ، وقعوده للأحكام ، والمدرسة الشّرابيشية عمّرها شهاب الدّين الشرابيشي التاجر .

وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النّجمية .

ذكر أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ، ومنها باب الجابية ، ومنها الباب الصغير ، وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجمّ من الصحابة والشهداء فمن بعدهم . قال محمد بن جُزَيّ : لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله :

دمشـقُ في أوصافها جنـةُ خُلْـدٍ راضيَـه
أمـا تَـرَى أبوابَـها قـد جُعلت ثمانيَـه

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التي بين البابين باب الجابية والباب الصغير ، قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين ، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبر بلال مؤذن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ورضي الله عنهم أجمعين ، وقبر أويس القرني ، وقبر كعب الأحبار رضي الله عنهما .

ووجدتُ في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي : أن جماعة من الصّحابة صحبهم أُويس القَرَني ، من المدينة الى الشام ، فتوفى في أثناء الطريق في بريَّة لا عمارة فيها ولا ماء ، فتحيّروا في أمره ، فنزلوا فوجدوا حنوطاً وكفناً وماء ، فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفّنوه ، وصلّوا عليه ودفنوه ، ثم ركبوا فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامة ؟ فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر .

قال ابن جُزَيّ : ويقال إن أويساً قُتل بصفّين مع عليّ عليه السلام ، وهو الأصحّ إن شاء الله تعالى .

ويلي باب الجابية باب شرقي عنده جبّانة ، فيها قبر أبيّ بن كعب صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وفيها قبر العابد الصالح رسلان المعروف بالباز الأشهب .

حكاية في سبب تسميته بذلك

يُحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه ، كان مسكنه بأُم عبيدة بمقربة من مدينة واسط . وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شُعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ، ويقال : إن كل واحد منهما كان يسلّم على صاحبه صباحاً ومساءً ، فيردّ عليه الآخر .

وكانت للشيخ أحمد نُخيلات عند زاويته ، فلما كان في إحدى السنين جزّها على عادته ، وترك عِذقاً منها وقال : هذا برسم أخي شُعيب .

فحجّ الشيخ أبو مدين تلك السنة ، واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ، ومع الشيخ أحمد خديمه رسلان ، فتفاوضا الكلام ، وحكى الشيخ حكاية العِذق ، فقال له رسلان : عن أمرك يا سيدي آتيه به . فأذن له ، فذهب من حينه وأتاه به ، ووضعه بين أيديهما . فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازاً أشهب قد انقضّ على النخلة فقطع ذلك العِذق ، وذهب به في الهواء .



* * *

[عَوْد على ذكر المشاهد والزّيارات]

وبغربي دمشق جبّانة تعرف بقبور الشُّهداء ، فيها قبر أبي الدَّرْدَاء وزوجه أم الدَّرْدَاء ، وقبر فُضالة بن عُبيد ، وقبر واثلة بن الأسقع ، وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة ، رضي الله عنهم أجمعين .

وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق ، وعلى أربعة أميال منها ، قبر سعد ابن عُبادة رضي الله عنه ، وعليه مسجد صغير حسن البناء ، وعلى رأسه حجر فيه مكتوب : هذا قبر سعد بن عبادة ، رأس الخزرج صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً .

وبقرية قبليّ البلد ، وعلى فرسخ منها ، مشهد أم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام ، ويقال : إن اسمها زينب وكنّاها النبي - صلّى الله عليه وسلّم - أم كلثوم ، لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وعليه مسجد كريم ، وحوله مساكن ، وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم ، وقبر آخر يقال إنه قبر سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام .

وبجامع النّيرب من قرى دمشق في بيت بشرقيه قبر يقال إنه قبر أم مريم عليهما السلام .

وبقرية تُعرف بداريّا غربي البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبي مسلم الخولاني ، وقبر أبي سلمان الداراني رضي الله عنهما .

ومن مشاهد دمشق الشهيرة البَركة مسجد الأقدام ، وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدّس وديار مصر . وهو مسجد عظيم كثير البركة ، وله أوقاف كثيرة ، ويعظّمه أهل دمشق تعظيماً شديداً ، والأقدام التي يُنسب إليها هي أقدام مصورة في حجر هنالك ، يقال إنها أثر قدم موسى عليه السلام .

وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه ، كان بعض الصالحين يرى المصطفى ، صلّى الله عليه وسلّم ، في النوم فيقول له : ها هنا قبر أخي موسى عليه السلام .

وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الأحمر[1] ، وبمقربة من بيت المقدس وأريحا موضع يُعرف أيضاً بالكثيب الأحمر ، تعظّمه اليهود .

* * *

---

(1) للمؤرخ الدمشقي ابن طولون عنه : تحفة الحبيب في أخبار الكثيب (مخطوط في لايدن) .

حكاية

شاهدتُ أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني ، سنة تسع وأربعين ، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يُعجب منه : وهو أن ملك الأمراء نائب السّلطان أرغون شاه[1] ، أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهاراً ، وأكثر الناس بها إنما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق .

فصام الناس ثلاثة أيام متوالية ، كان آخرها يوم الخميس ، ثم اجتمع الأمراء والشّرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غصّ بهم ، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصلٍّ وذاكرٍ وداعٍ .

ثم صلّوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بإنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرّعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام .

وأقاموا في تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا إلى البلد ، فصلّوا الجمعة وخفّف الله تعالى عنهم ، فانتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد ، وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد .

* * *

وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء ، يُقال إنها التي ينزل عيسى عليه السّلام عندها ، حسبما ورد في صحيح مُسلم .

* * *

(1) هو نائب دمشق الأمير الكبير سيف الدّين أرغون شاه ، تولى دمشق 748-750 هـ ، وعمّر بها مسجده المعروف قبالة القلعة ، وهو يُعرف اليوم بجامع السّنجقدار . راجع البداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ ابن قاضي شُهبة ، وإعلام الورى لابن طولون ، 20 .

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات ، دواخلها أملح من داخل دمشق لأجل الضيق الذي في سككها .

وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية ، وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحُسنه ، وفيها مسجدٌ جامع ومارستان ، وبها مدرسة تُعرف بمدرسة أبي عمر موقوفة على من أراد أن يتعلّم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس .

وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن مُنَجًّا .

وأهل الصّالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه .

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون جبل في شمال دمشق ، والصّالحية في سفحه ، وهو شهيرالبركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام . ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام ، وهو غار مستطيل ضيّق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز . وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه .

وقد رأيتُ ببلاد العراق قرية تعرف ببُرْص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهملة) ، ما بين الحلّة وبغداد ، يُقال إن مولد ابراهيم عليه السلام كان بها ، وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام ، وبها قبره .

ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدّم ، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام . وقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً محمراً ، وهو الموضع الذي قتله أخوه به واجترّه إلى المغارة . ويُذكر أن تلك المغارة صلّى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيّوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين .

وعليها مسجد متقن البناء يُصعد إليه على درج ، وفيه بيوت ومرافق للسّكن ، ويُفتح في كل يوم اثنين وخميس ، والشمع والسُّرُج توقد في المغارة .

ومنها كهف بأعلى الجبل ، يُنسب لآدم عليه السلام ، وعليه بناء .

وأسفل منه مغارة الجوع يذكر أنه آوى اليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام ، وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم . وعلى هذه المغارة مسجد مبني ، والسُرُج تتَّقِدُ به ليلاً ونهاراً .

ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة .

ويُذكر أنّ فيما بين باب الفراديس وجبل قاسيون ، مدفن سبع مئة نبي ، وبعضهم يقول سبعين ألفاً .

وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الأنبياء والصالحين . وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء ، يقال إنها مدفن سبعين نبياً ، وقد عادت قراراً للماء ونُزِّهت من أن يُدفن فيها أحد .

ذكر الرَّبْوَة والقرى التي تواليها

وفي آخر جبل قاسيون الرَّبْوَة المباركة ، المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ، ومأوى المسيح وأمه عليهما السلام . وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها ، وبها القصورالمشيدة و المباني الشريفة ، والبساتين البديعة .

والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير ، وإزاءها بيت يقال إنه مصلّى الخضر عليه السلام ، يبادر الناس إلى الصلاة فيها . وللمأوى باب حديد صغير ، والمسجد يدور به ، وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علوّ وينصبّ في شاذروان في الجدار يتّصل بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ، ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل . وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء .

وهذه الرَّبْوَة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها ، وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ في جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم .

وأكبر هذه الأنهار النهر المسمَّى بتورة ، وهو يشقّ تحت الرَّبْوَة ، وقد نُحت له مجرى في الحجر الصّلد كالغار الكبير[1] ، وربما انغمس ذو الجسارة من العوّامين في النهر من أعلى الرَّبْوَة ، واندفع في الماء حتى يشقّ مجراه ويخرج من أسفل الرَّبْوَة ، وهي مُخاطرة عظيمة .

وهذه الرَّبْوَة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحُسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها . وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الرَّبْوَة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف . ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها للإمام والمؤذِّن والصادر والوارد .

وبأسفل الرَّبْوَة قرية النَّيرب ، وقد تكاثرت بساتينها ، وتكاثفت ظلالها ، وتدانت أشجارها ، فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه . ولها حمّام مليح ، ولها جامع بديع مفروس صحنه بفصوص الرُّخام ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء .

وفي القبلي من هذه القرية قرية المزَّة ، وتعرف بمزة كلب نسبة إلى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وكانت إقطاعاً لهم ، وإليها ينسب الإمام حافظ الدنيا جمال الدّين يوسف بن الزكيّ الكلبي المزّي ، وكثير سواه من العلماء ، وهي من أعظم قرى دمشق ، بها جامع كبير عجيب وسقاية معيّنة .

---

(1) هذا النصّ منقول برمّته من رحلة ابن جُبير الأندلسي ، الذي زار دمشق عام 580 هـ في أيام السّلطان النّاصر صلاح الدّين . راجع رحلته أعلاه . أما عن الغار المذكور (المُنيقبة) ، فنؤجّل البحث إلى نصّي ابن الوردي وأبي البقاء البدري أدناه .

وأكثر قرى دمشق فيها الحمّامات والمساجد الجامعة والأسواق ، وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم .

وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت لهيا ، وكانت فيها كنيسة يقال إن آزر كان ينحت فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام . وهي الآن مسجد جامع بديع مزيّن بفصوص الرِّخام الملوّنة المنظّمة بأعجب نظام وأزيَن التئام .

ذكر الأوقاف بدمشق
وبعض فضائل أهلها وعوايدهم

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها . فمنها أوقاف على العاجزين عند الحج ، يُعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهنّ .

ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم . ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه ، يمرّ عليهما المترجّلون ، ويمر الرّكبان بين ذلك .

ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

حكاية

مررت يوماً ببعض أزقّة دمشق ، فرأيتُ به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، وهم يسمّونها الصحن ، فتكسّرت واجتمع الناس ، فقال له بعضهم : اجمعْ شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني . فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصّحن .

وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصّحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جَبْراً للقلوب ، جزى الله خيرا من تَسَامَتْ همّته في الخير إلى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد .

وهم يُحسنون الظنّ بالمغاربة ، ويطمئنّون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد ، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق ، لا بُدّ أن يتأتّى له وجه من المعاش من إمامة مسجد ، أو قراءة بمدرسة ، أو مُلازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة . أو يكون كجُملة الصّوفية بالخوانق ، تجري له النَّفَقة والكسوة .

فمن كان بها غريباً على خير ، لم يزل مصوناً عن بذل وجهه ، محفوظاً عما يُزري بالمروءة . ومن كان من أهل المهنة والخدمة ، فله أسباب أُخر من حراسة بستان ، أو أمانة طاحون ، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح .

ومن أراد طلب العلم أو التفرُّغ للعبادة ، وجد الإعانة التامة على ذلك .

* * *

ومن فضائل أهل دمشق ، أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتّة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السّوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضّعفاء والبادية ، فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم ، أو في مسجد ، ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعاً .

ولما وردتُ دمشق ، وقعت بيني وبين نور الدّين السّخاوي مدرّس المالكية صُحبة ، فرغب مني أن أفطر عنده في ليالي رمضان ، فحضرتُ عنده أربع ليالٍ ، ثم أصابتني الحمّى فغبتُ عنه . فبعث في طلبي ، فاعتذرتُ بالمرض ، فلم يسعني عذراً ، فرجعت إليه وبِتُّ عنده .

فلمّا أردتُ الانصراف بالغد منعني من ذلك ، وقال لي : احسبْ داري كأنها دارك ، أو دار أبيك ، أو أخيك . وأمر بإحضار طبيب ، وأن يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء .

وأقمتُ كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرتُ المصلّى وشفاني الله مما أصابني . وقد كان ما عندي من النّفقة نفد ، فعلم بذلك ، فاكترى لي جمالاً وأعطاني الزّاد وسواه ، وزادني دراهم وقال لي : تكونُ لما عسى أن يعتريك من أمر مُهمّ . جزاه الله خيراً .

* * *

وكان بدمشق فاضل من كتّاب الملك النّاصر ، يُسمّى عماد الدّين القيصراني ، من عادته أنه متى سمع أن مغربياً وصل إلى دمشق ، بَحَث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عُرف منه الدّين والفضل ، أمره بملازمته . وكان يلازمه منهم جماعة .

وعلى هذه الطريقة أيضاً ، كاتبُ السرّ الفاضل علاء الدّين بن غانم ، وجماعة غيره .

وكان بها فاضل مَن كبرائها ، وهو الصّاحب عز الدّين القلانسي ، له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار ، وهو ذو مال عريض . وذكروا أن الملك النّاصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخاصّته ثلاثة أيام ، فسمّاه إذ ذاك بالصّاحب .

* * *

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت ، أوصى أن يُدفن بقبلة الجامع المكرّم ويُخفى قبره ، وعيّن أوقافاً عظيمة لقرّاء يقرأون سُبْعاً من القرآن الكريم ، في كل يوم ، إثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، حيث قبره . فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبداً ، وبقي ذلك الرّسم الجميل بعده مُخلّداً .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد ، أنهم يخرجون من بعد صلاة العصر من يوم عرفة ، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس ، وجامع بني أميّة وسواها ، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم ، داعين خاضعين ، خاشعين ملتمسين البركة ، ويتوخّون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجّاج بيته بعَرَفات .

ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهال ، وتوسُّل الى الله تعالى بحجّاج بيته ، إلى أن تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج ، باكين على ما حُرموه من ذلك الموقف الشّريف بعرفات ، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ، ولا يُخليهم من بركة القبول فيما فعلوه .

ولهم أيضاً في اتباع الجنائز رُتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة ، والقرّاء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رِقّة .

وهم يصلّون على الجنائز بالمسجد الجامع قُبالة المقصورة ، فإن كان الميت من أئمّة الجامع ، أو مؤذّنيه ، أو خدّامه ، أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ، ودخلوا بالجنازة . وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن ، بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القران يقرأون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء ، من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون بسم الله ، فلان الدّين ، من كمال ، وجمال ، وشمس ، وبدر ، وغير ذلك .

فإذا أتمّوا القراءة ، قام المؤذّنون فيقولون : افتكروا واعتبروا ، صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ويصفونه بصفات من الخير ، ثم يصلّون عليه ، ويذهبون به الى مدفنه .

ولأهل الهند رُتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك ، وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثلاث من دفنه ، وتفرش الرّوضة بالثياب الرّفيعة ،

ويُكسى القبر بالكُسى الفاخرة ، ويوضع حوله الرّياحين من الورد ، والنسرين ، والياسمين ، وذلك النّوّار لا ينقطع عندهم . ويأتون بأشجار الليمون ، والأترج ، ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ، ويُجعل صيوان يظلّل الناس نحوه .

ويأتي القضاة والأمراء ، ومن يماثلهم ، فيقعدون ويقابلهم القرّاء ، ويؤتى بالرّبعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءاً ، فإذا تمت القراءة من القرّاء بالأصوات الحسان ، يدعو القاضي ، ويقوم قائماً ، ويخطب خُطبة معدّة لذلك ، ويذكر فيها الميت ، ويرثيه بأبيات شعر ، ويذكر أقاربه ويعزّيهم عنه ، ويذكر السلطان داعياً له . وعند ذكر السلطان ، يقوم الناس ويحطّون رؤوسهم ، إلى سمت الجهة التي بها السلطان .

ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد ، فيُصبّ على الناس صبّاً ، يُبتدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك ، إلى أن يعمّ الناس أجمعين . ثم يؤتى بأواني السكّر وهو الجلاّب محلولاً بالماء ، فيسقون الناس منه ، ويبدأون بالقاضي ومن يليه . ثم يؤتى بالتّنبول ، وهم يعظّمونه ويكرّمون من يأتي لهم به ، فإذا أعطى السّلطان أحداً منه ، فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع . وإذا مات الميت ، لم يأكل أهله التّنبول إلا في ذلك اليوم . فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقاً منه ، فيعطيها لولي الميت فيأكلها ، وينصرفون حينئذ .

ذكر سماعي بدمشق
ومن أجازني من أهلها

سمعتُ بجامع بني أمية ، عمّره الله بذكره ، جميع صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه ، على الشيخ المعمّر رحلة الآفاق ، مُلحق الأصاغر بالأكابر ، شهاب الدّين أحمد بن أبي طالب بن أبي النّعم بن حسن بن علي بن بيان الدّين ، المقرىء الصالحي المعروف بابن الشّحنة الحجازي ، في أربعة عشر مجلساً ، أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر

رمضان المعظّم ، سنة ست وعشرين وسبع مئة ، وآخرها يوم الإثنين الثامن والعشرين منه ، بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدّين أبي محمد القاسم ابن محمد ابن يوسف البرزالي الإشبيلي الأصل الدمشقي ، في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل بن عبد الله بن الغزال الصيرفي .

بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي ، لجميع الكتاب من الشيخ الإمام سراج الدّين أبي عبدالله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن علي ابن المسبِّح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي . في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة ، من سنة ثلاثين وست مئة ، بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق . . .

* * *

. . . وممن أجازني من أهل دمشق إجازة عامة :

الشيخ أبو العبّاس الحجازي المذكور ، سبق إلى ذلك وتلفّظ لي به .

ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدّين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ، ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وست مئة .

ومنهم الشيخ الإمام الصالح عبد الرّحمن بن محمد بن أحمد ابن عبد الرّحمن النّجدي .

ومنهم إمام الأئمة جمال الدّين أبو المحاسن يوسف بن الزّكي عبد الرّحمن ابن يوسف المزّي الكلبي حافظ الحفّاظ .

ومنهم الشيخ الإمام علاء الدّين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي ، والشيخ الإمام الشريف محيي الدّين يحيى بن محمد بن علي العلوي .

ومنهم الشيخ الإمام المحدث مجد الدّين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله ابن المعلّى الدمشقي ، ومولده سنة أربع وخمسين وست مئة .

ومنهم الشيخ الإمام العالم شهاب الدّين أحمد بن إبراهيم بن فَلاح ابن محمد الإسكندري .

ومنهم الشيخ الإمام ولي الله تعالى ، شمس الدّين ابن عبد الله بن تمام ، والشيخان الأخوان شمس الدّين محمد ، وكمال الدّين عبد الله أبناء إبراهيم ابن عبد الله بن أبي عمر المقدسي ، والشيخ العابد شمس الدّين محمد بن أبي الزهراء ابن سالم الهكاري ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم ابن سَلامة الحرّاني ، والشيخة الصالحة رحلة الدّنيا زينب بنت كمال الدّين أحمد ابن عبد الرّحيم بن عبد الواحد أحمد المقدسي .

كلّ هؤلاء أجازني إجازة عامّة ، في سنة ست وعشرين بدمشق[1] .

(رحلة ابن بَطوطة ، طبعة بيروت)



(1) أي سنة 726 هـ ، وقدّمتُ أن ابن بَطوطة زار دمشق مرتين : مرّة في عام 726 هـ أيام نائبها سيف الدّين تنكز ، والأخرى في عام 749 هـ أيام نائبها سيف الدّين أرغون شاه ، كما سنتابع أدناه في رحلته الثانية لدمشق ، قادماً من بغداد ثم هيت والحديثة وعانة ، فالرّحبة والسّخنة ثم تدمر فدمشق .

[ابن بَطوطة بدمشق ثانيةً]

[في عام 749 هـ]

ثم سافرنا إلى تدمُر ، مدينة نبيّ الله سُليمان ، عليه السّلام ، التي بنتها له الجنّ ، كما قال النّابغة : «يبنون تدمُرَ بالصُّفّاح والعُمُد» .

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشّام ، وكانت مدّة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة . وكنتُ تركتُ بها زوجةً لي حاملاً ، وتعرّفتُ وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولداً ذكراً ، فبعثتُ حينئذ إلى جدّه للأم ، وكان من أهل مكناسة المغرب ، أربعين ديناراً ذهباً هندياً .

فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكَرّة ، لم يكن لي همٌّ إلا السّؤال عن ولدي[1] . فدخلتُ المسجد ، فوَفَقَ لي نور الدّين السّخاوي ، إمام المالكيّة وكبيرهم ، فسلّمتُ عليه فلم يعرفني ، فعرّفتُه بنفسي وسألته عن الولد ، فقال : «مات منذُ ثنتي عشر سنة» . وأخبرني أن فقيهاً من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهريّة ، فسرتُ إليه لأسأله عن والدي وأهلي . فوجدتُه شيخاً كبيراً ، فسلّمتُ عليه وانتسبتُ له . فأخبرني أن والدي توفّي منذ خمسة عشر سنة ، وأن الوالدة بقيد الحياة .

وأقمتُ بدمشق الشام بقيّة العام ، والغلاء شديد والخُبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواق بدرهم نقرة ، وأوقيتهم أربع أواق مغربية .

وكان قاضي قضاة المالكية إذذاك جمال الدّين المسلاتي ، وكان من أصحاب الشيخ علاء الدّين القُونَوي ، وقدم معه دمشق فعُرف بها ثم ولي القضاء . وقاضي قضاة الشافعيّة تقيّ الدّين ابن السُّبكي . وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شاه .

---

(1) وماذا عن زوجته المسكينة التي تركها حاملاً وغاب عنها 20 سنة ؟ ليته كان كلّف خاطره مجرّد السؤال عنها ، أو على الأقل ذكر ما آل إليه أمرها هنا . غير أن أخبار رحلاته استغرقت كما يبدو مجمل اهتمامه ، حتى نسي أن يترحّم في هذه الصحائف على ولده الذي مات بعمر 8 سنوات ، ولم يكن حتى يعرفه . فيا للعجب .

ومات في تلك الأيام بعض كُبَراء دمشق ، وأوصى بمال للمساكين ، فكان المتولّي لإنفاذ الوصيّة يشتري الخُبز ويُفرّقه عليهم كل يوم بعد العشاء . فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا ، واختطفوا الخُبز الذي يُفرّق عليهم ، ومدّوا أيديهم إلى خُبز الخبّازين .

وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه ، فأخرج زبانيته ، فكانوا حيث ما لقوا أحداً من المساكين قالوا له : «تعال نأخذ الخُبز» . فاجتمع منهم عدد كثير ، فحبسهم تلك الليلة ، وركب من الغد وأحضرهم تحت القلعة ، وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ، وكان أكثرهم براءً عن ذلك .

وأخرج طائفة الحَرافيش عن دمشق ، فانتقلوا إلى حمص وحماة وحلب . وذُكر لي أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلاً ، وقُتل[1] .

(رحلة ابن بَطوطة ، طبعة بيروت)

* * *

(1) كان مقتل أرغون شاه في العام التالي مذبوحاً ، على يد نائب طرابلس سيف الدين الجيبُغا المظفري النّاصري ، بأمر السّلطان النّاصر حسن ابن محمّد ابن قلاوون . راجع أخبار الواقعة في البداية والنهاية لابن كثير ، وهو معاصر لها (في حوادث ربيع الأول 750 هـ) ؛ وكذلك في تاريخ ابن قاضي شُهبة ، 1 : 664 .



دار القرآن الصابونية ، صورة لمصور فرنسي مجهول ، عام 1887



طريق الميدان جنوبي السويقة ، وتبدو إلى اليمين تربة الشيخ
حسن ابن المزلق وخلفها تربة مختار الطواشي ، وفي العمق دار القرآن الصابونية



صورة فوتوغرافية قديمة للموقع ذاته ، Tancrède Dumas حوالي 1880

– 55 –

القَلْقَشَنْدي

(توفي 821 هـ / 1418 م)

أتمّ كتابه عام 814 هـ

شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن علي القلقشندي ، نسبته إلى قَلْقَشَنْدَة وهي محلّة صغيرة بمصر قرب قليوب . ولد عام 756 هـ وتعلّم بالإسكندريّة ، واصبح عام 778 هـ مدرّساً للحديث والفقه ، ثم التحق عام 791 هـ بديوان الإنشاء فبقي به إلى وفاته في عام 821 هـ . عاصر شخصيّات كبرى وأحداثاً عظمى ، ففي عصره عاش بمصر المؤرّخ المشهور ابن خلدون ، وشهد مثله زحف المغول على الشام تحت قيادة تيمورلنك .

حفز القلقشندي عمله بديوان الإنشاء على وضع مصنّفه الأدبي الأكبر ، وشرع به فور انتقاله إلى الديوان عام 791 هـ ، وكانت الغاية من وضعه تعليم كتّاب الدواوين . وأطلق عليه : «صُبح الأعشى في صناعة الإنشا» ، وقد أتمّ الجزء الرابع عشر منه في عام 814 هـ وظلّ يزيد عليه حتى وفاته . كما وضع له مختصراً بعنوان : «ضوء الصُّبح المُسفر وجني الدَّوح المُثمر» . ومما يتصل به أيضاً كتابه «مآثر الإنافة في معالم الخلافة» .

و«صُبح الأعشى» موسوعة إدارية ضخمة ودائرة معارف مهمّة لكل ما يفيد كتّاب عصره ، وفيه مواد كثيرة مختلفة عن العالم الإسلامي بأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للهجرة . والمعطيات الجغرافية فيه ذات أهمية خاصّة ، فهو يقدّم وصفاً لنواحي مصر الشام على اعتبارهما قاعدة الدولة المملوكية ، بالإضافة إلى

جميع الدّول التي لها أدنى علاقة بمصر ، مُولياً اهتماماً خاصاً بنظامها السياسي والإداري . واستطاع القلقشندي بكتابه أن يطوّر نمط مؤلّفات كتب الدّواوين التي ازدهرت في عهد المماليك منذ عصر ابن فضل الله العمري في كتابه «التّعريف بالمُصطلح الشريف» . ولا غرو ، فعهد المماليك كان عهد ازدهار التأليف ، وفيه ظهرت موسوعات عظيمة ، مثل «مسالك الأبصار» للعُمَري و«نهاية الأرب» للنّويري و«عَقْد الجُمان» للعَيْني و«المُقفّى» و«السّلوك» للمَقْريزي .

وقد أفرد المؤلف المقالة الثانية من كتابه بأجمعها للجغرافيا ، وهي تمثّل عرضاً تاريخيّاً جغرافيّاً تحتلّ مركز الصدارة فيه مصر المملوكيّة وديارها بغاية التفصيل . ويُعدّ هذا القسم أهمّ أقسام الكتاب . وأما الشام فقد تحدّث عنها بعض الإيجاز ، لأنه لم يعش بها أصلاً ، واعتمد في أغلب نصّه على النقل من «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري ، كما ذكرتُ في نصّه سابقاً في كتابنا هذا أعلاه . كما نقل أشياء أخرى من «الرّوض المعطار» لابن عبد المنعم الحِميَري الذي تقدّم نصّه أيضاً .

نُشر صبح الأعشى في مصر في 14 مجلّداً ، بالمطبعة الأميرية ودار الكتب المصريّة 1913–1920 م . وعن هذه الطبعة أخذتُ ما يتعلّق بدمشق ، دون أن أعلّق عليه على اعتبار أنه منقول برمّته تقريباً عن نصّ العُمري .

المصادر :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ، مقدمة الطبعة الأميريّة .
قلائد الجُمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي .
الضوء اللامع للسخاوي ، 2 : 8 .
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، 7 : 149 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 1 : 415 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 281 .

دمشق

وهي بكسر الدال المُهملة وفتح الميم وسكون الشين المُعجمة وقاف في الآخر . وتسمى أيضاً جِلَّق ، بجيم مكسورة ولام مشدّدة مفتوحة وقاف في الآخر ، وبذلك ذكرها حسّان بن ثابت رضي الله عنه في مدحه لبني غسّان ملوك العرب بالشام بقوله :

لله دَرُّ عصابةٍ نادمتُهم ... يوماً بجلّقَ في الزّمانِ الأوّلِ

وحكى في «الروض المعطار» تسميتها جَيْرُون ، بفتح الجيم وسكون الياء المثنّاة تحت وضمّ الراء المُهملة وسكون الواو ونون في الآخر . وسمّاها في موضع آخر : العَذراء ، بفتح العين المُهملة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء المهملة وألف بعدها .

وموقعها في أواخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في «القانون» : وطولها ستّون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقد اختُلف في بانيها : فقيل بناها نُوح عليه السلام ، وذلك أنه لما نزل من السفينة أشرف فرأى تلّ حرّان بين نهري حرّان وديصان ، فأتاه فبنى حرّان ثم سار فبنى دمشق ثم رجع إلى بابل فبناها . وقيل بناها جيرون بن سعد بن عاد وبه سُمّيت جَيْرون . ويقال إن جيرون وبريداً كانا أخوين ، وهما أبناء سعد بن لقمان بن عاد وبهما يُعرف باب جيرون ؛ وباب البريد من أبوابها . وقيل بناها إلعازر غلام إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام ، وكان حبشياً وهبه له نُمروذ ابن كنعان حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسمه دِمَشْق فسمّاها باسمه .

وفي كتاب «فضائل الفُرْس» لأبي عُبيد أن بيوراسب ملك الفُرس بناها . وقيل إن الذي بناها ذو القرنين عند فراغه من السدّ ، ووكّل بعمارتها غلاماً له اسمه دمشقش ، وسكنها دمشقش ومات فيها فسُميّت به . وهي مدينة عظيمة البناء ذات سورٍ شاهق ، ولها سبعة أبواب : باب كيسان ، وباب شرقي ، وباب توما ، وباب الصغير ، وباب الجابية ، وباب الفراديس ، والباب المسدود .

وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي القاسم تمّام بن محمد : أن بانيها جعل كل باب من هذه لكوكب من الكواكب السبعة وصوّر عليه صورته ، فجعل باب كيسان لزُحَل ، وباب شرقي للشمس ، وباب توما للزُّهرة ، وباب الصغير للمُشتري ، وباب الجابية للمرّيخ ، وباب الفراديس لعُطارد ، والباب المسدود للقمر .

وعلى كلّ حال فهي مدينة حسنة الترتيب جليلة الأبنية ، ذات حواجز بُنيت من جهاتها الأربع . وغُوطتها أحد مستنزهات الدنيا العجيبة المُفضّلة على سائل مستنزهات الأرض ، وكذلك الرَّبوة وهي كهف في فم واديها الغربي عنده تنقسم مياهها ، يقال إن به مهد عيسى عليه السلام .

وبها الجوامع والمدارس والخوانق والرُّبُط والزوايا والأسواق المرتّبة ، والديار الجليلة المذهبة السُّقُف المفروشة بالرّخام المنوّع ، ذات البرك والماء الجاري . وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها ، والماء محكّم عليها من جميع نواحيها بإتقان مُحكم .

وهي في وطاءة مستوية من الأرض بارزة عن الوادي المنحطّ عن منتهى ذيل الجبل ، مكشوفة الجوانب لممرّ الهواء[1] إلا من الشمال فإنه محجوب بجبل قاسيون ، وبذلك تُعاب وتُنسب إلى الوخامة . قال في «مسالك الأبصار» : ولولا جبلها الغربي الملبّس بالثلوج صيفاً وشتاءً لكان أمرها في ذلك أشدّ وحال سكّانها أشقّ ؛ ولكنه درياق ذلك السمّ ودواء ذلك الداء . وهي مستديرة به من جميع نواحيه .

قال في «مسالك الأبصار» : وغالب بنائها بالحجر ، ودُورها أصغر مقادير من دُور مصر ، لكنها أكثر زخرفة منها وإن كان الرّخام بها أقلّ ، وإنما هو أحسن أنواعاً . قال : وعناية أهلها بالمباني كثيرة ، ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه . وإن كانت حلب أجلّ بناء لعنايتهم بالحجر ، فدمشق أزيَن

---

(1) لولا سلسلتا جبل لبنان لكان هواء الشام أطيب ، لكنها محصورة بين البادية والجبال .

وأكثر رونقاً لتحكّم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها ، ويُستعمل في عمارتها خشب الحور - بالحاء والراء المهملتين - بدلاً من خشب النخل ، إلا أنه لا يُغشّى بالبياض ويكتفى بحُسن ظاهره . وأشرف دُورها ما قَرُب ، وأجلّ حاضرتها ما هو في جانبيها : الغربي والشمالي .

[قلعة دمشق]

فأمّا جانبها الغربي ففيه قلعتها ، وهي قلعة حسنة مُرجّلة على الأرض ، تحيط بها وبالمدينة جميعها أسوار عالية ، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة ، وإذا دعت الحاجة إليه أُطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمّها . وتحت القلعة ساحة فسيحة بها سوق الخيل ، على جانب وادٍ ينتهي فيه مما يلي القلعة إلى شَرَفين محيطين به في جهتي القبلة والشمال ، في ذيل كلّ منهما مَيْدان مُمرّج بالنَّجيل الأخضر ، والوادي يشقّ بينهما .

[القصر الأبلق]

وفي الميدان القبلي منهما القصر الأبلق ، وهو قصر عظيم مبني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب ، بناه الظاهر بَيْبَرس البُنْدُقْداري في سلطنته ، وعلى مثاله بنى النّاصر محمّد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر . وأمام هذا القصر دَرْكاه يُدخل منها إلى دهليز القصر ، وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكيّة مفروشة بالرّخام الملوّن البديع الحُسن ، مؤزَّر بالرّخام المفصَّل بالصَّدَف والفَصّ المُذهب إلى سَجف السقوف . وبالدار الكبرى به إيوانان متقابلان ، تُطلّ شبابيك شرقيِّهما على الميدان الأخضر ، وغربيِّهما على شاطئ وادٍ أخضر يجري فيه نهر . وله رفارف تناغي السُحب ، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة .

والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكيّة والإصطبلات السلطانيّة والحمّام ، وغير ذلك من سائر ما يُحتاج إليه . وبالدَّركاه التي أمام القصر المتقدِّم ذكرها جسر معقود على جانب الوادي ، يُتوصّل منه إلى إيوان برّاني يُطَلّ منه على الميدان القِبلي ، استجدّه أقوش الأفرم في نيابته في الأيام الناصرية ابن قلاوون . وتجاه باب القصر باب يُتوصّل من رحبته إلى الميدان الشمالي . وعلى الشرفين المتقدّم ذكرهما أبنية جليلة من بيوت ومناظر ومساجد ورُبُط وخَوانق وزوايا وحمامات ، ممتدّة على جانبين ممتدّين طول الوادي .

ولهذه القلعة نائب بمفردها غير نائب دمشق ، يحفظه للسّلطان ولا يُمكِّن أحداً من طلوعها من النائب أو غيره . وإذا دخل السّلطان دمشق نزل بها ، وبها تخت مُلك كغيرها من ديار المُلك .

[العُقيبة والصالحيَة]

وأما جانبها الشمالي ، ويسمّى العُقَيبَة ، فهو مدينة مستقلّة بذاتها ذات أبنية جليلة وعمائر ضخمة ، يسكنها كثير من الأمراء والجُند .

وبإزاء المدينة في سفح جبل قاسيون مدينة الصالحيّة : وهي مدينة ممتدّة في سفح الجبل بإزاء المدينة ، في طول مدىً يُشرف على دمشق وغُوطتها ، ذات مساجد ومدارس ورُبُط وأسواق وبيوت جليلة . وبأعاليها مع ذيل الجبل مقابر دمشق العامّة .

[بساتين دمشق]

ولكل من دمشق والصالحيّة البساتين الأنيقة ، بتسلسل جداولها وتغنّي دوحاتها وبتمايل أغصانها وتغرّد أطيارها . وفي بساتين النُّزْهة بها العمائر الضخمة والجَواسق العليّة والبرك العميقة والبحيرات الممتدّة ، تتقابل بها الأواوين

والمجالس وتحفّ بها الغِراس والنُّصوب المطرَّزة بالسّرو الملتفّ والحَور المشوق القدّ والرياحين المتأرِّجة الطِّيب والفواكه الجَنِيّة والثمرات الشهيّة ، والأشياء البديعة التي تُغني شهرتها عن الوصف ويقوم الإيجاز فيها مقام الإطناب .

[أنهار دمشق]

ومسقى دمشق وبساتينها من نهر يسمّى بَرَدى ، بفتح الباء الموحّدة والراء والدال المهملتين وبآخره ألف ، أصل مخرجه من عينين : البعيدة منهما دون قرية تُسمّى الزَّبْداني ، ودونها عَين بقرية تُسمّى الفيجة ، بذيل جبل يخرج الماء من صدع في نهاية سفله ، قد عُقِد على مخرج الماء منه عَقد روميّ البناء . ثم ترفده منابع في مجرى النهر ، ثم يُقسم النهر على سبعة أنهر ، أربعة غربيّة : وهي نهر داريّا ، ونهر المزّة ، ونهر القنوات ، ونهر باناس ؛ واثنان شرقيّة وهم : نهر يزيد ، ونهر ثورا ، ونهر بردى ممتدّ بينهما .

فأمّا نهر باناس ونهر القنوات فهما نهرا المدينة ، حاكمان عليها ومسلّطان على ديارها . يدخل نهر باناس القلعة ، ثم ينقسم قسمين : قسم للجامع وقسم للقلعة ، ثم ينقسم كل قسم منهما على أقسام كثيرة ويتفرّق في المدينة بأصابع مقدّرة معلومة . وكذلك ينقسم نهر القنوات في المدينة ، ولا مدخل له في القلعة ولا الجامع ، ويجري في قُنِيّ مدفونة في الأرض إلى أن يصل إلى مستحقّاتها بالدّور والأماكن على حسب التقسيم . ثم تنصبّ فضلات الماء والبرك ومجاري الميضآت إلى قنيّ معقودة تحت الأرض ، ثم تجتمع وتتنهّر وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقي البساتين .

وأما نهر يزيد فإنه يجري في ذيل الصالحية المتقدّم ذكرها ، ويشقّ في بعض عمارتها . وأمّا بقية الأنهار فإنها تتصرّف إلى البساتين والغيطان لسقيها ، وعليها القصور والبنيان ، خصوصاً ثورا فإنه نِيْلُ دمشق عليه جُلُّ مبانيها وبه أكثر تنزّهات أهلها ، من يراه يخاله زمرّدة خضراء لالتفاف الأشجار عليه من الجانبين .

[الجامع الأموي]

وبها جامع بني أميّة ، وهو جامع عظيم ، بناه الوليد بن عبد الملك ابن مروان في سنة ثمان وثمانين من الهجرة ، وأنفق فيه أموالاً جمّة حتى يقال إنه أنفق فيه أربعمائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، وإنه اجتمع في ترخيمه اثنا عشر ألف مُرَخِّم .

قال في «الرَّوض المعطار»[1] : وذَرْعه في الطول من المشرق إلى المغرب مائتا خطوة وهي مائتا ذراع ، وقد زُخرف بأنواع الزخرفة من الفُصوص المُذْهبة والمَرْمَر المصقول ، وتحت نسره عمودان مجزّعان بالحُمرة لم يُرَ مثلهما ، يُقال إن الوليد اشتراهما بألف وخمسمائة دينار . وفي المحراب عمودان صغيران يقال إنهما كانا في عرش بلقيس ، وعند منارته الشرقيّة حجرٌ يُقال إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السّلام فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

وقد ورد أنّ المسيح عليه السّلام ينزل على المنارة الشرقيّة منه . ويُقال إن القبّة التي فيها المحراب لم تزل معبداً لابتداء عمارتها وإلى آخر وقت ، بناها الصابئة مُتعبداً لهم ، ثم صارت إلى اليونانيين فكانوا يعظّمون فيها دينهم ، ثم انتقل إلى اليهود فقُتل يحيى بن زكريّا عليه السّلام ونُصب رأسه على باب جيرون من أبوابه فأصابته بركته ، صار إلى النصارى فجعلتها كنيسة ، ثم افتتح المسلمون دمشق فاتّخذوه جامعها . وعُلِّقَ رأس الحسين عليه السلام عند قتله في المكان الذي عُلِّقَ عليه رأس يحيى ابن زكريّا إلى أن جدّده الوليد ، ويقال إن رأس يحيى عليه السلام مدفون به . وبه مصحف عثمان الذي وجّه به إلى الشام .

قال في «الرَّوض المعطار» : ويقال إن أول من وضع جداره الأول هُود عليه السلام . وقد ورد في أثرٍ أنه يُعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

---

(1) هو «الرَّوْض المعطار في خبر الأقطار» لمحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِمْيَري ، تقدّم نصّه أعلاه . وبذلك فإنّ مصادر القلقشندي في وصف دمشق : كتابا ابن فضل الله العمري «مسالك الأبصار» و «التّعريف بالمصطلح الشريف» ، وكتاب الحميَري المعاصر له .

[برّ دمشق]

فأمّا البرّ فالمراد به ضواحيها . قال في «التّعريف»[1] : وحدّها من القبلة قرية الخيارة المجاورة للكسوة وما هو على سَمتها طولاً ، ومن الشرق الجبال الطوال إلى النّبك[2] وما على سمتها من القرى آخذاً على عسال وما حولها من القرى إلى الزَّبداني ، ومن الغرب ما هو من الزّبَداني إلى قرى القران المسامتة للخيارة المقدَّم ذكرها . قال : ويدخل في ذلك مرج دمشق وغُوطتها .

(صبح الأعشى للقلقشندي ، 4 : 91-97)

* * *

(1) أراد به كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله العمري .

(2) أي سلسلة جبال القلمون ، المتفرّعة من سلسلة جبال لبنان الشّرقية .



صورة فوتوغرافية قديمة للمدرسة الشاذبكية ، لمصور مجهول حوالي 1850



قبة فخر الدين موسى ابن منكورس ، شمالي تربة النحلاح



مسجد السقيفة (المعروف حالياً بالثقفي) شمالي باب توما

والصورتان من كتاب : *Damaskus, die islamische Stadt* ، برلين 1924

ثمرات الأوراق

لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي

٧٧٧ — ٨٣٧ هـ

صححه وعلق عليه

محمد أبو الفضل إبراهيم

الطبعة الأولى

الناشر

مكتبة الخانجي بمصر

١٩٧١

- 56 -

ابن حجّة الحموي

(توفي 837 هـ / 1433 م)

رحلته إلى دمشق في عام 791 هـ / 1389 م

تقي الدّين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقيّ الحموي ، المعروف بابن حجّة . أحد أعيان القرن التاسع الهجري في الشّعر والزّجل والكتابة والتأليف . ولد في مدينة حَمَاة عام 767 هـ ونشأ بها ، وحفظ القرآن من طفولته ، ثم أخذ يعمل في صناعة الحرير وعمل الأزرار حتى لُقّب بالأزراري . ولكنه مع ذلك كان هاوياً للأدب نازعاً إليه ، فلقي بعض الشيوخ من أدباء عصره في الشّام وأخذ عنهم ، ولم يلبث أن أصبح بعد فترة وجيزة مستوعباً لفنون الأدب ، محصّلاً للكثير من المعارف ، حافظاً للشعر راويةً للخبر .

برع ابن حجّة بالزَّجَل وعمل فيه كتاباً ، وقَرَض الشّعر وعمل القصائد والمدائح لملوك الإسلام بالشّام ، ثم رحل إلى مصر فمدح الملك المؤيّد فقرّبه إليه واصطحبه في رحلاته وأسفاره . غير أنه كان يُعاب عليه تيهه بنفسه وإعجابه بمواهبه ، مما أذكى عليه نار الحسد والعداوة فعُملت فيه الأهاجي ونيل منه .

وانتهى به الأمر أن تبرّم من الإقامة بمصر ، فنَزَح عائداً إلى وطنه حماة ومكث بها زماناً حتى توفي عام 837 هـ . وكان قبره ما برح معروفاً فيها إلى فترة غير بعيدة في القرن العشرين ، في تربة باب الجسر ، كما يذكر الزِّركلي في أعلامه . كما كانت على قبره قبّة ، زالت بأواخر القرن التاسع عشر . ولكن القبر اليوم لم يعد معروفاً في عصرنا ، على حدّ ما أعلم .

في هذه الحياة الخصيبة التي أمضاها بمصر والشّام ، شُغل ابن حجّة بالتّصنيف ، فوضع كثيراً من الكتب والرسائل ومختارات من الشعر والنثر . ومن أخصّ مؤلفاته : «خزانة الأدب» و«ثمرات الأوراق ، وذيله» و«كشف اللثام عن وجه التّورية والاستخدام» و«حديقة زُهير» و«تأهيل الغريب» و«الثّمرات الشهيّة من الفواكه الحمويّة» و«مجرى السّوابق» و«تغريد الصّادح» و«قهوة الإنشاء» ، الذي جمع فيه ما أنشأه من التقاليد السُّلطانية والمناشير الملوكية .

وأما كتابه «ثمرات الأوراق» الذي نحن بصدده الآن ، فهو أشهر كتبه قاطبة وكان أول ما نُشر من آثاره ، حيث طُبع بالمطبعة الوهبيّة بمصر في عام 1300 هـ ، ثم أعيد طبعه على هامش كتاب «المُستطرف» للأبشيهي بالمطبعة العثمانيّة بالقاهرة عام 1315 هـ . وهو بوجه العموم من كتب المجاميع الأدبية ، على نسق الكامل للمبرّد وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربّه ، ضمّن فيه مؤلّفه طُرَفاً ونوادر وأخباراً أدبية منقولة عن غيره ، بالإضافة إلى روايات نقلها بالمُشافهة أو شهدها بنفسه مما وقع في عصره بمصر والشّام .

* * *

والذي يعنينا هنا من الكتاب هو نصّ الرّحلة الشهيرة التي قام بها الرّجل من مصر إلى الشّام عام 791 هـ ، وكان عمره 24 عاماً ، فرأى بها رأي العين الأحداث الدّامية التي رافقت حصار قوات السُّلطان الظاهر برقوق لمدينة دمشق إبّان عصيانها وخروجها عن طاعة القاهرة ، عاصمة السّلطنة المملوكية .

هذه الواقعة عُرفت لدى مؤرّخي ذلك العصر باسم «وقعة منْطاش» ، وفيها شهدت دمشق خراباً ودماراً كبيرين وعدّة حرائق ، كما ذكر المؤرّخ الدّمشقي ابن صَصْرَى في كتابه النّفيس «الدُّرّة المُضيّة في الدّولة الظاهريّة» ، وهو أهمّ من أرّخ لهذه الوقعة بالتفاصيل الحيّة الوافية . وكذلك ترد أخبارها في «إنباء الغُمر بأنباء العُمر» لابن حجر العسقلاني (الجزء 2 من طبعة حيدر آباد) ، وفي «السلوك لمعرفة دُوَل المُلوك» للمقريزي ، وتاريخ ابن قاضي شُهبة .

تؤلّف هذه الواقعة نقطة انعطاف في تاريخ الدّولة المملوكية ، ما بين مرحلتي حكم المماليك البحرية من الأتراك ، وحكم المماليك البُرجية من الجراكسة . حيث أن أول سلاطين الجراكسة ، الظاهر برقوق ، قُوبل بالرّفض من قِبَل طبقة الأمراء المماليك في دمشق ، إبّان عهد نائبها بَيْدَمر وخَلَفه بزلار . ورام هؤلاء الأمراء خلع السُّلطان الجديد ، وألّبوا عليه بلاد الشّام بأسرها ، وكان المحرّك الأكبر لجبهة المعارضة الأمير المملوكي منطاش نائب مَلَطيَة .

ثم انتهت أحداث وقعة منطاش ، بانتصار قوّات السُّلطان القوي برقوق عليه عام 792 هـ ، وإعدامه بحلب عام 795 هـ ، بعد إخماد ثورته بكل قسوة وعنف ، لقيت منهما المدينة المقهورة كل عسف وتخريب ، على اعتبارها كانت مركز النشاط السّياسي المُعادي لبرقوق .

ويظهر لنا جليّاً مدى ما عانته دمشق إبّان ذاك ، من خلال وصف ابن حجّة في رحلته ، وإن كانت تغلب على نصّه أساليب التكلّف والسّجع الأدبي المملّ ، وما يلحق بذلك من أبواب الجناس والاقتباس والتضمين . هذا فضلاً عن أن الضرورة الأدبيّة ذاتها قد كانت دعته إلى المبالغة الزائدة في وصفه .

غير أن المؤلف في غمرة تباكيه على دمشق يومذاك واستفظاعه لما أصابها من جور وإذلال ، لم يكن يعرف أن الدّهر كان يبيّت لها كارثة أشدّ ومُصيبة أدهى ، بعد اثني عشر عاماً فقط ، وهي كارثة وقوعها بيد الطاغية المغولي تيمورلنك ، ودمارها بالكامل على يديه عام 803 هـ . وسيمرّ بنا في كتابنا هذا بعض الجوانب من تاريخ هذه الكارثة والحوادث السّابقة لها ، في نصّ ابن خلدون .

وفي نصّ الحموي نلمح كثيراً من أسماء الأماكن بدمشق المملوكية ، ما برح بعضها معروفاً إلى أيامنا وزال بعضها الآخر . وفي وجه العموم لا يخلو هذا النصّ من فائدة ، مما أدّى إلى انتشاره في عصره بنسخ مخطوطة كثيرة عثرتُ على بعضها ، منها نسخة في المكتبة الظاهريّة بدمشق ، وأخرى في مكتبة الدّولة في برلين بألمانيا .

وكذلك نقلتُ من كتاب ثمرات الأوراق أخباراً أدبية أخرى ذات صلة بدمشق ، رأيت فيها طرافة وفائدة . ورجعت في ذلك إلى طبعة الكتاب القديمة التي نشرتها المطبعة العثمانية بالقاهرة عام 1300 هـ ، وإلى طبعة الخانجي بمصر بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم عام 1971 .

بعد ذلك راجعتُ مخطوطة الرّحلة في مجموعة المكتبة الظاهرية بدمشق والمحفوظة اليوم بمكتبة الأسد برقم : 10226 ، في 13 ورقة مخرومة الأول والآخر ولا تاريخ لنسخها ، وفُهرست بالغلط أنها لابن حَجَر العسقلاني . كما قابلتُ على نسخة برلين في مكتبة الدّولة Staatsbibliothek ، رقم : 9784 .

وكان الأستاذ أحمد طربين نشر نصّ الرّحلة في مجلة المجمع العلمي العربي العدد 31 (1956) ، ص 611-630 ، عن نسخة مخطوطة بمكتبة خُدابَخش في باتنا بالهند . والفارق بها عمّا في كتاب «ثمرات الأوراق» ورود عنوان للرّحلة هو : «ياقوت الكلام في ما نابَ الشام» ، وعدا ذلك فالنّص واحد ، فيما خلا افتتاحه بعبارة : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، ﴿كانَ ذلكَ في الكتابِ مَسْطورا﴾ .

المصادر :

رحلة ابن حجّة إلى الشّام ، مخطوطة الظاهرية .

رحلة ابن حجّة إلى الشّام ، مخطوطة برلين .

ثمرات الأوراق لابن حجّة ، مقدمة إبراهيم ، جـ - و .

الضوء اللامع للسّخاوي ، 11 : 53 .

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، 7 : 219 .

دائرة المعارف الإسلامية ، مادة ابن حجّة لبروكلمان ، 1 : 135 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 436 .

الأعلام للزركلي ، ط 2 ، 2 : 43 .

[لطائف]

ومن الاقتباسات التي وقعت للمتأخّرين في أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال ، ما سمعتُه وشاهدتُ ، حكاية حاله بالجامع الأموي . وما ذاك إلا أن قاضي القضاة علاء الدّين أبي البقاء الشافعي ، رحمه الله تعالى ، كان قد عُزل من وظيفة قضاء القضاة بدمشق المحروسة .

ولمّا حلّ الركاب الشريف الظاهري بدمشق المحروسة أعاده إلى وظيفته ، وألبسه التشريف من قلعة دمشق ، وحضر إلى الجامع على العادة ، ومعه أخوه قاضي القضاة بدر الدّين الشافعي بالدّيار المصرية ، فاستفتح الشيخ معين الدّين الضرير المقرىء وقرأ : ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتُنا رُدّت إلينا ونَميرُ أهلَنا ونحفظُ أخانا﴾[1] إلى آخر الآية .

فحصل بالجامع الأمويّ ترنُّمٌ صفّق له (النّسر) بجناحيه .

(ثمرات الأوراق ، 41-42)

ونقلتُ من خط الصّاحب فخر الدّين بن مكانس ، رحمه الله تعالى ، قال :

سافرتُ سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدّين بن قَروينة إلى دمشق المحروسة ، وقد ولي نظر مملكتها ، ووالدي رحمه الله إقتاءها ، وكان له دَوَادار[2] يسمّى صَبيحاً ، وهو من عُتقاء جدّه الوزير أمين الدّين بن الغنّام – وكان لطيفاً كثير النوادر – فاتفق أن جمال الدّين الرُّهاوي موقّع دَسْت الوزارة ركب يوماً فتقنطر به الفَرَس وداس على رأس إحليله ، فحُمل إلى داره وأقام أياماً إلى أن عُوفي .

(1) سورة يوسف : 65 .

(2) الدوَادار : من المناصب الإدارية في عهد الدولة المملوكية ، ومعنى الكلمة : حامل الدّواة أو المحبرة ، ومهمة صاحبها تسلّم البريد الموجّه للسّلطان وتوقيع جميع رسائله .

وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس ، فقال الصّاحب : ما سبب تأخّرك ؟ فقال : تقَنْطَرَ بي الفرس وداس رأس إحليلي فكدتُ أموت ، والآن فقد لَطَفَ الله تعالى وحصل البُرء والشّفاء . فقال له صَبيح : الحمد لله على سلامة الخُصى ! فانقلب المجلس ضحكاً ، وخجل ابن الرُّهاوي وانصرف .

(ثمرات الأوراق ، 48-49)

[نوادر الأذكياء]

ومن المنقول عن أذكياء الصبيان[1] أنه وقف إياس بن معاوية وهو صبيّ إلى قاضي دمشق ومعه شيخ ، فقال : أصلح الله القاضي ، هذا الشيخ ظلمني واعتدى عليّ وأكل مالي . فقال القاضي : ارفق بالشيخ ، ولا تستقبله بمثل هذا الكلام . فقال إياس : [أصلح الله القاضي][2] ، إن الحق أكبر منّي ومنه ومنك . قال : اسكُتْ . قال : فإن سكتُّ فمن يقوم بحُجّتي ؟ قال : فتكلّم فوالله لا تتكلم بخير ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له !

فبلغ ذلك الخليفة ، فعزل القاضي وولّى إياساً مكانه .

(ثمرات الأوراق ، 183)

* * *

---

(1) وردت القصة في كتاب الأذكياء لابن الجوزي : 129 ، طبعة الميمنية 1306 هـ .
(2) زيادة من كتاب الأذكياء ، ص 129 .

[عفافٌ ومُروءة]

ومن غرائب المنقول وعجائبه عن الأمير بدر الدّين أبي المحاسن يوسف المِهْمَندار[1] المعروف بمهمندار العرب أنه قال : حكى لي الأمير شجاع الدّين محمد الشّيرازي متولّي القاهرة في الأيام الكاملية سنة ثلاثين وستمائة قال :

بِتنا عند رجل ببعض بلاد الصّعيد ، فأكرمنا - وكان الرّجل شديد السُّمرة وهو شيخ كبير - فحضر له أولاد بِيض الوجوه ، حِسان الأشكال ، فقُلنا له : هؤلاء أولادك ؟ فقال : نعم ، وكأني بكم وقد أنكرتم بياضهم وسوادي ! فقلنا له : نعم . قال : هؤلاء أمّهم إفرنجية أخذتُها في أيام الملك النّاصر صلاح الدّين وأنا شاب ، فقلنا : وكيف أخذتَها ؟ قال : حديثي بها عجيب . قلنا : أتحفنا به ؛ قال :

زرعتُ كتّاناً في هذه البلدة ، وقلعتُه ونفضتُه ، فانصرف عليه خمسمائة دينار ، ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك ، فحملتُه إلى القاهرة فلم يصل إلى أكثر من ذلك ، فأشير علي بحمله إلى الشّام فحملته ، فما زاد على تلك القيمة شيئاً ، فوصلت به إلى عكّا فبعت بعضه بالأجل ، والبعض تركته عندي واكتريتُ حانوتاً أبيع فيه على مهلي إلى حيث انقضاء المدّة .

فبينما أنا أبيع ، إذ مرّت بي امرأة إفرنجية - ونساء الإفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب - فأتتْ تشتري مني كتّاناً ، فرأيتُ من جمالها ما بهرني ، فبِعتُها وسامحتها . ثم انصرفتْ وعادت إلي بعد أيام فبعتُها وسامحتها أكثر من المرّة الأولى فتكرّرت إلي ، وعلمتْ أني أحبّها ، فقلتُ للعجوز التي معها : إنني قد تلفتُ بحبّها وأريد منك الحيلة ، فقالت لها ذلك ، فقالت : تروح أرواحنا الثلاثة ، أنا وأنتِ وهو ؛ فقلتُ لها : قد سمحتُ بروحي في حبّها .

---

(1) المهمندار : من الوظائف الإدارية في عهد المماليك ، وهو من يتلقى الرّسل والعربان الواردين على السّلطان ، وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدّث في القيام بأمرهم . انظر : صبح الأعشى للقلقشندي ، 4 : 22 ، 5 : 459 .

واتّفق الحال على أن أدفع لها خمسين ديناراً صوريّة ، فوزنتُها وسلّمتها للعجوز ، فقالت : نحنُ اللّيلةَ عندك . فمضيتُ وجهّزتُ ما قدرتُ عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلوى ، فجاءت الإفرنجيّة فأكلنا وشربنا ، وجنّ الليل ولم يبق غير النوم ، فقلتُ في نفسي : أما تستحي من الله ! وأنت غريب تعصي الله مع نصرانيّة ! اللّهم إني أُشهدك أني قد عففتُ عنها في هذه الليلة حياءً منك وخوفاً من عقابك .

ثم نمتُ إلى الصُّبح ، وقامت في السَّحَر وهي غَضبى ، ومضتْ ومضيتُ أنا إلى حانوتي . فجلستُ فيه وإذا هي قد عبرت عليّ ، هي والعجوز وهي مُغضبة وكأنها القمر ، فقلتُ في نفسي : من هو أنتَ حتى تترك هذه البارعة في حُسنها ؟! ثم لحقتُ العجوز وقُلتُ : ارجعي . فقالت : وحقّ المسيح ما أرجع إليك إلاّ بمائة دينار ! فقلتُ : نعم رضيتُ ؛ فوزنتُ مائة دينار .

فلمّا حضرت الجارية عندي جنّتني الفكرة الأولى ، وعففتُ عنها وتركتُها حياءً من الله تعالى ، ثم مضت ومضيت إلى موضعي ، ثم عبرتْ بعد ذلك عليّ ، وكانت مُستعربة[1] ، فقالت : وحقّ المسيح ما بقيتَ تفرح بي عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمداً ، ففكرتُ في ذلك وعرفتُ أنني أصرف عليها ثمن الكتّان جميعه .

فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي : معاشرَ المسلمين ، إن الهُدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت ، وقد أمهلنا مَنْ هنا من المسلمين إلى جُمعة .

فانقطعتْ عني ، وأخذتُ أنا في تحصيل ثمن الكتّان الذي لي ، والمصالحة على ما بقي منه ، وأخذتُ معي بضاعةً حَسَنة ، وخرجتُ من عكا وفي قلبي من الإفرنجية ما فيه ، فوصلتُ إلى دمشق ، وبعتُ البضاعة بأوفى ثمن بسبب الهُدنة ومَنّ الله عليّ بكسب وافر ، وأخذتُ أتّجر في الجواري لعلّه يذهب ما بقلبي من الإفرنجيّة .

---

(1) كذا في المطبوع ، وتعني : تجيد العربية ، أو لعل الكلمة مصحّفة عن : مستغربة ؟

فمضت ثلاثُ سنين ، وجرى للسّلطان الملك النّاصر ما جرى من وقعة حطّين وأخذه جميع الملوك ، وفتحه بلاد السّاحل بإذن الله تعالى[1] . فطُلب مني جاريةٌ للملك النّاصر ، فأحضرتُ جاريةً حَسَنة ، فاشتُريت له مني بمائة دينار ؛ فأوصلوا إليّ تسعين ديناراً وبقيت عشرة دنانير فلم يلتقوها في الخزانة ذلك اليوم ، لأنه أنفق جميع الأموال ، فشاوروه على ذلك ، فقال : امضوا به إلى الخزانة التي فيها السَّبي من نساء الإفرنج ، فخيّروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة الدّنانير التي له .

فأتيتُ الخيمة ، فعرفتُ غريمتي الإفرنجية ، فقلت : أعطوني هاتيك . فأخذتُها ومضيت إلى خيمتي وخلوتُ بها ، وقلت لها : أتعرفينني ؟ قالت : لا ، فقلت : أنا صاحبك التاجر الذي جرى لي معك ما جرى ، وأخذتِ منّي الذّهب ، وقلت مابقيتَ تُبصرني إلا بخمسمائة دينار ، وقد أخذتُك بعشرة دنانير . فقالت : مُدّ يدَك ، أنا أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسولَ الله . فأسلمت وحسن إسلامها .

فقلتُ : والله لا وصلتُ إليها إلا بأمر القاضي ، فرُحتُ إلى ابن شدّاد[2] وحكيتُ له ما جرى ، فعجبَ وعَقَدَ لي عليها ، وباتت تلك الليلة عندي فحملت مني .

ثم رحل العسكر ، وأتينا دمشق ، وبعد مدّة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الأسارى والسّبايا باتّفاقٍ وَقَعَ بين الملوك ، فردّوا من كان أسيراً من الرّجال والنساء ، ولم يبق إلا التي عندي ، فسألوا عنها واتّضح الخبر أنها عندي وطُلبت مني .

---

(1) وكان ذلك في عام 583 هـ / 1187م ، ومن ضمنه فتحه لمدينة عكّا التي جرت بها وقائع بداية الحكاية ، والتي بقيت في يده حتى عام 587 هـ / 1191 م ، عندما سقطت بيد الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد قائد الحملة الصليبية الثالثة .

(2) بهاء الدّين يوسف بن رافع الشهير بابن شدّاد ، كان قاضي عسكر السُّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيوبي وأحد أدنى مقرّبيه بأواخر حياته 584-589 هـ . ألّف عنه كتابه الرائع الذائع الصيت : «النّوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفية» ، نشرتُه عام 2003 .

فحضرتُ وقد تغيّر لوني ، وأحضرتُها معي بين يدي مولانا السُّلطان الملك النّاصر ، والرّسولُ حاضر ، فقلتُ : هذه المرأة التي عندي ، فقال لها الملك النّاصر بحضرة الرّسول : ترجعين إلى بلادك ، أو إلى زوجك ؟ فقد فَكَكْنا أسرَكِ وأسر غيركِ .

فقالت : يا مولانا السُّلطان ، أنا قد أسلمتُ وحملتُ ، وها بطني كما ترونه ، وما بقيتِ الإفرنجُ تنتفع بي . فقال لها الرّسول : أيّما أحبُّ إليك ، هذا المسلم أو زوجُك الإفرنجي فُلان ؟ فأعادت عبارتها الأولى . فقال الرّسول لمن تبعه من الإفرنج : اسمعوا كلامها . ثم قال لي الرّسول : خُذ زوجتك .

فولّيتُ بها ، فطلبني ثانياً ، وقال : أمّها أرسلت معي وديعةً وقالت : إن ابنتي أسيرةٌ وأشتهي أن تُوصل لها هذه الكسوة ، فتسلّمنا الكسوة ومضينا إلى الدّار ، وفتحنا القُماش فإذا هو قُماشها بعينه قد سيّرَته لها أمها ، ووجدتُ الصرّتين الذّهب ، الخمسين ديناراً والمائة دينار كما هما بربطتي لم يتغيّرا . وهؤلاء الأولاد منها ، وهي التي صنعت لكم هذا الطعام[1] .

(ثمرات الأوراق ، 236-239)

* * *

(1) هذه والله من أعجب القصص وأندرها . بها يحار القارئ ، أيعجّب لغريب اتّفاق الدّهر أم يقدّر عفّة الرّجل ، أم يكبر شهامة السُّلطان النّاصر عملاق الرّجولة ، أو أنه يتأثّر لإسلام المرأة ووفائها لزوجها يوم خُيّرت ، أو للخاتمة الدّراماتيكية للقصّة ؟
يبقى لنا أن نتصوّر مقدار شدّة الوفاء والحبّ الذي أكنّه هذا الرجل لزوجته الفرنجيّة ، وهي بالمناسبة كانت فرنسية غالباً . ألا هكذا فلتكن المحبّة وإلا فلا طائل منها .

[ياقُوت الكلام في ما نابَ الشام][1]

[رحلة ابن حجّة الحموي من مصر إلى دمشق ، سنة 791 هـ]

قلتُ : ذكرتُ بهذه الرّحلة[2] أيضاً رحلتي من الدّيار المصرية إلى دِمَشق المحروسة المحميّة ، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، والملك النّاصر قد خرج من الكَرَك[3] ، ونزل عليها وتصدّى لحصارها ، وقد اجتمعت عليه العساكر المصرية والشّامية ، وحَدَثَ بدمشق ما حدث من القتال والحصار والحريق .

فكتبتُ إلى المقرّ المرحومي الفخري ، القاضي ابن مكانس ، في شرح ذلك رسالةً لم يُنسج على منوالها ، ولم تسمح على غلبة الظنّ قريحةٌ بمثالها[4] ، وهي :

يقبّل المملوك أرضاً مَنْ يمّمها أو تيمّم بثَرَاها حصل له الفخرُ والمجد ، فلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيام العرب إلى ريّا نجد ، ولا زالت فحول الشّعراء تطلق أعنّة لفظها فتركض في ذلك المضمار ، وتهيم بواديها الذي يجب أن تُرفع فيه على أعمدة المدائح في بيوت الأشعار . ويُنهي - بعد أشواق أمست الدّموع بها في محاجر العين معثّرة ، ولو لم يقرّ إنسانها بمُرسلات الدّمع لقلت : ﴿قُتلَ الإنسانُ ما أكفرَه﴾ - وصول المملوك إلى دمشق المحروسة ، فيا ليته قُبض قبل ما كُتب عليه ذلك الدّخول .

---

(1) هذا العنوان ليس في «ثمرات الأوراق» ، إنما ورد في نسخة منفصلة ، انظر المقدمة .

(2) يذكر المؤلف ذلك في كتابه (ثمرات الأوراق ، ص 381) بمناسبة إيراده لأخبار رحلة ابن نُباتة «حظيرة الأنس إلى حضرة القُدس» ، ورحلته (ابن حجّة) الرّوميّة عام 816 هـ .

(3) هذا سبق قلم من المؤلّف أو النّاسخ ، فالمقصود الملك الظاهر برقوق لا ابنه النّاصر فَرَج الذي تسلطن بوفاة أبيه عام 801 هـ بعد عشرة أعوام من الحادثة المذكورة . انظر «الدّرّة المضيّة» لابن صَصْرى (ص 25) حول نزول الملك الظاهر بالكرك وتحالف نائبها معه .

(4) إنّ هذا إلا ما يراه المؤلّف في حقّ نفسه ، ولستُ أرى ما يراه ، بل إن النصّ مغرق في فنون البديع من جناس وطباق وتضمين واستطرادات أدبية وشعرية ، مما أضاع المعنى على حساب اللفظة . وشتّان بين وصفه للواقعة ووصف ابن صَصْرى لها . وهو هنا يذكّرنا بالمؤلفات العجيبة التي دبجها يراع العماد الأصفهاني بكل تكلّف وتقعّر .

فنظر المملوك إلى (قبّة يَلبُغا)[1] وقد طار بها طير الحِمام ، وجَثَتْ حولها تلك الأسُود الضارية ، فتطيّرتُ في ذلك الوقت من القبّة والطير وتعوّذتُ بالغاشية .

ودخلتُ بعد ذلك إلى (القُبيبات)[2] التي صُغِّر اسمها لأجل التحبيب فوجدتها وقد خلا منها كلّ منزل كان آنساً بحبيبه ، فأنشد به لسان الحال : «قفَا نَبْكِ مِن ذكرى حبيب» .

ونظرتُ بعد القباب إلى (المُصَلّى)[3] وما فعلت به سكّان تلك الخيام ، والتفتُّ إلى بديع بيوته التي حسُن بناء تأسيسها وقد فسد منها النظام :

فسال وقد وقفتُ عقيقُ دمعي على أرض المصلّى والقباب

ونظرتُ إلى ذلك الوادي الفسيح وقد ضاق من الحريق بسُكّانه الفَضَا ، فتوهمتُ أن وادي (المصلّى) قد تبدّل بوادي الغَضَا .

فسقى الغَضا والسّاكنيه وإن هُمُ شبّوه بين جوانحي وضلوعي

واصطليتُ النار ، وقد أرادتْ سَبْيَ ذلك النادي ، فثبّت عليه من فوارس لهيبها الغارة ، وركضتُ في (ميدان الحصى)[4] فوجدتُ أركانه كما قال تعالى : ﴿وَقُودُها النّاسُ والحِجَارَة﴾ .

ودخلتُ (قصر الحَجّاج)[5] ، وقد مُدَّت النار به من غير ضرورة في موضع القصر ، وأصبح أهله في خُسر ، وكيف لا وقد صاروا عبرة لأهل العصر !

---

(1) هي المدخل الرّسمي الجنوبي لدمشق عند قرية القَدَم ، كانت بها منصّة تشريفات في العهد المملوكي . راجع نصّي ابن أجا والبدري اللاحقين أدناه .

(2) من الأحياء الجنوبية المعروفة بدمشق ، وهي جزء من حي الميدان الوسطاني ، تقع إلى الجنوب من الحَقلة وإلى الشمال من الميدان السّلطاني . كانت في الأصل قرية خارج سور المدينة ، نما حولها النسيج العمراني وامتدّ حي الميدان وتكامل على صورته المعروفة .

(3) محلّة معروفة إلى يومنا بهذا الاسم ، تقع بين السّويقة ومبتدأ سكّة حي الميدان .

(4) هو مبتدأ حيّ الميدان المعروف اليوم (عند باب مصلّى) ، من الضواحي الجنوبية لدمشق .

(5) محلّة معروفة إلى يومنا بهذا الاسم ، تقع إلى الجهة الغربية من باب الجابية .

وتأمّلتُ تلك الألسن الجمرية ، وقد انطلقتْ في ثغور تلك الربوع تكلّم السكّان ، وتطاولت بألسنة الأسنّة الأتراك فانذهل أهل دمشق وقد كُلّموا بكل لسان . ووصل المملوك بعد الفجر إلى البلد ، وقد تلا بعد زخرفه في سورة الدُّخان ، فوجب أن أجرى الدموع على وجيب كل ربع ، وأنشد وقد دخل صبري بعد أن كان في خبر كان :

دمعٌ جَرَى فقَضَى في الرَّبعِ ما وَجَبا

ووقفتُ أندبُ عَرَصاتها التي قمحت بالبين فخابت من أهلها الظنون ، وكم داروا بقمحها خيفة من طاحون النّار فلم يسلم ، فصدّقتُ المثل بأن القمح يدور ويجيء إلى الطاحون .

وتطرّقتُ بعد ذلك إلى (الحدّادين)[1] وقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد : ﴿آتوني زُبُرَ الحديد﴾ . وقد كان يوم حريقها يوماً عبوساً قمطريرا ، أصبح المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا سلاسل وأغلالاً وسعيرا .

هذا وكلّما أُصليتْ نار الحريق وشُبّتْ نار الحرب ، ذكرتُ ما أشار به مولانا على المملوك من الإقامة بمصر ، فأنشدتُ من شدّة الكَرْب[2] :

آهاً لمصرَ وأين مصرٌ وكيف لي	بديارِ مِصرَ مراتعاً ومَلاعبا
والدّهر سِلمٌ كيفما حاولتَه	لا مثل دهري في دمشق مُحاربا

يا مولانا ، لقد لبستْ دمشقُ في هذا المأتم السواد ، وطُبخت قلوب أهلها كما تقدّم على نارين وسُلقوا من الأسنّة بألسنة حِداد ، ولقد نشفت عيونهم من الحريق واستسقوا فلم ينشقوا رائحة الغادية ، وكم رُئي في ذلك اليوم ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعة * عاملةٌ ناصبة * تَصلى ناراً حامية﴾ .

---

(1) من أسواق دمشق القديمة ، ذكره أواخر القرن التاسع للهجرة مؤرّخ دمشق يوسف بن عبد الهادي في رسالته «نُزهة الرّفاق عن شرح حال الأسواق» .
(2) البيتان لجمال الدّين ابن نُباتة ، ديوانه ص 27 .

وكم رجل تلا عند لهيب بيته : ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَب﴾ ، وخرج هارباً ﴿وامرأتُه حَمَّالَةَ الحَطَب﴾ . وشكا الناس من شدّة الوهج وهم في الشتاء ، وصاروا من هذا الأمر يتعجّبون ، فقال لهم لسان النّار : أتعجبون من الوهج والحريق وأنتم في كانون ؟ ولعمري لو عاش ابن نُباتة ورأى هذه الحال وما تم على أهل دمشق في كانون ، لترك رثاء ولده عبد الرّحيم وقال :

يا لهف قلبي على وادي دمشق ويا	حُزني عليه ويا شجوي ويا دائي
في شهر كانون وافاه الحريق لقد	أحرقتَ بالنّار يا كانونُ أحشائي

ونظرتُ بعد ذلك إلى (القلعة) المحروسة ، وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا : ﴿أزِفتْ الآزفة﴾ ، وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يتلون : ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ .

واستْجليتْ عَرُوس (الطّارمة)[1] عند زفها ، وقد تجهّزت للحرب وما لها غير الأرواح مَهر ، وعقدت على رأسها تلك العصائب وتوشّحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر ، وغازلت بحواجب قسيّها فرَمَت القلوب من عيون مراميها بالنّبال ، وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكحالاً كانت السّهامُ لها أميال .

وطلبها كلٌّ من الحاضرين وقد غلا دَسْتُ الحرب ، وسمح وهو على فرسه بنفسه الغالية . وراموا كشفها وهم في رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن (الطارمة) عالية . وتالله لقد حزنتُ لقوم لم يتدرّعوا بغير آية الحرس في الأسحار ، وقد استيقظوا لحمل قسيّهم ولم تنم أعينهم عن الأوتار ، فأعيذُ رواسيها التي هي كالجبال الشّامخة ، بمن أسّس رواسي المحجوج ، وأحصنّها قلعة بالسّماء ذات البُروج .

---

(1) كانت هذه الطارمة من معالم دمشق في العهد المملوكي ، وهي بناء فخم كان مُلحقاً بالقلعة من خارجها ، بشكل قاعة خشبية أنيقة ذات شبابيك تعلوها قبّة من الخشب جميلة الصنعة يجلس بها السّلطان . سيرد ذكرها في نصّ أبي البقاء البدري أدناه .

وتطاولتُ إلى السّور المُشرف وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات ، فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تلخيصاً لما أبداه من المشكلات ، وما أحقّه بقول القائل :

فضائله سورٌ على المجد حائطٌ وبالعلمِ هذا السّور أضحى مُشرِفا

ثم حملوا عليه وظنّوا في طريق حملتهم نصرا ، ونصبوا دَسْت الحرب ولم يعلموا بأنه قد طبخ لهم على كل باب قِدرا ، فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب وقد تصاعدت فيه أنفاس الرجال لقلتَ : ﴿ونُفخ في الصُّور ذلك يوم الوعيد﴾ ، وإلى المحاصرين وقد جاؤوا راجلاً وفارساً ليشهدوا القتال لقلتَ : ﴿وجاءت كلّ نفس معها سائقٌ وشهيد﴾ ، وإلى كواكب الأسنّة وقد انتثرت ، وإلى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بُعثرت ، وإلى كرّ الفوارس وفرّها لقلتَ : ﴿علمتْ نفسٌ ما قدّمتْ وأخّرت﴾ ، وإلى نار النفط وقد نفطت من غيضها ، وإلى ذكور السّيوف وقد وضعت المنايا السود وتعذّرت من شدّة الدماء لكثرة حيضها :

ومن العجائب أن بيضَ سُيوفهم تلدُ المنايا السّودَ وهي ذُكورُ

وإلى فارس الغبار وقد ركب صهوات الجوّ ولحق بعنان السماء ، وإلى أهداب السهام وقد بكت لمّا تخضّبت بالدماء . وإلى كل هارب سُلب عقله ، وكيف لا وخصمه له تابع ، وإلى كل مدفع وما له عند حكم القضاء دافع ، وإلى قامات أقلام الخط وقد صار لها في طروس الأجسام مَشْق ، فاستصوبتَ عند ذلك رأي من قال :

عَرِّجْ رِكابَكَ عن دمشقَ

ونظرتُ بعد ذلك إلى العشير وقد استحلّ في ذي الحجّة المحرّم ، وحمل كل قيسي يمانياً وتقدّم ، فخرج النساء وقد أنكرن منهم هذا الأمر العسير ، فقلتُ :

وغيرُ بِدعٍ للنّسا ءِ إذا تنكّرتِ العشيرُ

وتصفحتُ بعد ذلك فاتحة (باب النَّصر)[1] ، فعوّذته بالإخلاص وزدتُ لله شكراً وحمداً ، وتأمّلتُ أهل البلد وهم يتلون لأهل البلد في سورة الفتح وللمحاصَرين : ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدّاً﴾ ، كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة ، ﴿وضُرب بينهُم بسُورٍ له بابٌ ، باطنُه فيه الرَّحمة وظاهرُه من قبله العذابُ﴾ .

ونظرتُ إلى ما (تحت القلعة)[2] من أسواق التجّار ، فوجدتُ كلاً قد محت النّار آثاره ، وأهله يتلون : ﴿قُلْ ما عند الله خيرٌ من اللّهو ومن التّجارة﴾ فمنهم من شأنه على صاحبته وبنيه ، وآخر قد استغنى بشأن نفسه ، فهم كما قال الله : ﴿لكلّ امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه﴾ ، فوقفتُ أنشد في تلك الأسواق وقد سُعّرت : ألا موتٌ يباعُ فأشتريهِ .

ونظرتُ إلى المؤمنين الرُّكّع السُّجود ، وهم يتلون على من ترك في بيوتهم أخدوداً من وقود النار وقعد لحربهم في ذلك اليوم المشهود : ﴿قُتل أصحابُ الأخدود * النّارِ ذات الوَقود * إذ هُم عليها قُعود * وهُم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهود﴾ .

هذا وكم مؤمن قد خرج من دياره حَذَرَ الموت ، وهو يقول النجاة وطلب الفرار ، وكلّما دعاه قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار : ﴿ويا قومُ مالي أدعوكُم إلى النّجاة وتدْعُونني إلى النّار﴾ .

ونظرتُ إلى ضواحي البلد وقد استدّت في وجوههم المذاهب ، وما لهم من الضيق مخرج ، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت لما غُلق في وجوههم (باب الفَرَج) ، فقلتُ : اللهم اجعل لهم من كلّ همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ولعدم أموالهم من كل عُسر يُسراً ، ولانهتاك مخدراتهم من كل فاحشة ستراً ، ولقطع الماء عنهم إلى كل خير سبيل ، فأنت حسبُنا ونعم الوكيل .

(1) باب النصر كان من أبواب دمشق القديمة جنوبي القلعة ، عند مدخل سوق الحميدية .
(2) تحت القلعة محلّة مشهورة في العهد المملوكي ، يفصّل بوصفها أبو البقاء البَدري أدناه .

هذا وكم نظرتُ إلى سماء رَبْع غربت شمسه بعد الإشـراق ، فأنشـدتُ وقـد ازددتُ كرباً من شدّة الاحتراق :

فديناكَ مـن رَبْـعٍ وإن زِدتنـا كربـاً   فإنك كنت الشّرق للشّمس والغَربـا

وانتهيتُ إلى (الطواقيـن)[1] ، وقـد أسبل عليهـم الحريـق شـدّته فكشـفوا الرّؤوس لعالم السّرائر ، وكم ذات ستر خرجت بفرق مكشوف ورمـت العصائب وبعلها بعينيه دائر .

هذا وكم ناهدات :

أسبلنَ من فـوق النُّهـود ذَوائبـا   فتَركنَ حبّاتِ القلـوبِ ذوائبـا

ووصلتُ إلى ظاهر (الفراديس)[2] ، وقد قام كلٌّ إلى فـردوس بيتـه ، فـاطلع فرآه في سواء الجحيم ، واندهشـتُ لتلك الأنفس التي مـاتت مـن شـدّة الخـوف ، وهي تستغيث بالذي ﴿أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خَلقٍ عليم﴾ .

ونظرتُ إلى ظاهر (باب السّلامة)[3] ، وقد أخفت النار أعلامه ، ولقـد كـان أهله من صحّة أجسامهم ومن اسمه كما يقال بالصحة والسلامة .

وإلى (الشـلاّحة) ، وقـد لبسـت ثيـاب الحزن وذابـت مـن أجلهـا الكُبُـود ، وقعدوا بعد تلك الرّبـوع على أديـم الأرض ونضجـت منهـم الجلـود ، ولقـد والله عدمتُ لذّة الحواس الخمس ، وضاقت عليّ الجهـات الستّ فلـم ترقـأ لـي دمعـة ، وأكلت الأنامل من الأسف لمّا سمعت بحريق أطراف (السّبعة) ، فأعيذُ ما بقي مـن (السّبعة) بالسّبع المثاني والقرآن العظيم ؛ فكـم رأينـا بهـا يعقـوب حـزن رأى سـواد بيته فاصفرّ لونه ﴿وابيضّتْ عيناهُ من الحُزنِ فهو كَظيم﴾ .

---

(1) من أسواق دمشق القديمة ، ذكره يوسف ابن عبد الهادي في رسالته «نزهة الرّفاق» .
(2) باب الفراديس من أبواب دمشق الشمالية ، بين بـابي الفَرَج والسّلامة . يُعرف في أيامنا بباب العمارة ، أما محلّة ظاهر باب الفراديس المذكورة فهي اليوم العمارة البرّانيّة .
(3) من أبواب دمشق الشمالية المعروفة إلى الغرب من باب توما ، يُعرف اليوم بباب السّلام .

وتغرّبتُ إلى ظاهر (الباب الشرقي)[1] فتشرّقت بالدّمع من شدّة الالتهاب فلقد كان أهله من دار عنبه وكرومه الكريمة في جنّتين من نخيل وأعناب . وتوصّلتُ إلى ظاهر (باب كيسان)[1] ، فأنفقت كيس الصبر لما افتقرتْ من دنانير تلك الأزهار والدراهم رباها ، وسمحت بعد ذلك بالعين واستخدمت فقلت : ﴿بسم الله مجراها﴾ .

وكابرت إلى أطراف (الباب الصغير)[1] ، فوجدت فاضل النار لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فيا لهفي على (عروس) دمشق التي لم تُذكر مع محاسنها أسماء ولا الجيداء ، لقد كانت (ستّ الشّام)[2] فاستعبدها ملك النار حتى صارت جارية سوداء . ولقد وقفت بين ربوعها وقد التهبت أحشاؤها بالاضطرام ، وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام ، فاستسقيت لها بقول ابن أسعد حين قال :

سقى دمشق وأياماً مضت فيها مواطر السحب ساريها وغاديها
ولا يزال جنين النَّبت ترضعه حواملُ المُزن في أحشا أراضيها
فما نضا حبّها قلبي لنَيْرَبها ولا قضى نحبه ودّي لواديها
ولا تسلّيتُ عن سلسال ربوتها ولا نسيتُ مبيتي جار جاريها

هذا وكم خائف قبل اليوم آويناه بها ﴿إلى ربوة ذات قرار﴾ ، وكم كان بها مطرب طير خرج بعدما كان يطرب على عُود وطار . وبطل (الجَنْك)[3] لما انقطعت أوتار أنهاره فلم يبق له مغنى ، وكسر (الدّفّ) لما خرج نهر (المغنية) عن المعنى ، واستسمج الناس من قال :

انهضْ إلى الرَّبوة مُستمتعاً تجدْ من اللذّات ما يكفي
فالطير قد غنّى على عُوده في الرَّوض بين الجنْك والدّفِ

---

(1) الباب الشّرقي وباب كَيْسان والباب الصغير من أبواب دمشق المعروفة .
(2) ستّ الشام : تَورية باسم بستان كان عائداً لستّ الشّام خاتون ، أخت صلاح الدّين .
(3) الجنك والدّف توريتان باسميّ موقعين بالرّبوة ، راجع تفصيلاتهما في نصّ البدري أدناه .

وأصبحت أوقات (الرّبوة) بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة ، ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة ، فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم ، وضاع من غير تورية عطره النّاسم ، ولم ينتظم لزهره المنثور على ذلك الوشي المرقوم رسالة من النسيم سحرية ، وكيف لا وقد محا سجع المطوّق من طروس تلك الأوراق النباتية .

هذا وكم عروس روض سوّر معصمها النقشَ فلمّا انقطع نهرها صحّ أنها كسرت السّوار ، وكم دولاب نهر بطل غناؤه على تشبيب النسيم بالقصب وعطلت نوبته من تلك الأدوار ، فوقفتُ أندب ذلك العيش الذي كان بذلك التّشبيب موصولاً ، وأنشد ولم أجد بعد تلك النوبة المطربة إلى مغنى (الرّبوة) دخولا :

لِمَ لا أُشبِّب بالعيش الذي انقرضتْ أوقاتُه وهو باللّذاتِ موصولُ

ونقص (يزيد)[1] فاحترق ، ولا ينكر ليزيد الحريق على صنعه ، وانقطع ظهر (ثورا)[2] فأهلك الحرث والنسل بقطعه ، وذاب (بَرَدى) وحمي مزاجه لمّا شعر بالحريق ، ولم يبق في ثغره الأشنب بدُرر حصبائه ما يبلّ الريق . وانقطع وقد اعتل من غيضه (بانياس) ، ولم يظهر عند قطعه خلاف ولا بان آس . وجرى الدّم من شدّة الطعن بـ (القَنَوات) ، وكُسرت قناة (المرجة)[3] فذاقت مرّ العيش بعد حلاوة تلك القطوف الدانيات . وكُسر (الخلخال)[4] لمّا قام الحرب على ساقه ، وسقط رأس كل غُصن على (الجبهة)[5] فهاجت البلابل على أوراقه .

---

(1) أحد فروع بَرَدى السّبعة التي تتفرّع في منطقة المَقْسَم ، وهو أعلاها ارتفاعاً ويسقي ضاحية الصّالحيّة . سمّي نسبة إلى يزيد بن معاوية ، فلهذا التّورية حول نقصه وجواز حرقه .

(2) ثورا وبانياس والقنوات أيضاً من فروع بردى المعروفة .

(3) المرجة أرض خضراء كانت تمتدّ من ساحة المرجة الحاليّة إلى القصر الأبلق (التكيّة اليوم) .

(4) الخلخال من محالّ دمشق المعروفة في العهد المملوكي ، فصّلنا بذكرها في نصّ البدري .

(5) الجبهة من متنزّهات دمشق في العهد المملوكي ، في الطرف الشرقي لساحة الأمويين مع المسبح البلدي ومطعم النّبلاء في أيامنا كما أعتقد ، راجع نصّ البدري أدناه .

وخرّ نهر (حمص)[1] خاضعاً وتكدّر بعدما كان يُصفي لنا قلبه ، وافتقر أغنياء غصونه من حبّات تلك الثمار فصاروا لا يملكون حبّة . طالما كان أهله فاكهين ، ولكنهم اعترفوا بذنوبهم فقالوا : ﴿وكنّا نخوضُ مع الخائضين﴾ .

وذبلت عوارض تلك (الجزيرة)[2] التي كانت على وجنات شطوطه مستديرة ، فقلنا بعد (عروس) دمشق و(حماتها) لا حاجة لنا بـ (حمص) و(الجزيرة) . فيا لهفي على منازل (الشَّرَف)[3] وذلك (الوادي)[4] الذي نَعَق به غُراب البين ، ويا شوقي إلى رأس تلك (المرجة) التي كانت تجلسنا قبل اليوم على (الرأس) و (العين)[5] .

هذا وقد اسودّت (الشّقراء) ، فأمست كابية لما حصل على ظهرها من الجَوَلان ، وجانبها العكس فأضحت باكية على فراق (الأبلق) و(أخضر) ذلك (الميدان) .

---

(1) نهر حمص هذا المذكور يريد به المؤلف فرعاً من بردى يتفرع منه في منطقة (الوادي التحتاني) شرقي الربوة ، في المنطقة المعروفة في أيامنا بكيوان . وكانت المنطقة الواقعة بين مرجة جسر ابن شوّاش (شرقي طاحون الرهبان بكيوان) ومحلّة النيربين تعرف باسم أراضي (حمص) كما يُستخلص من وصف البدري في أواخر القرن التاسع الهجري . راجع نصّه أدناه . وموقع هذه المنطقة اليوم ينطبق على الجزء الأسفل الجنوبي من حديقة تشرين ، إلى الشرق مباشرة من جسر تشرين .

(2) تورية عمّا كان يُعرف بدمشق في العهد المملوكي بجزيرة بين النهرين ، هي مُبتدأ الوادي الأخضر من جهة الشّرق ، تمتدّ بين جامع يلبغا وجامع تنكز ، أي ما ينطبق اليوم على الجزء الغربي من ساحة المرجة (ساحة الشهداء) . حيث كان نهر بردى هناك (قبل تغطيته عام 1866 م) ينقسم إلى قسمين تتشكل بينهما جزيرة . راجع وصف البدري لها . وبقيت المحلّة إلى أواخر العهد العثماني قُبيل نشوء ساحة المرجة في عهد التنظيمات ، واشتهرت بها في القرن الحادي عشر الهجري قهوة بين النّهرين ، التي كانت من أجمل متنزهات دمشق ، وصفها الرّحالة الفرنسي جان تيفْنو Jean Thévenot عام 1664 . راجع كتابي : «وصف دمشق في القرن السابع عشر» ، ص 77 .

(3) الشّرفان رابيتان على جانبي بردى ، من البحصة شرقاً إلى آخر مرجة الحشيش غرباً .

(4) أي الوادي الأخضر وهو وادي بردى الفوقاني المارّ بالمرجة (غربي ساحة المرجة) والميدان الأخضر (مرجة الحشيش) ، والوادي التحتاني المار ببساتين كيوان شرقي الرّبوة .

(5) كانت في جزيرة بين النهرين عند رأس الوادي عين تُعرف بعين القصّارين ، غارت قديماً .

يا مولانا ، لقد بكى المملوك من الأسف بدمعة حمراء على ما جرى من أهل (الشّهباء) في (الميدان) على (الشّقراء)[1] حتى كذّب الناس من قال :

قُلْ للذي قايسَ بين حَلَبَ وجِلَّقَ بمقتضى عيانها
ما تلحقُ الشّهباءُ في حلبتها تعثُّرَ الشّقراءِ في مَيدانها

فقال لسان الحال : والله ما كَذَبَ ، ولكنّه قد يخبو الزّناد ، وقد يكبو الجَواد ، وقد يُصاب الفارس بالعين التي تغمز قناته غمزاً .

ومن ظنّ أنْ سَيُلاقي الحروبَ وألاّ يُصابَ فقد ظنَّ عَجْزا

ودخلتُ بعد ذلك إلى البلد ، فوجدتُ على أهله من دروع الصبر سكينة ، فقلت : يا ربّ مكّة والحَرَم انظر إلى أحوال أهل المدينة . ولكن ما دخلت بها إلى حمّام إلاّ وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه حِماماً ، وعلم القوّام والقاعدون بأرضه أنها ﴿ساءت مُستقراً ومقاماً﴾ ، وتُلي على بيت ناره : ﴿قُلنا يا نارُ كُوني بَرداً وسَلاماً﴾ ، فحسن أن أنشده قول ابن الجوزي :

والنارُ عندك باردٌ والنّهرُ أمسى مُنقطعْ
والعينُ لا ماءَ فيها ما حِيلةُ القوّامْ

وأتيتُ بعد ذلك إلى (الجامع الأمويّ) ، فإذا هو لأشتات المحاسن جامع ، وأتيته طالباً لبديع حسنه فظفرت بالإضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع . وتمسّكت بأذيال حسنه لمّا نشقتُ تلك النفحات السحرية ، وتشوّقت إلى النظم والنثر لمّا نظرت إلى تلك الشذور الذهبية ، وآنست من جانب طوره ناراً فرجع لي ضياء حسّي ، واندهشت لذلك الملك السليماني وقد زُهي بالبساط والكرسي ، وقلت : هذا ملكٌ سَعِدَ من وقف في خدمته خاشعاً ، وشقي من لم يدس بساطه ويأته طائعاً ، ولقد صدق من قال :

(1) توريات بحلب الشّهباء ، والميدان الأخضر ووادي الشقراء ممّا يلي دمشق غربيها رأساً . وقوله : ما جرى من أهل الشهباء ، يعني انحياز الحلبيين إلى برقوق ضد دمشق .

أرى الحُسنَ مجموعاً بجامع جلَّق   وفي صدره معنى الملاحَة مشروحُ
فإن يتغالى بالجوامعِ معشرٌ   فقُل لهم (بابُ الزِّيادة) مفتوحُ

معبدٌ له قصبات السبق ولكن كُسرت عند قطع الماء قناته ، ورأيته في القبلة من شدّة الظمأ وقد قويت من ضجيج المسلمين أنّاته ، وخفض (النَّسر)[1] جناح الذلّ وودّ بأن يكون النّسر الطائر ، وطُمست مُقَل تلك المصابيح ، فاندهش لذلك النّاظر .

هذا وكم نظرتُ إلى حجر مكرّم ليس له بعد إكسير الماء جابر ، واختفت نجوم تلك الأطباق التي كانت كالقلائد في جيد الغَسَق ، ومرّت حلاوة نارها بعد ما ركبت ﴿طبقاً عن طبق﴾ . وأصبح دَوْحُه وهو بعد تلك النّضارة والنّعيم ذابل ، وكادت قناديله وقد سلبت لفقد الماء أن تقطع السلاسل . ولم تُشر الناس بأصابعها إلى فصوص تلك الخواتم المذهّبة ، ولم يبق على ذلك الصحن طلاوة بعد الماء وحلاوة سكبه الطيّبة . وتذكّر المنبر عند قطع الماء أوقاته بـ (الرَّوضة) ، وتكدّرت أفراحه لمّا ذكر أيامه بتلك (الغيضة) ، وأنشد لسان حاله[2] :

ولو أن مُشتاقاً تكلّفَ فوقَ ما   في وُسعه لسَعى إليكَ المِنبرُ

وودّت (العروس)[3] أن تكون مجاورة لحَماتها لتبلّ ريقها برحيق الأمن إذا نظرت إلى عاصي (المحمّديّة) ، وقد دخل جنّاتها . ونظرتُ إلى (فوّار) أبي نواس وقد انقطع قلبه بعد ما كان يثب ويتحرّى ، وكاد أن ينشد من شعره لعُدم الماء : ألا فاسقني خمراً .

ودخلتُ إلى (الكلاّسة) وقد علا بها غُبار الحزن ، فتنهّدتُ من الأسف على كل ناهدة ، ورثيتُ للنساء وقد فقدنَ بعد تلك ﴿الأنعام﴾ ﴿المائدة﴾ .

---

(1) تورية بقبّة النّسر الشهيرة في جامع دمشق الأموي .
(2) البيتان للبُحتري ، ديوانه 1 : 212 .
(3) تورية بمئذنة العروس الشهيرة في الأموي ، وهي المئذنة الشمالية . تطلّ على الكلاّسة المذكورة أدناه . أما الفوّار فتورية عن فوّارة جيرون شرقي الجامع ، النّوفرة في أيامنا .

واستطردتُ إلى (باب البريد)[1] ، فوجدتُ خيول الماء الجارية قد انقطعت عن تلك المراكز ، ونظرتُ إلى السّراج الأكبر وقد انعقد لسانه لما شعر من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز .

ونظرتُ إلى أهل الصّلاة وعليهم في هذه الواقعة من الصّبر دروع ، وقد استعدّوا بسهام من الأدعية أطلقوها على قسيّ الركوع .

مُرَيَّشةٌ بالهُدب من جَفن سَاهرٍ مُنَصّلَـةٌ أطرافُهـا بدُمـوعِ

ونظرتُ إلى الريّان من العلم وقد اشتدّ لفقد الماء ظماه ، وتبلّد ذهنه حتى صار ما يعرف من أين الطريق إلى باب المياه .

ومشيتُ بحكم القضاء إلى (الشُّهود)[2] فوجدتُ كلا منهم قد راجع سهاده وطلّق وسنه ، وتأمّلتُ أهل (السّاعات) وقد صار عليهم كل يوم بسنة ، ونزلتُ في ذلك الوقت من (السّاعات) إلى الدَّرَّج في دقيقة ، فانتهيتُ إلى مجاز طريق (الفوّار)[3] فوجدتُه كأن لم يكن له حقيقة .

كم وردتُه وهو كأنه سِنان يطعن في صدر الظما ، أو كشجرة كدنا نقول إنها طوبى لمّا ظهرت وأصلها ثابت وفرعها في السّما ، أو مغترف بيده الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضاً ، فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضا ، أو عمود وفاء أشارت الناس إليه بالأصابع ، أو ملك طالب السماء بودائع ، حتى كأن إكليل الجوزاء له من جملة الودائع ، أو أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حبّات النجوم الثواقب ، أو شجاع ذو همّة عالية يحاول ثأراً عند بعض الكواكب ، فخفض لفقد الماء مناره وخفي بعد ما كان به أشهرَ من عَلَم ، وجدع أنفه وطالما ظهر وفي عرنينه شَمَم ، فقلتُ :

---

(1) تورية عن باب البريد ، وهو الباب الغربي للجامع الأموي المُفضي إلى المسكيّة سابقاً .
(2) الشّهود تورية بمصاطب الشهود جنوبي الأموي ، أما باب السّاعات فتسمية كانت تُطلق على باب جيرون الشرقي بالأموي ، وقبلها كانت تُطلق على باب الزّيادة القبلي .
(3) تقدّم ذكره ، فوّار باب جيرون إلى الشرق من الجامع الأموي ، يُعرف اليوم بالنّوفرة .

لستُ أنسى الفوّار وهو ينادي　　غِيض مائي وعَطّل الدّهرُ حالي
فتمنّيتُ من لهيبي بأنّي　　أشتري غيضَهُ برُوحي ومالي

فلا والله ما كانت إلاّ أيسر مدّة حتى رجع الماء إلى مجاريه ، وابتسم ثغر (دمشق) عن شنب الريّ بعدما نشف ريقه في فيه .

هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعد ما قامت على ساق وقدم ، وبطلت آلتها التي كان لها على تحريك الأوتار وجسّ العيدان نغم . واعتُقل الرُّمح بسجن السِّلم وعلى رأسه لواء الحرب معقود ، وهجعت مُقَل السيوف في أجفانها لمّا علمت أن الزّيادة في الحدّ نقص في المحدود .

وفاضت غُدران الرّحمة على رياض الأمن فظهر لها من المسرّة نباتٌ حَسَن ، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن .

* * *

وبعد ، فالمعذرة من فهاهة هذه الرسالة التي هي في رياض الأدب باقليّة ، والصّفح عن طولها وقصر بلاغتها بين يدي تلك المواقف السّحبانية ، وليكن محمولاً على متن الحلم كلامها الموضوع ، فقد علم الله أنها صدرت من قلب مكسور وفؤاد مصدوع وذهن ضعيف ، وليس لكثير ضعفه عاصم ولا نافع ، وراحلة فكرٍ أمست وهي عند سيرها إلى غايات المعاني ظالع :

فسيروا على سَيْري فإنّي ضعيفُكم　　وراحلتي بين الرَّواحل ظالعُ

هذا وكم تولّد للمملوك في طريق الرّمل من عقله ، وكم ذاق من قطّاع الطريق أنكاداً حتى ظن أنه لعُدم النُّصرة ليس له إلى الاجتماع من وصلة . وكلّما زعق عليه غُراب البين تألّم لسهام البين وفقد مصر التي هي نِعم الكِنانة ، وأنشد وقد تحيّر في الرّمل لفراق ذلك التّخت الذي أعزّ الله سلطانه :

من زَعقة الغُراب بعد المُلتقى　　فارقتُ مصراً وبها أحبابي
وفي طريق الرّمل صرتُ حائراً　　مروّعاً من زَعقة الغُرابِ

واستقبل المملوك بعد ذلك بلاد الشّام ، فبئس الحال وبئس الاستقبال ، فوالرّحمن ما وصل بها إلى مكان إلاّ وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتدّ القتال ، وحصدوا سُنبل الرّشاد فدرست فلا أعيد لمعيد حربهم دروس ، وأداروا رحى الحرب بقلوب كالأحجار فطحنت عند ذلك الرؤوس ، وأنشد لسان الحال :

من كلّ عادٍ كعادٍ في تجبّره … من فوق ذات عمادٍ شادها إرَمُ
لا يُجمعون على غير الحرام إذا … تجمّعوا كحباب الرّاح وانتظموا

وانتهت الغاية بالمملوك إلى أنه شلح بقرب (الكسوة)[1] في الشتاء ، وانتظرتُ ملك الموت وقد أمسيتُ :

لي مُهجة في النازعات وعبرةٌ … في المرسلاتِ وفكرة في هل أتى

هذا ، والليلُ قد انطفأت مصابيح أنواره وعَسْعَس ، حتى أيقنتُ بموت الصُّبح وقلتُ لو كان في قيد الحياة تنفّس . فذهب المملوك وقد تزوّد عند قسم الغنيمة بسهم فجرح ولم يجد له تعديلا ، ولكنه صبر على الألم بعد ما كاد يدمي من الوهم ولم يلق له مجيرا ، لمّا قوي ألمه وضعف منه الحيل ، إلاّ أنه دخل تحت ذيل الليل ، فوصل إلى البلد وقد ودّ يومه لو تبدّل بالأمس ، ولم يَسلم له في رقعة الحرب غير الفرس والنّفس ، ولكنه أنشد :

ما تفعلُ الأعداءُ في جاهلٍ … ما يفعلُ الجاهلُ في نَفْسِه

فأعاذ الله مولانا وبلاده من هذه القيامة القائمة ، وبدأ به في الدنيا ببراعة الأمن ، وفي الآخرة بحُسن الخاتمة .

(ثمرات الأوراق ، 381-395)

* * *

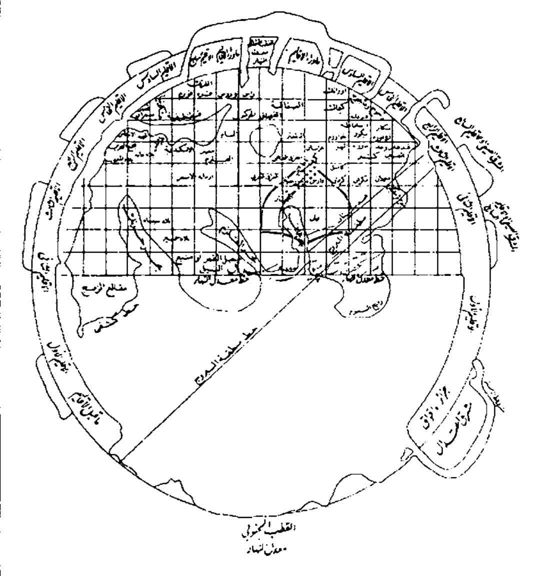
(1) قرية معروفة (صارت بلدة) ، إلى الجنوب من دمشق على طريق حوران .

خارطة العالم

للمستوفي (٧٤٠ هـ) (١٣٣٩م)

هو حمد الله الفارسي القزويني الملقب المستوفي، له كتاب «نزهة القلوب»، وضعه بالفارسية في سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩م)، نشر القسم الجغرافي منه المستشرق البريطاني لي سترانج من ضمن سلسلة منشورات گب التذكارية (مجلد رقم ٢٣ لسنة ١٩١٩) فنشر النص الفارسي في القسم الأول من هذه السلسلة ونشر ترجمته الانكليزية في القسم الثاني منها. وفي هذا الكتاب وصف جغرافي لإيران والعراق في عهد السلطان أبي سعيد الايلخاني. ويمكن رؤية المستوفي في صنعة الأدوار العامة عند تمكنه من تدوين مقدار الدوران من الأقطار التي وضعها في كتابه هذا صورة مصغرة ودقيقة لم يسبقه إليها أحد. وله أيضاً كتاب «تاريخ گزيده» مخطوط مصنّف حسب طبقات وعهود الخلفاء طبع متنه الفارسي المستر أدورد براون من ضمن منشورات گب التذكارية أيضاً (مجلد رقم ١٤ لسنة ١٩١٣) ونشر في القسم الثاني من النشرة خلاصة مترجمة الى الانكليزية مع الفهارس.

«تحقيق الدكتور أحمد سوسة»



خريطة العالم للمستوفي من كتابه «نُزهة القلوب» عام 740 هـ



الخانقاه اليونسية



المدرسة الجقمقية

تربة مختار الطواشي

والصور من كتاب : *Damaskus, die islamische Stadt* ، برلين 1924



صورة فوتوغرافية قديمة للأموي قبل حريق 1893 ، تصوير سليمان الحكيم



الواجهة الجنوبية للأموي ، صورة لبونفيس حوالي 1870 (قبل حريق 1893)

- 57 -

ابن صَصْرى

(توفي بعد 799 هـ / 1397 م)

أرّخ لرحلة السّلطان برقوق إلى دمشق عام 796 هـ

محمد بن محمد بن صَصْرى ، لا تقدّم لنا المصادر أي شيء عن حياته ، ولم نعثر له على ترجمة . الشيء الوحيد الذي نعلمه عنه أنه ترك تاريخاً نفيساً بلهجة نصف عاميّة سمّاه «الدّرة المضيّة في الدّولة الظاهريّة» ، أرّخ فيه لحوادث دمشق اليومية خلال عشر سنوات من حكم السّلطان المملوكي الظاهر برقوق ، أول سلاطين المماليك البُرجيّة ، بين 789-799 هـ = 1389-1397 م .

لم تكن أسرة الرّجل مجهولة الأصل ، بل كان آل صَصْرى أسرة يمانيّة تغلبية قطنت دمشق ، وظهر منها في القرنين السادس والسابع محدّثون وفقهاء وقضاة ، بيد أن الدّهر طوّح بها ، وآخر من نعلمه منها صاحبنا محمّد مؤلّف «الدّرّة المضيّة» . مثل هذا الأمر ينطبق على بعض أسر دمشق المشهورة في عهد المماليك ، كآل المُزَلّق مثلاً ، فترى ذكرها يندثر ويضمحلّ وكأنها لم تكن .

* * *

أما كتاب ابن صَصْرى المذكور فهو من أندر وأمتع النّصوص القديمة حول دمشق في عهد المماليك ، منه نسخة خطيّة فريدة في العالم في مكتبة البودليان بجامعة أوكسفورد ، قام بنشرها وليَم برينَر W. Brinner في عام 1963 مع ترجمة إنكليزية ، وصدرت عن منشورات جامعة كاليفورنيا في بركلي ولوس آنجليس بعنوان : *A Chronicle of Damascus 1389-1397* .

ورغم أن كتاب ابن صَصْرى المُعنوَن يندرج تحت طائفة كتب الحوادث اليوميّة ، فقد شحنه مؤلّفه بأخبار وقصص كثيرة عن دمشق وفضائلها ونوادر ما وقع بها من حوادث غريبة ما زالت في عصره حيّة في ذاكرتها الشعبية ، وإن كان ذلك مما يخرج عن إيقاع سرد الحوادث الذي عُقد لأجله الكتاب ، فهذا ما جعله متأرجحاً ما بين كتب الحوليات التاريخية ومصادر البلدانيّات والفضائل .

غير أنه برغم هذا كلّه أفادنا بتقديم صورة حيّة ودقيقة لحياة المجتمع الدّمشقي أواخر عهد السّلطان الظاهر برقوق ، بما وقع أثناء ذلك من حوادث سياسية واجتماعيّة ، كفتنة الأمير مِنْطاش وأزمة ابن النَّشُو . أما فتنة منطاش عام 791-792 هـ فقد كنا قد طالعنا بعض أخبارها أعلاه في نص رحلة ابن حجّة الحموي ، ورأينا مدى التّنكيل الذي أصاب المدينة على أيدي قوّات السّلطان ، إثر انتصاره على غريمه الثائر . وهذا ما يظهر جليّاً في النصّ الذي سنقدّمه أدناه حول تعسّف مماليك السّلطان بدمشق أثناء زيارته (بعد 4 أعوام من القضاء على ثورتها) على اعتبار أن : «أهل دمشق عندهم مناحيس مَنَاطشة ، وأهل مصر يبغضوا (.sic) أهل دمشق من قبل هذه الواقعة» .

هذه الواقعة تؤلّف - كما كنا أسلفنا - نقطة انعطاف في تاريخ الدّولة المملوكية ، ما بين مرحلتي حكم المماليك البحرية من الأتراك ، وحكم المماليك البُرجية من الجراكسة . حيث أن الظاهر برقوق - أول سلاطين الجراكسة - قُوبل بالرّفض من قِبَل طبقة الأمراء المماليك في دمشق ، إبّان عهد نائبها بَيْدَمر وخَلَفه بزلار . ورام هؤلاء الأمراء خلع السُّلطان الجديد ، فألّبوا عليه بلاد الشّام بأسرها وكان المحرّك الأكبر لجبهة المعارضة الأمير المملوكي مِنْطاش .

انتهت أحداث وقعة مِنْطاش بانتصار السُّلطان القوي عليه وإعدامه بدمشق عام 792 هـ ، بعد إخماد ثورته بكل قسوة وعنف ، لقيت منهما المدينة المقهورة كل عسف وتخريب ، على اعتبارها كانت مركز النشاط السّياسي المُعادي لبرقوق فنال سخطه المدينة بأسرها ، رغم أنها كانت ترقب ما يجري بلا إرادة .

لكن مما يؤسَف له أن هـذا السّلطان القـوي ، الـذي تمكـن مـن إبقـاء طلائـع الغزو المغولي بقيادة تيمورلَنك بعيدة عن حدود الشام (ناهيك عن مصر) ، ما لبث أن توفّي عام 801 هـ . ونجـح ابنـه وخَلَفـه الفتـي النّـاصر فَـرَج أولاً في إبعـاد خطـر المغول ، إلى أن أتت اللحظة التي خشي فيها على مُلكه بمصر من ثورة مُماثلة لفتنة منْطاش وفتنة أيتَمِش وتَنْبك (انظر نـص الأمـير تَغـري بَـرْدي أدنـاه) ، فـآثر أمـراؤه الخروج به من دمشق وتركوها على قول المؤرّخ ابن تَغري بَردي : «أُكلـةً لتَيمـور ، وكانت يومذاك أحسن مُدُن الدّنيا وأعمرها» .

* * *

غير أن الذي يعنينا هنا من «الدّرّة المضيّة» نصّ الرّحلة التي قام بهـا السّلطان برقوق إلى دمشق عام 796 هـ ، بغيـة تثبيـت مُلكـه بالشـام في أعقـاب إخمـاد ثـورة منْطاش بها ، وإنجاد أحمد ابن أوَيْـس سـلطان بغـداد التّركي ضـد المغـول . ومـن الممتع لنا في كتابنا هذا أن نقارن ونقرن بين رحلات الجغرافيين والرّحّـالين العـرب ، وبين نصوص رحلات خليفة عبّاسي وسبعة سلاطين مماليك زاروا دمشـق هـم علـى التوالي : المتوكّل ، الظاهر بَيْبَرس ، الظاهر برقوق ، النّاصر فَرَج ، المؤيَّد شـيخ ، الأشرف بَرْسْباي ، الأشرف قايتْباي ، قانصوه الغُوري . عدا عن أمـيرين كبـيرين نزلا بها ، هما : الأتابك تَغري بَردي الظاهري ويَشْبك الدّوادار .

المصـادر :

الدرّة المُضيّة في الدّولة الظاهريّة لابن صَصْرى ، مقدّمة برينر .
إنباء الغُمر بأنباء العُمر لابن حجر العسقلاني ، ج 2 طبعة حيدر أباد .
تاريخ ابن قاضي شُهبة ، 3 : 511-521 .
النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 12 : 138 .
دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 3 : 285 .
معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة للمنجد ، 220 .

A CHRONICLE OF DAMASCUS 1389-1397

by Muḥammad ibn Muḥammad ibn Ṣaṣrā

THE UNIQUE BODLEIAN LIBRARY MANUSCRIPT OF

الدرّة المضيئة في الدولة الظاهريّة

al Durra al-Muḍī'a fī l-Dawla al-Ẓāhirīya

(LAUD OR. MS 112)

EDITED AND ANNOTATED

by William M. Brinner

VOLUME II

THE ARABIC TEXT

UNIVERSITY OF CALIFORNIA PRESS

BERKELEY AND LOS ANGELES, 1963

عنوان طبعة كاليفورنيا عام 1963 من كتاب «الدرّة المضيّة»

[رحلة السّلطان برقوق إلى الشّام]

ثم إن السّلطان الملك الظاهر برقوق فرّق على مماليكه الخيول والسّلاح ، وأعلم الأمراء أنهم يتهيّأوا للرّواح . وركب السّلطان في جيوشه وأعوانه ، والخليفة أمير المؤمنين أمامه ، وسار في الجيوش والجحافل ، والصّوارم والعوامل ، والبركستوانات السّوابل ، والصّوارم والرّماح ، والجنائب والسّلاح ، والخُوَذ والزّرَديّات ، والقراقل المثمنات ، والتُّرك قد تنوّعوا في الملابس ، كأنهم أسودٌ عوابس ، قد ركبوا السّوابق العربيّة ، وأخلصوا إلى الله تعالى النيّة ، وذوائب العصائب تخفق ، ولسان النّصر ينطق ، وجيوش قد سدّت القفار ، كأنهم شُعلة نار ، تُكاثر النّجوم بعددها ، وتبهر العيون بحُسن ملابسها .

وسار مولانا السّلطان ، أوحد ملوك الزّمان ، بعسكره المنصور ، وسعيه المشكور . وطلع في ركابه الشريف السّلطان أحمد مسرور ، وأيقن أنه على عدوّه تمرلنك منصور ، وقصد السّلطان بلاد الشّام ، وطيّر عزّه فوق رأسه قد حام ، والأكوام تبتهج لمسيره ، وتشكر حُسن ثنائه وتأثيره ، وانسرّت لقدومه الأكوان ، وتمايلت فرحاً به الأغصان ، وكاد أن يسعى إلى تقبيل الأرض بين يديه القصر[1] والميدان ، وغنّت الأطيار ، وصفّقت الأنهار ، وتضوّع عَرف الأزهار ، وانتشرت البُشرى في الأقطار ، وتزخرفت القلعة وانجَلَت ، وأعرضت في أحسن حُلّة وتبدّت ، وأظهرت سُلطان منعتها ، وأبدَت للعيون حُسن زينتها ، وافتخرت على القلاع والثّغور ، وابتهجت حتى لاح على وجه أسوارها السّرور ، وتلقّته الرّعايا مُبتهلين ، ولجُوده وإحسانه شاكرين ، ووصلت أخبار السّلطان أنه في الغور ، وطلع نائب الشام وعساكر الشام فور بعد فور[2] ، وطالعوا الفواكه والحلاوات إليه ، وقبّلوا الأرض بين يديه .

---

(1) كناية عن القصر الأبلق والميدان الأخضر بقربه . كان الميدان موضع معرض دمشق الدولي (تمّت إزالته مؤخراً) ، والقصر الأبلق موضع التكيّة السّليمانيّة .

(2) كان نائب الشام آنذاك الأمير تَنْبك الحَسني الظاهري (وليها بين 795-802 هـ) ، انظر نصّ ابن خلدون أدناه حول مقتله على يد النّاصر فَرَج ابن برقوق . له تربة جميلة في الميدان .

ودخل السّلطان إلى دمشق على عادة الملوك ، وعـدوّه بغُبنه مَضنوك ، وكان دخوله يوم الإثنين حادي عشرين جُمادى الأولى من السّنة المذكورة [796 هـ] ، ودخلت الأمراء قُدّامه ، والسّلطان أحمد بن أويس أمامه ، وقد بسطوا له الشّقق الحرير تحت حوافر جواده ، والشّموع توقد حوله وقُدّامه ، وأيتَمِش حامل القبّة والطير على راسه ، والبشائر تدقّ والمغاني ، والنّاس ترقص فرحاً من التّهاني ، ودَخَل إلى القاعة في أشرف ساعة ، وأحسن طلعة ، وجلس على سرير مُلكه ، وقد انتظمت عقود سلكه في قلعته المنيعة دقّت البشاير ، فصفّقت من دمشق أنهارها السّبعة ، وأصبحت جبهتها مُباركة الطّلعة ، واتّسَق زهر رَبوتها وتـألّف ، ورقص غُصن بانها وتقصّف ، وأخذت الأسواق في الزّينة ، وأبرزت من جواهرها أقفاص مجموعها كلّ درّة ثمينة ، فخرجت النّاس لرؤيتها يهرعون ، وأقاموا من الفرح سبع ليالي قليلاً من اللّيل ما يهجعون .

ولمّا جلس على سرير المُلك وأظهر سَطوته الشّديدة ، امتدحه شمس الدّين الزّرخوني بهذه القصيدة ، وهي[1] :

دَع مَدحَ غانيةٍ تَسبيكَ بالشّعرِ ... وامْدَح مَليكَ الوَرى بَرْقُوق بالشّعرِ
المالكُ الظاهرُ المشكورُ سيرَتُهُ ... أبو سعيد الذي قد خُصّ بالنّصرِ
زينُ الملوكِ وعَينُ المُلك أفرسُ مَن ... صادَ العُداةَ برأي الرُّمح في القفرِ
الحُكمُ بالحِلم والإحسانِ شيمتُهُ ... والجِدُّ والجُودُ والإنعامُ بالبرِّ
سَلْ شَقْحَباً عن حُروب كان واقدها ... شَرارُها الشَّرُّ إذ تَرميه كالقَصْرِ
وابنُ باكيشَ سَلْهُ عن وقائعه ... وسَلْ لِمَنْطاشَ ذاكَ المُدبِرِ العَفِرِ
وسَلْ جيوشَ دمشقَ الكلَّ أهزَمَهُم ... ورَدَّ خبراً لهم بالسّيف في كَسْرِ
وشَكَّ من غير شَكٍّ قلبَ عسكرهم ... نعم وقصَّ الجناحين الذي تَسْري
كذاكَ جبريلُ لمّا جاء يطلبُه ... أتاهُ عِزريلُ أفناهُ على الأثرِ
محمّد شاه فيه صَيَّرَهُ ... من حُسن سيرَته في الكَرِّ والفرِّ

---

(1) شعر غثّ سقيم لا يستحق شرحاً ولا تصحيحاً ، فكله كسر في القوافي والمعاني .

يقُدُّ بالقضبِ مَنظُومَ الدُّروع كما ... قهراً يردّ به الهامات في نَثْرِ
لَيثُ المعامع عبسيٌّ لِعَبْسَته ... تَضاحَكَ البيضُ بَل تبكينَ بالحُمرِ
قيل إذا جالَ كان النّصرُ يخدمُه ... غيثٌ إذا جادَ عَمَّ القَطرُ بالقُطرِ
يُمناهُ بالعينِ لا نهرٌ ولا سَامٌ ... كالسَّيل من بِرِّه نابَت عن البحرِ
وحينَ نالَ الوفا من نَيْل خالقِه ... وأكسرَ النّاصري الأصلَ في الشَّرِّ
وجاءَ منطاشُ في ذُلٍّ وفي نَكَدِ ... مَقطوعةٌ راسُه بالذّل والنَّحرِ
كَم من عرائس مُدن مرَّ خاطبُها ... من غير مَهْرٍ لها لكن على مُهْرِ
كلّ الملوك أتتْ أبوابَ قلعتهِ ... يستنجدون به في مُعظم الأمرِ
أتى لهُ أحمدُ السُّلطانُ مُنهزماً ... في بعض جُنْدٍ له يشكو من القَهرِ
أعانَهُ ثم بالفُرسان أنجَدَه ... وقالَ طِبْ سوفَ يأتي اللهُ باليُسرِ
وأعرضَ التُّركَ في البَرْكِ الذي دَخَروا ... من السِّلاح وجِيْد الخَيل من دَهرِ
فأقبلوا مثلَ عاداتٍ لهُم أبداً ... على خُيول تفوقُ البَرقَ إذ تَجري
عليهم كُلّ درع كالدّراع قباً ... من الحديد عليه أحرفُ النّصرِ
مُسَربلين بقُمصانٍ لهُم زَرَدٌ ... من نَسْج داوُد زُهر من على زَهرِ
وركّبوا البَيْضَ في هاماتهم حَذَراً ... وأمسكوا البِيضَ لما سَرّحوا السُّمرِ
وكُلّ تُركيٍّ يُحاكي الشّمسَ إذ بَزَغَتْ ... لَمعاً وفي الدُّور تحكي دارَةَ البَدرِ
وكَم دبابيسَ ملءُ العين تصبحهم ... وكَم حِراب خَراب العُمر إذ تَسري
وافَوا صفوفاً وربُّ العَرش يحرسُهم ... من التَّغابُن بين النّاس للحَشْرِ
وعاينَتْ أهلُ بغدادٍ ومالكهم ... ملكاً فلا ينبغي للعَين في العُمرِ
وقالَ قائلُهم يا جَبرَ كَسرتنا ... والأخذ بالثأرِ بالبَتّارِ في الإثرِ
ثمّ اطمأنّتْ نُفوسُ القَوم حينَ رأوا ... مسيرَ عسكره للشّام من مصرِ
هذا هو الملكُ المَندوبُ أشجعُ مَن ... جَرَّ الرِّماحَ لطَعنِ الظَّهرِ والصَّدرِ
يا رَبّ انصُرهُ وأبصرهُ بعينِ رضاً ... وغِثْهُ عندَ وقوعِ العُسْرِ باليُسْرِ

* * *

ثم دخل بعد دخوله إلى القلعة الخيول والأطلاب ، حتى أذهلت الألباب ، وتفرّقوا في المدينة برّاها وجوّاها ، في البيوت والقاعات ، والأساطبل والخانات . ونزل السّلطان أحمد في القصر والميدان ، وضيّقوا المصريين (.sic) على أهل دمشق في مساكنهم ، وتسلّطوا عليهم بالأذى وأخذ أشيائهم ، وإن تكلّموا نهروهم ، وبقت النّاس معهم في ضيقة والسّلام .

وأهل دمشق عندهم مناحيس مَناطشة[1] ، وأهل مصر يبغضوا أهل دمشق من قبل هذه الواقعة ، ويحبّوا الحلبيين ، وما ذاك إلا حسد وغيرة بحُسن مدينتهم ولطافتهم ، وحُسن ملابسهم وما يتعانوه من الصنائع الملاح ، فإنّ على أهل دمشق تروح الأرواح[2] .

(الدرّة المُضيّة في الدّولة الظاهرية ، 150-155)

* * *

ثم نعود إلى كلامنا : ولمّا استقرّ السّلطان الملك الظاهر في القلعة المحروسة بعد يومين ، رسم أن ينسيّروا الخيول الذي (.sic) ليس لهم بها حاجة إلى المرج ، وكذلك الجمال إلى الغور ، وأنّه مقيم في دمشق حتى يكشف أخبار تمرلنك قبّحه الله تعالى ، وقد أرسل القُصّاد في كشف الأخبار .

وفي يوم الجمعة نزل السّلطان من القلعة والأمراء في خدمته ، وصلّى في الجامع الأموي ، وأشعلوا له الشّموع وصلّى في المقصورة وردّ إلى القلعة . وبقي كل وقت يركب وينزل ، يسير إلى ظاهر المدينة وتركب الأمراء في خدمته ، والسّلطان أحمد معهم يركب في خدمته ويستجير به ، ولمَن صحّ هذا من الملوك المتقدّمة ؟ وبقيت أهل دمشق يتفرّجوا على ركوب السّلطان ونزوله ، ويدعوا له ويفرحوا به .

---

(1) أي نسبة إلى الأمير منطاش ، صاحب الفتنة المشهورة في عام 791 هـ .
(2) تلي فقرة في مدح دمشق يتعصّب فيها ابن صَصْرى للشام ضد من يفضّل مصر وحلب .

ثم استهلّ شـهر جُمـادى الآخـرة . وفي عاشر الشـهر خلـع السّلطان علـى قاضي القضاة البـاعوني باستمراره ، وجـاءت نـوّاب البـلاد إلى مولانـا السّلطان يقبّلوا أياديه الكريمة . ولمّا وصل جلبان نائب حلـب إلى دمشـق وطلـع إليـه وقبّـل الأرض بين يديه ، وأنشد لسان حاله يقول شعراً :

قـد زادَ شَـوقي وحَـقّ الله يـا سَـنَدي إلى مُحَيّاكَ يا سَـمعي ويـا بَصَـري
وكـلّ يـوم مَضَــى إن لـم أراكَ بــه فلستُ أحسُبُ ذاكَ اليومَ مـن عُمْري

فترحّب به وزاد إكرامه ، وخَلَع عليه وزاد إنعامه ، وردّه إلى بلـده وأوعـده بكلّ خير ، فرُدّ إلى حلب سريعاً وقد جدّ في السّير ، وتواترت الأخبار في دمشـق أن تمُرلَنك أخـذ ماردين ، فخاف في دمشـق الغنـي والمسكين ، فنسأل الله أن يـردّ العاقبة إلى خير يا ربّ العالمين !

* * *

ثـم استهلّ شـهر رجـب . وفي هـذا الشـهر حضـر سـالم الدّوكـاري أمـير التّركمان ، وجاب معه التّقادم والهدايـا ، وطلـع إلى بـين يـدي السّلطان ، وقبّـل الأرض بين يديه وقـدّم التّقادم ، فخلـع عليه السّلطان بنيابة جَعْبَر ، فإنها علـى جانب الفُرات ، ورُدَّ إلى نيابته .

وفي هذا الشّهر دار المَحمَل على عادته وأقلّ مـن عادتـه ، وقـالوا النّـاس إنـه يدور مليح حتى يتفرّج عليه السّلطان . واحتفلت لفُرجته النّاس ، وطلـع خـلاف ما قاسوا عليه ، وبقيت النّاس متعجّبين ، فإن النّاس ما كـانوا مُنشـرحين مـن جهـة تمُرلنك وأخباره .

وفي هذا الشّهر عُزل قاضي القضاة الباعوني ، وتولّى عوضه قاضي القضـاة علاء الدّين ابن أبي البقاء ، فإنه أهلها كما كان أخوه وليّ الدّين قاضي قضاة الشّام فإنه من أكابر النّاس ويعرف أهل دمشق وأحوالهم ، وَطيّ الجنبة ، كريم الكـفّ ، سَمِح النّفس ، يعطي الفقير ويجبر الكسير ، ويحبّ الفقراء ويجـيز الشّعراء ، مـا له في الكرم نظير ، كما قال فيه لسان التقصير ، وأجاد حيث يقول شعراً :

يـــا واحـــدَ النّـــاس الــــذي أضحـــى وليـــس لـــه نَظــيرُ
لـــو كـــان مثلُــك في الـــوَرى مـــا كـــان في الدّنيـــا فقـــيرُ

وفي هذا الشهر تولّى والي الولاة أرغون مملوك السّلطان ، وطلع إلى البلاد القبليّة وأخربها في آخر ولايته ، فإنه كان ظالم .

* * *

ثم استهلّ شهر شعبان من السّنة المذكورة . وفي هذا الشهر وصلت الأخبار إلى مولانا السّلطان ، أن تمُرلَنك المذموم خرج من بلاد بغداد إلى بلاد الرّوم إلى مدينة يُقال لها أرْزِنكان ، وخلّى في بغداد واحد من جهته . وأرسلوا أصحاب السّلطان أحمد بن أويس يقولوا له : «إنّك تقوم تجيء ، فإنه قد اجتمع على الفُرات من جماعتك خَلق كثير ينتظرونك ، حتى يدخلوا معك إلى بغداد وناخذها من نائب تمُرلَنك» .

فعند ذلك رسم السّلطان الملك الظاهر برقوق للسّلطان أحمد بالمسير إلى بلاده ، وأرسل معه شَنْتَمِر الخاصكي أمير طبلخانة ، وأعطاه السّلطان خيل وقماش وعُدد وسلاح ، وخلع عليه خلعة هائلة ، وودّعه وطلعت الأمراء معه ودّعوه ، ونزل على سطح بَرْزة . وكان يوم السبت ثالث عشرين الشهر .

ونادى السّلطان في الشام على الأعاجم : «أي مَن تخلّف في دمشق عن المسير مع السّلطان أحمد راحت روحه بلا مُعاوَدة» . وقال له السّلطان برقوق : «أيش ما جرى لك في الطريق إبعثْ عرّفني ، فإني في دمشق قاعد حتى تعبر إلى مدينتك بغداد وتجلس على سرير مُلكك . ولا تدخل إلى حَلَب ، ورُوح على البريّة على القريتين إلى الرّحبة» . فعند ذلك ركب السّلطان أحمد ومَن معه على بَرْزة يوم الإثنين طالب بلاده[1] .

* * *

(1) استردّ سلطته في بغداد بعد طرد نائب تيمورلنك منها ، وضرب السكّة باسم برقوق .

ثم استهلّ شهر رمضان المعظّم يوم الثلاثاء . وأما مماليك السّلطان فإنها طال عليهم المقام في دمشق ، وفرغت نفقاتهم . وأكثرهم في سُكر وقِحاب وغير ذلك ، فمنهم مَن باع خيله ومنهم مَن باع قماشه ، وانكشفت أحوالهم ، وجرى لهم كما قال المَثَل[1] : «عَديم ووقع في سلّة تين» ! وتهتّكوا في دمشق غاية التهتّك ، وقد قال الصّادق المصدوق : «إذا لم تستحي (.sic) فاصنعْ ما شئت» . وأكثرهم تغيّر عليه الماء والهواء ، فضعف منهم خلق كثير ، ومات منهم جماعة . وحصل للنّاس ضرر كثير من مماليك السّلطان وغيرهم ، فإنهم بقوا يطلعوا إلى بساتين النّاس وإلى البلاد القريبة الذي (.sic) في الغوطة ، ويأخذوا التّبن والشّعير ، وأي مَن تكلّم قتلوه . اللهم فرّج عن المسلمين .

وفي سابع عشرين الشهر توفي مُشدّ شُرْبْخانة السّلطان[2] ، وكان أمير مائة [ثم] مقدّم ألف ، وخرج له جنازة كبيرة . وفُقد من مماليك السّلطان ناس كثير وبَلَعتهم دمشق ، والسّلطان الملك الظاهر في القلعة المحروسة في أكل وشرب وهدايا وتقادُم وانشراح ، والعدوّ المخذول قد راح صوب بلاد الرّوم . واطمأنّت قلوب النّاس وطابت قلوبهم ، وباعت النّاس واشتروا على المصريين ، ولَطَف الله تعالى بعباده .

* * *

ثم استهلّ شهر شوّال من السنة المذكورة ، وصلّى السّلطان صلاة العيد في الميدان الصغير ، وفرحت النّاس ودقّت البشائر ، والنّاس يتفرّجوا على السّلطان ، وردّ إلى القلعة والجيش كلهم ماشين قدّامه ، وطلع من باب السرّ[3] . فسُبحان مالك الملوك ، لا إله إلا هو .

---

(1) ما زال هذا المثل سائراً لدينا بدمشق باللفظ ذاته ، لاحظ بقاء التعابير حيّة .

(2) المُشدّ من مصطلحات العهد المملوكي وتعني : المدير العام ، ومُشدّ الشربخانة كان هو المسؤول عن شراب السّلطان وبلاطه ، مع ما يتبع ذلك من ترتيب وآنية ومراسم .

(3) كان الباب الغربي القديم لقلعة دمشق يستعمل لدخول وخروج السلاطين والنواب بصورة سرّية ، فلذلك كان يسمّى «باب السرّ» ، ومثل ذلك في قلعة حلب .

وفي عاشر الشهر فرّق السّلطان الجمال على المماليك للسّفر .

وفي ثاني عشر خلع السّلطان على الهيذباني بنيابة القلعة ، ورسم السّلطان أن يبرزوا الخام إلى برزة ، فنُصب خام السّلطان في بَرْزة ، وخرج السّلطان بجيوشه المنصورة من دمشق ، ونزل على بَرزة ، وطلعت خلفه الأطلاب تنجرّ خلف بعضها بعض . ورحل السّلطان من على برزة طالب[1] بلاد حَلَب .

وفي يوم الخميس خرج المحمل من دمشق ، وأمير الرّكب أخو الرّنبكي[2] التّركماني ، وكان ركبٌ قليل . وخلّى السّلطان في دمشق نائب الشام تَنْبِك الظاهري لم يأخذه معه إلى حلب .

(الدرّة المُضيّة في الدّولة الظاهرية ، 157-160)

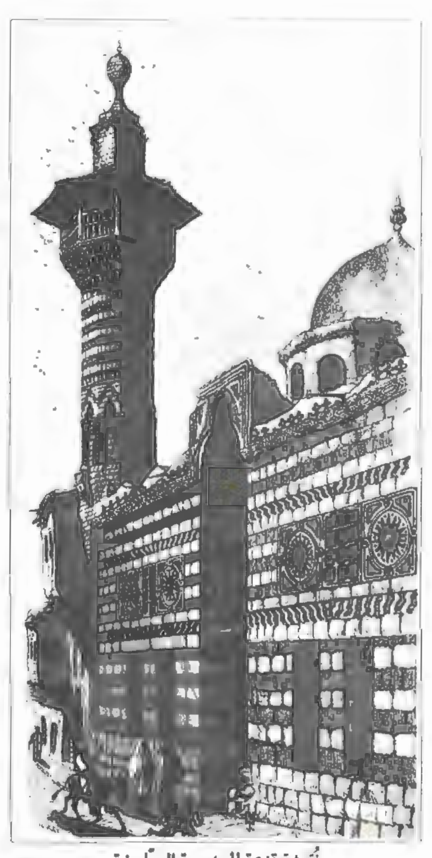
* * *

(1) يتضح للقارئ أنني آثرتُ الإبقاء على لغة المؤلف بعاميّتها وأغلاطها بلا تصحيح ، لتبقى مثالاً عن لغة ذلك العصر وأساليبه التعبيرية .

(2) اسمه في تاريخ ابن قاضي شُهبة (3 : 521) : عُمَر بن خليل ، أخو الرُّمبكي التّركماني .

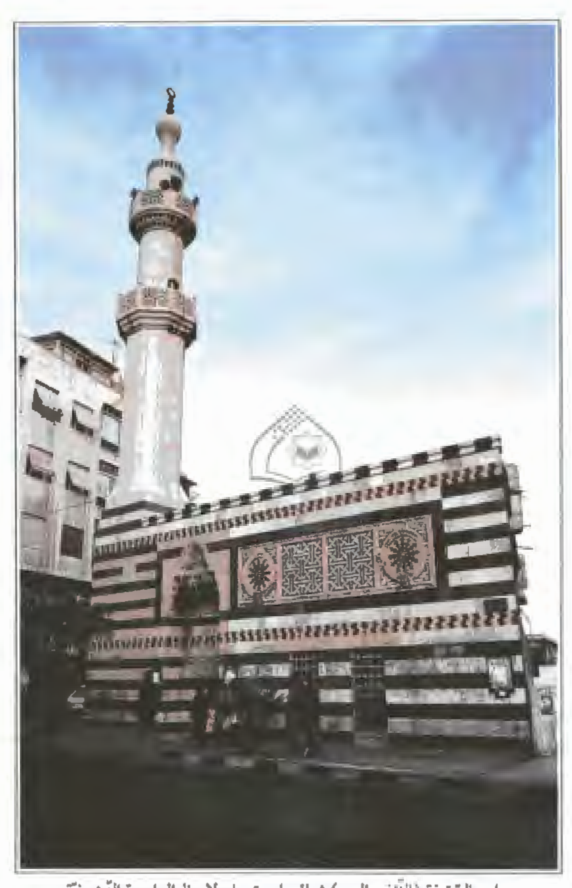


دمشق كما صوّرها لنا الرّحالون في عصر سلاطين المماليك
بساتين وارفة ، وحفنة من اللؤلؤ تسبح في بحر من الزمرّد الأخضر
نُقيشة قديمة من عام 1873



نُقيشة قديمة للمدرسة الصّابونية

من كتاب *Picturesque Palestine* حوالي عام 1880



جامع السّقيفة (الثّقفي اليوم) شمالي باب توما، لاحظ الواجهة الزّخرفيّة



التّربة الدُّوباجيّة بحارة المسكي بالصّالحيّة، أُنشئت عام 714 هـ



تربة النائب أقرلو العادلي بالصّالحيّة شمالي الجامع المظفري، توفي 719 هـ



تفصيل من واجهة المدرسة الجقمقيّة، بُنيت قبل عام 824 هـ

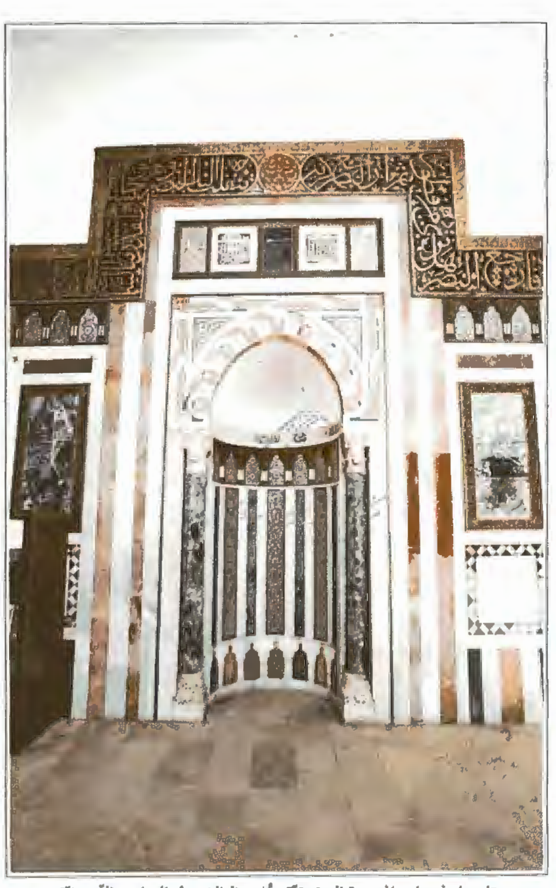


الواجهة الشرقيّة للمدرسة الجقمقيّة ، وفيها رنك الأمير سيف الدّين جقمق



تفصيل لواجهة قاعة الجقمقيّة وشُرفات الطّباق (الطابق العُلوي)

واجهة قاعة المدرسة الجقمقية ، التي تمثل نموذجاً لقصور الأمراء المماليك



تفصيل لمحراب المدرسة الجقمقيّة، يُلاحظ الغنى في العناصر الزّخرفيّة



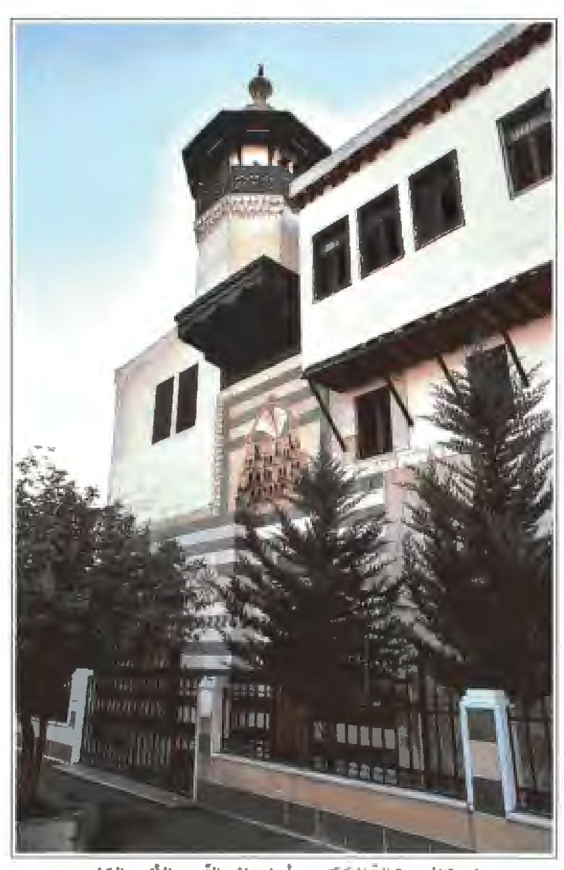
رنك الأمير سيف الدّين جقمق العلائي في الواجهة الشرقيّة لمدرسته



رنك لأمير دَوادار من المماليك في جبهة المدرسة الأخنائيّة شمالي الأموي



المدرسة الشاذبكية، بناها الأمير شاذي بك الدّوادار عام 857 هـ



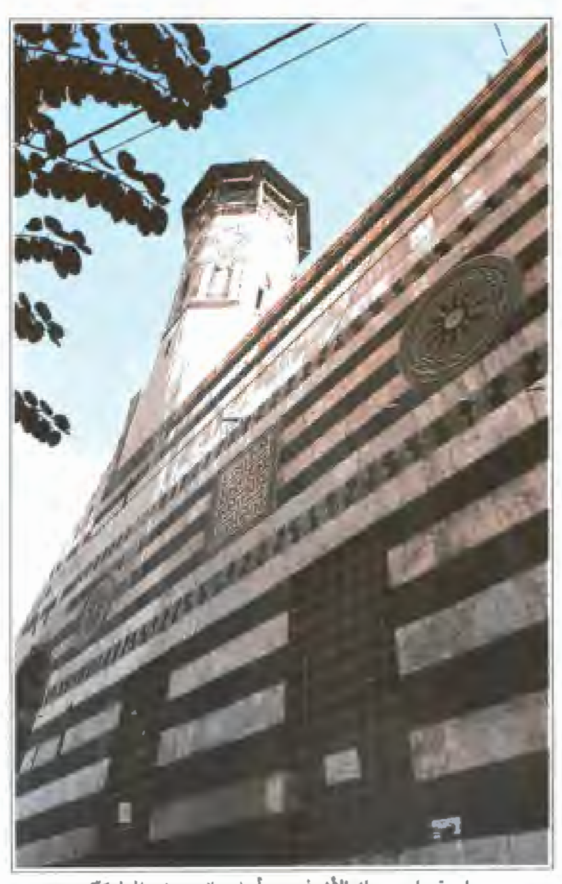
واجهة المدرسة الشّاذبكيّة، من أجمل نماذج التّرميم الأثري السّليم



جامع الأمير يَردبك الأشرفي (الجامع المعلّق) بالعمارة، بُني عام 862 هـ



مئذنة مسجد الأقصاب المربّعة ، جدّده الأمير محمّد بن منجك عام 811 هـ



واجهة جامع بردبك الأشرفي، من أجمل مباني دمشق المملوكيّة



جبهة حجريّة جميلة ذات مقرنصات في جامع بردبك الأشرفي



خريطة تمثيلية لدمشق في عصر المماليك
للرسّام الإيطالي ياكوبو دانجولو Jacopo d'Angiolo، عام 1470 م

- 58 -

عبد الرّحمن ابن خلدون

(توفي 808 هـ / 1406 م)

رحلته لدمشق عام 803 هـ

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، أبو زيد وليّ الدّين الحَضْرَمي ، المؤرّخ الفيلسوف الطائر الصّيت ، العالم الاجتماعي البحّاثة . أصله من إشبيلية ومولده بتونس عام 732 هـ ومنشؤه بها . رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس وتولّى أعمالاً ، وعاد إلى تونس . ثم توجّه إلى مصر فأكرمه سلطانها المملوكي الظاهر برقوق ، وولي فيها قضاء المالكية لمرّات عديدة كان أولها عام 786 هـ ، وكان محتفظاً بزيّ بلاده معروفاً به .

في عام 803 هـ سافر ابن خلدون إلى الشام بمنتصف شهر ربيع الأول ، صحبة حاشية السّلطان الفتى النّاصر فرج ابن السّلطان الظاهر برقوق ، للدّفاع عن دمشق في وجه جيوش تيمورلنك ، وكان له اللقاء الشهير مع الطاغية المغولي على أبواب المدينة أثناء حصار جيوش المغول لها . هذا اللقاء روى لنا وقائعه عدد من المؤرّخين ، من بينهم ابن عَرَبْشاه في كتابه «عجائب المَقدور في نوائب تَيْمُور» ، وابن قاضي شُهْبَة في تاريخه الشهير ، غير أن المستشرق كراتشكوفسكي يرى في مضمون هذه الرّواية تزويقاً مُبالغاً فيه . بينما يتّضح من سَرد ابن خلدون لوقائع اللقاء - إن صَدَق - أنه أصاب لدى تَيْمُور مكانة وحُظوة ، ولو أنه بدا أمام الطاغية المغولي ضعيفاً وصاغراً ، لم يجرؤ على التّعبير عن أدنى معارضة أو محاولة لمقاومة الغزاة ، كما مرّ بنا أعلاه في مغامرة الصّارم أُزبك .

توفي ابن خلدون فجأة بالقاهرة عام 808 هـ ، وكان فصيحاً جميل الصور، عاقلاً ، صادق اللهجة عزوفاً عن الضَّيم طامحاً للمراتب العالية . وكان لما رحل إلى الأندلس اهتزّ له سُلطانها وأركب خاصّته لتلقّيه ، وأجلسه في مجلسه .

اشتهر ابن خلدون بمؤلفات عديدة ، لكن أجلّها وأسماها اعتباراً بين باحثي العربية كتابه «العِبَر وديوان المُبتدأ والخَبَر . في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومَن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر» ، في سبعة مجلدات . وهو كتاب في التاريخ العام ، اشتهرت منه بوجه الخصوص مقدّمته التي أُفردت باسم «مقدّمة ابن خلدون» ، وهي تُعدّ بحق من أصول علم الاجتماع ، طُبعت وحدها مراراً وتُرجمت إلى الفرنسية وإلى لغات أخرى عديدة . أول من طبعها كان المستشرق الفرنسي كاترمير E. M. Quatremère في ثلاثة أجزاء بباريس سنة 1858 ، وعلى هذه الطبعة بنى المستشرق الفرنسي دى سلان De Slane ترجمته الفرنسية لمقدّمة العِبَر الصادرة في باريس سنة 1862، بثلاثة مجلدات أيضاً . وفي عام 1867 نُشر كتاب العِبَر كاملاً في بولاق بمصر بعناية الشيخ نصر الهوريني .

وختم ابن خلدون كتاب «العبر» بفصل عنوانه : «التّعريف بابن خلدون» ، ذكر فيه نسبته وسيرته وما يتصل به من أحداث عصره ، ورحلته إلى المشرق بمصر والحجاز عام 789 هـ . ثم أفرد هذا الفصل فتبسّط فيه وجعله ذيلاً للعبر وسمّاه : «التّعريف بابن خلدون مؤلّف الكتاب ، ورحلته غرباً وشرقاً» . وقام بنشر «التّعريف» مع مقدّمة ابن خلدون مُترجماً إلى الفرنسية المستشرق دى سْلان ، ثم نشره بالعربية العلاّمة المغربي محمد بن تاويت الطّنجي ، وطُبع ضمن منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في عام 1951 .

ومن هذه النّشرة أخذنا النص المتعلّق بإقامة ابن خلدون بدمشق ، وبخاصّة فترة نيابة الأمير المملوكي تَنم الحَسَني الظاهري بدمشق ومصرعه مع الأمير الكبير الأتابك أيْتَمِش البجّاسي على يد السّلطان عام 802 هـ ، ثم عن سفر ابن خلدون مع السّلطان الناصر فَرَج إلى دمشق عام 803 هـ للقاء جيوش المغول .

يروي ابن خلدون بعد ذلك خشية السّلطان فَرَج من سفر أعوان فتنة أيْتَمِش البجّاسي وتَنِم الحَسَني إلى مصر ، لئلاّ يتابعوا فيها أعمال العصيان ، فانسحب إلى مصر خوفاً على مُلكه المضطرب . وهذه كانت من تتمّات حوادث الثّورة ضدّ أبيه الظاهر بَرْقوق بقيادة الأمير المملوكي مِنْطاش ، وكنا ذكرنا حول ذلك تفاصيل وافية أعلاه في نصّ رحلة ابن حجّة الحموي لدمشق عام 791 هـ ، وتلوه نصّ رحلة السّلطان برقوق إليها عام 796 هـ برواية ابن صَصْرى .

يلي ذلك النّص الهام جداً الذي يصف به مُجريات لقائه بالطاغية تيمورلنك على أبواب دمشق ومحاوراتهما ، وكيف أخفق العُلماء في تليين قلب الغازي على المدينة ، فأعقب ذلك اجتياح المغول لدمشق وتدميرهم الهمجي لها ، بعد أن كانت دُرّة المشرق إبّان نهضتها العمرانية والحضارية الكبرى في العهد المملوكي . ودفعاً للإطالة ، عمدنا إلى اختصار بعض الحشو ما أمكن .

يذكّرنا النصّ - وشتّان بين الرّجلين - ربما مرّ بذكر المملوك الصّارم أُزْبك ، البطل الذي قابل الطاغية التّتري هُولاكو خان وقام بدور هام للغاية على الصعيد الاستخباراتي والعملياتي ، كان له أكبر الأثر في نصر عين جالوت .

المصادر :

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، مقدمة الطنجي .

كتاب العبر لابن خلدون ، المقدّمة والمتن .

الضوء اللامع للسخاوي ، 4 : 145 .

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 439-445 .

لقاء ابن خلدون بتيمورلنك لفيشل .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 3 : 26-40 .

تيمورلنك وحكايته مع دمشق للعلبي ، 163 .

De Slane, M.G.: *Autobiographie d'Ebn Khaldoun*, Paris, 1862.

٤٦٦

من انار مطالع الشرق ومباعل ثاثر ولب الطاس وماير
وكم دا حسوا الى الترك من فيهم يطيف الناس ليح كل عساكر
وازجا وحموا الملوك وحنوا على طعنة عشك له قنام
عليكم سلام الله من لسن فا فيضوا ماحت ودرنا وناح حمائم

ومن شعر عرب البرية بالشام ثم بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها وبعثت
الى احلافه من قيس تغريهم بطلب ثاره ٥

تقول فتاة الحي ام سلامة بعين اراع الله من لا رثى لها
تبات بطول الليل ما تألف الكرى موجعة كأن الشقا في مجالها
على ما جرى في دارها وعيالها بلحظة عين صار البين حالها
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكم ونمتم عن اخذ الثار ماذا وفالها
انا قلت اذا ورد الكتاب يسرني ويبرد من نيران قلبي ذبالها
ايا حين تسريح الذوائب والحلا وبيض العذارى ما حميتوا جمالها

وامنا اهل الشعر عندهم كثير ومنهم منذ اول ومن اصابهم من تعطله ومنهم من
مستكف عنه كما مثلناه في فصل الشعر مثل الكبير ودمار باح وزعمه وسلم لهذا
الجهل وامنا الحسم ٥

الموشحات والازجال للاندلس ٥

واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق
فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه اسماطا
اسماطا واغصانا اغصانا يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها
بيتا واحدا ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان واوزانها متتاليا فيما بعد الى
اخر القطعة واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات ويشتمل كل بيت على اغصان
عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد
وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله
وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر من شعراء
الامير عبد الله بن محمد المرواني واخذ عنه ذلك احمد بن عبد ربه صاحب كتاب
العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان اول من برع في
هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد
ذكر الاعلم البطليوسي انه سمع ابا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على
عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله
بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم ٥

نموذج لمخطوطة مقدّمة ابن خلدون ، نسخة يني جامع ، إستانبول



نموذج لعنوان مقدّمة ابن خلدون ، طبعة باريس القديمة 1858



نموذج من خط ابن خلدون ، مقدّمة كتاب العِبَر
مخطوطة مكتبة عاطف افندي باستانبول

من فصل
ولاية القضاء الثانية بمصر

ما زلتُ منذ العزل عن القضاء الأول سنة سبع وثمانين ، مُكبّاً على الاشتغال بالعلم تأليفاً وتدريساً ، والسّلطان[1] يُولّي في الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه إلى ذلك داعٍ ، من موت القائم بالوظيفة أو عَزله ، وكان يراني الأولى بذلك لولا وجود الذين شَغَبوا من قبل في شأني من أمراء دولته وكبار حاشيته ، حتى انقرضوا .

واتّفقت وفاة قاضي المالكيّة إذذاك ناصر الدّين ابن التَّنَسي ، وكنتُ مُقيماً بالفَيّوم لضمّ زرعي هناك ، فبعث عني وقلّدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة . فجريتُ على السَّنَن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادةً . وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك .

ثم أدركته الوفاة في منتصف شوّال بعدها ، وأحضر الخليفة والقُضاة[2] والأمراء ، وعَهد إلى كبير أبنائه فَرَج ولإخوته من بعده واحداً واحداً ، وأشهدهم على وصيّته بما أراد ، وجعل القائم بأمر ابنه في سلطانه إلى أتابكه أيتَمِش[3] . وقضى ، رحمة الله عليه ، وترتّبت الأمور من بعده كما عهد لهم . وكان النائب بالشّام يومئذ أمير من خاسكيّة السّلطان يُعرف بتَنِم ، وسمع بالواقعات بعد السّلطان ، فغَصّ أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده ويكون زمام الدّولة بيده . وطفق سَماسرة الفتن يُغرونه بذلك .

---

(1) أي السّلطان المملوكي الظاهر برقوق ، وهو أول سلاطين المماليك البُرجيّة الجراكسة ، تولّى الحكم سنة 784 هـ بعد أن خلع الملك الصالح حاجي بن شعبان ، فكانت مدّة حكم برقوق 16 سنة وبضع شهور . قامت عليه في الشام عام 791 هـ فتنة لخلعه .

(2) كان حضر ابن خلدون ممن مجلس هذه الوصيّة ، ذكر ذلك ابن العَيني في عقد الجُمان ، حوادث سنة 801 هـ .

(3) أيتَمِش بن عبد الله الأسنْدَمري البجّاسي الجُرجاني الأمير سيف الدّين ، أتابك العساكر بالدّيار المصريّة ، أصله من مماليك أسِنْدَمِر الجُرجاني . قُتل مع تَنِم سنة 802 هـ . ترجمته في المنهل الصافي لابن تغري بَرْدي .

وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك أيتَمِش ، وذلك أنه كان للأتابك دَوَادار غِرّ يتطاول إلى الرّئاسة ، ويترفّع على أكابر الدّولة بحظّه من أستاذه ، وما له من الكفالة على السّلطان . فنقموا حالهم مع هذا الدّوادار ، وما يسومهم به من الترفّع عليهم والتعرّض لإهمال نصائحهم ، فأغروا السّلطان بالخروج عن رِقّة الحَجْر ، وأطاعهم في ذلك . وأحضر القضاة بمجلسه للدّعوى على الأتابك باستغنائه عن الكافل بما عُلم من قيامه بأمره وحُسن تصرّفاته ، وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافّةً ، وأهل المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قَبِلَها القضاة ، وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم .

ونَفَذ الحكم يومئذ برفع الحِجْر عن السّلطان في تصرّفاته وسياسة مُلكه ، وانفضّ الجَمع ، ونزل الأتابك من الإسطبل إلى بيت سُكناه ، ثم عاوَد الكثيرُ من الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك ، فلم يروه صواباً وحملوا الأتابك على نقضه والقيام بما جعل له السّلطان من كفالة ابنه في سُلطانه . وركب وركبوا معه في آخر شهر المولد النّبوي ، وقاتلهم أولياء السّلطان فَرَج عشيّ يومهم وليلتها فهزموهم ، وساروا إلى الشام مستصرخين بالنائب تَنَم[1] وقد وَقَر في نفسه ما وَقَر من قبل ، فبَرّ وفادتهم وأجاب صريخهم ، واعتزموا على المضيّ إلى مصر .

وكان السّلطان لمّا انفضّت جموع الأتابك وسار إلى الشام اعتمله في الحركة والسَّفر لِخَضْد شوكتهم وتفريق جماعتهم . وخرج في جُمادى حتى انتهى إلى غزّة ، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تَنِم والأتابك والأمراء الذين معه خرجوا من الشام زاحفين للقاء السّلطان ، وقد احتشدوا وأوعبوا وانتهوا قريباً من الرّملة . فراسلهم السّلطان مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدّين المُناوي ، وناصر الدّين الرَّمّاح أحد المعلّمين لثقافة الرّماح ، يُعذر إليهم ويحملهم على اجتماع الكلمة وترك الفتنة وإجابتهم إلى ما يطلبون من مصالحهم ، فاشتطّوا في المطالب وصمّموا على ما هم فيه .

---

(1) الأمير سيف الدّين تَنِم tanım ابن عبد الله الحسني الظاهري ، اسمه الأصلي تَنْبك tan-bey (أمير فَجْر) ، من مماليك الظاهر برقوق ، وكان نائب دمشق في أيامه .

ووصل الرّسولان بخبرهم ، فركب السّلطان من الغد وعبّا عساكره وصمّم لمعاجلتهم ، فلقيهم أثناء طريقه وهاجمهم فهاجموه ، ثم ولّوا الأدبار منهزمين وصُرِع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه ، فما غشيهم الليل إلا وهم مصفّدون في الحديد ، يقدمهم الأمير تَنِم نائب الشام وأكابرهم كلهم .

ونجا الأتابك أيْتَمِش إلى القلعة بدمشق ، فآوى إليها واعتقله نائب القلعة . وسار السّلطان إلى دمشق ، فدخلها على التعبئة في يوم أغرّ ، وأقام بها أيّاماً ، وقتل هؤلاء الأمراء المعتقلين وكبيرهم الأتابك ذبْحاً ، وقتل تَنِم من بينهم خنقاً ، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر .

[زيارة ابن خلدون لبيت المَقدس]

وكنتُ استأذنتُ في التقدّم إلى مصر بين يدي السّلطان لزيارة بيت المقدس ، فأذن لي في ذلك ، ووصلتُ إلى القُدس ودخلتُ المسجد وتبركتُ بزيارته والصّلاة فيه ، وتعفّفتُ عن الدّخول إلى القُمامة لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناء أمم النّصرانيّة على مكان الصّليب بزعمهم ، فنكرته نفسي ونكرتُ الدّخول إليه ، وقضيتُ من سُنن الزّيارة ونافلتها ما يجب .

وانصرفتُ إلى مدفن الخليل عليه السّلام . ومررتُ في طريقي إليه ببيت لحم ، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيّدت القياصرة[1] عليه بناءً بسماطين من العمد الصّخور مُنجّدة مُصْطَفّة ، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القياصرة وتواريخ دُولهم ، ميَسَّرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتّراجمة العارفين لأوضاعها . ولقد يشهد هذا المصنع بعِظَم مُلك القياصرة وضخامة دولتهم .

---

(1) يعني القياصرة البيزنطيين ، وبالفعل كانت الدّولة البيزنطية آنذاك وعاصمتها القسطنطينية (إستانبول حالياً) ، من أعظم ممالك الدّنيا ، وكان أكثر المشرق جارياً في مُلكهم منذ عام 395 م ، بما في ذلك سورية وفلسطين ، إلى أن فتح المسلمون القُدس عام 638 م وحافظوا على المقدّسات المسيحية فيها .

ثم ارتحلتُ من مدفن الخليل إلى غَزّة ، وارتحلتُ منها فوافيتُ السّلطان بظاهر مصر ، ودخلتُ في ركابه أواخر شهر رمضان سنة اثنين وثمانمائة . وكان بمصر فقيه من المالكيّة يُعرف بنُور الدّين ابن الخَلاّل ، ينوب أكثر أوقاته عن قُضاة القضاة المالكية ، فحرّضه بعض أصحابه على السّعي في المنصب ، وبَذل بعض موجوده لبعض بطانة السّلطان السّاعين له في ذلك . فتمّت سعايته في ذلك ، ولبس منتصف المحرّم سنة ثلاث ، ورجعتُ أنا للاشتغال بما كنتُ مُشتغلاً به من تدريس العلم وتأليفه ، إلى أن كان السّفر لمدافعة تَمُر عن الشام .

من فصل
سفر السّلطان إلى الشام لمدافعة الطَّطَر عن بلاده

ثم زحف تَمُر إلى الشام سنة ست وتسعين وبلغ الرُّهَا ، والظاهر يومئذ على الفرات ، فخامَ تَمُر عن لقائه وسار إلى محاربة طُقْطَمِش فاستولى على أعماله كلها ، ورجعت قبائل المُغْل إلى تَمُر وساروا تحت رايته . . .

ثم بلغه هنالك[1] مهلك الظاهر برقوق بمصر ، فرجع إلى البلاد ومرّ على العراق ثم على أرمينية وأرزنكان حتى وصل سيواس فخربها وعاث في نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة ، ونازل قلعة الرُّوم فامتنعت ، وتجاوزها إلى حلب ، فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها ففضّهم ، واقتحم المُغُل المدينة من كلّ ناحية ، ووقع فيها من العيث والنّهب والمصادرة واستباحة الحُرَم ما لم يعهد الناس مثله[2] .

ووصل الخبر إلى مصر ، فتجهّز السّلطان فَرَج ابن الملك الظاهر إلى المُدافعة عن الشام ، وخرج في عساكره من التُّرك مسابقاً المُغُل وملكهم تَمُر أن يصدّهم عنها .

---

(1) أي في دلّي (دلهي بالهند) حيث غزا البلاد يعيث فساداً . وأذكّر هنا أني أنقل باختصار .
(2) جرى بحلب من فظائع المغول ما لا يقلّ عمّا جرى إثرها بدمشق ، انظر نصّ تَغري بَردي .

من فصل
لقاء الأمير تَمُر سلطان المُغُل والطَّطَر

لمّا وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تَمُر مَلَكَ بلاد الرُّوم وخَرّب سيواس ورجع إلى الشام ، جمع السّلطان عساكره وفتح ديوان العطاء ونادى في الجند بالرّحيل إلى الشام ، وكنتُ أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة ، فاستدعاني دَوَاداره يَشْبك وأرادني على السّفر معه في ركاب السّلطان ، فتجافيتُ عن ذلك ، ثم أظهر العزم عليّ بليّن القول وجزيل الإنعام ، فأصخيتُ وسافرتُ معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث ، فوصلنا إلى غزّة فأرحنا بها أياماً نترقّب الأخبار ، ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الطَّطَر إلى أن نزلنا شقحب .

وأسرينا فصبّحنا دمشق ، والأمير تَمُر في عساكره قد رحل من بعلبك قاصداً دمشق ، فضرب السّلطان خيامه وأبنيته بساحة قبّة يَلْبُغا ، ويئس الأمير تَمُر من مهاجمة البلد ، فأقم بمرقب على قبّة يَلبُغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر ، تجاول العسكران في هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربهم سجالاً .

ثم نمي الخبر إلى السّلطان وأكابر أمرائه أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها ، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشيةً من انتقاض الناس وراءهم واختلال الدولة بذلك[1] . فأسروا ليلة الجمعة من شهر [جُمادى الأولى] وركبوا جبل الصّالحية ثم انحطّوا في شِعابه وساروا على شافة البحر إلى غزّة ، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السّلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر ، فساروا عصباً وجماعات على شَقْحَب إلى أن وصلوا إلى مصر ، وأصبح أهل دمشق متحيّرين قد عميت عليهم الأنباء .

---

(1) هذا في الواقع سبب سقوط دمشق بيد تيمورلنك ، لانسحاب الناصر فرج إلى مصر خوفاً على ملكه المضطرب فيها . راجع ما يرد أدناه في نصّ الأمير تَغري بردي الظاهري ، الذي توجّه إلى الشام بحملة حربية بُغية ترتيب قوّاتها للدفاع في وجه الغازي المغولي الرّهيب . لكن للأسف ذهبت جهوده أدراج الرّياح بسبب شكوك أعوان السّلطان بأنه موالٍ للثائرين على النّاصر بدمشق ، فراحت دمشق ضحية السياسة الخرقاء .

وجاءني القضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرسة العادلية ، واتّفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تَمُر على بيوتهم وحُرَمهم ، وشاوروا في ذلك نائب القلعة ، فأبى عليهم ذلك ونكره فلم يوافقوه ، وخرج القاضي برهان الدين ابن مُفلح الحنبلي[1] ومعه شيخ الفقراء بزاوية [. . .] فأجابهم إلى التأمين ، وردّهم باستدعاء الوجوه والقضاة ، فخرجوا إليه متدلّين من السّور بما صحبهم من التَّقدمة ، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرِّقاع بالأمان وردّهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد ، وتصرُّف الناسِ في المعاملات ، ودخول أمير ينزل بمحل الإمارة منها ويملك أمرهم بعزّ ولايته .

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني ، وهل سافرتُ مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة ، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت . وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه ، فحدث بين بعض الناس تشاجُرٌ في المسجد الجامع ، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول . وبلغني الخبر من جوف الليل ، فخشيتُ البادرة على نفسي .

وبكّرتُ سَحَراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبتُ الخروج أو التدلّي من السّور ، لما حدث عندي من توهّمات ذلك الخبر[2] . فأبوا علي أولاً ، ثم أصخوا لي ودلّوني من السّور ، فوجدتُ بطانته عند الباب ونائبه الذي عيّنه للولاية على دمشق ، واسمه شاه ملك من بني جَقطاي أهل عصابته ، فحيّيتهم وحيّوني وفدّيت وفدّوني ، وقدّم لي شاه ملك مركوباً ، وبعث معي من بطانة السّلطان من أوصلني إليه .

---

(1) اختير القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمّد بن مفلح (توفي 803 هـ) للتفاوض مع تيمورلنك لمعرفته بالتركية والفارسية ، فانطلت عليه عهوده بالأمان ، وأقنع الدمشقيين بقبولها وسكّن خواطرهم ، ثم نقض تيمور كل ما أبرمه معه واجتاح المدينة غدراً ، لا بل استغلّ معرفته بحارات المدينة وأزقتها فألزمه بكتابة أسمائها وأوصافها في جرد مفصّل .

(2) ذكر المقريزي في السّلوك (حوادث 803 هـ) : وكان قاضي القضاة وليّ الدين عبد الرّحمن ابن خلدون المالكي بداخل دمشق ، فلمّا علم بتوجّه السّلطان تدلّى من سُور المدينة ، وسار إلى تَيْمُور فأكرمه وأجلّه وأنزله عنده ، ثم أذن له في المسير إلى مصر فسار إليها .

فلمّا وقفتُ بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه ، ثم زيد في التّعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي . فاستدعاني ، ودخلتُ عليه بخيمة جلوسه متكئاً على مرفقه ، وصِحاف الطعام تَمُرُّ بين يديه ، يشير بها إلى عُصَب المُغُل جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً .

فلما دخلتُ عليه فاتحتُ بالسلام ، وأوميتُ إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ومدّ يده إليَّ فقبّلتُها ، وأشار بالجلوس فجلستُ حيث انتهيت ، ثم استدعي من بطانته الفقيه عبد الجبّار بن النُّعمان[1] من فقهاء الحنفيّة بخُوارزم ، فأقعده يترجم ما بيننا ، وسألني من أين جئتُ من المغرب ؟ ولِمَ جئت ؟ فقلتُ : جئتُ من بلادي لقضاء الفرض ، ركبت إليها البحر ووافيتُ مرسى الإسكندرية يوم الفِطر سنة أربع [وثمانين] من هذه المائة الثامنة ، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت المُلك لتلك العشرة الأيام بعَدَدها .

فقال لي : وما فعل معك ؟ قلتُ : كلَّ خير ، برّ مَقْدمي وأرغد قِراي وزوّدني للحجّ . ولمّا رجعتُ وفّر جرايتي ، وأقمتُ في ظلّه ونعمته رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليتُه إيّاك القضاء ؟ فقلتُ : مات قاضي المالكيّة قبل موته بشهر ، وكان يظنّ بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة ، وتحرّي المعدلة والحقّ والإعراض عن الجاه . فولاّني مكانه ، ومات لشهرٍ بعدها ، فلم يرضَ أهل الدّولة بمكاني ، فأدالوني منها بغيري ، جزاهم الله .

فقال لي : وأين مولدك ؟ فقلتُ : بالمغرب الجوّاني كاتب للملك الأعظم هنالك . فقال : وما معنى الجوّاني في وصف المغرب ؟ فقلتُ : هو في عُرف خطابهم معناه الدّاخلي ، أي الأبعد ، لأن المغرب كلّه على ساحل البحر الشامي من جنوبه . فالأقرب إلى هنا بَرْقَة ، وإفريقية ، والمغرب الأوسط : تلمسان وبلاد زناتة ، والأقصى : فاس ومرّاكش ، وهومعنى الجوّاني .

---

(1) عبد الجبّار بن النّعمان المعتزلي أحد خواصّ تيمورلَنك الذين طافوا معه البلاد وكان رئيساً للفُقهاء عنده ، ذكر ابن المبرد في «الرّياض» أنه : «كان يمتحن العلماء ويناظرهم بين يديّ اللّنك ، وهو من قلّة الدّين على جانب كبير» . توفي سنة 808 هـ .

فقال لي : وأين مكان طَنْجَة من ذلك المغرب ؟ فقلتُ : في الزّاوية التي بين البحر المُحيط والخليج المُسمّى بالزُّقاق ، وهو خليج البحر الشامي[1] . فقال : وسَبْتَة ؟ فقلتُ : على مسافة من طَنْجة على ساحل الزُّقاق ، ومنها التَّعدية إلى الأندلُس لقُرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلاً . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وسط التّلول وكُرسي ملوك المغرب من بني مَرين . فقال : وسجِلماسَة ؟ قلتُ : في الحَدّ ما بين الأرياف والرِّمال من جهة الجنوب .

فقال : لا يقنعني هذا ، وأحبُّ أن تكتب لي بلاد المغرب كلها ، أقاصيها وأدانيها ، وجباله وأنهاره وقُراه وأمصاره ، حتى كأني أشاهده[2] . فقلتُ : يحصل ذلك بسعادتك . وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغَرَض فيه في مختصر وجيز يكون قدر ثنتي عشرة من الكراريس المنصّفة القَطع .

ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمّونه الرِّشْتَه[3] ، ويُحكمونه على أبلغ ما يمكن ، فأُحضرت الأواني منه وأشار بعرضها عليّ ، فمثلتُ قائماً وتناولتها وشربتُ واستطبتُ ، ووقع ذلك منه أحسن المواقع . ثم جلستُ وسكتنا وقد غلبني الوجل بما وقعَ من نكبَة قاضي القضاة الشافعية صدر الدين المُناوي ، أسره التابعون لعسكر مصر بشقحب وردّوه ، فحُبس عندهم في طلب الفدية منه ، فأصابنا من ذلك وجل ، فزوّرتُ في نفسي كلاماً أخاطبه به وأتلطّفه بتعظيم أحواله ومُلكه[4] . . .

---

(1) البحر الشامي هنا يعني البحر الأبيض المتوسّط ، وكان يُعرف آنذاك أيضاً ببحر الرّوم .

(2) لا شك أن الغاية كانت جمع البيانات الاستخبارية العامّة ، تمهيداً لغزو المغرب أيضاً .

(3) الرِّشْتَه طعام يُصنع بعَدَس ولحم وشرائط من العجين . ذكره المؤرّخ الدمشقي يوسف ابن عبد الهادي في رسالته «الطباخة» بالاسم والوصف ذاته . ولا زالت الرّشتايه إلى اليوم بدمشق تُطلق على أكلة بها شرائط عجين ، ومن مشتقّاتها أكلتان شعبيّتان : ستّي زُبقي وحرّاق أصبعه .

(4) يتابع ابن خلدون هنا نصّاً طويلاً عن تقوّل المنجمين بظهور الغازي تيمورلنك وتنبّؤهم بغزواته وأعماله ، ويختتم بقوله : «فكان في نفسي من ذلك كلّه ترقُّبٌ له» .

فوقع في نفسي لأجل الوَجَل الذي كنتُ فيه أن أفاوضه في شيء من ذلك يستريح إليه ويأنس به مني ، ففاتحتُه وقلتُ : أيّدك الله ! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك . فقال لي الترجمان عبد الجبّار : وما سببُ ذلك ؟ فقلتُ : أمران ، الأول أنك سُلطان العالم ومَلك الدّنيا ، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد مَلك مثلُك ، ولستُ ممّن يقول في الأمور بالجُزاف ، فإني من أهل العلم ، وأبيّن ذلك فأقول :

إن المُلك إنما يكون بالعَصبيّة ، وعلى كثرتها يكون قَدر المُلك ، واتّفق أهل العلم من قبل ومن بعد أن أكثر أمم البشر فرقتان : العرب والتُّرك ، وأنتم تعلمون مُلك العرب كيف كان لمّا اجتمعوا في دينهم على نبيّهم ، وأمّا التُّرك ففي مُزاحمتهم لملوك الفُرس ، وانتزاع مُلك أفراسياب خُراسان من أيديهم شاهدٌ بنصابهم من المُلك . ولا يساويهم في عصبيّتهم أحدٌ من ملوك الأرض من كِسرى أو قَيْصَر أو الإسكندر أو بُختَنَصَّر ، أما كِسرى فكبير الفُرس ومليكُهم ، وأين الفُرس من التُّرك ؟ وأما قَيْصَر والإسكندر فملوك الرّوم ، وأين الرُّوم من التُّرك ؟ وهذا بُرهانٌ ظاهر على ما ادّعيتُه في هذا المُلك .

وأمَّا الأمر الثاني مما يحملني على تمنّي لقائه ، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحَدَثان بالمغرب والأولياء ، وذكرتُ ما قَصَصتُه من ذلك قبل[1] . فقال لي : وأراك قد ذكرتَ بُختَنَصَّر مع كِسرى وقَيْصَر والإسكندر ، ولم يكن في عِدادهم ، لأنهم مُلوكٌ أكابر ، وبُختنصّر قائد من قوّاد الفُرس ، كما أنا نائب من نوّاب صاحب التَّخت ، وهو هذا . . وأشار إلى الصّفّ القائمين وراءه ، وكان واقفاً معهم ، وهو رَبيبُه الذي تقدّم لنا أنه تزوّج أمّه بعد ساطَلْمُش[2] ، فلم يُلْفِه هناك ، وذكر له القائمون في ذلك الصّفّ أنه خرج عنهم .

---

(1) في الفقرة المطوّلة أعلاه التي ذكرنا أننا حذفناها ، حول أقوال المنجّمين .

(2) في مطلع الفصل السابق (سفر السّلطان إلى الشام) ذكر ابن خلدون لمحة مفيدة عن تاريخ قبائل الجَقْطاي وقيام دولتهم ومَلكهم ساطَلْمُش المذكور ، وأنه مات عن ابن وحيد اسمه محمود ، فكفله تيمور كبير أمراء الجَقْطاي وتزوّج أمه وقام بأمور المملكة .

فرجع إليّ وقال : ومن أيّ الطوائف هو بُخْتَنَصَّر ؟ فقلتُ : بين الناس فيه خلاف ، فقيل من النَّبط[1] بقيّة ملوك بابل ، وقيل من الفُرس الأولى ، فقال : يعني من وَلَد مَنُوشِهر . قلت : نعم ، هكذا ذكروا ، فقال : ومَنُوشِهر له علينا ولادة من قِبَل الأمّهات . ثمّ أفَضْتُ مع التّرجمان في تعظيم هذا القول منه ، وقلتُ له : وهذا ممّا يحملني على تمنّي لقائه .

فقال الملك : وأيُّ القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلتُ : إنه من بقيّة ملوك بابل . فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقلتُ : يعكّر علينا رأي الطَّبَري ، فإنه مؤرّخ الأمّة ومحدّثهم ، ولا يرجُحه غيره . فقال : وما علينا من الطّبري ؟ نُحضر كتب التاريخ للعرب والعجم ، ونُناظرك . فقلتُ : وأنا أيضاً أناظر على رأي الطّبري .

وانتهى بنا القول ، فسكتُّ . وجاء الخبر بفتح المدينة ، وخروج القضاة وفاءً بما زعموا من الطاعة التي بذلَ لهم فيها الأمان ، فرُفع من بين أيدينا ، لما في رُكبته من الداء ، وحُمل على فرسه فقبض شكائمه واستوى في مركبه ، وضُربت الآلات حِفافيه حتى ارتجّ لها الجوّ ، وسار نحو دمشق ، ونزل في تربة مَنْجَك[2] عند باب الجابية ، فجلس هناك ودخل إليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلتُ في جملتهم ، فأشار إليهم بالانصراف وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم ، وأشار إلي بالجلوس ، فجلستُ بين يديه .

ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء ، فأحضروا عُرفاء البُنيان المهندسين ، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة لعلّهم يعثرون بالصّناعة على منفذه ، فتناظروا في مجلسه طويلاً ، ثم انصرفوا .

---

(1) تعبير النَّبط بالمُصطلح العربي القديم يُقصد به كافّة الشعوب السّاميّة الشرقيّة الكلدانية التي تتحدّث وتكتب بهجات كلدان (أم الفرع الشرقي) . كالآشوريين والبابليّين والآراميّين .

(2) نائب الشام مَنْجَك اليوسفي (وليها 759 هـ ثم 770–775 هـ) دُفن عام 776 هـ بالقاهرة ، لكن المقصود هنا حتماً تربة ابنه فَرَج قبلي مدرسة أفريدون العجمي بالسّويقة ، وكانت له دار فخمة (النّجوم الزاهرة ، 13 : 119) . ولذريّة مَنْجَك تربة بالجزماتية في الميدان .

وانصرفتُ إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنتُه في ذلك فأذن فيه ، وأقمتُ في كِسْر البيت ، واشتغلتُ بما طلب مني في وصف بلاد المغرب ، فكتبتُه في أيام قليلة ، ورفعتُه إليه فأخذه من يدي ، وأمر موقّعه بترجمته إلى اللسان المُغلي .

ثم اشتدّ في حصار القلعة[1] ، ونصب عليها الآلات من المجانيق والنُّفوط والعرّادات والنقب ، فنصبوا لأيّام قليلة ستين منجنيقاً إلى ما يشاكلها من الآلات الأخرى ، وضاق الحصار بأهل القلعة ، وتهدم بناؤُها من كل جهة ، فطلبوا الأمان . وكان بها جماعة من خُدّام السّلطان ومخلّفه ، فأمّنهم السّلطان تَمُر وحضروا عنده ، وخرّب القلعة وطمس معالمها[2] .

وصادر أهل البلد على قناطر من الأموال استولى عليها ، بعد أن أخذ جميع ما خلّفه صاحب مصر هنالك من الأموال والظَّهْر والخيام ، ثم أطلق أيدي النهّابة على بيوت أهل المدينة ، فاستوعبوا أناسيها وأمتعتها ، وأضرموا النار فيما بقي من سَقَط الأقمشة والخُرْثي ، فاتّصلت النار بحيطان الدُّور المدعّمة بالخشب ، فلم تزل تتوقّد إلى أن اتّصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت إلى سقفه فسال رصاصُه وتهدّمت سُقُفه وحوائطه[3] ، وكان أمراً بلغ مبالغه في الشّناعة والقُبح ، وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد ، ويحكم في مُلكه ما يشاء[4] .

---

(1) لماذا لم يُعلّق ابن خلدون بكلمة واحدة على نقض تيمورلنك لعهوده بالأمان للمدينة ؟ هل اكتفى بنجاته شخصياً ، ولتذهب المدينة بمَن حَوَت ؟ وددنا لو أنه حاول ولو بكلمة واحدة أن يفعل شيئاً ! فأين منه همّة ذاك البطل الكبير صارم الدّين أزبك .

(2) لذلك يلاحظ الرائي اليوم أن قلعة دمشق ، التي كان بناها الملك العادل أبو بكر محمد ابن أيوب (أخو السّلطان النّاصر صلاح الدّين) خلال 15 عاماً 599-614 هـ ، لم يبق من بنائها الأصلي القديم إلا الواجهة الشرقية الواقعة في قلب المدينة قرب باب الفَرَج ، وبها كتابات ونقوش أيوبيّة جميلة جداً . أما واجهتاها الغربية والشمالية فلم يبق من بنائهما الأيوبي القديم شيء بعد أن هدمها الطاغية تيمورلنك .

(3) انظر ما سيلي في نصّ الأمير تَغري بَرْدي الأتابكي حول فظائع المغول بدمشق .

(4) هذا كل ما كلّف الرّجل خاطره بذكر فاجعة دمشق ! ثم بعد ذلك يذكر قدوم رجل من أعقاب بني العبّاس إلى تيمورلنك ، مطالباً بدعمه للوصول إلى منصب الخلافة ، وبعد مناظرات مع الفقهاء والقضاة ظهر بطلان دعواه فردّه .

الرجوع عن هذا الأمير تَمُر إلى مصر

كنتُ لمّا لقيتُه وتدلّيت إليه من السّور كما مرّ ، أشار عليّ بعض الصّحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدّمتُ له من المعرفة بهم ، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية ، وإن كانت نَزْرة فهي عندهم متأكّدة في لقاء ملوكهم ، فانقيتُ من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً في جزء محذو ، وسجّادة أنيقة ، ونُسخة من قصيدة البُردة المشهورة للأبوصيري في مدح النبي صلّى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة .

وجئتُ بذلك فدخلتُ عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه ، فلمّا رآني مقبلاً مَثَل قائماً وأشار إليّ عن يمينه ، فجلستُ وأكابر من الجقطيّة حفافيه ، فجلستُ قليلاً ، ثم استدرتُ بين يديه وأشرتُ إلى الهدية التي ذكرتُها وهي بيد خُدّامي ، فوضعتُها واستقبلني ، ففتحتُ المُصحف فلمّا رآه وعرفه قام مُبادراً فوضعه على رأسه[1] ، ثم ناولتُه البُردة فسألني عنها وعن ناظمها ، فأخبرتُه بما وقفتُ عليه من أمرها ، ثم ناولتُه السجّادة فتناولها وقبلها ، ثم وضعتُ عُلب الحلوى بين يديه ، وتناولتُ منها حَرفاً على العادة في التأنيس بذلك ، ثم قَسَم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبّل ذلك كله ، وأشعر بالرضى به .

ثم حوّمتُ على الكلام بما عندي في شأن نفسي[2] ، وشأن أصحاب لي هنالك ، فقلتُ : أيّدك الله ! لي كلامٌ أذكره بين يديك ، فقال : قُل . فقلتُ : أنا غريبٌ بهذه البلاد غُربتين ، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأي ، وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلتُ في ظلّك وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غُربتي ، فقال : قُل الذي تريد أفعلْه لك .

---

(1) يا للتُّقى والخشوع ، لو كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، كان فعل ما فعل بالمدن والشعوب الآمنة ؟

(2) شأن نفسي !! هذا هو المهمّ ، لو أن الرّجل حكى ولو كلمة واحدة في رثاء المدينة وأهلها الملتاعين لترك للقارئ مجالاً يعذره ، لكنه كشف عن نفس دنيئة جبانة .

فقلتُ : حال الغُربة أنسَتني ما أريد ، وعساك - أيّدك الله - أن تعرف لي ما أُريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأرْدو[1] عندي ، وأنا إن شاء الله أوفي كُنه قصدك . فقلتُ : يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك ، فأشار إليه بإمضاء ذلك .

فشكرتُ ودعوتُ وقلتُ : وبقيتْ لي أخرى ، فقال : وما هي ؟ فقلتُ : هؤلاء المُخلّفون عن سلطان مصر من القرّاء والموقّعين والدّواوين والعمّال ، صاروا إلى إيالتك ، والملك لا يُغفل مثل هؤلاء ، فسُلطانكم كبير وعَمَالاتكم متّسعة وحاجة مُلككم إلى المتصرّفين في صنوف الخدم أشدُّ من حاجة غيركم . فقال : وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ويعوّلون في أحوالهم عليه . فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك . فشكرتُ ودعوت ، وخرجتُ مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان ، وختمه شاه ملك بخاتم السّلطان ، وانصرفتُ إلى منزلي .

* * *

ولمّا قَرُب سفره واعتزم على الرّحيل عن الشام ، دخلتُ عليه ذات يوم ، فلمّا قضينا المعتاد ، التفت إليّ وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت : نعم . قال : حَسَنة ؟ قلت : نعم ، قال : وتبيعها ؟ فأنا أشتريها منك . فقلتُ : أيّدك الله ! مثلي لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخدمك بها وبأمثالها لو كانت لي . فقال : إنما أردتُ أن أكافئك عنها بالإحسان . فقلتُ : وهل بقي إحسانٌ وراء ما أحسنتَ به ؟ اصطنعتَني وأحلَلتني من مجلسك محلّ خواصّك ، وقابلتَني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله . وسكتَ وسكتُّ ، وحُملت البغلة - وأنا معه في المجلس - إليه ، ولم أرها بعد .

ثم دخلتُ عليه يوماً آخر فقال لي : أتسافر إلى مصر ؟ فقلتُ : أيّدك الله ، رغبتي إنما هي أنت وأنت قد آويت وكفَلت ، فإن كان السّفر إلى مصر في خدمتك فنعم ، وإلا فلا بُغية لي فيه . فقال : لا بل تسافر إلى عيالك وأهلِك .

---

(1) الكلمة تركية : ordu ، وتعني الجيش أو المعسكر .

فالتفتَ إلى ابنه ، وكان مسافراً إلى شَقْحَب لمرباع دوابه ، واشتغل يُحادثه . فقال لي الفقيه عبد الجبَّار الذي كان يترجم بيننا : إن السّلطان يوصي ابنه بك ، فدعوتُ له[1] . ثم رأيتُ أن السفر مع ابنه غير مُستبين الوجهة ، والسّفر إلى صَفَد أقرب السواحل إلينا أمْلَكُ لأمري . فقلتُ له ذلك ، فأجاب إليه وأوصى بي قاصداً كان عنده من حاجب صَفَد ابن الدُّويداري[2] ، فوادَعتُه وانصرفت .

واختلفت الطريق مع ذلك القاصد ، فذهب عني وذهبتُ عنه ، وسافرتُ في جمع من أصحابي ، فاعترضتنا جماعةٌ من العشير قطعوا علينا الطريق ونهبوا ما معنا ، ونجونا إلى قرية هنالك عَرايا ، واتّصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصُّبَيْبَة فخَلَفْنا بعض الملبوس ، وأجزنا إلى صَفَد فأقمنا بها أياماً . ثم مرّ بنا مركب من مراكب ابن عُثمان سُلطان بلاد الرُّوم ، وصل فيه رسولٌ كان سفر إليه عن سلطان مصر ورجع بجوار رسالته ، فركبتُ معهم البحر إلى غزّة ، ونزلتُ بها وسافرت منها إلى مصر ، فوصلتُها في شعبان من هذه السنة وهي سنة ثلاث وثمانمائة .

---

(1) ذكر ابن قاضي شُهبة في تاريخه (حوادث سنة 803 هـ) وجهاً آخر للرّواية نقلاً عن شاهد عيان : «وفي مُستهل شعبان وصل إلى القاهرة وليّ الدّين ابن خلدون المالكي ، والقاضي صدر الدّين ابن العجميّ كاتب الدّست ، والقاضي سعد الدّين ابن القاضي شرف الدّين أيضاً ، وكانوا من جُملة المنقطعين بالشام ، وكان القاضي ابن خلدون قد خرج مع القضاة من دمشق إلى تمرلنك ، ولمّا عرفه عظّمه كثيراً ، وسأله أن يكتب له مُدُن المغرب والمفاوز بها ، وأسماء قبائل العرب بها . فلمّا قُرئت عليه بالأعجمي أعجبته وقال : صنّفتَ أخبار المغرب فقط ؟ فقال : لا ، أخبار الشرق والغرب وأسماء الملوك ، وقد كتبتُ ترجمتك وأريد أقرأها عليك ، فما كان منها صحيحاً تركتُه ، وما كان غير صحيح أصلحتُه . فأذن له ، فقرأ نسبته ، فقال : من أين عرفته ؟ فقال : سألتُ عنه التجّار الثّقاة الواردين . ثم قرأ فتوحاته وأحواله وابتداء أمره ومنام (.sic) رآه والده ، فأعجبه ذلك كثيراً ، فقال : تهيّأ حتى تذهب معي إلى بلادي ، فقال له : في مصر مَن يحبّني وأحبّه ، ولا بدّ لك من قصد مصر في هذه المرّة أو في غيرها ، وأنا أذهب وأهيء أمري وأذهب في خدمتك . فأذن له في الذّهاب إلى مصر وأن يستصحب معه مَن شاء . هكذا حكى لي القاضي شهاب الدّين بن العزّ ، وأنه كان حاضراً لبعض ذلك» .

(2) في عجائب المَقدور لابن عَرَبْشاه (ص 113) : وكان في صَفَد تاجر من أهل البلاد أجدّ الرؤساء والتجّار ، يُدعى علاء الدّين ويُنسب إلى دَوادار ، كانت تقدّمت له خدمة على السّلطان ، فولاّه حجابة ذلك المكان .

وكان السّلطان صاحب مصر قد بعث من بابه سفيراً إلى الأمير تَمُر إجابةً إلى الصُلح الذي طلب منه ، فأعقبني إليه . فلمّا قضى رسالته رجع ، وكان وصوله بعد وصولي ، فبعث إليّ مع بعض أصحابه يقول لي : إن الأمير تَمُر قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاعها منك ، وهي هذه فخُذها ، فإنه عَزَم علينا من خلاص ذمّته من مالك هذا . فقلتُ : لا أقبله إلا بعد إذن من السّلطان الذي بعثك إليه ، وأمّا دون ذلك فلا . ومضيتُ إلى صاحب الدّولة فأخبرته الخبر ، فقال : وما عليك ؟ فقلتُ : إن ذلك لا يجمُل بي أن أفعله دون إطلاعكم عليه . فأغضى عن ذلك ، وبعثوا إليّ بذلك المبلغ بعد مدّة ، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أُعطيه كذلك . وحمدتُ الله على الخلاص .

وكتبتُ حينئذٍ كتاباً إلى صاحب المغرب ، عَرّفتُه بما دار بيني وبين سلطان الطَّطَر[1] تَمُر ، وكيف كانت واقعته معنا بالشام ، وضمّنتُ ذلك في فصل من الكتاب نصُّه :

وإن تفضّلتُم بالسّؤال عن حال المملوك ، فهي بخير والحمد لله ، وكنتُ في العام الفارط توجّهتُ صُحبة الرِّكاب السُّلطاني إلى الشام عندما زحف الطَّطَر إليه من بلاد الرُّوم والعراق مع مَلِكهم تَمُر ، واستولى على حَلَب وحَمَاة وحِمص وبعلبكّ وخرّبها جميعاً ، وعاثت عساكره فيها بما لم يُسمَع أشنع منه ، ونهض السّلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسَبَقَ إلى دمشق ، وأقام في مُقابلته نحواً من شهر ، ثم قفل راجعاً إلى مصر .

وتخلّف كثير من أمرائه وقُضاته ، وكنتُ في المُخلّفين ، وسمعتُ أن سُلطانهم تَمُر سأل عني ، فلم يسَع إلا لقاؤُه . فخرجتُ إليه من دمشق ، وحضرتُ مجلسه وقابلني بخير ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دمشق[2] ، وأقمتُ عنده خمساً وثلاثين يوماً ، أباكره وأراوحه .

---

(1) يصرّ المغاربة على إقلاب حرف التاء في الأسماء الأعجمية إلى طاء ، لا ندري لماذا ، إلا أنها القاعدة لديهم إلى اليوم ، فيقولون : فوطوغراف ، طكسي .
(2) وأيّ بطل والله ! فأين هو أمانه المزعوم هذا ؟ لقد نسي حتى ذكر ما حدث للمدينة بعد .

ثمّ صَرَفني وودّعني على أحسن حال ، ورجعتُ إلى مصر ، وكان طلب مني بغلةً[1] كنتُ أركبها فأعطيتُه إيّاها ، وسألني البيع فتأفّفتُ منه لما كان يُعامل به من الجميل . فبعد انصرافي إلى مصر بَعَث إلي بثمنها مع رَسول كان من جهة السّلطان هنالك ، وحمدتُ الله تعالى على الخلاص من ورطات الدّنيا .

* * *

وهؤلاء الطَّطَر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النّهر ، بينه وبين الصين ، أعوام عشرين وستمائة مع مَلِكهم الشهير جَنْكِز خان ، ومَلَكَ المشرق كلّه من أيدي السَّلجوقيّة ومواليهم إلى عِراق العرب ، وقَسَم المُلكَ بين ثلاثة من بَنيه ، وهم : جَقْطاي ، وطُولُى[2] ، ودُوشي خان .

فجَقْطاي كبيرُهم ، وكان في قِسمته تُركستان وكاشْغَر والصّاغون والشّاش وفَرْغانَة ، وسائر ما وراء النّهر من البلاد . وطُولُى كان في قِسمته أعمال خُراسان وعِراق العَجَم والرّيّ إلى عِراق العَرَب ، وبلاد فارس وسِجِستان والسِّند ، وكان أبناؤه : قُبلاي وهُولاكو . ودُوشي خان كان في قِسمته بلاد قَبْجَق[3] ، ومنه صَراي ، وبلاد التُرك إلى خُوارَزم .

وكان لهم أخٌ رابع يُسمّى أوكداي[4] كبيرهم ، ويسمّونه الخان ، ومعناه صاحب التَّخت ، وهو بمثابة الخليفة في مُلك الإسلام . وانقرض عقبه ، وانتقلت الخانيّة إلى قُبلاي ، ثم إلى دُوشي خان أصحاب صَراي .

---

(1) الجميل في مؤرّخنا العظيم ابن خلدون أنه لا ينسى ذكر حديث البغلة ، ويُغفل بالكلّيّة ذكر مصيبة أهل الشام الذين رزحوا تحت اضطهاد تيمورلنك وتنكيله . لكن غاية الأمر لديه أنه يحمد الله على خلاصه - هو - من ورطات الدّنيا ! فما شأنه بالذين ماتوا والذين عُذّبوا والذين لاقوا ويلات الطاغية ، الذي يُشيد بحُسن استقباله له ؟!

(2) لا يستغربنّ القارئ تشكيلنا الكلمة بلام مضمومة تليها ألف مقصورة ، ففي فرع اللغات الألطائية (وكانت تُكتب بالحرف العربي نقلاً عن الإيرانيين) تُرسم حروف العلّة الأخيرة كلها بألف مقصورة . ونُطق الاسم المذكور : طُولُو Tolu ، ومعناه البَدر .

(3) في التّركية : Kapçak .

(4) في التركية : Oktay .

واستمرّ مُلكُ الطَّطَر في هذه الدّول الثلاث ، ومَلَكَ هُولاكو بغداد وعراق العرب إلى ديار بكر ونهر الفُرات ، ثم زحف إلى الشام ومَلَكَها ، ورجع عنها[1] . وزحف إليها بَنوه مراراً ، ومُلوك مصر من التُّرك يُدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض مُلك بني هُولاكو أعوام أربعين وسبعمائة ، ومَلَكَ بعدهم الشيخ حسن النُّوين وبَنوه ، وافترق مُلكُهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نقمتُهم عن مُلوك الشام ومصر .

ثمّ في أعوام السّبعين أو الثمانين وسبعمائة ، ظهر في بني جَقْطاي وراء النّهر أميرٌ اسمه تَيْمُور ، وشُهرته عند النّاس تَمُر ، وهو كافل لصبيّ متّصل النَّسَب معه إلى جَقْطاي في آباء كلّهم مُلوك . وهذا تَمُر بن طَرَغاي هو ابن عمّهم ، كَفَل صاحب التّخت منهم اسمه محمود ، وتزوّج أمّه صَرْغَتْمِش ، ومدّ يده إلى ممالك التّتر كلّها ، فاستولى عليها إلى ديار بكر ، ثم جال في بلاد الرُّوم والهند ، وعاثت عساكره في نواحيها ، وخرّب حصونها ومُدنها ، في أخبار يطول شرحها .

ثم زحف بعد ذلك إلى الشام ، ففعل به ما فعل ، والله غالبٌ على أمره . ثم رجع أخيراً إلى بلاده ، والأخبار تتّصل بأنه قصد سَمَرْقَنْد ، وهي كرسيّه .

* * *

والقومُ في عَدَد لا يَسَعه الإحصاء ، إن قدّرتُ ألف ألف[2] فغير كثير ، ولا تقول أنقص ، وإن خَيّموا في الأرض ملأوا السّاح ، وإن سارت كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء ، وهم في الغارة والنَّهب والفتك بأهل العُمران وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصّلونه من فئاتهم ، آيةٌ عَجَبٌ ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

---

(1) حول ذلك راجع ما تقدّم أعلاه من نصّ المملوك الأشرفي الصارم أُزْبك في مطلع الكتاب ، وفيها روايات وتفاصيل شيّقة جديدة تُنشر للمرّة الأولى .

(2) في لغة عصرنا مليون جندي ، عدد كبير للغاية لا قِبَل به لأية مدينة آنذاك . لكن المؤسف أن جيش المماليك الذي كان آنذاك أفضل جيش في العالم من حيث تدريبه وتعبئته القتالية هزم جيش تيمورلنك على أبواب دمشق ، ثم قرّر النّاصر فَرَج سحبه إلى مصر .

وهذا المَلِك تَمُر من زُعماء المُلوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونه إلى العِلم ، وآخرون إلى اعتقاد الرّفض لما يرونه من تفضيله لأهل البيت ، وآخرون إلى انتحال السِّحر . وليس من ذلك كلّه في شيء ، إنما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللّجاج بما يعلم وبما لا يعلم . عمره بين الستّين والسَّبعين ، وركبته اليُمنى عاطلة من سَهم أصابه في الغارة أيام صباه ، على ما أخبرني ، فيجرّها في قريب المشي ، ويتناوله الرّجال على الأيدي عند طول المسافة ، وهومصنوع له . والمُلك لله يؤتيه من يشاء من عباده .

(التعريف بابن خلدون ورحلته ، 347-383)

* * *

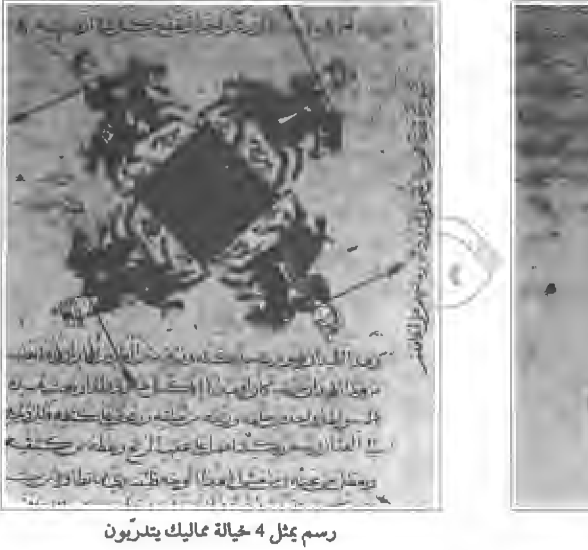


رسم قديم يمثّل بعض عساكر المغول
من مخطوط «جامع التواريخ» لرشيد الدّين الهمذاني ، عام 1306 م



فارس من المماليك يعدو بفرسه

خيّال علوكي يتدرب على النفط



خيّال مملوكي يطعن برمحه دباً

رسم يمثل 4 خيالة مماليك يتدرّبون

- 59 -

الأمير تَغْري بَرْدي الأتابك

(توفي 915 هـ / 1412 م)

رحلته وتجريدته الحربية إلى دمشق عام 803 هـ

الأمير تَغري بَرْدي مِن بَشْبُغا ، الظاهري ، نائب دمشق في أيام السّلطان النّاصر فَرَج 3 مرّات ، ووالد المؤرّخ الشهير أبي المحاسن يوسف ابن تَغري بَرْدي صاحب المؤلفات الشهيرة ، وأخصّها «النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة» . ومعنى اسمه بالتركية Tanrı Verdi «تاڭرى ڤرْدي» : الله أعطى . لم يكن الرّجل رحّالة بالطبع ، إنما لحملته الحربية والاستطلاعية إلى دمشق قبل أسابيع من اجتياح المغول للمدينة أهمية بالغة ، خاصة أنه كان شاهد عيان وقد شارك في الأحداث بنفسه كنائب للمدينة إبّان سقوطها وكضابط مقاتل حارب بدمشق .

كان تَغري بَردي مملوكاً رومي الجنس على ما ذكر ابنه المؤرّخ ، اشتراه الملك الظاهر بَرْقوق (أول سلاطين المماليك البُرجية الجراكسة) ، وأعتقه وقرّبه لذكائه ، وتزوّج أخته - وقيل بنت عمّه - (خُوند شيرين) فأنجبت له ابنه الأكبر فَرَج الذي صار سلطاناً باسم الملك النّاصر بعمر 11 سنة (والأحداث التالية تجري بعصره) ، ومعنى ذلك أن تَغري بَردي كان خال السّلطان الفتى فَرَج .

رفّعه بَرقوق تباعاً إلى أرقى المناصب ، فصار مُقدّماً سنة 794 هـ ، ثم ولي نيابة حلب سنة 796 هـ ، فسار فيها سيرة حَسَنة وأنشأ بها جامعاً وأوقف عليه قرية من عَمَل سَرمين . ثم صُرف وطُلب إلى مصر ، وعندما احتضر السّلطان الظاهر في شوّال عام 801 هـ ، اختاره مع مَن اختار لوصاية المملكة بعد وفاته .

وفي أوائل عهد الملك النّاصر فَرَج ثار نائب الشام تَنِم الحَسَني الظاهري عام 802 هـ ، وحالفه على الثورة جماعة من قادة الجيش قدموا الشام ، منهم الأمير أيْتمِش البجَاسي ومنهم تَغري بَردي نفسه ، فحاربهم النّاصر ومزّقهم (كما طالعنا في نصّ ابن خلدون أعلاه) ، وهذه كانت من تتمّات حوادث الثّورة ضدّ أبيه الظّاهر بَرْقوق في وقعة الأمير المملوكي مِنْطاش ، كما رأينا في نصّ رحلة ابن حجّة الحموي لدمشق عام 791 هـ ، ورحلة الظّاهر برقوق نفسه إليها عام 796 هـ .

أما تَغري بَردي فقد نُفي إلى القُدس ، بعد أن عفا السّلطان عنه (بوساطة أخته خُونْد شيرين أم النّاصر) ، وعيّنه في 20 ربيع الثاني سنة 803 هـ نائباً لدمشق ، عوضاً عن الأمير سُودون ، وذلك إبّان حملته إلى الشام لقتال تيمورلَنك . وكان الرّجل في حاشية السّلطان بطريقهم للقتال ، فاستهلّ منصبه بوضع خطّة جيّدة للدّفاع عن دمشق في وجه المغول ، لكن سوء ظنّ الأمراء به - مع الأسف - أفشل مساعيه بأسرها . ومع ذلك ، فقد توجّه بحملته فوراً إلى المدينة قبل وصول السّلطان إليها ، وقاد عمليات التحصين وأكّد أن دمشق كان بوسعها الصّمود ، لولا انسحاب النّاصر المفاجئ خوفاً على مُلكه ، ولولا سوء إدارة الموقف بعد ذلك على يد القاضي ابن مفلح الذي لا يفقه من أمور الحرب والسّياسة شيئاً ، فسلّم دمشق للغزاة لُقمة سائغة !

وفي أعقاب سقوط دمشق بيد تيمورلنك (في 24 جُمادى الأولى 803 هـ) ، استعفى تَغري بَردي من نيابتها وعُيّن مكانه آقبُغا الجمالي ، فأعاد النّاصر في شعبان تعيينه ثانيةً نائباً عليها . ثم في المحرّم من عام 804 هـ حاك أمراء مصر مكيدةً للإيقاع به بدمشق ، ففرّ إلى دَمرْداش نائب حلب ووقعت بينهما وبين المصريين وقعات ، انتهت في العام التالي برضا السّلطان عليه وتعيينه قائداً للمَيْسَرة قبل خلعه - أي النّاصر - لمدّة شهرين في عام 808 هـ . ثم أقام بالقُدس ، وتزوّج النّاصر من ابنته فاطمة ، وعاد فاستدعاه ورفّعه أتابكاً للعسكر (أمير سلاح) وهو أرفع مناصب الجيش . وفي أواخر عام 813 هـ ولاّه نيابة دمشق للمرّة الثالثة ، فبقي فيها سنةً ونيّف حتى وفاته ، قُبيل وفاة السّلطان عام 815 هـ .

وفي المحرّم من فاتحة سنة 815 هـ توفّي الأتابك ، وولده يوسف طفل لم يبلغ فطامه (وكان ولـد بعد عام 811 هـ) ، فربّاه زوج أخت أخرى له ، هو قاضي القضاة ناصر الدّين ابن العديم ، فلمّا توفي سنة 815 هـ ، تولّى تربيته زوجها الثاني قاضي القضاة جلال الدّين البُلقيني .

* * *

من خلال النصّ الذي نقدّمه أدناه ، نقرأ رواية حيّة لشاهد عَيان ، كان حاكماً للمدينة إبّان الأحداث الدّامية التي عصفت بها ، لا بل شارك في الأحداث بنفسه ، ثم نقل روايته ابنه المؤرّخ يوسف ، وهذا من نوادر الاتّفاق . لكن ليس معنى ذلك أن الابن استقى تفاصيل الرّواية عن أبيه - الذي توفي وابنه لم يجاوز 3 سنين - بل كان سمع بها من آله ومن بعض مماليك أبيه من جهة ، ثم نقل غالبية نصّها عن سواه من المؤرّخين ، من جهة أخرى . وأخصّ المؤلّفات التاريخية التي نقل عنها كانت كتاب مؤرّخ مصر الكبير تقي الدّين المقريزي (المتوفى في 845 هـ) : «السّلوك لمعرفة دول الملوك» .

لكن المؤسف من خلال ما يرويه الأتابك والد المؤلّف ، أن دمشق كان يمكن بكل تأكيد الدّفاع عنها ، بسبب حصانتها وكثرة مؤنها ، هذا لولا عقابيل أزمة أيْتمِش وخشية السّلطان المراهق على مُلكه بمصر من جهة ، وسذاجة القاضي ابن مُفلح من جهة أخرى . ويلخّص الباحثون أسباب مأساة سقوط دمشق بأيدي المغول في 3 أسباب رئيسية :

1- الاختلاف والتّطاحن ، وعدم التأهّب لقتال تيمور .

2- عدم الاستفادة من قوّة سلطان بغداد أحمد بن أويس ، وجيشه البالغ سبعة آلاف جندي مدرّب .

3- عدم الاتفاق مع السّلطان العثماني بايزيد خان في قتال تيمور ، فلمّا أرسل يعرض التحالف في وجه الخطر المغولي أجاب أمراء مصر : «فليقاتل عن بلاده ونحن نقاتل عن بلادنا» .

يذكر يوسف ابن تَغري بَردي نقلاً عن صديق له من رجال الحكومة ، هو أسنباي الظاهري الزَّردكاش ، أنه وقع أسيراً بيد تيمور فصرّح له الغازي الرّهيب أنه لم يكن يخشى سوى جيشين فقط : جيش المماليك وجيش العثمانيين . يعلّق ابن تَغري بَردي على هذا القول : «فلو اتّفق هذان الجيشان أمام جيش تيمورلنك لاستطاعا صدّه !» .

* * *

هذا وقد تقدّم لنا في هذا الكتاب نشر 3 نصوص لرحلات هامّة جداً إلى دمشق ، يكمل أحدها الآخر انتهاءً بنصّنا هذا : أولها رحلة ابن حجّة الحموي إبّان ثورة منْطاش بها عام 791 هـ ، وثانيها رحلة السّلطان الظاهر برقوق لنجدة سلطان بغداد أحمد بن أوَيس عام 796 هـ ، وثالثها رحلة ابن خلدون في ركاب السّلطان النّاصر فَرَج الذي توجّه إلى الشام لقتال تيمورلَنك عام 803 هـ . وأما رابعها فهو نصّنا هذا في تفاصيل التجاريد المذكورة ، وهي واحدة من 7 تجاريد قام بها إلى الشام حتى مقتله بدمشق عام 815 هـ وسنّه 24 عاماً فقط .

المصادر :

النّجوم الزّاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 12 : 106 ، 116 ، 213 ، 216 ، 227-245 .
النّجوم الزّاهرة لابن تَغري بَرْدي (ترجمة أبيه تَغري بَردي) ، 14 : 115 .
المنهل الصّافي لابن تَغري بَرْدي ، ترجمة تَغري بَردي من بَشْبُغا الظاهري .
أنباء الغُمر بأنباء أبناء العُمر لابن حجر ، ج 2 في حوادث سنة 803 هـ .
الضوء اللامع للسّخاوي ، 3 : 29 .
إعلام الورى لابن طولون الصّالحي ، 34 .
ولاة دمشق في عهد المماليك لمحمد أحمد دهمان ، 187 .
مؤرّخو مصر الإسلاميّة لمحمد عبد الله عنان ، 114 .
دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 384 .
Popper, W.: *A History of Egypt, 1382-1469*, California, 1909-1933.

دار الكتب المصرية
القسم الأدبي



تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

الجزء الثاني عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م



رسم قديم لتيمورلنك

[غزو المغول لدمشق بقيادة تيمورلنك]

وأما أهل دمشق ، فإنه لمّا قدم عليهم الخبر بأخذ حَلَب ، نُودي في النّاس بالرّحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة ، والاستعداد لقتال العدوّ المخذول ، فأخذوا في ذلك . فقدم عليهم المنهزمون من حَمَاة ، فعَظُم خوف أهلها وهَمّوا بالجلاء فمُنِعوا من ذلك ، ونُودي : «مَن سافر نُهِب» ، فعاد إليها مَن كان خرج منها . وحُصِّنت دمشق ، ونُصبت المجانيق على قلعة دمشق ، ونُصبت المكاحل[1] على أسوار المدينة ، واستعدّوا للقتال استعداداً جيّداً إلى الغاية .

ثم وصلت رُسُل تَيْمور إلى نائب الغيبة بدمشق[2] ليتسلّموا منه دمشق ، فهَمّ نائب الغيبة بالفرار ، فردّه العامّة ردّاً قبيحاً ، وصاح النّاس وأجمعوا على الرّحيل عنها ، واستغاث النّساء والصّبيان ، وخرجت النّساء حاسرات لا يعرفن أين يذهبنَ ، حتى نادى نائب الغيبة بالاستعداد .

وقدم الخبر في أثناء ذلك بمجيء السّلطان إلى البلاد الشاميّة ، ففَتر عزم النّاس عن الخروج من دمشق ما لم يحضر السّلطان .

وأمّا أمراء الدّيار المصرية فإنّه لمّا كان ثامن عشر شهر ربيع الأول ، وهو بعد أخذ تيمور لمدينة حَلَب بسبعة أيّام ، فُرِّقت الجَماكي على المماليك السّلطانيّة بسبب السّفر .

ثم في عشرينه نُودي على أجناد الحلقة بالقاهرة أن يكونوا في يوم الأربعاء ثاني عشرينه في بيت الأمير يَشْبِك الشّعباني الدَّوادار للعَرض عليه .

* * *

---

(1) مكاحل البارود هي المدافع المتوسّطة الحجم التي يُرمى عنها النّفط ، وهي أنواع : فمنها ما يرمي بأسهم كبيرة تكاد تخرق الحجر ، وبعضها يرمي ببندق من حديد زنته ما بين عشرة أرطال إلى ما يزيد عن مائة رطل .

(2) يقول نائب الغيبة لأن نائب دمشق سُودون الذي وقع أسيراً في قتاله المغول بحلب ، بعد أن صدرت عنه وعن الأمير عزّ الدّين أزْدَمِر شجاعة ونخوة هائلة .

ثم في خامس عشرينه وَرَد عليهم الخبر بأخذ تيمور مدينة حَلَب[1] ، وأنه يحاصر قلعتها ، فكذّبوا ذلك ، وأُمسك المُخبر وحُبس حتى يُعاقَب بعد ذلك على افترائه . ووقع الشّروع في النّفقة ، فأخذ كل مملوك ثلاثة آلاف وأربعمائة درهم . ثم خرج الأمير سُودُون من زادة والأمير إينال حطب على الهُجن في ليلة الأربعاء تاسع عشرينه ، لكشف هذا الخبر .

ثم ركب الشيخ سراج الدّين عمر البُلقيني وقضاة القضاة والأمير آقباي الحاجب ونُودي بين أيديهم : «الجهاد في سبيل الله تعالى لعدوّكم الأكبر تيمورلنك ، فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب ، وقتّل الأطفال على صدور الأمّهات ، وأخرب الدُّور والجوامع والمساجد وجعلها إسطبلات للدَّواب ، وأنه قاصدكم يخرّب بلادكم ويقتّل رجالكم !» . فاضطربت القاهرة لذلك ، واشتدّ جزع النّاس وكثر بكاؤهم وصراخهم ، وانطلقت الألسنة بالوَقيعة في أعيان الدّولة .

* * *

واستهلّ شهر ربيع الآخر ، فلمّا كان ثالثه قدم الأمير أسنْبُغا الحاجب وأخبر بأخذ تيمور مدينة حلب وقلعتها باتّفاق دَمرداش ، وحكى ما نزل بأهل حلب من البلاء ، وأنه قال لنائب الغيبة بدمشق يخلّي بين النّاس وبين الخروج من دمشق ، فإن الأمر صعب ، [وإن النائب لم يمكّن أحداً من السَّير][2] . فخرج السّلطان الملك النّاصر [فَرَج] من يومه من القاهرة ، ونزل بالرَّيدانيّة بأمرائه وعساكره [والخليفة] والقضاة ، وتعيّن الأمراء تمراز النّاصري أمير مجلس لنيابة الغَيبة بالدّيار المصريّة ، وأقام بمصر من الأمراء الأمير جكم من من عوض في عدّة أُخر ، وأقام الأمير تمراز يعرض أجناد الحلقة ، وفي تحصيل ألف فرس وألف جمل ، وإرسال ذلك مع مَن يقع عليه الاختيار من أجناد الحلقة للسَّفر .

---

(1) كان سقوط حلب في يوم السبت 11 ربيع الأول من السنة ، أي 803 هـ . انظر «النّجوم الزّاهرة» ، 12 : 222 . وأقام تيمورلنك في حلب شهراً واحداً ، جرت في خلاله فظائع وأهوال على أهل المدينة المنكوبة ، لا تقلّ أبداً عمّا جرى بدمشق .

(2) زيادة من السّلوك للمَقريزي .

ثم رَسَم باستقرار الأمير أرُسْطاي من جُحا على رأس نوبة النُّوَب ، كان ، في نيابة الإسكندريّة بعد موت نائبها فَرَج الحلبي . وكان أرُسْطاي منذ أُفرِج عنه بَطّالاً بالإسكندريّة ، فوردت عليه الولاية وهو بها ، وأخذ الأمير تمراز في عَرض أجناد الحلقة ، وتحصيل الخيول والجمال وطلب العُربان من الوجه القبلي والبحري لقتال تَيمور . كل ذلك والسّلطان بالرِّيدانيّة .

ثم خرج الجاليش في بُكرة يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر ، وفيه من أكابر الأمراء مُقدّمي الألوف : الأتابك بَيْبَرس والأمير نَوْرُوز الحافظي رأس نَوبة الأمراء والأمير بَكْتَمِر الرُّكني أمير سلاح وآقباي حاجب الحُجّاب ويَلْبُغا النّاصري وإينال باي بن قجماس ، وعدّة أخر من أمراء الطّبلخانات والعشرات .

* * *

ثم رحل السّلطان ببقيّة الأمراء والعساكر من الرِّيدانيّة يريد جهة الشام لقتال تيمورلَنك ، وسار حتى نزل بغَزّة في يوم عشرين من الشهر ، واستدعى بالوالد وآقبُغا الجَمالي الأُطروش نائب حلب كان من القُدس ، وأخلع على الوالد باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن سُودون قريب الملك الظاهر برقوق[1] ، بحكم أسره مع تيمُور ، وهذه ولاية الوالد على دمشق الأولى .

وخلع على الأمير آقبُغا الجمالي الأُطروش باستقراره في نيابة طرابلس ، عوضاً عن شيخ المحمودي بحكم أسره مع تَيمور أيضاً ، وعلى الأمير تَمُربُغا المَنْجَكي باستقراره في نيابة صَفَد عوضاً عن أَلْطُنْبُغا العثماني بحكم أسره ، وعلى طُولو من علي باشاه باستقراره في نيابة القُدس ، وبعث الجميع إلى ممالكهم .

وأما الوالد فإنه قال للسّلطان والأمراء : عندي رأي أقوله ، فيه مصلحة للمسلمين وللسّلطان . فقيل له : وما هو ؟ فقال : الرأي أن السّلطان لا يتحرّك هو وعساكره من مدينة غَزّة ، وأنا أتوجّه إلى دمشق وأُحرّض أهلها على القتال ، وأُحصّنها ، وهي بلدة عظيمة لم تُنْكَب من قديم الزّمان ، وبها ما يكفي أهلها من

---

(1) كانت جدّة سُودون لأمه أخت السّلطان الظاهر برقوق . النجوم الزّاهرة ، 13 : 20 .

الميرة سنين ، وقد داخَل أهلها أيضاً من الخوف ما لا مزيدَ عليه ، فهم يقاتلون قتال الموت . وتيمور لا يقدر على أخذها مني بسرعة ، وهو في عسكر كبير إلى الغاية لا يُطيق المكث بهم بمكان واحد مدّة طويلة ، فإمّا أنه يدع دمشق ويتوجّه نحو السّلطان إلى غزّة ، فيتوغّل في البلاد ويصير بين عسكرين - وأظنه لا يفعل ذلك - وإمّا أنه يعود إلى جهة بلاده كالمنهزم من عَدم معرفة عساكره بالبلاد الشّاميّة ، وقلّة ما في طريقه من الميرَة لخراب البلاد ، ويركب السّلطان بعساكره المصريّة والشاميّة أقفية التّمريّة إلى الفُرات ، فيظفر منهم بالغرض وزيادة .

فاستصوب ذلك جميع النّاس ، حتى تَيمور عندما بلغه ذلك بعد أخذه دمشق ، وما بقي إلا أن يُرسم بذلك ، تكلّم بعض جُهّال الأمراء مع بعض في السرّ ممّن عنده كَمينٌ من الوالد من واقعة أيْتَمِش وتَنِم ، وقال : تقتلوا رُفقته وتسلّموه الشام ؟! والله ما قصده إلا أن يتوجّه إلى دمشق ، ويتّفق مع تَيمور ويعود يقاتلنا ، حتى يأخذَ منا ثأر رفقته ! وكان نَوْرُوز الحافظي بإزاء الوالد ، فلمّا سمع ذلك استحيا أن يُبديه للوالد ، فأشار عليه بالسُّكات والكَفّ عن ذلك .

وانفضّ المجلس ، وخرج الوالد من الخدمة وأصلح شأنه ، وتوجّه إلى دمشق ، فوجد الأمير دَمِرداش نائب حَلَب قد هرب من تَيمور وقدم إلى دمشق ، وقد جَفَل أهل دمشق لمّا بلغهم قُرب تَيمور إلى دمشق . فأخذ الوالد في إصلاح أمر دمشق ، فوجد أهلها في غاية الاستعداد ، وعَزمُهم قتالُ تَيمور إلى أن يَفنوا جميعاً[1] ، فتأسّف عند ذلك على عدم قبول السّلطان لرأيه ، ولم يَسَعْه إلا السُّكات .

* * *

ثم رحل جاليش السّلطان من غَزّة في رابع عشرين شهر ربيع الآخر ، ثم رحل السّلطان ببقيّة عسكره من غَزّة في سادس عشرينه ، وسار الجميع حتى وافوا دمشق .

---

(1) ليتهم كانوا فعلوا ذلك ، ولم يُلقوا بالاً إلى ابن مفلح وجهالاته !

وكان دخول السّلطان دمشق في يوم الخميس سادس جُمادى الأولى ، وكان لدخوله يومٌ مَهول من كثرة صُراخ النّاس وبُكائهم والابتهال إلى الله بنُصرته . وطلع السّلطان إلى قلعة دمشق ، وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه ، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره إلى مُخَيّمه عند قبّة يَلْبُغا ظاهر دمشق ، وتهيّأ للقاء تَيمور هو بعساكره ، وقد قصَّرت المماليك الظاهريّة أرماحهم حتى يتمكّنوا من طعن التّمريّة أولاً بأوّل ، لازدرائهم عساكر تَيمور[1] .

فلمّا كان وقت الظهر من اليوم المذكور ، وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثّلج[2] في نحو الألف فارس ، فبرز إليهم مائة فارس من عسكر السّلطان وصدموهم صدمة واحدة ، بَدّدوا شملهم وكسروهم أقبح كَسرة ، وقتلوا منهم جماعة كبيرة وعادوا .

ثم حضر إلى طاعة السّلطان جماعةٌ من التّمريّة ، وأخبروا بنزول تيمور على البقاع العَزيزي ، «فلتكونوا على حَذَر ، فإن تَيمور كثير الحِيَل والمكر» ، فاحترز القوم منه غاية الاحتراز .

ثم قدم على السّلطان خمسة أمراء من أمراء طرابلس بكتاب أسِنْدَمِر نائب الغَيبة بطرابلُس ، يتضمّن أن الأمير أحمد بن رمضان أمير التّركمان هو وابن صاحب الباز وأولاد شهري اتّفقوا وساروا إلى حلب وأخذوها من التّمريّة ، وقتلوا من أصحاب تَيمور زيادة على ثلاثة آلاف فارس ، وأن تيمور بعث عسكراً إلى طرابلُس ، فثار بهم أهل القُرى وقتلوهم عن آخرهم بالحجارة لدخولهم بين جبلين ، وأنه قد حضر من عسكر تيمور خمسة نفر وأخبروا بأن نصف عسكر تَيمور على نيّة المسير إلى طاعة السّلطان .

---

(1) كان الجيش المملوكي في القرون الوسطى من أقوى جيوش العالم ، من حيث تدريبه وإتقان ضباطه وعساكره لفنون القتال والفروسية ، وبخاصة كتائب المماليك السّلطانية ، الذين سحقوا لويس التاسع في المنصورة 648 هـ ، وكتبُغا نوين في عين جالوت 658 هـ ، وإليهم يعود الفضل في طرد التّتار والصليبيين من الشام ومصر نهائياً .

(2) جبل الثّلج كما يسمّيه جغرافيو العصر هو المعروف في أيامنا بجبل الشيخ أو الحرمون .

وكان ذلك من مكايد تَيمور ، ثم قال : وإن صاحب قُبْرُص وصاحب الماغُوصَة[1] وغيرهم وَرَدتْ كُتبهم بانتظار الإذن لهم في تجهيز المراكب في البحر لقتال تَيمور مُعاونةً للسّلطان . فلم يلتفت أحدٌ لهذا الكتاب ، وداموا على ما هم فيه من اختلاف الكلمة .

ثم في يوم السبت نزل تَيمور بعساكره على قَطَنا ، فملأت عساكره الأرض كثرةً ، وركب طائفةٌ منهم لكشف الخبر ، فوجدوا السّلطان والأمراء قد تهيّئوا للقتال وصُفَّت العساكر السّلطانيّة . فبرز إليهم التّمريّة وصدموهم صدمة هائلة ، وثَبَت كلّ من العسكرين ساعة ، فكانت بينهم وقعةٌ انكسر فيها ميسرةُ السّلطان ، وانهزم العسكر الغزّاوي وغيرهم إلى ناحية حَوران ، وجُرح جماعة . وحَمَل تَيمور بنفسه حملةً شديدة ليأخذ فيها دمشق ، فدفعته ميمنة السّلطان بأسنان الرّماح حتى أعادوه إلى موقفه .

ونزل كلٌّ من العسكرين بمُعسكره ، وبعث تَيمور إلى السّلطان في طلب الصُّلح وإرسال أطلمش أحد أصحابه إليه ، وأنه هو أيضاً يبعث مَن عنده من الأمراء المقبوض عليهم في وقعة حلب . فأشار الوالد ودَمِرْداش وقُطْلوبُغا الكَرَكي في قبول ذلك لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم ، لا لضعف عسكرهم ، فلم يقبلوا وأبوا إلا القتال .

ثم أرسل تَيمور رسولاً آخر في طلب الصُّلح ، وكرّر القول ثانياً ، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صُدق مقالته ، وأن ذلك على حقيقته ، فأبى الأمراء ذلك ، هذا والقتال مستمرّ بين الفريقين في كلّ يوم .

* * *

فلمّا كان ثاني عشر جُمادى [الأولى] ، اختفى من أمراء مصر والمماليك السّلطانيّة جماعة ، منهم الأمير سُودون الطيّار ، وقاني باي العلائي رأس نوبة ، وجمق ، ومن الخاصكيّة يَشْبك العُثماني وقُمُش الحافظي وبَرْسْبُغا الدّوادار

(1) الماغُوصَة بقُبرُص هي حالياً مدينة فاماغوستا Famagusta ، وبالتركية : Gazimagusa .

وطَرَباي في جماعة أُخر . فوقع الاختلاف عند ذلك بين الأمراء ، وعادوا إلى ما كانوا عليه من التّشاحُن في الوظائف والإقطاعات والتحكّم في الدّولة ، وتركوا أمر تَيمور كأنه لم يكن ، وأخذوا في الكلام فيما بينهم بسبب مَن اختفى من الأمراء وغيرهم .

هذا وتَيمور في غاية الاجتهاد في أخذ دمشق وفي عمل الحيلة في ذلك .

ثم أُعلم بما الأمراء فيه ، فقَوّى أمره واجتهاده ، بعد أن كان عَزَم على الرّحيل واستعدّ لذلك .

ثم أُشيع بدمشق أن الأمراء الذين اختفوا توجّهوا جميعاً ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي أحد الأجناد البرّانيّة ، فعَظُم ذلك على مُدبّري المملكة لعدم رأيهم ، وكان ذلك عندهم أهمّ من أمر تيمور ، واتفقوا فيما بينهم على أخذ السّلطان الملك النّاصر جريدةً ، وعَوْده إلى الدّيار المصريّة في الليل ، ولم يُعلموا بذلك إلا جماعة يسيرة . ولم يكن أمر لاجين يستحقّ ذلك ، بل كان تمراز نائب الغيبة بمصر يكفي السّلطان أمرهم ، ﴿ولَكِن لِيقضيَ اللهُ أمراً كانَ مَفعُولاً﴾ .

فلمّا كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جُمادى الأولى ، ركب الأمراء وأخذوا السّلطان الملك النّاصر فَرَج على حين غَفلة ، وساروا به من غير أن يعلم العسكر به من على عَقَبة دُمَّر يريدون به الدّيار المصريّة ، وتركوا العساكر والرّعيّة من المسلمين غَنَماً بلا راع ، وجَدّوا في السير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى مدينة صَفَد ، فاستدعوا نائبها الأمير تَمربُغا المَنْجَكي وأخذوه معهم [إلى غَزّة][1] ، وتلاحق بهم كثير من أرباب الدّولة وأمرائها ، وسار الجميع حتى أدركوا الأمراء الذين ساروا إلى مصر - عليهم من الله ما يستحقّوه - بمدينة غَزّة ، فكلّموهم فيما فعلوه ، فاعتذروا بعُذر غير مقبول في الدّنيا والآخرة . فندم عند ذلك الأمراء على الخروج من دمشق حيثُ لا ينفع النّدم ، وقد تركوا دمشق أُكلةً لتَيمور ، وكانت يوم ذاك أحسن مُدُن الدّنيا وأعمرها .

---

(1) زيادة من السّلوك للمقريزي .

وأمّا بقيّة أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم لمّا علموا بخروج السّلطان من دمشق ، خرجوا في الحال في إثره طوائف طوائف يريدون اللّحاق بالسّلطان ، فأخذ غالبهم العشير وسلبوهم ، وقتلوا منهم خَلقاً كثيراً .

أخبرني غير واحد من المماليك الظاهرية قالوا : لمّا بلغنا خروج السّلطان ركبنا في الحال ، غير أنه لم يُعقنا عن اللّحاق به إلا كثرة السّلاح المُلقى على الأرض بالطريق ، ممّا رمتها المماليك السّلطانيّة ليخفّ ذلك عن خيولهم ، فمَن كان فَرَسه ناهضاً خرج ، وإلا لحقه أصحاب تَيمور وأسروه ، فممّن أسروه قاضي القضاة صَدر الدّين المُناوي ، ومات في الأسر حسبما يأتي ذكره في الوفيّات[1] . وتتابع دخول المنقطعين من المماليك السّلطانيّة وغيرهم إلى القاهرة في أسوأ حال من المشي والعُري والجوع ، فرَسَم السّلطان لكلّ من المماليك السّلطانيّة المذكورين بألف درهم وجامكيّة شهرين .

وأمّا الأمراء فإنهم دخلوا إلى مصر وليس مع كلّ أمير سوى مملوك أو مملوكين ، وقد تركوا أموالهم وخيولهم وأطلابهم وسائر ما معهم بدمشق . فإنهم خرجوا من دمشق بغتةً بغير مُواعَدة لمّا بلغهم توجّه السّلطان من دمشق ، وأخذ كلّ واحد ينجو بنفسه . وأمّا العساكر الذّين خُلّفوا بدمشق من أهل دمشق وغيرها ، فإنه كان اجتمع بها خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القُرى ممّن خرج جافلاً من تَيمور .

* * *

(1) انظر النّجوم الزّاهرة ، 13 : 25 . وذكر المقريزي في «السّلوك» بعد هذه الجملة : «وكان قاضي القضاة ولي الدّين عبد الرّحمن بن خلدون المالكي بداخل مدينة دمشق ، فلمّا علم بتوجّه السّلطان تدلّى من سُور دمشق وسار إلى تَيمورلنك ، فأكرمه وأجلّه وأنزله عنده . ثم أذن له في المسير إلى مصر ، فسار إليها» ، إلخ .
قلتُ : راجع قصّة ابن خلدون ولقائه بتيمورلنك على أبواب دمشق فيما تقدّم أعلاه (نص رقم 58) . كما يذكر المؤرّخ الدّمشقي ابن عَرَبْشاه في كتابه «عجائب المقدور في نوائب تيمور» رواية مهمّة عن تملّق ابن خلدون للغازي تيمورلنك ومديحه الباهر له فوق كل وصف ، بخطبة عصماء ارتجّ لها مجلسه !

ولمّا أصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السّلطان والأمراء والنائب ، غلّقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ، ونادوا بالجهاد . فتهيّأ أهل دمشق للقتال ، وزحف عليهم تَيمور بعساكره[1] ، فقاتله الدمشقيون من أعلى السّور أشدّ قتال ، ورَدّوهم عن السّور والخندق ، وأسروا منهم جماعةً ممّن كان اقتحم باب دمشق ، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الألف ، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة[2] . وصار أمرهم في زيادة ، فأعيا تيمورَ أمرُهم وعلم أن الأمر يطول عليه ، فأخذ في مُخادعتهم ، وعمل الحيلة في أخذ دمشق منهم .

* * *

وبينما أهل دمشق في أشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم ، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السّور ، وصاحا من بُعد : «الأمير يريد الصُّلح ، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدّثه الأمير في ذلك» .

قلتُ : هذا الذي كان أشار إليه الوالد عند استقراره في نيابة دمشق وقوله : إن أهل دمشق عندهم قوّة لدفع تيمور عن دمشق ، وأن دمشق بلد كثيرة الميرة والرّزق ، وهي في الغاية من التّحصين ، وأنه يتوجّه إليها ويقاتل بها تيمور ، فلم يسمع له أحد في ذلك . فلعَمري لو رأى مَن لا أعجَبه كلام الوالد قتال أهل دمشق الآن وشدّة بأسهم وهم بغير نائب ولا مُدبّر لأمرهم ، فكيف ذاك لو كان عندهم متولّي أمرهم بمماليكه وأمراء دمشق وعساكرها بمن انضاف إليهم ؟ لَكان يحقّ له النّدم والاعتراف بالتّقصير . انتهى .

---

(1) في الجزء الثالث من كتابي هذا سأنشر نصّ رحلة لجندي بافاري من المرتزقة اسمه يوهان شِلتِبِرْغَر Johann Schiltberger ، حارب في صفوف جيش المغول على أبواب دمشق .

(2) كانت العادة بذلك العصر عرض رؤوس القتلى من الأعداء ، رفعاً لمعنويات الجند . أما تيمورلنك فكان يقيم أبراجاً من رؤوس القتلى ، يروي ابن تَغري بردي في نجومه الزّاهرة (12 : 225) عن حلب : «وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منائر عدّة مرتفعة من الأرض نحو عشرة أذرع في دَور عشرين ذراعاً ، حُسب ما فيها من رءوس بني آدم فكان زيادةً على عشرين ألف رأس ، ولمّا بُنيت جُعلت الوجوه بارزةً يراها مَن يمرّ بها» . قلت : وفي دمشق إلى اليوم شمالي باب توما محلّة تُعرف بـ «بُرج الرّوس» !

ولمّا سمع أهل دمشق كلام أصحاب تيمور في الصُّلح ، وقع اختيارهم في إرسال قاضي القضاة تقي الدّين إبراهيم بن [محمد بن][1] مُفلح الحنبلي ، فأُرخي من سُور دمشق إلى الأرض ، وتوجّه إلى تيمور واجتمع به وعاد إلى دمشق ، وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه ، وتلطّف معه في القول وترفّق له في الكلام ، وقال له : «هذه بلدة الأنبياء والصّحابة ، وقد أعتقتُها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، صَدَقةً عني وعن أولادي ، ولولا حنقي من سُودُون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتُها . وقد صار سُودون المذكور في قبضتي وفي أسري ، وقد كان الغرض من مجيئي إلى هنا ، ولم يبق لي الآن غرضٌ إلا العَود ، ولكن لا بُدّ من أخذ عادتي من التّقدمة من الطُّقُزات» .

وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صُلحاً يُخرج إليه [أهلُها][2] من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدّواب والملابس والتُّحَف تسعةً ، يسمّون ذلك طُقُزات ، والطُّقُز باللغة التّركيّة : تسعة[3] ، وهذه عادة ملوك التّتار إلى يومنا هذا .

فلمّا صار ابن مُفلح بدمشق ، شرع يخذّل النّاس عن القتال ويُثني على تيمور ودِينه وحُسن اعتقاده ثناءً عظيماً ، ويكفّ أهل دمشق عن قتاله . فمال معه طائفة من النّاس ، وخالفته طائفةٌ أخرى وأبوا إلا قتاله ، وباتُوا ليلة السبت على ذلك ، وأصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مُفلح على مَن خالَفَه ، وعَزَم على إتمام الصُّلح ، ونادى في النّاس : إنه «مَن خالَف ذلك قُتل وهُدر دمُه» . فكفّ النّاس عن القتال[4] .

---

(1) زيادة من السّلوك للمقريزي .

(2) زيادة من السّلوك للمقريزي .

(3) في التّركية : dokuz .

(4) يا له من ساذَج غرّ مستحقّ للشّفقة . وواهاً لدمشق المفجوعة ابتُليت بطاغية مجرم (تيمورلنك) وسلطان عمره 13 (فَرَج) ومسؤولي دولة جشعين (أمراء مصر) وقاض غر (ابن مُفلح) وموفد أناني وجبان (ابن خلدون) . وحدهم أبطال الجهاد ممّن حاربوا الغزاة لهم يبقى الفخر والشّرف ، ولغيرهم الخزي والعار .

وفي الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطُّقُزات المذكورة ، فبادر ابن مُفلح واستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتّجار حَمْلَ ذلك كلّ أحد بحسب حاله ، فشرعوا في ذلك حتى كمل ، وساروا به إلى باب النّصر ليخرجوا به إلى تيمور ، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك[1] ، وهدّدهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك ، فلم يلتفتوا إلى قوله ، وقالوا له : «أنت احكُم على قلعتك ، ونحنُ نحكم على بلدنا»[2] .

وتركوا باب النّصر وتوجّهوا ، وأخرجوا الطُّقُزات المذكورة من السّور ، وتدلّى ابن مُفلح من السّور أيضاً ، ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيّم تيمور ، وباتوا به ليلة الأحد ، وعادوا بُكرة الأحد . وقد استقرّ تيمور بجماعة منهم في عدّة وظائف : ما بين قضاة القضاة ، والوزير ، ومُستخرج الأموال ، ونحو ذلك . [و] معهم فرمان من تيمور لهم ، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمّن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصّة .

فقُرئ الفرمان المذكور على منبر جامع بني أميّة بدمشق ، وفُتح من أبواب دمشق باب الصّغير فقط ، وقدم أمير من أمراء تيمور ، جلس فيه ليحفظ البلد ممّا يعبر إليها من عساكر تيمور . فمَشَى ذلك على الشّاميين وفرحوا به ، وأكثر ابن مُفلح ومَن كان توجّه معه من أعيان دمشق الثّناء على تيمور وبثّ محاسنه وفضائله ، ودعا العامّة لطاعته ومُوالاته ، وحَثَّهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرّر لتَيمور عليهم ، وهو ألف ألف دينار ، وفَرَض ذلك على النّاس كلّهم ، فقاموا به من غير مشَقّة لكثرة أموالهم .

---

(1) هذا والله من الرّجال المعدودين ، وسنرى أدناه ما سيبدر من بطولته . يذكر ابن عَرَبشاه في كتابه «عجائب المقدور» أن اسمه «أزدار» ، ويبدو أنه مصحّف عن : أَزْدَمِر Özdemir ، ويذكر أن من أمثل مُقاتلة القلعة شهاب الدّين الزّردكاش الدمشقي وشهاب الدّين أحمد الزّردكاش الحلبي . وقام تيمور بتعذيب الشهاب الدّمشقي وهو في سن 90 عاماً !

(2) وأيّ رجال والله ! ! تعوّدنا دوماً من طبقة التّجارة والمصالح الجنوح دوماً إلى الدّعة والمسالمة (كلمتان ملطّفتان بدلاً من : الخوف والجُبن) ، أمّا الرجولة والقتال والجهاد والتفاخر بحمل السّلاح فهي في نظرهم شيء من مظاهر «الزّعرنة» .

فلمّا كمل المال ، حمله ابن مُفلح إلى تَيمور ووضعه بين يديه ، فلمّا عاينه غضب غضباً شديداً ولم يرضَ به ، وأمر ابن مفلح ومَن معه أن يخرجوا عنه ، فأُخرِجوا من وجهه . ووكّل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تُومان ، والتّومان عبارة عن عشرة آلاف دينار [من الذّهب] ، إلا أن سعر الذّهب عندهم يختلف . وعلى كل حال ، فيكون جُملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار .

فالتزموا بها ، وعادوا إلى البلد وفرضوها ثانياً على النّاس [كلّها] عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر ، وألزموا كلّ إنسان من ذَكَر وأنثى حرٍّ وعبد بعشرة دراهم ، وألزم مُباشر كلّ وَقف بحمل مالٍ له جرم . فنزل بالنّاس بلاءٌ عظيم ، وعُوقب كثيرٌ منهم بالضّرب . فغَلَت الأسعار ، وعَزَّ وجود الأقوات ، وبلغ المُدّ القمح (وهو أربعة أقداح) إلى أربعين درهماً فضّة .

وتعطّلت صلاة الجمعة من دمشق ، فلم تقُم بها جُمعةٌ إلا مرّتين ، حتى دُعي بها على منابر دمشق للسّلطان محمود ولوليّ عهده ابن الأمير تيمورلنك ، وكان السّلطان محمود[1] مع تيمور آلة ، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلا مَن يكون من ذُرّيّة الملوك . انتهى . ثم قدم شاه مَلِك أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق ، على أنه نائبها من قِبَل تيمور .

ثم بعد جمعتين مُنعوا من إقامة الجُمعة بدمشق ، لكثرة غَلَبة أصحاب تيمور بدمشق ، كلّ ذلك ونائب القلعة مُمتنع بقلعة دمشق ، وأعوان تيمور تحاصره أشدّ حصار ، حتى سلّمها بعد تسعة وعشرين يوماً ، وقد رمى عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حَصر ، يكفيك أن التّمريّة من عِظَم ما أعياهُم أمر قلعة دمشق بنَوا تجاه القلعة قلعةً من خشب ، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها مَن هو بالقلعة ، رَمى أهل قلعة دمشق نفطاً فأحرقوها عن آخرها . فأنشؤوا قلعة ثانية أعظم من الأولى ، وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة .

---

(1) محمود هذا هو ابن خان عشيرة الجَغطاي المغوليّة ، فبعد موت أبيه ساطلُمُش تزوّج أمّه تيمورلنك ، كبير أمراء الجَغطاي ، فصار كفيله والقائم بالدّولة باسمه : محمود خان أو سيورغاتمش خان ، ومات سنة 805 هـ . انظر ما تقدّم أعلاه في نصّ ابن خلدون .

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المُقاتلة إلا نَفَرٌ يسير دون الأربعين نفراً ، وطال عليهم الأمر ، ويئسوا من النّجدة وطلبوا الأمان ، وسلّموها بالأمان[1] .

قلتُ : لا شُلَّت يداهم ! هؤلاء هم الرّجال الشّجعان[2] . رحمهم الله تعالى .

* * *

ولمّا تكامل حصول المال الذي هو ألف تُومان ، أخذه ابن مُفلح وحمله إلى تيمور ، فقال تيمور لابن مُفلح وأصحابه : هذا المال بحسابنا إنما هو يسوى ثلاثة آلاف ألف دينار ، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار ، وظهر لي أنكم عجزتُم .

وكان تيمور لمّا اتّفق أولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار ، يكون ذلك على أهل دمشق خاصّة ، والذي تركته العساكر المصريّة من السّلاح والأموال يكون لتَيمور . فخرج إليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها ، فلمّا صارت كلّها إليه وعلم أنه استولى على أموال المصريين ، ألزمهم بإخراج أموال الذين فرّوا من دمشق ، فسارعوا أيضاً إلى حمل ذلك كلّه ، وتدافعوا عنده حتى خلُص المال جميعه .

---

(1) يروي المؤرّخ الدمشقي ابن عَرَبشاه (اسم العائلة اليوم : عَرَبْشَة) في كتابه «عجائب المقدور في نوائب تيمور» (ص 112) : «ثم إنه صار في هذه المدّة يحاصر القلعة ويعدّ لها ما استطاع من عدّة ، وأمر أن يُبنى مقابلها بناءٌ يعلوها ، ليصعدوا عليها فيهدموها . فجمعوا الأخشاب والأحطاب وعبّوها ، وصبّوا فوق الأحجار التّراب ودكّوها ، وذلك من جهة الشمال والغرب ، ثم علَوا عليها وناوشوها الطّعن والضّرب . وفوّض أمر الحصار لأمير من أمرائه الكبار يدعى جهان شاه ، فتكفّل بذلك وعاناه ، ونصب عليها المجانيق ، ونقب تحتها وعلّقها بالتعاليق . وكان فيها من المُقاتلة فئة غير طائلة ، أمثلهم شهاب الدّين الزَّردكاش الدمشقي ، وشهاب الدّين أحمد الزَّردكاش الحلبي» .

قلتُ : انظر أيضاً ما يرويه أبو البقاء البَدري في كتابه «نُزهة الأنام في محاسن الشام» أن تيمورلنك أمر أن يُنقب تحتها وتُقطع الأشجار وتعلّق بها ، ثم أطلق النار فيما تحتها .

(2) حَقّ للمؤرخ أن يتباهى على الأقل بقيام بعض الأبطال بين هذه الجموع الغامرة من الجبناء والبُلهاء والمتقاعسين وأشباه الرّجال .

فلمّا كمل ذلك ألزمهم أن يُخرجوا إليه جميع ما في البلد من السّلاح ، جليلها وحقيرها ، فتتبّعوا ذلك وأخرجوه له ، حتى لم يبق بها من السّلاح شيء . فلمّا فَرَغ ذلك كلّه ، قبض على ابن مفلح ورفقته[1] ، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خُطط دمشق وحاراتها وسِكَكها ، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ، ففرّقه على أمرائه ، وقَسَم البلد بينهم ، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ، ونزل كلّ أمير في قسمه وطلب مَن فيه ، وطالبهم بالأموال .

فحينئذ حَلَّ بأهل دمشق من البَلاء ما لا يوصَف ، وأُجري عليهم أنواع العذاب من الضَّرب والعَصر والإحراق بالنّار ، والتّعليق مَنكوساً ، وغَمّ الأنف بخرقة فيها تُراب ناعم ، كلّما تنفّس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تَزهَق . فكان الرّجل إذا أشرف على الهلاك يُخلّى عنه حتى يستريح ، ثم تُعاد عليه العُقوبة أنواعاً ، فكان المُعاقَب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت ويقول : يا ليتني أموت وأستريح ممّا أنا فيه !

ومع هذا كلّه تؤخَذ نساؤه وبناته وأولاده الذّكور ، وتُقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير ، فيشاهد الرّجل المعذَّب امرأته أو ابنته وهي توطأ ، وولده وهو يُلاطُ به ، فيصرخ هو من ألم العذاب ، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللّواط[2] ، وكلّ ذلك من غير تستُّر في النّهار بحضرة الملأ من النّاس .

---

(1) ماذا كان موقف ابن مفلح بعدما رأى الذي جنته يداه جرّاء غبائه وسذاجته العجيبة ؟ أن يقع في شرك تيمورلنك فهذا ممكن ، ولكن أن ينادي بالقتل على مَن يخالفه ويمنع النّاس عن الجهاد أشدّ المنع ، فهذا مما لا يقبله عقل أو ضمير ! يبدو أنه كان يحاول تقليد ابن تيميّة في مجاهدة التتر نوبة غازان 699 هـ ، لكن أين الثّرى من الثّريّا . يذكر ابن تَغري بَردي (النجوم ، 13 : 25) موته في شعبان 803 هـ ، أي بعد 3 أشهر من فعلته ، وكنا نودّ لو أن المصادر أفادتنا بما آل إليه أمره ، ولا ريب أن الجزء الرابع الذي لم يُنشر بعد من التاريخ البالغ الأهميّة الذي وضعه مؤرّخ دمشق ابن قاضي شُهبة ، والذي يضمّ حوادث المدينة في الفترة بين 801-808 هـ ، فيه تفاصيل هامّة جداً حول هذه النّكبة .

(2) كنا نودّ لو نحذف هذه المقاطع المؤلمة من نشرتنا ، ولكنها وثيقة تاريخية فلا يجوز التصرّف بها كيفما كان . وعلى أي حال ، فمأساة سقوط دمشق بيد تيمورلنك وما جرى بها من فظائع وإجرام لا تزال حيّة في ذاكرة النّاس إلى يومنا هذا .

ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يُسمع بمثلها ، منها أنهم كانوا يأخذون الرّجل فتُشدُّ رأسُه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه ، ومنهم مَن كان يضع الحبل بكتفي الرّجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكِتفان ، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المُعذَّب من وراء ظهره ، ثم يُلقيه على ظهره ويذرّ في منخريه الرّماد مسحوقاً ، فيقرّ على ما عنده شيئاً بعد شيء ، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدّقه صاحبه على ذلك ، فلا يزال يكرّر عليه العذاب حتى يموت ، ويعاقَب ميّتاً مَخافة أن يتماوَت . ومنهم مَن كان يُعلِّق المُعذَّب بإبهام يديه في سقف الدّار ويُشعل النّار تحته ، ويطول تعليقه فربّما يسقط فيها ، فيُسحب من النّار ويُلقوه على الأرض حتى يُفيق ، ثم يعلّقه ثانياً .

واستمرّ هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً ، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة ، فهلك في هذه المدّة بدمشق بالعقوبة والجوع خَلقٌ لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .

* * *

فلمّا علمتْ أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء ، خرجوا إلى تيمور ، فسألهم : هل بقي لكم تعلُّقٌ في دمشق ؟ فقالوا : لا . فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على أتباع الأمراء[1] ، فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب ، ومعهم سيوفٌ مسلولة مشهورة وهم مُشاة ، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدُّور وغيرها ، وسَبوا نساء دمشق بأجمعهنّ ، وساقوا الأولاد والرّجال ، وتركوا من الصّغار من عُمره خمس سنين فما دُونَها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال .

ثم طرحوا النّار في المنازل والدُّور والمساجد ، وكان يوم (.sic) عاصف الرّيح ، فعمّ الحريق جميع البلد ، حتى صار لهيب النّار يكاد أن يرتفع إلى السّحاب ، وعملت النّار في البلد ثلاثة أيام بلياليها ، آخرها يوم الجمعة .

* * *

(1) أتباع الأمراء تعبير يقابله في لغة اليوم : صفّ الضبّاط .

وكان تيمور - لعنه الله - سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان ، بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلّها وسقطت سقوف جامع بني أميّة من الحريق ، وزالت أبوابه وتفطّر رُخامُه ، ولم يبقَ غيرُ جُدُره قائمة . وذهبت مساجد دمشق ودُورها وقياسرها وحمّاماتها ، وصارت أطلالاً بالية ورُسوماً خالية ، ولم يبق بها [دابّة تدبُّ][1] إلا أطفالٌ يتجاوز عددهم [آلاف][2] ، فيهم مَن مات ، وفيهم مَن سيموت من الجوع[3] .

(النجوم الزّاهرة ، 12 : 227-245)

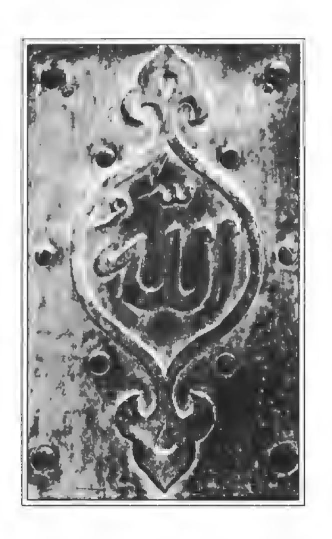
* * *

---

(1) زيادة من السلوك للمقريزي .

(2) زيادة من السلوك للمقريزي . رحمة الله على هؤلاء الأطفال المساكين الأبرياء ، لا ذنب لهم إلا أنهم ولدوا في عصر هذه النّكبة !

(3) بعد ذلك يروي ابن تَغري بَرْدي (ص 246-251) مآل السّلطان النّاصر فَرَج ، وكيف بذل كل ما في وسعه عند بلوغه مصر تشكيل حملة عسكرية قوية لمحاربة تيمورلنك وإنقاذ دمشق ، وعيّن لأعمال جمع المال اللازم لهذه الحملة الأمير يَلْبُغا السّالمي . لكن هذا كلّه جرى بعد فوات الأوان . وآخر خبر يتعلّق بقصة محنة دمشق وسقوطها بيد المغول في النّجوم الزّاهرة : «ثم حضر في ثامنه [أي شهر رجب] قاصد الأمير نُعَير [ابن حيار أمير آل فضل] ، وذكر أنه جمع عُرباناً كثيرة ونزل بهم على تَدْمُر ، وأن تَمُرلَنك رحل من ظاهر دمشق إلى القُطيفة . هذا وقد التَفَتَ أهل الدّولة إلى يَلبُغا السّالمي والعمل في زواله ، حتى تمّ لهم ذلك» .
وبعد ذلك يروي توجّه تيمورلنك إلى بغداد وتخريبها ، كما كان أخربها من قبله خان التّتار هولاكو في عام 656 هـ .


الله

- 60 -

تقي الدّين المَقريزي

(توفي 845 هـ / 1441 م)

أرّخ لتجريدات السّلطان النّاصر فَرَج إلى دمشق

الثالثة عام 809 هـ ، والرابعة عام 810 هـ

والخامسة عام 812 هـ ، والسادسة عام 813 هـ

أحمد بن علي بن عبد القادر ، أبو العبّاس الحُسيني العُبيدي ، تقي الدّين المَقريزي ، مؤرّخ الدّيار المصرية في عصره بلا مُنازع . يذكر السَّخاوي أن أصله من بعلبك ونسبته فيها إلى حارة المقارزة . ولد في القاهرة سنة 766 هـ ونشأ بها وأقام حتى وفاته ، وولي بها الحسبة غير مرّة أولاها سنة 801 هـ ، كما ولي الخَطابة بجامع عمرو وبمدرسة السّلطان حسن ، والإمامة مرّات بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بمدرسة المؤيّديّة وغيرها . وتقلّب في عدّة وظائف قضائية وإدارية ، في القاهرة ودمشق التي زارها مراراً . وحجّ غير مرّة ، وسمع بمكّة والمدينة .

اتّصل بالملك الظاهر بَرقوق ، وصارت له حُظوة عنده ، ثم عند ولده الملك النّاصر فَرَج من بعده ، ودخل دمشق معه في تجريدته الرّابعة عام 810 هـ ، وعُرض عليه قضاؤها فأبى وعاد إلى مصر . وتوثّقت صلته بالأمير يَشْبك الدَّوادار وقتاً ، ونال في ظلّه جاهاً ومالاً ، ثم زهد في الوظائف العامّة واستقرّ في القاهرة وتفرّغ إلى الكتابة وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره . ويروي السَّخاوي - وهو معاصره تقريباً - في كتابه «الضّوء اللامع» أنه قرأ بخط المَقريزي أن تصانيفه زادت على مائتي مجلّد ، ويذكر منها أشياء عديدة وصلنا بعضها وباد الآخر .

اختار المَقريزي تاريخ مصر الإسلاميّة ميداناً لخير جهوده وأعظمها ، فوضع فيها طائفة من أنفس الآثار ، أشهرها على الإطلاق كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو يُعرف بخطط المقريزي ، و«السّلوك لمعرفة دُوَل المُلوك» وهو تاريخ دول المماليك في مصر ، وكتاب «المُقفّى» وهو سير الأمراء والكُبراء الذين عاشوا في مصر ، و«دُرَر العُقود الفريدة في تراجم الأعيان المُفيدة» ، و«اتّعاظ الحُنفا بأخبار الأئمّة الفاطميين الخُلفا» والمقريزي بالمناسبة ينتمي بنَسَبه إلى أئمّة الفاطميين ، و«البيان والإعراب عمّا في مصر من الأعراب» ، و«عَقد جواهر الأسفاط في تاريخ الفُسطاط» .

* * *

من بين مؤلّفاته هذه يعنينا هنا كتابه «السّلوك» الذي دوّن فيه أخبار تجريدات السّلطان النّاصر فَرَج إلى الشام ، وهذه التّجريدات كانت سبعاً كما عدّدها مؤرّخ مصر الكبير المعاصر للمقريزي - وتلميذه - ابن تَغري بَردي الأتابكي . فأما الأولى في عام 802 هـ فقد طالعنا أخبارها في نصّ ابن خلدون أعلاه ، والثانية عام 803 هـ لقتال تيمورلنك تابعنا وقائعها في نصّ الأتابك تَغري بَردي الظاهري . وأما تجاريد السّلطان الثالثة والرّابعة والخامسة والسّادسة فالأولى نقلها هنا عن المَقريزي ، على اعتباره كان أدنى معاصريها - لا بل شارك في إحداها عام 810 هـ - كما كان فضلاً عن ذلك من مقرّبي السّلطان النّاصر ويروي عن معرفة وثيقة .

لكننا بخصوص التّجريدة السابعة عام 814 هـ سوف نُحجم عن النّقل منه ، لنأخذ هذه المرّة عن تلميذه ابن تَغري بَردي ، الذي كان آنذاك طفلاً بدأ يعي ما حوله من أحداث ، فنقل بدوره عن المَقريزي ، وشفع ذلك بما رآه بعينه حين قابل النّاصر (ابن عمّته) الذي جاء ليعود أباه المريض نائب دمشق الأتابك ، قبل شهر ونصف من مقتل النّاصر . والمهم في نصّه هذا أنه يروي أحداثاً شخصيّة ويضيف إليها انتقاداً حاداً للمقريزي (كتبه بعد وفاته) ، إذ كان هذا الأخير انضمّ إلى حَشد نُقّاد النّاصر بعد مقتله ، وسَلَقه على صفحات «سُلوكه» بألسنة حِداد !

فممّا كتبه : «وكان النّاصر هذا أشأم ملوك الإسلام ، فإنه خرّب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشام ، من حيث يصبّ النّيل إلى مجرى الفُرات ، فطَرَق الطاغية تيمورلنك بلاد الشام في سنة ثلاث وثمانمائة ، وخرّب حلب وحماة وبعلبك ودمشق وحرقها ، حتى صارت دمشق كوماً ليس بها دار . وقتل من أهل الشام ما لا يحصي عدده إلا الله ، وقطع أشجارها حتى لم يبق بدمشق حيوان ، ونُقل إليها من مصر حتى الكلاب . وخربت أراضي فلسطين ، بحيث أقامت القُدس مدّة إذا أُقيمت صلاة الظّهر بالمسجد الأقصى لا يصلّي خلف الإمام سوى رجلين» .

* * *

وختاماً ، ففي مثل هذه النّصوص التاريخية المختصّة بالحوادث بدلاً من الوصف نكهة خاصة ، نُضيفها إلى نصوص الرّحّالين والجغرافيين لتُكمل الصّورة حول دمشق في عصر سلاطين المماليك ، من حيث تاريخها العمراني والحضاري وتاريخها السياسي ، في فترة كانت من أروع وأغرب وأعنف مراحل تاريخنا الإسلامي على الإطلاق . ويسرّنا أننا تمكنّا هنا من ربط سلسلة وثيقة وهامة حول وقائع دمشق ما بين 791–836 هـ بترابط تام ، في 11 حلقة أرّخ لها سبعة من كبار الكتّاب : ابن حجّة الحموي – ابن صَصْرى – ابن خلدون – الأمير تَغري بَردي الظاهري – المَقريزي – يوسف ابن تَغري بَردي – ابن اللِّبودي .

المصادر :

السّلوك لمعرفة دُول الملوك للمقريزي (التجريدة الثالثة) ، 4 / قسم 1 : 32–38 .
السّلوك لمعرفة دُول الملوك (التجريدة الرابعة) ، 4 / قسم 1 : 55–59 .
السّلوك لمعرفة دُول الملوك (التجريدة الخامسة) ، 4 / قسم 1 : 91–107 .
السّلوك لمعرفة دُول الملوك (التجريدة السادسة) ، 4 / قسم 1 : 136–161 .
النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 13 : 55–57 ، 135 .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسّخاوي ، 2 : 22 .
مؤرّخو مصر الإسلاميّة لمحمد عبد الله عنان ، 85 .

جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة والإعلام
مركز تحقيق التراث

كتاب السلوك
لمعرفة دول الملوك

لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي

الجزء الرابع — القسم الأول
(٨٠٨هـ — ٨٢٤هـ)

حققه وقدم له ووضع حواشيه
الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

مطبعة دار الكتب
١٩٧٢

عنوان كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي

[التّجريدة الثالثة للسلطان النّاصر فَرَج إلى الشّام]

[سنة 809 هـ]

شهر ربيع الأول ، أوّله الإثنين :

فيه برز الأمير شيخ نائب الشام ، والأمير دَمِرداش نائب حلب ، ومعهما جماعة من عسكر دمشق وحلب ، ونزلا خارج القاهرة بالرَّيدانيّة ، ولحق بهما الأمير سُودُن الحمزاوي الدَّوادار ، والأمير سُودُن الطيّار أمير سلاح .

وفي رابعه ضُربت خيمة السّلطان بالرَّيدانيّة . . .[1]

وفي ثاني عشره رحل السّلطان من الرَّيدانيّة يريد الشام ، وجعل الأمير تمراز النّاصري نائب الغَيْبة ، فلم يُحمد رحيله في يوم الجمعة ، فقد نُقل عن الإمام أحمد بن حَنْبَل - رحمه الله - أنه قال : «ما سافر أحدٌ يوم الجمعة إلا رأى ما يكره» .

وفي رابع عشرينه نزل السّلطان غَزّة ، ورحل منها في سابع عشرينه .

وأما الشّام فإن الأمير نَوروز جهّز في أوّله عسكراً من دمشق ، عليهم الأمير سُودُن المحمّدي وأُزبك الدَّوادار ، فساروا إلى جهة الرَّملة .

وفي حادي عشره ، خرج الأمير بِكتَمِر شِلُّق من دمشق لجمع العُشران ، فقدم في ثالث عشره الأمير أينال بيه بن قَجْماس ، والأمير يَشْبِك بن أَزْدَمِر ، وكانا مختفيين بالقاهرة ، من حين عاد الملك النّاصر إلى المُلك بعد أخيه المنصور عبد العزيز ، ووصل معهما الأمير سُودُن المحمّدي لضعفٍ حصل له . فأكرمهما الأمير نَوروز ، وأنعم عليهما . وعُقيب ذلك عاد العسكر المتوجّه مع سُودُن المحمّدي إلى الرَّملة ، لوصول الأمير خاير بك نائب غزّة إليها - هو والأمير أَلْطُنْبُغا العُثماني - وأخبروا باستقرار الأمير شيخ في نيابة الشام ، وأن السّلطان قد خرج من القاهرة .

---

(1) سوف أعمد في هذه النّصوص الأربعة إلى اختصار ما ليس له صلة بموضوعنا .

فاضطرب نَوروز ، وخرج من دمشق في يوم الثلاثاء سابع عشره ، فبلغه وصول الأمير ألطُنْبُغا العُثماني إلى صَفَد ، وقد ولي نيابتها ، ومعه شاهين دَوادار الأمير شيخ . ففرّ منه بِكْتَمِر شِلِّق وقدم على نَوروز ، فعاد حينئذ من جسر [بنات] يعقوب ، وقد عزم على الفرار خوفاً من السّلطان ، ولحق به من كان بدمشق من أصحابه .

وسار من دير زينون في سادس عشرينه على بعلبك إلى حمص ، فدخل شاهين - دَوادار شَيْخ - من الغد يوم الجمعة سابع عشرينه إلى دمشق ، ثم قدم الأمير شَيْخ في يوم الإثنين آخره ، ومعه دَمرداش نائب حلب ، وألطُنبُغا العُثماني نائب صَفَد ، والأمير زين الدّين عُمَر بن الهَيْدَباني أتابك دمشق ، فلم يجد مَن يمانعه .

* * *

شهر ربيع الآخر ، أوله الثلاثاء :

في ليلة الإثنين سابع عشره مات الملك المنصور عبد العزيز ابن الظاهر بَرقوق بالإسكندريّة ، بعد مرضه مدّة إحدى وعشرين ليلة .

ومات بعقب موته من ليلته أخوه إبراهيم ، ودُفنا من الغد ، فكانت جنازتهما جمعها كبير ، ولهج النّاس بأنهما ماتا مسمومين .

وفي هذا اليوم دخل السّلطان إلى دمشق في تجمّل عظيم ، ونزل بدار السّعادة ، إلى أن توجّه يريد حلب في سابع عشره . . .

* * *

شهر جُمادى الآخرة ، أوله السبت :

فيه خرج السّلطان من حلب عائداً إلى دمشق ، وولّى بحلب الأمير جَرْكَس المُصارع ، وولّى الأمير سُودُن بقجة نيابة طرابلس ، وأقرّ الأمير شَيْخ على نيابة الشام . وجَدّ في مسيره حتى قدم دمشق في خمسة أيام ، وترك الخام وراءه .

فثارت طائفة من المماليك ومعهم عامّة حلب على جَرْكَس المصارع ، وقدم الأمير نَوروز بعسكره ففرّ جركس يريد دمشق ، ونَوروز في أثره ، فعثر بخام السّلطان فقطعه ، ووقع النّهب فيه . وخلص الأمير جركس إلى السّلطان ، ودخل معه دمشق في ثامنه . فنزل السّلطان دار السّعادة ، ونادى بالإقامة في دمشق شهرين . وكان الأمير يَشْبك قد دخل بالأمس وهو مريض ، ومعه الأمير دَمِرداش ، والأمير باش باي رأس نوبة .

وقدم الخبر بنزول الأمير نَوروز حَمَاة ثم حمص ووصول جكم إلى حلب ، فسار السّلطان من دمشق يوم الأحد سادس عشره ، بعدما تقدّم إلى العسكر بأن مَن كان فرسه عاجزاً فليذهب إلى القاهرة ، وأن لا يتبعه إلا من كان قوياً ، فتسارع أكثر العساكر إلى العَود إلى القاهرة ، ولم يتبع السّلطان منهم كثير أحد . فانتهى في مسيره إلى قريب منزلة قارة ، ثم عاد مُجداً ، فدخل دمشق يوم الخميس عشرينه ، وقد فُرّق شمله .

وتأخّر جماعة من الأمراء مع شَيْخ نائب الشام ، فخرج الأمير يَشْبك في ثاني عشرينه ، وخرج شيخ ودَمِرداش والطُّبُغا العُثماني في عدّة أمراء يوم الأحد ثالث عشرينه إلى صَفَد ، وسار السّلطان ويَشبك يريد مصر فدخل إلى القدس ، وقد تخلّف الأمير سُودُن الحمزاوي بدمشق ومعه عدّة من الأمراء مُغاضبين للسّلطان . ثم توجّه الحمزاوي من دمشق يريد صَفَد ، وأخذ كثيراً من الأثقال السّلطانية ، واستولى على صَفَد .

وأما الشام فإن الأمير سُودُن الحمزاوي الدَّوادار دخل بالجاليش السّلطاني إلى دمشق في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر ، ودخل الأمير بيغوت في رابعه ، وقدم السّلطان في يوم الإثنين سابعه والأمير شيخ نائب الشام قد حمل الجتر[1] على رأسه ، وبين يديه الخليفة والقضاة والأمير يَشبك وبقيّة العساكر ، فنزل السّلطان بدار السّعادة .

---

(1) الجَتْر كلمة فارسية تعني المظلّة ، أي القبّة التي ستُذكر أدناه في نصّ الأشرف بَرسباي .

وفي يوم الجمعة حادي عشره صلّى السّلطان الجمعة بجامع بني أميّة ، وخطب به وصلّى الشهاب أحمد بن الحسباني . وفي هذه الأيام ركب المماليك السّلطانية تحت قلعة دمشق ، وطلبوا النّفقة وتكلّموا كثيراً بما لا يليق .

وفي ثامن عشره توجّه الأمير شَيْخ نائب الشام والأمير دَمِرداش نائب حلب من دمشق يريدان حلب ، وضُرب خام السّلطان ببرزة ، وخرج السّلطان من الغد فنزل ببَرزة .

* * *

وأهَلَّ جُمادى الأولى والنّاس في دمشق وأعمالها في ضرر كبير لما نزل من جباية الشّعير للسّلطان .

وقدم الأمير يَشْبك من حلب إلى دمشق في سابع جُمادى الآخرة ، ثم قدم السّلطان في ثامنه ، وخلع في عاشره على شيخ خلعة الاستمرار . ونُودي بالإقامة في دمشق ، فتقدّم الخبر في سادس عشره بوصول نَوروز إلى حمص ، فنودي بالرّحيل ، فتقدّم الأمير شَيْخ ، ثم سار السّلطان في آخره . وتوجّه كثير من العسكر إلى جهة القاهرة ، فوصل السّلطان إلى قارا وعاد إلى دمشق يوم الخميس عشرينه ، فخرج الأمير يَشبك في يوم السبت وهومريض يريد القاهرة .

وخرج شَيْخ ودَمِرداش وألطُنبُغا العُثماني في يوم الأحد ثالث عشرينه إلى جهة صَفَد ، ومعهم جماعة من الأمراء ندبهم السّلطان إليها . وخرج السّلطان ليتبعهم ، فنزل الكسوة يريد مصر ورحل . فثار بدمشق في يوم الإثنين رابع عشرينه جماعة نَوروز الذين كانوا مختفين ، ونادوا بالأمان ودقّوا البشائر .

ثم قدم في سابع عشرينه عدّة أمراء ، منهم سُودُن الجلب وجمق وأُزْبك دَوادار نَوروز إلى دمشق . وقدم من الغد إينال بيه بن قَجْماس ، ويَشبك ابن أُزْدَمِر ، ويَشبك السّاقي في عدّة من النَّوروزية .

* * *

شهر رجب ، أوله الأحد :

فيه قدم الأمير نَوروز دمشق ، في موكب جليل .

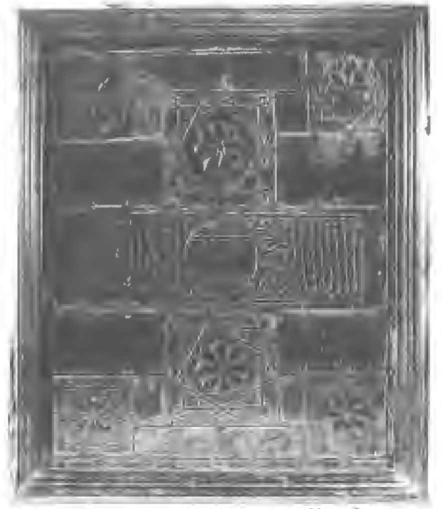
وفيه قدم حريم السّلطان من الشام ، وقدم عدّة من المماليك السّلطانية وغيرهم .

وفي حادي عشره قدم السّلطان إلى قلعة الجبل ، ولم ينل غرضاً ، وقد تلف له مال كثير جداً ، ونقصت عساكره ، فزيّنت القاهرة لقدومه .

(السّلوك للمقريزي ، 4 / قسم 1 : 32-38)

* * *

نموذج من خط المقريزي ، خاتمة كتابه «مختصر قيام الليل» ، مخطوط مكتبة الجمعية الآسيوية في كَلكُتا بالهند ، تاريخ النسخ : 22 جُمادى الآخر سنة 807 هـ



من آثار الناصر فَرَج بلمشق ، الباب الشمالي للجامع الأموي

[التّجريدة الرابعة للسّلطان النّاصر فَرَج إلى الشّام]

[سنة 810 هـ]

شهر صَفَر ، أوله الخميس :

في ليلة الجمعة ثانيه رحل السّلطان من الرَّيْدانيّة خارج القاهرة بمن معه من العسكر ، وجعل الأمير تمراز نائب الغَيبة ، وأنزله بباب السّلسلة ، وأنزل الأمير آقباي بالقلعة . . . وفي يوم الإثنين ثاني عشره دخل السّلطان إلى غَزّة ، فقدم الخبر بفرار الأمير نَوروز من دمشق .

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه دخل السّلطان إلى دمشق ، بعدما خرج الأمير شَيْخ في سابع عشره إلى لقائه ، فأكرمه وسار معه وحمل الجتر على رأسه لمّا عبر البلد . فنزل السّلطان بدار السّعادة ، وصلّى الجمعة بجامع بني أميّة .

وفي يوم الأحد خامس عشرينه قبض عليه وعلى الأمير الكبير يَشْبك بدار السّعادة ، واعتقلهما بقلعة دمشق . وكان الأمير جَرْكَس المصارع أمير آخور قد تأخّر بداره ، فلمّا بلغه الخبر فرّ من ساعته ، فلم يُدرَك . وفرّ جماعة من الشيخيّة واليشبكيّة .

وفي سادس عشرينه خلع على الأمير بيغوت بنيابة الشام ، وعلى الأمير فارس دَوادار تَنِم حاجب الحجّاب ، وعلى عُمر الهَيْدَباني بنيابة حَمَاة ، وعلى صدر الدّين علي بن الأدمي بقضاء الحنفيّة بدمشق .

* * *

شهر ربيع الأول ، أوله السبت :

في ليلة الإثنين ثالثه ، فرّ الأميران يَشْبك وشَيْخ ، وذلك أن السّلطان لمّا قبض عليهما وكّل بهما الأمير مَنطوق لثقته به ، وعمله نائب القلعة ، فاستمالاه حتى وافقهما . ثم تحيّل على مَن عنده من المماليك ، بأن أوهمهم بأن السّلطان أمره بقتل الأميرين ، فصدّقوه . فأخرجهما على أن يقتلهما ، وفرّ بهما .

فلم يبلغ السّلطان الخبر حتى مضوا لسبيلهم . وأصبح السّلطان يوم الإثنين فندب الأمير بَيْغُوت نائب الشام لطلبهم ، فسار في عسكر ، وقد اختفى الأمير شَيْخ في الليل ومضى يَشبك . فلم يُدرك بَيْغُوت غير مَنطوق ، فقبض عليه بعد حرب ، وقتله وقطع رأسه فطيف بها ثم عُلّقت على سُور القلعة .

وقدم الخبر باجتماع يَشبك وشَيخ وجَركس على حمص ، في دون الألف فارس ، وأنهم اشتدّوا على النّاس في طلب المال . فكتب السّلطان إلى الأمير نَوروز - وقد وصل حلب ، وتلقّاه الأمير تَمربُغا المشطوب وأنزله وقام له بما يليق به - يستدعيه لمحاربة يَشْبك وشَيخ ، وولاّه نيابة الشام ، ويأمره أن يحمل إليه جماعة من الأمراء . وبعث إليه التّشريف والتّقليد مع الأمير سلامش ، وقد ولاّه السّلطان نيابة غَزّة . فلبس التشريف وخدم على العادة ، وكتب إليه يعتذر عن حضوره ، بما عنده من الحياء والخوف ، وأنه إذا سار السّلطان من دمشق قدم وكفاه أمر أعدائه .

وفي ثامن عشره قدم الخبر بأن الأمراء الذين فرّوا من دمشق قبض منهم الأمير نَوروز بحلب على الأمير علان ، والأمير جانم ، والأمير إينال الجلالي المنقار ، والأمير جَقْمَق أخو جَركَس[1] . وبعث إليه بالأمير إينال المنقار ، والأمير علان ، والأمير جَقْمَق نائب الكَرَك ، والأمير أسِن باي التّركماني أحد أمراء الألوف بدمشق ، والأمير أسِن باي أمير آخور .

وفي تاسعه قدم كتاب السّلطان إلى الأمراء بمصر يتضمّن دخوله دمشق ، وقبضه على يَشبك وشَيخ وفرار جَركس ، ويأمرهم بالقبض على الأمير تمراز نائب الغَيبة ، فأذعن لذلك ، وقُيّد وسُجن بالبُرج في القلعة . ونزل سُودُن الطيّار موضعه من باب السّلسلة ، وانفرد الأمير آقباي بالحُكم بين النّاس .

وفيه نُودي بالزّينة ، فزُيّنت القاهرة ومصر .

---

(1) سيف الدّين جَقْمَق العلائي هذا أضحى فيما بعد سُلطاناً باسم الملك الظاهر أبو سعيد ، تولّى السّلطنة بين 842-857 هـ .

وفيه قُبض على مُباشري الأمير يَشْبك والأمير تمراز والأمير جَرْكَس المصارع ، ووقعت الحَوطة على حواصلهم .

* * *

شهر ربيع الآخر ، أوله الأحد :

في رابعه ركب السّلطان وتنزّه بالرّبوة وعاد . وفي خامسه لعب بالكرة في الميدان[1] .

وفيه قدم الأمير بِكْتَمِر شِلّق من حلب بالأمراء الذين قبض عليهم الأمير نَوروز . وفيه توجّه حريم السّلطان إلى جهة مصر .

وفي سادسه قُبض على الأمير أسِن باي ، وخرج غالب العسكر .

وفي يوم السبت سابعه خرج السّلطان من دمشق ، ومعه الأمراء الذين أرسلهم إليه الأمير نَوروز ، والأمير سُودُن الحمزاوي ، وقد أحضره من سجن صَفَد ، والأمير أقبَردي رأس نوبة أحد أمراء الطبلخاناه ، والأمير سُودُن الشّمسي أمير عشرة ، والأمير سُودُن البجَاسي أمير عشرة . وسار [السّلطان] إلى مصر ، وجعل نائب الغيبة بدمشق الأمير بِكتَمِر شِلّق . فقدم فيه أُزْبك دَوادار الأمير نَوروز إلى دمشق ، ونزل بدار السّعادة . ونزل بِكتَمِر شِلّق بالإصطبل .

فلمّا كانت ليلة الأحد ثامنه ، طَرَقَ الأمير شَيْخ - ومعه الأمير يَشبك وجَركس المصارع - دمشق ، ففرّ مَن كان بها من الأمراء . ومَلَكَ شَيْخٌ دمشق ، وقبض على جماعة . فورد الخبر في يوم الأربعاء حادي عشره بأن بِكتَمِر شِلّق نزل بعلبك في نَفَر قليل ، فسار يشبك وجركس في عسكر ، فمضى بكتمر إلى جهة حمص ، فوافاهم الأمير نَوروز بجمع كبير على كروم بعلبك ، فكانت بينهما وقعة قُتل فيها يشبك وجَركس المصارع في طائفة . وقبض نَوروز على عدّة ممّن معهما .

---

(1) لعبة الكرة والجَوكان (polo) من ألعاب الفروسية بذلك العصر ، ويريد الميدان الأخضر .

فلمّا بلغ ذلك الأمير شيخ ، سار من دمشق على طريق جرود في ليلة الجمعة ثالث عشره ، وهي الليلة التي تلي يوم الوقعة ، فدخل نَوروز دمشق يوم السبت رابع عشره بغير مُمانع ، وبعث بالخبر إلى السّلطان ، فوافاه ذلك بالعريش في يوم الخميس تاسع عشره ، فسَرّه سروراً كثيراً[1] .

وجَدَّ [السّلطان] في سيره ، حتى صعد قلعة الجبل ضُحى نهار الثلاثاء رابع عشرينه ، وبين يديه ثمانية عشر أميراً في الحديد ، ورِمّة الأمير إينال بيه بن قَجماس وقد حملها من غَزَّة ، فسَجَن الأمراء ودَفَنَ الرِّمّة . فزيِّنت القاهرة ومصر .

(السّلوك للمقريزي ، 4 / قسم 1 : 55-59)

* * *

(1) الطريف أن هذين الأميرين الغادرين (شَيْخ ونَوروز) المتنافسين على نيابة الشام ، سيتّفقان فيما بعد على الثّورة على النّاصر (815 هـ) ، فينجحان في ذلك ويقتلانه (انظر أخبار ذلك في التجريدة السابعة للنّاصر إلى الشام) . ثم يتولّى أحدهما (شيخ) السّلطنة والآخر (نوروز) دمشق ، فيعودان إلى التّشاحن ويقصد المؤيّد شيخ دمشق (817 هـ) ليقضي على خصمه نَوروز فيها (وأخبارها في تجريدة الملك المؤيّد أدناه) .

[التّجريدة الخامسة للسّلطان النّاصر فَرَج إلى الشّام]

[سنة 812 هـ]

شهر الله المحرّم الحرام ، أوله الجمعة ، ثم ثبت أنه الخميس :

وفيه رحل السّلطان من تجاه مسجد تِبْر[1] يريد الشام ، ومعه الخليفة والقضاة وأرباب الدّولة .

* * *

شهر صَفَر ، أوله السّبت :

وفي ثانيه نُودي بدمشق في النّاس بقدوم السّلطان ، فخرجوا إلى لقائه .

وفيه ورد الخبر على السّلطان برحيل الأمير شَيْخ عن دمشق إلى جهة بُصرى .

وفي ليلة الخميس سادسه نزل السّلطان الكسوة ، ففرّ الأمير علان وجماعة من المماليك إلى جهة الأمير شيخ . فركب السّلطان بُكرة يوم الخميس ، ودخل دمشق ، ونزل بدار السّعادة ، ونزل الأمراء في أماكنهم .

وفي سابعه قُبض بدمشق على الشهاب أحمد بن الحسباني ، وسُلِّم إلى ألطُنْبُغا شقل من أجل أنه أفتى بقتال السّلطان . . . وفيه قدم الخبر بنزول الأمير شَيْخ [في] الصَّنمين ، فنُودي في العسكر بدمشق أن يلبسوا السّلاح ، ويقفوا بالليل عند باب الميدان . فبات النّاس على خوف ووَجَل .

وفي تاسعه استقرّ الأمير زين الدّين عُمر الهَيْذَباني حاجب الحجّاب بدمشق ، والأمير ألطُنْبُغا شقل حاجباً ثانياً ، والأمير بَردي باك نائب حَمَاة ، عوضاً عن جانم ، وخُلع عليهم بدار السّعادة . وفيه كُتب تقليد الأمير نَوروز بنيابة حَلَب وجُهّز إليه ، ومعه التّشريف والسّيف على العادة .

---

(1) بُني هذا المسجد عام 145 هـ وعُرف بمسجد البئر ومسجد الجمّيزة ، وفي الدّولة الإخشيدية عمّره الأمير تبر فعُرف به ، لكن حرّفت العامّة التسمية إلى : مسجد التّبن ، وهكذا سيرد في نص ابن تَغري بَردي حول تجريدة النّاصر السابعة . وهو موجود إلى اليوم .

وفي رابع عشره قدم الأمير آق بُلاط من القاهرة بطائفة من المماليك السّلطانية .

وفيه قُبض على رجلين معهما كتب الأمير شَيْخ إلى الأمراء ، فشُنقا .

وفي خامس عشره قدم الأمير بكتَمر جِلَّق نائب طرابلس إلى دمشق ، وكان قد اجتمع مع الأمير دَمِرداش نائب حلب عند باب الحديد ، يريدان حرب الأمير نوروز وهو على مَلَطية ، فوافاهما كتاب السّلطان من غَزَّة بطلبهما ، فسارا حتى قدما على السّلطان .

وفيه قدم الخبر بأن الطاعون قد فشى بحمص ، ومات بها وبحما ألوف من النّاس ، وأنه حدث بطرابلس طاعون .

وفي سادس عشره قدم من مصر عدّة من المماليك السّلطانية .

وفيه فُرض على قُرى المرج والغُوطة - ظاهر دمشق - وعلى بلاد حوران وغيرها شعير يقوم به أهل كل ناحية بقدر معلوم ، فاشتدّ الأمر في جبايته على النّاس .

وفي عشرينه قدم الأمير دمرداش نائب حلب ، فأكرمه السّلطان وأنعم عليه . وفيه خلع على الأمير بكتَمر جِلّق ، واستقرّ نائب الشام عوضاً عن الأمير شيخ ، وخلع على الأمير دمرداش ، واستقرّ في نيابة طرابلس مُضافةً إلى نيابة حلب .

وفي تاسع عشرينه ركب الخليفة المُستعين بالله[1] ، وقضاة مصر الأربعـ[ـة] ، وقضاة دمشق . ونُودي في النّاس بدمشق أن يقاتلوا الأمير شَيْخ الكذا ، فإنه كذا[2] ، إلى غير ذلك في كلام طويل ، يُقرأ من ورقة .

* * *

---

(1) أي الخليفة العبّاسي ، الذي كان آنذاك بدمشق ، وسيكون له شأن فيما بعد في وقائع النّاصر مع شيخ ونوروز . انظر تجريدة الملك المؤيّد شَيْخ أدناه .
(2) من الواضح أن المقريزي لم يشأ في كتابه ترديد الشتائم التي قيلت بحق شَيْخ .

شهر ربيع الأول ، أوله الأحد :

فيه ركب السّلطان من دار السّعادة إلى الرَّبوة ، وعاد .

وفي ثانيه سارت أطلاب السّلطان والأمراء من دمشق إلى الكسوة ، وتبعهم السلطان بعساكره وعليهم آلة الحرب ، فبات بالكسوة ، وأصبح راحلاً إلى جهة الأمير شَيْخ . وأقرّ تنكزبُغا الحططي في نيابة الغَيبة بدمشق ، وسار بُكرة يوم الثلاثاء ، فمرّ بالصَّنمين[1] . . .

وفي هذه الليلة وصلت طائفة من المماليك الجُلبان إلى دمشق ، فنهبوا عدّة مواضع فقاتلهم العامّة ، وقبضوا على جماعة منهم . فاجتمعوا في يوم الخميس عند قبّة سيّار ، فخرج إليهم عامّة دمشق وقاتلوهم .

وفي عاشره قدم كتاب السّلطان إلى دمشق بخبر الواقعة[2] . وفي رابع عشره قدم كتاب السّلطان فقُرئ بالجامع الأموي ، وفيه خبر وقعة صَرْخَد ، وأنه قد حصر الأمير شَيْخ بالقلعة وعَزَم ألا يبرح حتى يأخذه ، وأنه رَدّ أمور دمشق إلى الأمير قردم ، وأن مَن ظفر بأحد من الأمراء المنهزمين وأحضره فله من المال كذا .

وفي ثامن عشره قدم الخبر على السّلطان بأن التّراكمين كسروا الأمير نَوروز كسرةً قبيحة ، فدقّت البشائر بصَرْخَد .

وفيه أُخرج من دمشق بالمنجنيق إلى صرخد . ولم يزل السّلطان نازلاً على صَرخَد يرميها بالمدافع والسّهام ، ويقاتل مَن بها ثلاثة أيام بلياليها ، حتى أحرق جسر القلعة ، فامتنع الأمير شيخ ومَن معه بداخلها وركبوا أسوارها ، فأنزل السّلطان الأمراء حول القلعة ، وألزم كل أمير بقتال جهة من جهاتها . واستدعى المدافع ومكاحل النّفط من الصُّبيبة وصَفَد ودمشق ، ونصبها حول القلعة ، فكان فيها ما يرمي بحجر زنتُه ستون رطلاً دمشقياً .

---

(1) نوجز هنا أيضاً في أخبار وقائع الملك النّاصر والأمير شيخ المحمودي من بُصرى إلى صَرْخَد (صَلخَد حالياً) حيث حوصر الأخير وهُزم ، لنقتصر على ما يختصّ بالشام وحدها .

(2) يعني محاصرة شيخ في صَرْخَد .

وتمادى الحصار ليلاً ونهاراً ، حتى قدم المنجنيق من دمشق[1] على مائتي جَمَل . فلمّا تكامل نصبه ولم يبق إلا أن يُرمى بحجره - وزنته تسعون رطلاً شامياً - ترامى الأمير شَيْخ ومَن معه من الأمراء على الأمير الكبير تَغري بَردي الأتابك[2] ، وألقوا إليه ورقة في سهم من القلعة ، يسألونه فيها الوساطة بينهم وبين السّلطان[3] .

* * *

شهر ربيع الآخر ، أوله الثلاثاء :

فيه قدم السّلطان دمشق قُبيل الغروب ، وقد جَدَّ في المسير ، فنزل بدار السّعادة . وأما الأمير شيخ فإنه نزل من قلعة صَرخَد بعد رحيل السّلطان ، ولبس تشريف نيابة طرابلُس ، وقَبَّل الأرض على العادة ، وعاد إلى القلعة ، وجهّز ابنه إلى الأمير تَغري بَردي ، فرحل به من صَرخد ، ورحل معه سائر مَن تأخّر من الأمراء السّلطانية . . .

وفي سابعه قدم ابن الأمير شيخ - وعمره سبع سنين - فأكرمه السّلطان وخلع عليه ، وأعاده إلى أبيه ومعه خيول وجمال وثياب ومال كبير .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره صلّى السّلطان الجمعة بالجامع الأموي ، وسار بعساكره يريد مصر ، فنزل الكسوة .

(السّلوك للمقريزي ، 4 / قسم 1 : 91-107)

* * *

---

(1) ليتَ شعري أين كان مثل هذا المنجنيق العملاق قبل 9 سنين عندما حاصر المغول دمشق ؟
(2) هو خال السّلطان النّاصر ، تقدّم ذِكره في روايته لاقتحام المغول لدمشق .
(3) يتابع المؤلّف الحديث كيف تم الصُّلح وصَفَح السّلطان عن شيخ ، على أن يُدلي بابنه الصغير بحبل من سُور قلعة صَرْخَد : «فصاح الصغير وبكى من شدّة خوفه ، فرحمه مَن حضر ، وما زالوا به حتى نشله» . وهو ذاته الذي خلع عليه فيما بعد .

[التّجريدة السادسة للسّلطان النّاصر فَرَج إلى الشّام]

[سنة 813 هـ]

شهر ربيع الأول ، أوله الجمعة :

وفي يوم السبت تاسعه استقلّ السّلطان بالمسير من الرّيْدانيّة يريد الشام ، ومعه من الأمراء الألوف تَغري بَردي الأتابك ، وقَنباي ، وقُجُق العيساوي ، وسُودُن الأسندَمِري ، وسُودُن من عبد الرّحمن ، وسُودُن الأشقر ، وكُمُشْبُغا المزوق ، وبَرْد بك الخازندار ، وعدد من أمراء الطبلخاناه والعشرات والمماليك ، والخليفة والقضاة وأرباب الوظائف . وجعل نائب الغَيبة الأمير أُرغون ، وأنزله بباب السّلسلة ، وجعل بقلعة الجبل الأمير كُمُشبُغا الجمالي نائب القلعة .

وفي ليلة الإثنين خامس عشرينه توجّه الأمير شيخ من دمشق ، وأوقع بالعربان ، وأخذ لهم جمالاً وأغناماً كثيرة فَرّقها في أصحابه وعاد ، فكثر عنده الإرجاف بمسير السّلطان ، فلم يثبت للقائه . وخرج من دمشق يوم الثلاثاء سادس عشرينه ، ومعه العسكر ، وتبعه جانم نائب حماة . فلم يشعر النّاس بدمشق في يوم الأربعاء سابع عشرينه إلا والأمير بِكتَمِر جِلّق قد قدم بعد الظهر على حين غفلة ، فأدرك أعقاب الأمير شيخ ، وأخذ منه جماعة .

وقدم السّلطان بعد العشاء من ليلة الخميس ثامن عشرينه ، وقد ركب من بحيرة طبريّة عصر يوم الأربعاء على جرائد الخيل ، ليكبس الأمير شيخ ففاته ، لأن النّذير عندما أتاه يوم الأربعاء ركب من وقته ونجا بنفسه ، فما بلغ سَطح المزّة[1] إلا وبِكتَمِر جِلّق بدمشق ، فمرّ على وجهه وتبعه أصحابه .

---

(1) يرد ذكر «سطح المزّة» موضع استسقاء أهل دمشق في مصادر العهد المملوكي بالقرنين الثامن والتاسع للهجرة ، كتاريخ ابن قاضي شُهبة ويوميّات الشّهاب ابن طوق وكتب ابن طولون لكن المراد به كان مُبهماً ، إلى أن وضّحه لنا العُمري في نصّه المذكور فيما تقدّم بهذا الكتاب . فحدّدتُه بأنه شرقي المزّة القديمة ، بما يشمل ساحة المواساة وأول طريق الشيخ سَعد ومبتدأ الطريق الآخذ إلى أوتوستراد المزّة وكفرسوسة جنوباً ، والجمارك شرقاً . ويُلاحظ بوضوح أن قرية المزّة القديمة تنخفض فعلاً عن هذا السّطح .

وفي يوم الخميس قدمت أثقال السّلطان . وفيه نُودي بدمشق الأمان والاطمئنان ، ولا ينزل أحد من العسكر في منزل أحد ، ولا يشوّش أحد منهم على أحد في بيع ولا شراء . ونُودي أن الأمير نَوروز هو نائب الشام . وقدم الأخناي مع العسكر ، وقد لقي السّلطان بالطريق ، فأعاده إلى قضاء دمشق .

وفي يوم الجمعة صلّى السّلطان الجمعة بالجامع الأموي ، وخطب به وصلّى شهاب الدّين أحمد الباعوني . ثم عُوِّض عن خطابة الجامع الأموي بخطابة القُدس ، وأضيفت خطابة الجامع للأخناي .

* * *

شهر ربيع الآخر ، أوله السبت :

وفي يوم الجمعة سادسه سارت أطلاب السّلطان والأمراء وغيرهم من دمشق إلى بَرزة . وصلّى السّلطان الجمعة بجامع بني أميّة ، وتوجّه بعساكره ، فنزل في مخيّمه على بَرزة . وعمل شاهين الزّردكاش نائب صَفَد على دمشق نائب الغَيبة ، فتحوّل إلى دار السّعادة ونزل بها . وسار السّلطان في طلب الأمير شَيْخ والأمير نَوروز ومَن معهما ، وقد قصدوا حلب[1] .

* * *

شهر رجب ، أوله الخميس :

في خامسه برز الأمير ألطُنبُغا العُثماني والأمير قَنْباي المحمّدي من دمشق يريدان حلب ، وقد أتاهما الطلب من السّلطان . وفيه نُودي بدمشق أن لا يتأخّر بها أحد ممّن قدم من مماليك السّلطان من حلب .

---

(1) حكاية الملك النّاصر مع الأميرين شيخ ونوروز أشبه ما تكون بلعبة القط والفأر ، لا بداية لها ولا نهاية . لكن النهاية أخيراً ستكون بعد سنتين بمقتل النّاصر ، ثم بعد 4 سنوات بمقتل نوروز . فبعد هذه الفقرة يتابع المقريزي ذكر حوادث ملاحقة النّاصر للأميرين من حلب إلى عينتاب ومَرْعَش ، فهربهما إلى البَلقاء ثم غزّة والكَرَك . لكننا سنقتصر على ذكر ما يخصّ بمكوث النّاصر بدمشق ، حتى خروجه منها في ذي القعدة .

وفي هذه الأيام فُرض على قرى دمشق[1] وعلى بساتينها ذهبٌ يُجبى من أهلها ، سوى ما عليهم من الشّعير ، وفرض أيضاً على طواحين دمشق وحمّاماتها مالٌ جُبي منهم .

وفي ثامن عشرينه أُدير مَحْمَل الحاج بدمشق ، فبينما النّاس في التفرّج عليه إذ أتاهم خبر وصول السّلطان من حلب ، فماج النّاس . وقدم بعد العصر في طائفة من خواصه ، ونزل بدار السّعادة . وسبب ذلك أن الخبر ورد عليه بأن شيخ ونوروز وصلا عَينتاب وسارا على البريد ، فبعث عسكراً في طلبهما وركب من حلب على حين غَفلة في ثالث عشرينه ، وسار إلى دمشق في أربعة أيام .

* * *

شهر رمضان ، أوله الأحد :

وأمّا دمشق فإن شهر رمضان هذا افتُتح بمصادرة النّاس ، فأُخذ من الخانات والحمّامات والطّواحين والحوانيت والبساتين أجرتها عن ثلاثة أشهر ، سوى ما أُخذ قبل ذلك . وفيه أُلزم مُباشرو مَدارس دمشق بألف دينار ، وكُلّف القضاة بجمعها .

* * *

شهر شوّال ، أوله الإثنين :

فيه دقّت البشائر بقلعة دمشق لأخذ قلعة صَرْخَد .

---

(1) يبدو من خلال رواية المقريزي (ومن بعده ابن تَغري بَردي) أن دمشق سرعان ما استعادت حياتها وفعالياتها الاجتماعية خلال سنوات يسيرة من كارثة الاجتياح المغولي ، فما رواه الأتابك تَغري بَردي (والد المؤرّخ) في نصّه المقدّم سابقاً عن أن المغول «ساقوا الأولاد والرّجال وتركوا من الصّغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال» ، يدل على أن دمشق خلَت من أهلها تماماً بالكليّة . وما يرويه المقريزي (كما نقلنا أعلاه في ترجمته) يدلّ على مثل ذلك أيضاً ، مضيفاً أن كل لوازم الحياة والمدنيّة جُلبت إليها - حتى الكلاب - من مصر لترميم أمورها . فيبدو من خلال ذلك أن المدينة نجحت في سنوات قليلة بتجاوز المحنة .

وفي خامس عشره خرج مَحمَل الحاج من دمشق ، صُحبة الأمير تِنكِزبُغا الحططي .

* * *

شهر ذي القعدة ، أوله الأربعاء :

وفي رابع عشره نُودي بدمشق بالعسكر أن يلبسوا سلاحهم ويقفوا بأجمعهم عند باب النّصر في يوم الجمعة . وفيه تُتُبّعت الحمير[1] بدمشق ، وأُخذت من البساتين وسائر المواضع ، لتُحمل عليها الأمتعة للسَّفر . فنزل بالنّاس من هذا ضرر كبير .

وفي ليلة الأربعاء خامس عشره خُسف جرم القمر كلّه .

وفي يوم الأربعاء هذا ركب السّلطان من دار السّعادة إلى الغوطة ، فكبس عَقْرَبا[2] ونهبها ، على أن الأمير شَيْخ قد اختفى فيها ، فلم يوجَد . وتبيّن كذب ما قيل ، وحَلّ بأهل النّاحية بلاء عظيم .

وفي يوم الجمعة سابع عشره خرج السّلطان من دمشق ونزل بقبّة يَلبُغا ، وتبعه مَن بقي معه من العسكر ، فبات بمخيّمه ، واستقلّ بالمسير من الغد يريد الكَرَك . وعاد الأمير بِكتَمِر جِلّق نائب الشام وعليه تشريف جليل ، فنزل بدار السّعادة على العادة[3] .

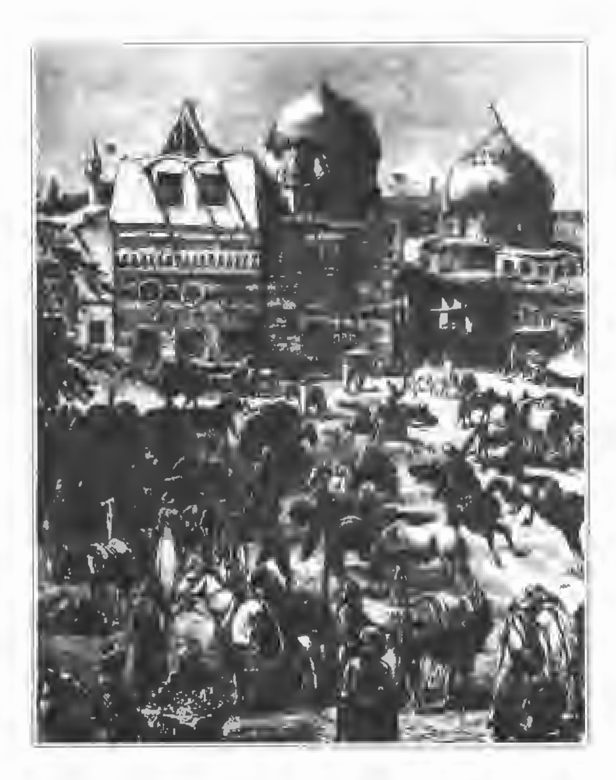
(السّلوك للمقريزي ، 4 / قسم 1 : 136-161)

* * *

(1) طيّب وما ذنب الحمير ؟

(2) عقربا قرية معروفة إلى الجنوب الشرقي من دمشق ، في أيامنا على طريق المطار .

(3) تتمّة الحكاية أن جماعة السّلطان في الكرك ظفروا بعدوّه شيخ خارجاً من الحمّام ، فهاجموه وأصابوه بجُرح بليغ كاد يموت منه ، لكنه نجا لينتصر أخيراً بعد عامين .



المدرسة التغري ورمشية وسوق الخيل ، نُقيشة قديمة حوالي عام 1880

- 61 -

ابن تَغْري بَردي

(توفي 874 هـ/ 1469 م)

أرّخ لتجريدة السّلطان النّاصر فَرَج السابعة إلى دمشق عام 814 هـ

يوسف ابن الأمير الأتابك تَغري بَرْدي البَشْبُغاوي الظاهري ، أبو المحاسن جمال الدّين . مؤرّخ بحّاثة من أهل القاهرة مولداً ووفاة . كان أبوه من مماليك الظاهر بَرقوق ومن أمراء جيشه المقدّمين ، وولي نيابة دمشق ثلاثاً في أيام النّاصر فَرَج ابن بَرقوق ، إبّان غزو التّتار عام 803 هـ (راجع نصّه المتقدّم) . وأمه كانت جارية تركية . ومعنى اسمه بالتركية : الله أعطى ، وكان يُكتب : تنكْرى ويردى ، والكاف الموسومة بثلاث نقط تُلفظ نوناً ، والواو أقرب إلى الحرف V بحركة بين الفتح والكسر ، وفي التّركيّة الحديثة : Tanrı Verdi .

كان يوسف صغيراً لم يبلغ فطامه عندما توفّي أبوه عام 815 هـ ، فنشأ في حجر صهره قاضي القضاة جلال الدّين البُلقيني (المتوفى سنة 824 هـ) ، وتأدّب وتفقّه وقرأ الحديث وأُولع بالتاريخ خاصّة ، وبرع في فنون الفروسيّة وامتاز في علم النّغم والإيقاع . صنّف كتباً نفيسة ، منها «النّجوم الزّاهرة في مُلوك مصر والقاهرة» و«المنهل الصّافي والمُستوفى بعد الوافي» وهو كتاب كبير في التراجم جعله ذيلاً على كتاب «الوافي بالوفيّات» للصّفدي ، كما اختصر المنهل في كتاب «الدّليل الشّافي على المنهل الصّافي» ، و«مَوْرِد اللّطافة في مَن ولي السّلطنة والخلافة» ، و«نُزهة الرّائي» في التاريخ ، و«حوادث الدّهور في مدى الأيام والشّهور» ذيّل به على «السّلوك» للمَقريزي ، و«البحر الزّاخر في علم الأوائل والأواخر» في التاريخ .

ولا مُشاحّة أن أخصّ مؤلّفات الرّجل وأبعدها صيتاً كان «النّجـوم الزّاهـرة» ، وهو تاريخ شامل لمصر ، يبدأ بالفتح الإسلامي وينتهي إلى سـنة 857 هـ = 1453 م . وأهم ما فيه القسـم المتعلّق بعهـد المماليك ، لأن ما سـبقه مأخوذ - في أكثره - عن متقدّمي المؤرّخين (كالمقريزي الذي كان أستاذه) ، بينما في الفترة التي أدركها المؤلف وشارك بأحداث عصره (منذ مطلع الثلث الثاني من القرن التاسع) نرى رأي المؤلّف وتفاعله بما يكتب واضحين تماماً .

ومن أدعى أسباب علوّ قيمة الكتاب ، أن صاحبه كان يستقي معلوماته رأساً من كبار أمراء السّلطنة ، من معارفه وأصحاب أبيه الظاهريّة السّابقين ، وهذا أمر ليس دوماً في مقدور باقي المؤرّخين . زد على ذلك أنه كان يكتب بموضوعيّة لا مثيل لها ، فعندما يؤرّخ حادثة مقتل الملك النّاصر فَرَج - وهو ابن عمّته - يفيض في مَدح جرأته وفروسيّته ومزاياه ، ثم يردف : «ولم أرد بما قلتُه التعصُّب للملك النّاصر المذكور ، فإنه أخذ مالنا وجميع موجود الوالد وتركنا فقراء - يعلم ذلك كلّ أحد - غير أن الحقّ يُقال على أي وجه كان !» .

كذلك يتجلّى للقارئ في كتابه تحقيقاته النّابهة وتحرّيه للوقائع وتبيان أسبابها ونتائجها ، لا بمجرّد النّقل الأجوف عمّن سبقه . من ذلك مثلاً تعليقاته - اللاذعة بعض الشيء - لآراء تقي الدّين المقريزي ، وإقحامه دوماً لرأيه بعبارة «قلتُ» معلّقاً ومصحّحاً ، بما يلزم ذلك من البراهين وأقوال الشهود .

أول نشرة للكتاب كانت للمستشرق الهولندي يِنْبُول T. Juynboll ، الذي نشر القسم الأول في مجلدين بمدينة لايدن سنة 1855-1866 ، منتهياً فيه إلى أخبار الدّولة الفاطميّة عام 365 هـ . وظلّ عمله مبتوراً حتى تابعه المستشرق الأميركي وليَم پُوپَر W. Popper من أساتذة جامعة كاليفورنيا ، فواصل نشر المجلّدات التالية في جامعة كاليفورنيا ببركلي 1909-1933 . ثم أعادت دار الكتب المصرية نشر الكتاب منذ عام 1929 إلى أن اكتمل في 16 مجلداً عام 1972 .

* * *

أرّخ ابن تَغري بَردي في كتابه لسيرة الملك النّاصر فَرَج ابن الظاهر بَرقوق ، وهو ثاني سلاطين دولة المماليك البُرجية من بعد أبيه . والواقع أن سلطنة الظاهر والنّاصر لها علاقة عائليّة بمؤلّفنا ، فأخت أبيه الأمير تَغري بَردي (شيرين) كانت زوجة الظاهر ، وهي أم النّاصر ، فبالتالي يكون المؤلف ابن خاله ، وعدا عن ذلك تزوّج النّاصر من ابنة خاله (فاطمة) . وعدّد المؤرّخ للنّاصر سبع تجاريد قام بها إلى الشام – كما سيمرّ تفصيلها أدناه – وكان مصرعه في سابعها بدمشق حيث مات أشنع ميتة في حربه مع الأمراء الثائرين عليه ، بقيادة الأميرين شَيْخ المحمودي ونَوروز الحافظي (وكلاهما ولي نيابة دمشق) .

إذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فها هو ذا النّاصر يتعرّض للموقف ذاته الذي واجه أباه عام 791 هـ عندما قوبل بالرّفض من قِبَل أمراء الشام بقيادة منطاش . وكان مرّ بالنّاصر موقف آخر في باكورة تولّيه السّلطنة عام 802 هـ ، عندما ثار عليه أيتّمش البجاسي بمعونة تَنم الحَسَني (كما مرّ بنا في نصّ ابن خلدون) . لكن مآل النّاصر في وقعته الأخيرة هذه بأواخر عام 814 هـ ومطلع 815 هـ كان فيها حتفه . فهل تراه قَضى بدعوات ضحايا المدينة التي كان نكص على عقبيه فتركها طُعمةً لتيمورلنك الطاغية ؟ أم هي دماء المئات من ضحايا حكمه الدّامي ؟

نتابع أخبار ما جرى في هذا النّص التالي ، ثم نُتبعه بأحداث الخلاف الذي دَبّ بين المنتصرين عام 817 هـ ، فأكلت ثورتهم أبناءها !

المصادر :

النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 13 : 135–139 .

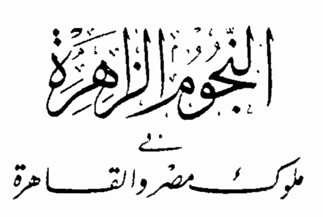
النّجوم الزّاهرة ، 1 : 9–28 .

إعلام الورى لابن طولون الصّالحي ، 37 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 384 .

مؤرّخو مصر الإسلاميّة لمحمد عبد الله عنان ، 114 .

تراثنا



تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

الجزء الثالث عشر

تحقيق

فهيم محمد شلتوت

الناشر
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

كتاب «النجوم الزّاهرة» لابن تغري بردي الأتابكي

[التجريدة السابعة للسلطان النّاصر فَرَج إلى الشّام]

[سنة 814 هـ]

ثم سار السّلطان من القاهرة ، حتى نـزل بمخيّمه من الرَّيْدانيّة تجاه مسجد التِّبن ، وهذه تجريدة السّلطان الملك النّاصر السّابعة إلى البلاد الشاميّة ، وهي التي قُتل فيها حسبما يأتي ذكره ، وهذه التجاريد خلاف تجريدته السَّعيديّة التي انكسر فيها الملك النّاصر من الأمراء وعاد إلى الدّيار المصرية ، ولم يصل إلى قَطيا ، على أنه تكلّف فيها إلى جُمَل مستكثرة ، وذهب له من الأثقال والقُماش والسّلاح أضعاف ما تكلّفه في النّفقة وغيرها .

وكانت تجريدته الأولى إلى قتال الأمير تَنِم الحَسَني الظاهري نائب الشام في سنة اثنتين وثمانمائة . وتجريدته الثانية لقتال تَيْمورلَنك في سنة ثلاث وثمانمائة[1] . والثالثة لقتال جكم مِن عَوَض ، في سنة تسع وثمانمائة ، بعد واقعة السّعيديّة . والرّابعة في سنة عشر وثمانمائة ، التي مسك فيها الأمير شيخاً المحمودي نائب الشام والأتابك يَشْبك الشَّعباني وحبسهما بقلعة دمشق ، وأطلقهما مَنطوق نائب قلعة دمشق . والخامسة في محرّم سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ، وهي التي حصر فيها شيخاً ونَوروزاً بصَرْخَد . والسّادسة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وهي التي حَصَر فيها أيضاً شيخاً ونَوروزاً بقلعة الكَرَك . والتّجريدة السّابعة هذه . فجُملة تجاريده ثماني سفرات بواقعة السّعيديّة . انتهى .

ثم خرج الخليفة المُستعين بالله أبو الفضل العبّاس والقضاة الأربعة ، وهم : قاضي القضاة جلال الدّين عبد الرّحمن البُلقيني الشافعي ، وقاضي القضاة ناصر الدّين محمد بن العَديم الحنفي ، وقاضي القضاة المالكي ، وقاضي القضاة الحَنبلي . ونزل الجميع بالرَّيدانيّة ، وتردّد السّلطان في مدّة إقامته بالرَّيدانيّة إلى التُّربة التي أنشأها على قبر أبيه بالصّحراء خارج باب النَّصر وباتَ بها ليالي ونَحَر بها ضحاياه .

---

(1) نقلنا أخبارها أعلاه ، برواية الأتابك تَغري بَردي الظاهري ، والد المؤلف أبي المحاسن يوسف . أما الثالثة والرّابعة والخامسة والسّادسة فقد نقلناها عن المقريزي .

وجعل الأمير يَلبُغا النّاصري نائب الغَيْبة بالقاهرة ، وجعل في باب السِّلسلة الأمير أَلطُنْبُغا العُثماني ، وبقلعة الجبل الأمير أسنْبُغا الزَّردكاش شادّ الشَّراب خاناه وزوج أخته خُونْد بَيْرَم ، وولّى نيابة القلعة للأمير شاهين الرّومي عوضاً عن كُمُشْبُغا الجَمَالي ، وبعث كُمُشْبُغا الجَمَالي صُحبة حريمه ، وقدّمهم بين يديه بمرحلة .

ثم رحل السّلطان من تُربة أبيه قُبيل الغروب من يوم الجُمعة ثاني عشر ذي الحجّة من سنة أربع عشرة وثمانمائة ، لطالع اختاره له الشيخ بُرهان الدّين إبراهيم بن زُقاعة ، وقد حَرَر ابن زُقاعة وقت ركوبه ، وعوّق السّلطان عن الرّكوب ، والعساكر واقفة ، حتى دخل الوقت الذي اختاره له ، فأمره فيه بالرّكوب . فركب السّلطان وسار يريد البلاد الشاميّة ، ونزل بمُخيّمه من الرّيدانيّة ، وفي ظنّه أنه منصور على أعدائه ، لعِظَم عساكره ، ولطالع اختاره له ابن زُقاعة ، فكانت عليه أيشَم السّفرات .

فلَعَمري ، هل رجع الشيخ بُرهان الدّين بن زُقاعة المذكور بعد ذلك عن معرفة هذا العلم ، أم استمر على دعواه ؟! وأنا أتعجّبُ من وقاحة أرباب هذا الشأن ، حيث يقع لهم مثل هذا الغلط الفاحش وأمثاله ، ثم يعودون إلى الكلام فيه والعمل به ! انتهى[1] .

* * *

ثم استقلّ السّلطان بالمسير في سَحَر يوم السبت ، ثالث عشر ذي الحجّة .

وفي هذا الشّهر انتكس الوالد ثالث مرّة ، ولَزِم الفراش إلى أن مات ، حسبما يأتي ذكره[2] .

---

(1) لا تستغربنّ يا مولانا أبا المحاسن ، ففي أيامنا - بعد خمسة قرون ونصف من وفاتك ، عليك رحمة الله - ما زال كثير من النّاس يلازمون أبواب المُشعوذة والعرّافين ، ولا يقدمون على أمر إلا باستشارتهم ونصائحهم الغالية !

(2) يرد ذكر ذلك في الفقرة التالية التي ننقلها أدناه حول السّلطان النّاصر بدمشق .

وأما السّلطان الملك النّاصر ، فإنّه قبل المسير حذَّر عسكره من الرّحيل قبل النَّفير ، فبَلَغَه وهو بالرَّيْدانيّة أن طائفةً رحلت ، فركب بنفسه وقَبَض على واحد ووَسَّطه ، ونَصَبَ مشنقةً ، فما وصل إلى غزّة حتى قتل عدةً من الغِلمان من أجل الرّحيل قبل النَّفير . فتشاءم النّاس بهذه السَّفرة .

ثم سار حتى نزل مدينة غَزّة ، فوَسَّط بها تسعة عشر نفراً من المماليك الظاهريّة ، وهو لا يَعقِل من شدّة السُّكر . وعقيب ذلك بلغه أن الأمراء الذين بالجاليش توجّهوا بأجمعهم إلى شيخ ونَوروز ، وكان من خبرهم أنّهم لمّا وصلوا إلى دمشق دخلوا إلى الوالد وقد ثَقُل في الضّعف وسلّموا عليه ، وأخبره بكتَمِر جِلَّق عن ذلك ، فذكروا له أعذاراً فسكت عنهم . فقاموا عنه وخرجوا بأجمعهم وتوجّهوا إلى شيخ ونَوروز - ما خَلا شاهين الزّردكاش - فإنه لم يوافقهم على الذهاب ، فمسكوه وذهبوا به إلى شيخ ونَوروز .

ولمّا بلغ الملكَ النّاصر ذلك ، ركب وسار من غَزّة مُجداً في طلبهم ، وقد نفرت منه القلوب ، حتى نزل بالكسوة في يوم الثلاثاء سَلْخ ذي الحجّة ، فألبس مَن معه من العساكر السّلاح ورتّبهم بنفسه .

ثم سار بهم قاصداً دمشق ، حتى دخلها من يومه وقت الزّوال ، وقد خرج أعيان دمشق وعوامّها لتلقّيه وللفُرجة عليه ، وزُيّنت لقدومه دمشق ، ونزل بالقلعة بعد أن نزل عند الوالد بدار السّعادة وسلّم عليه ، وأمر زوجته خُونْد[1] بالإقامة عند الوالد .

* * *

ثم أصبح يوم الأربعاء أول محرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة ، خلع على القاضي شهاب الدّين أحمد بن الكُشْك ، وأعاده إلى قضاء الحنفيّة بدمشق .

---

(1) يعني خُونْد فاطمة ، وهي ابنة الأمير تَغري بَردي والد المؤلّف ، كما كان الأمير أيضاً خال السّلطان ، فأخته خُونْد شيرين كان زوجة الظاهر برقوق وأم أكبر أبنائه فَرَج .

ثم شفع الوالد في القاضي محمد بن البارزي ، فطلبه السّلطان بدار السّعادة وأطلقه من سجنه بقلعة دمشق .

ثم أفرج السّلطان أيضاً عن الأمير نكباي الحاجب ، وكان الوالد قبض عليه وحبسه .

* * *

ثم دخل السّلطان للوالد ، واستشاره في الملأ من النّاس فيما يفعل مع هؤلاء الأمراء العُصاة ، فقال له الوالد : «يا خُونْد ، تذبح في سنتك خمسمائة نفس ، وتتجرّد في سنتك ؟! فرسُك الذي تحتك عاصٍ عليك» ، فقال له الملك النّاصر : «الكلام في الفائت فائت ، أيش تشير عليّ الآن ؟» ، فقال : «عندي رأي أقوله ، إن فعله السّلطان انصلح به حاله»[1] . قال : «وما هو ؟» .

قال : «ترجع من هنا إلى مصر ، فمَن كان له مَيلٌ إليك عاد صُحبتك ، ومَن كان قد دَاخَله الرُّعب منك فهو يفارقك من هنا ويتوجّه إلى القوم ، فإن دخلتَ إلى مصر نادِ بالأمان ، وكفّ عن قتل مماليك أبيك وغيرهم ، وأغدق عليهم بالإحسان ، وأكثِر إليهم من الاعتذار فيما وقع منك في حقّ غيرهم ، واسلُك معهم قرائن تدلّ على صَفو النيّة . فبهذا تطمئنّ قلوب رعيّتك ويعودون لطاعتك ، فإذا صار معك منهم ألف مملوك قهرتَ بهم جميع أعدائك ، لِما شاع من إقدامك وشجاعتك ، ولعظَم ما في قلب أعدائك من الرّعب منك» .

«وأيضاً فإن هؤلاء الأمراء العُصاة قد كثروا إلى الغاية ، فالبلاد الشاميّة لا تقوم بأمرهم ، فإما أن يقع بينهم الخُلف على البلاد فيفترقوا ، وإمّا أن يتّفقوا ويجتمعوا على قتالك ويأتوك إلى مصر ، فاخرج إليهم والقَهم برأس الرّمل ، فإن انتصرتَ عليهم فافعل ما بَدا لك ، وإن كانت الأخرى فاخرج إلى البلاد ، فمن قَرَا يوسف صاحب العراق إلى والي قَطيا في طاعتك . فما عندي غير هذا» .

---

(1) نصيحة خال السّلطان هذه كانت نفعته لولا إباؤه واعتداده البالغان ، وكان قاسياً غشوماً للغاية ، راجع قصة قتله لمطلّقته بنت صُرُق في النّجوم الزّاهرة ، 13 : 130 .

فاستحسن جميع عسكره هذا الرأي إلا هو ، فإنّه لم يعجبه ، وسكت طويلاً ، ثم رفع رأسه وقال : «يا أطا[1] ، أنا قتلتُ هذه الخلائق لتَعظُم حُرمتي ، فإن رجعتُ من هنا أيش يبقى لي حُرمة ؟ وأنا أعرف بحال هؤلاء من غيري ، والله ما صفتهم قُدّامي إلا كالصّيد المجروح ، والله إذا بقي معي عشرة مماليك قاتلتُهم بهم ، ولا أطلب إلا أن يثبتوا ويقفوا ويقاتلوني حتى أنتصفَ منهم» .

فقال له الوالد : «اعلم أنهم الآن يقاتلونك» .

* * *

ثم طَلَبَنا الملك النّاصر ، فأحضرونا بين يديه ، وكنّا ستّة ذُكور ، فقبّلنا يده - وأنا أصغر الجميع - فسأل عن أسمائنا ، فقيل له ذلك . ثم تكلّم الأتابك دَمِرداش المحمّدي عن لسان الوالد بالوصيّة علينا ، فقال [السّلطان] : «هؤلاء أولادي وأصهاري وإخوتي ، ما هذه الوصيّة في حقّهم ؟» . كل ذلك والوالد ساكت ، قد أسنده مماليكه لا يتكلّم ، فلمّا قام النّاصر قال الوالد : «أودعتُ أولادي إلى الله تعالى ، واستعنتُ به في أمرهم» . فنفعنا ذلك غاية النّفع - ولله الحمد - مع ما أُخذ لنا من الأموال التي لا تدخل تحت حَصر ، عند هزيمة الملك النّاصر من الأمراء ودخوله إلى دمشق .

* * *

ثم خرج الملك النّاصر من دمشق بعساكره في يوم الإثنين سادس المحرّم ، ونزل بَرزة ، ثم رحل منها يريد محاربة الأمراء[2] .

(النّجوم الزّاهرة ، 13 : 135-139)

* * *

(1) في التّركية : ata تعني الأب ، كما تُطلق على الآباء والأجداد السّالفين . ومنها اسم عائلة شهيرة بحمص : الأتاسي Atası ، أي الأب بصيغة التّعريف .
(2) نتوقّف عن تفصيل وقائع النّاصر والأمراء خارج دمشق ، لنذكر ما جرى له بها بعدُ .

[مقتل السلطان النّاصر فَرَج بدمشق]

[في مطلع سنة 815 هـ]

قلتُ : وأمّا الملك النّاصر ، فإنّه لمّا انكسر سار نحو دمشق حتى دخلها ليلة الأربعاء في ثلاثة نَفَر ، ونزل بالقلعة وسأل عن الوالد ، فقيل له مُحتَضر .

ومات الوالد في يوم الخميس سادس عشر المحرّم ، ودُفن من يومه بتُربة الأمير تَنِم الحَسَني نائب الشام ، خارج دمشق بميدان الحَصى[1] .

وأما الملك النّاصر فإنه أصبح يوم الأربعاء ، استدعى القضاة والأعيان ووعدهم بكل خير ، وحثّهم على نُصرته والقيام معه ، فانقادوا له . فأخذ في تدبير أموره ، وتلاحقت به عساكره شيئاً بعد شيء .

ثم قدم عليه الأتابك دَمرداش ، فأصبح خلع عليه في عصر يوم الخميس سادس عشر المحرّم بولايته نيابة دمشق - بعد موت الوالد - رحمه الله .

وأخذ السّلطان في الاستعداد وأخرج الأموال ، ثم استولى على جميع ما للوالد من خيل وجمال وقماش وزردخاناه ومال ، من كونه وصيّاً وأيضاً وكيل زوجته ، فكان من جملة ما أخذه نحو الألف فَرَس ما بين مراكيب وجُشار[2] . واستخدم جميع مماليك الوالد المُشتروات ومماليك الخدمة ، وكانوا أيضاً نحو الألف مملوك . وخلَع على طُوغان دَوادار الوالد باستقراره على إمرة طبلخاناه وكذلك رأس نوبة ، فكلّموه فيما أخذ للوالد من الخيول والقماش ، فوعدهم بردّ ما أخذ وأضعافه .

---

(1) لا تزال تربة تَنِم إلى اليوم في حي الحَقلة بالميدان الفوقاني ، وهي من الترب المملوكيّة الأنيقة (أوردنا صورتها هنا) ، وبها إلى اليوم ضريحا الأميرين الظاهريين تَنِم وتَغري بَردي الأتابك . انظر : ذيل ثمار المقاصد لطلس ، 204 . أما الأمير سيف الدين تَنِم tanim ابن عبد الله الحسني الظاهري ، فاسمه الأصلي تَنْبك tan-bey (أمير فَجْر) ، كان من مماليك الظاهر برقوق ، وتولّى نيابة دمشق في أيامه بين 795-802 هـ .

(2) الكلمة مصحّفة عن الفارسية : دوشا (وقد ترد في المصادر المملوكية : دُشار) ، وتعني الدّواب الحلوبة ، لا تُركب بل تُترك لترعى فتدرّ لبناً لصغارها وللشرب .

ثم أحضر السّلطان الأموال وصبّها بين يديه ، فأشار عليه دَمرداش بالخروج إلى حلب فلم يوافقه ، وأبى إلا الإقامة في دمشق ، فأشار عليه ثانياً بالعَود إلى الدّيار المصرية فلم يرضَ وأقام بدمشق . وكان رأي دَمرداش فيه غاية الجودة ، فإن جميع أمراء التّركمان كانت مع الملك النّاصر ، مثل قَرايِلك وابن قَرَمان وبني دُلغادِر وغيرهم ، فحُبِّب إليه الإقامة بدمشق لأمر سَبَق في القدَم .

ولما أخرج السّلطان الأموال أتاه النّاس من كل فَجّ من التّركمان والعُربان والعَشير[1] وغيرهم ، فكتب أسماءهم وأنفق عليهم وقوّاهم بالسّلاح ، وأنزل كل طائفة منهم بموضع يحفظه ، فكان عُدّة مَن استخدمه من المشاة زيادة على ألف رجل . وحَصّن القلعة بالمناجيق والمدافع الكبار ، وجعل بين كل شرّافتين من شرّافات سور المدينة جَنَويّة[2] ، ومن ورائها الرُّماة بالسّهام الخَلَنْج والأسهم الخطّائية[3] ، ونَصَب على كل بُرج من أبراج السّور شيطانياً[4] يُرمى به الحجارة . وأتقن تحصين القلعة بحيث أنه لم يبق سبيل للتوصّل إليها بوجه من الوجوه .

ثم خلع على نكباي الحاجب بنيابة حَمَاة ، ثم ركب قاضي القضاة جلال الدّين البُلقيني ، ومعه بقيّة قضاة مصر ودمشق وجماعة من أرباب الدّولة ، ونُودي بين أيديهم عن لسان السّلطان أنه «قد أبطل المُكوس وأزال المظالم ، فادعوا له» . فعَظُم ميل الشّاميين إليه وتعصّبوا له ، وصار غالبهم من حزبه ، وغنّوا عن لسانه :

«أنا سُلطان ابن سُلطان وأنتَ يا شيخُ أمير»

---

(1) عبارة العشير يُقصد بها أبناء عشائر البدو ، لكن يبدو أنها كانت في ذلك العصر تُستعمل بمعنى الفرق غير النّظامية من المرتزقة القادمين من أرياف الشام .

(2) بحثنا ملياً عن معنى الجنويّة ، فلم نجد سوى ما أورده المقريزي في السّلوك (1 : 757 ، 840 ، 1164) من أنها النقّالة أو المركب التي تنقل الجرحى . ولكن المعنى لا يستقيم بها ولا بدّ أن تكون نوعاً من الأسلحة الشائعة آنذاك ، نسبة إلى جمهورية جنوة الإيطالية .

(3) الأسهم الخطّائية : هي سهام عظيمة يُرمى بها عن قسيّ عظام تُوتَّر بلولب يجرّ بها ويرمي عنها ، فتكاد تخرق الحجر . انظر : صُبح الأعشى للقلقشندي ، 2 : 144 .

(4) يبدو أن هذا نوع من المجانيق ، أما لماذا سمّي شيطانياً فالعلم عند الله .

وأكثروا من الدُّعاء له والوَقيعة في شيخ ونَوروز ، ووعدوه القتال معه حتى الممات .

* * *

واستمرّ ذلك إلى بُكرة يوم السّبت ثامن عشر المحرّم ، فنزل الأمراء على قبّة يَلبُغا خارج دمشق ، فنَدب السّلطان عسكراً فتوجّهوا إلى القبيبات ، فبرز لهم سُودون المحمّدي وسُودون الجَلَب ، واقتتلوا حتى تقهقر السّلطانيّة منهم مرتين ، ثم انصرف الفريقان .

وفي يوم الأحد تاسع عشر المحرّم ارتحل الأمراء عن قبّة يلبغا ، ونزلوا غربي دمشق من جهة الميْدان ، ووقفوا من جهة القلعة إلى خارج البلد ، فتراموا بالنّشّاب نهارهم وبالنّفط ، فاحترق ما عند باب الفراديس من الأسواق .

فلمّا كان الغد من يوم الاثنين عشرين المحرّم ، اجتمع الأمراء للحصار ، فوقفوا شرقي البلد وقبليّه ، ثم كرّوا راجعين ونزلوا ناحية القنوات إلى يوم الأربعاء ثاني عشرينه . ووقع القتال من شرقي البلد ، ونزل الأمير نَوروز بدار الطُّعم . وامتدّت أصحابه إلى العُقيبة ، ونزل طائفة بالصّالحيّة والمزّة ، ونزل شيخ بدار غرس الدّين خليل أستادار الوالد تجاه جامع كريم الدّين الذي بطرف القبيبات ، ومعه الخليفة وكاتب السِّرّ فتح الله ، ونزل بِكْتَمِر جِلّق وقُرْقُماس سيدي الكبير في جماعة من جهة بساتين مُعين الدّين[1] ، ومنعوا الميرة عن الملك النّاصر ، وقطعوا نهر دمشق ، ففُقد الماء من البلد وتعطّلت الحمّامات وغُلِّقت الأسواق .

واشتدّ الأمر على أهل دمشق ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وتراموا بالسّهام والنّفوط ، فاحترق عدّة حوانيت بدمشق . وكثرت الجراحات في أصحاب الأمراء من الشّاميين ، وأنكاهم السّلطانيّة بالرَّمي من أعلى السّور ، وعَظُم الأمر وكَلّوا من القتال .

---

(1) مُعين الدّين أُنُر Onur ابن عبد الله ، أمير تركي من مماليك الأتابك طُغتكين ، حكم دمشق ودافع عنها ببطولة في وجه الصليبيين عام 543 هـ . لكن لا يُعرف موضع بساتينه .

ثم إنّ الأمير شيخاً أرسل إلى شهاب الدّين الحسباني[1] والباعوني[2] ، وقاضي القاضي ناصر الدّين بن العَديم الحنفي قاضي قضاة الدّيار المصريّة - وكان قد انقطع بالشّبليّة[3] لمرض به - فأحضر شيخ الثلاثة وأنزلهم عنده . ثم لحق ناصر الدّين بن البارزي وصدر الدّين الأدمي الحنفي قاضي قضاة دمشق بالأمير شيخ .

ولمّا بلغ الملك النّاصر توجّه ابن العَديم إلى شيخ ، أرسل خلف مُحبّ الدّين ابن الشِّحنة قاضي حلب ، وولاّه قضاء الحنفيّة بالدّيار المصريّة عوضه .

* * *

ثم في يوم الجمعة رابع عشرينه ، أحضر الأمير شيخ الأمير بلاط الأعرج شادّ الشّراب خاناه - وكان ممّن قُبض عليه بعد انهزام الملك النّاصر - ووَسَّطه . ثم أحضر أيضاً الأمير بلاط أمير عَلَم - وكان ممّن قُبض عليه أيضاً يوم الواقعة ، من أجل أنه كان يتولّى ذبح خُشداشيته من المماليك الظاهريّة - فلمّا حُمل للتّوسيط صاح : «يا ظاهريّة الخِيرة ، أنا خُشْداشكُم !» ، قالوا له : «الآن أنت خُشداشنا ، وأيّام الذَّبح كنتَ عدوّنا ؟!» ، فلم يقم إليه أحد .

* * *

---

(1) هو قاضي قضاة دمشق شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن إسماعيل بن خليفة الدّمشقي المعروف بابن الحسباني ، توفي سنة 815 هـ .

(2) شهاب الدّين أحمد بن ناصر بن فرج النّاصر الباعوني ، توفي 816 هـ ، ونسبته إلى باعُون قرية بالقرب من عَجلون . الضوء اللامع للسخاوي ، 1 : 26 .

(3) المدرسة الشّبليّة كانت من مدارس الحنفيّة بدمشق ، بُنيت في أواخر العهد الأيوبي حوالي عام 623 هـ ، واقفها الأمير شبل الدّولة كافور الحُسامي مملوك الأمير حُسام الدّين لاجين ابن الخاتون ستّ الشام أخت النّاصر صلاح الدّين الأيوبي . شقّ الأمير كافور طريقاً يربط المدينة بالصّالحيّة يمرّ في بساتين «عين الكرش» ، ولم يكن للصّالحية طريق إلا من العُقيبة . وبنى مدرسته عند جسر ثورا ، إلى الشمال الغربي من المدرسة البدريّة (التي بوسط ساحة الميسات اليوم) ، فزالت ولم يبق منها إلا تُربته الأنيقة ، التي نُقلت في عصرنا إلى الغرب ولا تزال ماثلة بأقواسها وقبره في حديقة على كتف ثورا .

وفي يوم السبت خامس عشرين المحرّم ، خلع الخليفة المُستعين بالله الملكَ النّاصر فَرَج من السّلطنة ، واتّفق الأمراء على إقامة الخليفة المُستعين بالله المذكور في السّلطنة[1] ، لتستقيم بسلطنته الأحوال وتنفذ الكلمة وتجتمع النّاس على سُلطان . وثبت خلع الملك النّاصر على القضاة ، وأجمعوا على إقامة الخليفة سُلطاناً ، فامتنع الخليفة عن ذلك غاية الامتناع ، وخاف ألا يتمّ له ذلك فيهلك ، وصمّم على الامتناع ، وخاف من الملك النّاصر خوفاً شديداً . فلمّا عجز عنه الأمراء دَبّروا عليه حيلةً ، وطلبوا الأمير ناصر الدّين محمد بن مُبارك شاه الطّازي - وهو أخو الخليفة المُستعين بالله لأمّه - ونَدبوه بأن يركب ومعه ورقة تتضمّن مثالب السّلطان النّاصر ومعايبه ، وأن الخليفة قد خلعه من المُلك وعزله من السّلطنة ، ولا يحلّ لأحد معاونته ولا مساعدته .

فلمّا بلغ الخليفة ذلك ، لامَ أخاه ناصر الدّين بن مُبارك شاه المذكور على ذلك ، وأيِس الخليفة عند ذلك من انصلاح الملك النّاصر له ، فأذعن لهم حينئذ بأن يتسلطن ، فبايعوه بأجمعهم ، وحلفوا له بالأيمان المغلّظة والعُهود على الوفاء له ، وعلى القيام بنُصرته ولُزوم طاعته .

وتمّ أمره على ما يأتي ذكره في أوائل ترجمته من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى[2] .

* * *

(1) كانت هذه حيلة ناجحة من الأميرين الثائرين شيخ ونَوروز ، بيد أن مقصدهما بها كان التلاعب بالخليفة العبّاسي واستخدامه كذريعة للقضاء على مقاومة أتباع الملك النّاصر . ثم بمجرّد أن تمّ لهما ذلك وخُلع النّاصر وقتل في 16 صفر سنة 815 هـ ، تعيّن الأمير شيخ المحمودي نائباً للمُلك بدمشق - في سلطنة الخليفة المستعين - في 8 ربيع الأول ، ثم سرعان ما تمرّد على الخليفة دون أن يخلعه ، وحبسه في القلعة وجلس على سرير المُلك في شهر شعبان وتلقّب بالملك المؤيّد . الأنكى من ذلك ، أنه انقلب عدواً لرفيقه في السّلاح نَوروز وعاد إليه في عام 817 هـ بحملة عسكرية فأمسك به بحيلة غادرة (كما كانا فعلا تماماً بحقّ النّاصر) وقتله ، كما سنذكر أدناه عن ابن تَغري بَردي .

(2) ذكر ابن تَغري ذلك في النجوم الزّاهرة ، 13 : 189 .

وأمّا الملك النّاصر ، فإنّه لمّا تسلطن الخليفة وخُلع هو من المُلك نَفَر النّاس عنه ، وصاروا حزبين : حزباً يرى أن مُخالفة الخليفة كُفر ، والنّاصر قد عُزل من المُلك ، فمن قاتل معه فقد عصى الله ورسوله . وحزباً يرى أن القتال مع الملك النّاصر واجب ، وأنه باقٍ على سلطنته ، ومَن قاتله إنما هو باغٍ عليه وخارج عن طاعته[1] .

ومن حينئذٍ أخذ أمر النّاصر في إدبار ، إلى أن قُتل في ليلة السبت سادس عشر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة بالبُرج من قلعة دمشق ، بعدما حُوصر أياماً ، كما سيأتي ذكره مفصّلاً في ترجمة المُستعين بالله[2] ، إلى أن حُبس بقلعة دمشق .

* * *

وخبرُه : أنه لما حُبس بقلعة دمشق - بعد أمور يأتي ذكرها في سلطنة المُستعين ، وأقام محبوساً بالبُرج إلى ليلة السبت سادس عشر صفر المذكور - دخل عليه ثلاثة نَفَر [هم] الأمير ناصر الدّين محمد بن مُبارك شاه الطّازي أخو الخليفة المُستعين بالله لأمّه ، وآخَر من ثِقات الشيخ ، وآخَر من أصحاب نَوروز ، ومعهم رجلان من المشاعليّة[3] .

---

(1) أحياناً يلجأ بعض أهل السياسة (في تاريخ الشعوب كافة) إلى استخدام الدّين ذريعة للوصول إلى مآربهم ، وغالباً ما ينطلي مثل ذلك على العوام . وإن شئنا نعدّد أمثلة ذلك لضاق بنا المقام وخرجنا عن القصد !

(2) حول بقيّة حوادث الصّراع بين النّاصر وجماعة أمراء دمشق بقيادة شيخ ونَوروز ، يذكر ابن تَغري بَردي التفاصيل لاحقاً في ترجمة الخليفة العبّاسي المستعين بالله ، 13 : 189 . ومُفادها أن النّاصر بعدما تخلّى عنه أعوانه حُصر بقلعة دمشق ، فأذعن إلى الصّلح وتمّ ذلك وأُعطي مواثيق الأمان ، ثم خانوه وغدروا بمواثيقهم فحبسوه ببرج من أبراج القلعة كما يذكر المؤلف ، وأخيراً انتقموا منه بقتله وهو في محبسه .

(3) المشاعلي هو مَن يتولّى التّشهير بمَن يقرّر السّلطان أو النّائب تشهيره حيّاً أو مقتولاً ، كما يتولّى في العادة تنفيذ القتل فيمن يحكم عليهم بذلك . وتسميته تُنسب إلى المشعل الذي يحمله في سيره ليلاً . راجع معجم راينهارت دوزي :

Dozy, R.: *Supplément aux Dictionnaires Arabes.*

فعندما رآهم الملك النّاصر فَرَج قام إليهم فَزعاً ، وعرف فيما جاؤوا ، ودافع عن نفسه وضرب أحد الرّجلين بالمدوّرة صرعه ، ثم قام الرّجل هو ورفيقه ومشوا عليه وبأيديهم السّكاكين ، ولا زالوا يضربونه بالسّكاكين المذكورة ، وهو يعاركهم بيديه وليس عنده ما يدفع عن نفسه به ، حتى صرعاه بعد ما أثخنا جراحه في خمس مواضع من بدنه . وتقدّم إليه بعض صبيان المشاعليّة فخنقه وقام عنه . فتحرّك الملك النّاصر ، فعاد إليه وخنقه وفَرى أوداجه بخنجر كان معه ، وسلبه ما عليه من الثياب . ثم سُحب برجليه حتى أُلقي على مزبلة مُرتفعة من الأرض تحت السّماء ، وهو عاري البَدَن ، يستر عورته وبعض فخذيه سراويلُه ، وعيناه مفتوحتان ، والنّاس تمرّ به ما بين أمير وفقير ومملوك وحُرّ ، قد صَرَف الله قلوبهم عن دفنه ومُواراته[1] . وبقيت الغلمان والعَبيد والأوباش تعبثُ بلحيته وبدَنه .

واستمرّ على المزبلة المذكورة طول نهار السبت المذكور ، فلمّا كان الليل من ليلة الأحد حمله بعض أهل دمشق وغسّله وكفّنه ، ودفنه بمقبرة باب الفراديس احتساباً لله تعالى ، بموضع يُعرف بمرج الدّحداح[2] ، ولم تكن جنازته مشهودة ، ولا عُرف من تولّى غسله ومواراته[3] ...

(النّجوم الزّاهرة ، 13 : 142-148)

* * *

---

(1) في فقرة تالية ينتقد المؤلف بشدّة هذه الأفعال الدّالة على قلّة مروءة أعداء النّاصر ، وأن للموت حرمته وللملوك حُرمتهم أيضاً . ولا شك أنه أصاب في مقالته ، برغم أن أملاك أبيه وإرثه ضاعت بالكامل عليه وعلى إخوته بسبب مصادرة النّاصر لها .

(2) ما تزال تربة مرج الدّحداح معروفة إلى اليوم بدمشق ، بظاهر باب الفراديس ، لكن قبر النّاصر بالطبع درس منذ زمن بعيد ولا يُعرف له موقع .

(3) يروي ابن تغري بردي بعد ذلك أن الملك النّاصر فَرَج مات وله من العمر 24 سنة ، وكان صفته شاباً معتدل القامة ، أشقر ، له لُثغة في لسانه بالسّين ، غير أنه كان أفرس ملوك التّرك بعد الملك الأشرف خليل بن قلاوون بلا مُدافعة .



البرج الشمالي الشرقي لقلعة دمشق ، نقشة قديمة حوالي عام 1880

- 62 -

ابن تَغْرِي بَرْدي

(توفي 874 هـ / 1469 م)

أرّخ لحملة السّلطان المؤيَّد شيخ إلى دمشق عام 817 هـ

يوسف ابن الأمير الأتابك تَغري بَرْدي البَشْبُغاوي الظاهري ، أبو المحاسن جمال الدّين . مؤرّخ بحّاثة من أهل القاهرة مولداً ووفاة ، صاحب كتاب «النّجوم الزّاهرة في مُلوك مصر والقاهرة» . سوف لن نترجم له ثانيةً هنا ، فكنّا قدّمنا ذلك في النّص السّابق أعلاه . وعلى أي حال ، فالنصّ التالي يتمّم ذاك الذي طالعنا فيه حادثة مقتل السّلطان النّاصر فَرَج ابن بَرقوق على أيدي الأمراء الثائرين بدمشق ، بقيادة شَيْخ المحمودي ونَوروز الحافظي . كما يتمّم ما كنّا قدمناه نقلاً عن المَقريزي في ذكر تجريدات النّاصر السّابقة إلى الشام ، ووقائعه مع شيخ ونَوروز .

يبقى أن نُضيف هنا أن الرّجلين عمدا إلى استخدام الخليفة العبّاسي المُستعين بالله كذريعة لكبح مقاومة أتباع الملك النّاصر ، ثم بمجرّد أن تمّ لهما ذلك وخُلع النّاصر ، وقتل في 16 صفر سنة 815 هـ ، تعيّن الأمير شيخ المحمودي نائباً للمُلك بدمشق - في سلطنة الخليفة المستعين - في 8 ربيع الأول . ثم سرعان ما تمرّد على الخليفة دون أن يخلعه ، وحبسه في القلعة وجلس على سرير المُلك في شهر شعبان وتلقّب بالملك المؤيَّد . الأنكى من ذلك أنه ورفيقه في السّلاح نَوروز انقلبا عدّوين ، فقصده شيخ في عام 817 هـ بحملة عسكرية ، وأمسك به بخدعة غادرة (كما كانا فعلا تماماً بحقّ الملك النّاصر) ، وباللجوء إلى التّلاعب بالشّرع ، فقتله وأرسل برأسه إلى عاصمته القاهرة .

تعود جذور الصّراع بين الرّجلين إلى أوائل أيام السّلطان النّاصر فَرَج ابن بَرقوق ، حينما تناوب الرّجلان غير مرّة على نيابة دمشق ، فكان شَيْخ الخاصكي (نائب طرابلس قبل ذلك) وليها للمرّة الأولى عام 804 هـ إثر خروج المغول ، ثم عصى ، فتولاّها نَوروز سنة 808 هـ ، فقصده شيخ وأخذ دمشق منه . وبعد شدّ وجذب بين الرّجلين تولاّها نَوروز بين 809-810 هـ ، فقدم السّلطان في تجريدته الرّابعة فاعتقل شَيْخاً مع أمير اسمه يَشْبِك ، فأطلقهما نائب القلعة .

ثم قصد شيخٌ دمشق وأخذها ، وجهّز حملة لقتال نَوروز في بعلبك أواسط عام 810 هـ ، ففشلت الحملة والتقى شيخ بنَوروز على أهبة القتال فتصالحا ، وحضرا إلى دمشق واتّفقا على العصيان على السّلطان ، وأن يكون نَوروز نائب الشام وشيخ نائب طرابلس . وفي 812-813 هـ حاصرهما النّاصر بصَرْخَد ثم الكَرَك في تجريدتين له ، لكنه كان في كل مرّة يعفو عنهما (وكم كان مخطئاً) .

كان الرجلان في تلك المدّة صَدِيقين للأتابك تَغري بَردي نائب دمشق ، وفي الوقت ذاته تربط بينهما علاقة طيّبة في ظاهرها ، وهي في باطنها مَحض عداء . ثم لمّا قُتل الملك النّاصر بدمشق ، تولّى نيابة المدينة نَوروز واستمرّ إلى أن تسلطن شَيْخ بالقاهرة ، وقدم دمشق فَقتله في سنة 817 هـ كما سنرى ، فأُسدل السّتار أخيراً على هذه الصّداقة العجيبة ، وصَفَت لشَيْخ السّلطنة حتى الممات .

المصادر :

النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 14 : 18 .

النّجوم الزّاهرة (تتمّات أخرى) ، 1 : 9-28 ؛ 13 : 119 .

إعلام الورى لابن طولون الصّالحي ، 34-37 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 384 .

مؤرّخو مصر الإسلاميّة لمحمد عبد الله عنان ، 114 .

الأعلام للزّركلي ، ط 2 ، 9 : 295 .

[رحلة السّلطان المؤيَّد شيخ إلى الشّام]

[سنة 817 هـ]

ثم استقلّ السّلطان ببقيّة عساكره من الرّيْدانيّة في يوم السبت تاسعه ، وسار حتى نزل بغَزّة في يوم الثلاثاء تاسع عشر المحرّم ، وأقام بها أياماً إلى أن رحل منها في تاسع عشرينه ، وسار على هينته حتى نزل على قبّة يَلبُغا[1] خارج دمشق ، في يوم الأحد ثامن صَفَر من سنة سبع عشرة المذكورة ، ولم يخرج نَورُوز لقتاله ، فحَمَد اللهَ المؤيَّدُ على ذلك ، وعلم ضعف أمره ، فإنه لو كان فيه قوّة كان التقاه من أثناء طريقه .

وكان سير الملك المؤيَّد على هَينته حتى يبلغ نَورُوز خبره ويطلع إليه فيلقاه في الفَلا ، فلمّا تأخّر نَوروز عن الطّلوع اطمأنّ الملك المؤيَّد لذلك وقوي بأسُه ، غير أن نَوروز حصّن مدينة دمشق وقلعتها وتهيّأ لقتاله . فأقام السّلطان بقبّة يَلبُغا أياماً ثم رحل منها ونزل بطرف القُبيبات . وكان السّلطان في طول طريقه إلى دمشق يطلب مُوقّعي أكابر أمرائه خفيةً ، ويأمرهم أن يكتبوا على لسان مخاديمهم إلى نَوروز : «أنّنا بأجمعنا معك ، وغرضنا كلّه عندك ، ويكثر من الوَقيعة في الملك المؤيَّد ، ثم يقول في الكتاب : وإنّك لا تخرج من دمشق ، وأقم مكانك ، فإنّنا جميعاً نفرٍ من المؤيَّد ونأتيكَ !» ، ثم يضع من نفسه ويرفع أمر نَوروز ، ويعدّ محاسنه ويذكر مساوئ نفسه . فمشى ذلك على نَوروز وانخدع له ، مع ما كان حَسَّن له أيضاً بعضُ أصحابه في عدم الخروج والقتال ، أرادوا بذلك ضَجَر الملك المؤيَّد وعَوده إلى الدّيار المصرية بغير طائل حتى يستفحل أمرُهم بعَوْده ، فكان مُراد الله غير ما أرادوا .

* * *

---

(1) قبّة يَلبُغا بناها نائب دمشق الأمير يَلبُغا اليحياوي عند قرية القَدَم جنوبي دمشق ، وبها مسجد القَدَم باقٍ إلى اليوم خارج المدينة بعد حيّ الميدان ، وكان من رسُوم دولة المماليك أن السّلطان أو النّائب إذا كان مُغادراً دمشق أو قادماً إليها صُحبة الموكب أو الجيوش ينزل بها . تقابلها بشرقي دمشق مصطبة السّلطان عند القابون . وقد زالتا كلاهما .

ثم أرسل السّلطان الملك المؤيَّد قاضي القضاة مَجد الدّين سالم الحَنبلي إلى الأمير نَوروز في طلب الصُّلح ، فامتنع نَوروز من ذلك وأبى إلا الحرب والقتال ، وكان ذلك أيضاً خديعة من الملك المؤيَّد . وعندما نزل الملك المؤيَّد بطرف القُبيبات خرج إليه عساكر نَوروز ، فنَدَب إليهم السّلطان جماعةً كبيرة من عسكره ، فخرجوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً ، فانكسر عسكر نَوروز وعاد إلى دمشق . فركب نَوروز في الحال وطلع إلى قلعة دمشق وامتنع بها[1] ، فركب الملك المؤيَّد في سادس عشرينه ونزل بالميدان[2] يحاصر قلعة دمشق .

ولّما قيل للمؤيَّد إن نَوروز طلع إلى قلعة دمشق لم يَحمل النّاقل له على الصّدق ، وأرسل مَن يثق به فعاد عليه الخبر بطلوعه إليها ، فعند ذلك تعجَّب غاية العَجَب ، فسأله بعض خَواصّه عن ذلك ، فقال : ما كنتُ أظنّ أن نَوروز يطلع القلعة وينحصر فيها أبداً ، لما سمعتُه منه لّما دخل الملك النّاصر إلى قلعة دمشق ، وهو أنه لّما بلغنا أن النّاصر دخل إلى قلعة دمشق ، قال نَوروز : «ظَفِرنا به وعِزّة الله !» . فقلتُ : «وكيف ذلك ؟» . فقال : «الشخص لا يدخل القلعة ويمتنع بها إلا إذا كان خلفه نجدة ، أو أنّ خصامه لا يمكنهم محاصرته إلا مُدّة يسيرة ثم يرحلون عنه ، وهذا ليس له نَجدة تُرجى ولو أقمنا على حصاره سنين لا نذهب إلا به ، فهو مأخوذٌ لا مَحالة !» . فبقي هذا الكلام في ذهني ، وتحقّقتُ أنه متى حصل له خَلَل توجَّه إلى بلاد التُّركمان ويُتعبني أمرُه ، لعلمي به أنه لا يدخل إلى القلعة - بعد ما سمعتُ منه ذلك - أبداً ، فأتاه ما قالَه في حَقّ النّاصر ، وحَسُن بباله الامتناع بالقلعة حتى طَلَعها ، فلهذا تعجّبتُ .

---

(1) في هذا القول دليل واضح أن قلعة دمشق تم ترميمها بسرعة في أيّام الملك النّاصر فَرَج ، مباشرة بعد خروج المغول الذين أخربوها بشكل بالغ (كما مرّ في نصّ الأتابك تَغري بَردي الظّاهري) ، انظر السّلوك للمقريزي ، 4 / قسم 1 : 39-44 . وفي القلعة قُتل النّاصر عام 815 هـ ، كما يرد في قول المؤيَّد . راجع خبر مقتله في النصّ السابق .

(2) الميدان الأخضر ، علماً أن القصر الأبلق فيه آنذاك لم يعد على حاله فقد أخربه تيمورلنك عام 803 هـ عندما اجتاح دمشق ، وتركه ليمكث في بيت الأمير بتخاص السّودوني بسويقة صاروجا عند ما يُعرف اليوم بالخطأ بجامع بَلَبان (بأول حارة قولي) .

وأخذ المؤيَّد في محاصرته ، واستدام الحربُ بينهم أيّاماً كثيرة في كل يوم ، حتى قُتل من الطائفتين خلائق . فلمّا طال الأمر في القتال أخذ أمر الأمير نَوروز في إدبار ، وصار أمر الملك المؤيَّد في استظهار .

* * *

فلمّا وقع ذلك وطال القتال على النَّوروزيّة ، سئموا من القتال وشرعوا يُسمعون نَوروز الكلام الخشن ، وهدمت المؤيّديّة طارمة دمشق[1] ، كل ذلك والقتال عمّال في كل يوم ليلاً ونهاراً ، والرّمي مُستدام من القلعة بالمناجيق ومكاحل النَّفط . وطال الأمر على الأمير نَوروز ، حتى أرسل الأمير قَمش إلى الملك المؤيَّد في طلب الصُّلح ، وتردَّدت الرُّسُل بينهم غير مرّة ، حتى انبَرَم الصُّلح بينهم بعد أن حلف الملك المؤيَّد لنَوروز بالأيمان المُغَلَّظة ، وكان الذي تولّى تحليف الملك المؤيَّد كاتب سرِّه القاضي ناصر الدّين محمد بن البارزي .

حكى لي القاضي كمال الدّين ابن القاضي ناصر الدّين محمد بن البارزي ، كاتب السِّرّ الشريف من لفظه ، رحمه الله قال : قال الوالدُ : «لمّا أخذتُ في تحليف الملك المؤيَّد بحضرة رُسُل الأمير نَوروز ، والقضاة قد حضروا أيضاً ، فشرعتُ أَلْحَنُ في اليمين عامداً في عدّة كلمات[2] ، حتى خرج معنى اليمين عن مقصود نَوروز[3]» . فالتَفَتَ القاضي ناصر الدّين محمد بن العَديم الحَنَفي ، وكان فيه خفَّة وقال للقاضي الشافعي : «كأن القاضي ناصر الدّين بن البارزي ليس له مُمارسة بالعربيّة والنّحو ، فإنّه يَلْحَن لَحْناً فاحشاً» . فسكَّتَهُ البُلقيني لوقته[4] .

---

(1) الطّارمة : بناء للسّلطان كان مُلحقاً بخارج القلعة ، وهو قاعة خشبية أنيقة ذات شبابيك تعلوها قبّة من الخشب . وفي لهجة دمشق كانت منها بقية : الطّرْمة (غرفة عُلوية) . وسيرد ذكرها في نصّ أبي البقاء البَدري أدناه .

(2) سمعنا بعض أبناء عصرنا يفعلون مثل ذلك ، لكنّهم كانوا سُفهاء لا قضاة !

(3) ما شاء الله ! يجاهر القاضي بسلوكه في أساليب الاحتيال ولا يُراعي ؟ ما الفارق إذاً بين ما فعله وبين ما كان فعله تيمورلنك بالأمس إذ حَنَثَ بعهوده وغدر بدمشق ؟

(4) الملاحظ أن المؤامرة كانت بترتيب ثلاثة من القُضاة ! فما بال شرع الله تعالى يُخالَف لمجرّد أن الغاية تبرّر الواسطة ؟

قلتُ : وكان هذا اليمين بحضرة جماعة من فُقهاء التُّرك من أصحاب نَوروز ، فلم يفطن أحدٌ منهم لعدم مُمارستهم لهذه العلوم ، وإنّما جُلُّ مقصود الواحد منهم يقرأ مُقدّمةً في الفقه ويحلّها على شيخ من الفُقهاء أهل الفُروع ، فعند ذلك يقول : أنا صرتُ فقيهاً ، وليته يسكُت بعد ذلك ، ولكنه يعيبُ أيضاً على ما عدا الفقه من العلوم ، فهذا هو الجهل بعينه . انتهى .

ثم عادت رُسُل نَوروز إليه بصورة الحَلف ، فقرأه عليه بعض مَن عنده من الفقهاء من تلك المَقولة ، وعَرّفه أن هذا اليمين ما بعده شيء . فاطمأنَّ لذلك ، ونزل من قلعة دمشق بمن معه من الأمراء والأعيان ، في يوم حادي عشرين ربيع الآخر ، بعد ما قاتل الملك المؤيَّد نحواً من خمسة وعشرين يوماً أو أزيد . ومشى حتى دخل على الملك المؤيَّد ، فلمّا رآه المؤيَّد قام له ، فعند ذلك قبّل نَوروز الأرض وأراد أن يُقبِّل يده ، فمنعه الملك المؤيَّد من ذلك . وقعد الأمير نَوروز بإزائه ، وتحته أصحابه من الأمراء ، وهم : الأمير يَشْبك بن أُزْدَمِر ، وطُوْخ ، وقَمِش ، وبَرْسْبُغا ، وإينال الرَّجَبي ، وغيرهم . والمجلس مشحونٌ بالقضاة والفقهاء والعساكر السّلطانيّة .

فقال القضاة : «والله هذا يومٌ مُبارَكٌ بالصُّلح وبحَقن الدّماء بين المُسلمين» ، فقال القاضي ناصر الدّين بن البارزي كاتب السِّرّ : «نهارٌ مُباركٌ لو تَمّ ذلك !» . فقال الملك المؤيَّد : «وكيف لا يتمّ وقد حَلَفنا له وحَلَف لنا ؟» . فقال القاضي ناصر الدّين للقضاة : «يا قُضاة ، هل صَحَّ يمينُ السُّلطان ؟» ، فقال قاضي القُضاة جلال الدّين البُلقيني : «لا والله ، لم يُصادِف غرضَ المُحَلِّف» . فعند ذلك أمر الملك المؤيَّد بالقبض على الأمير نَوروز ورفقته ، فقُبِض في الحال على الجميع ، وقُيِّدوا وسُجنوا بمكان من الإسْطبل ، إلى أن قُتل الأمير نَوروز من ليلته ، وحُملت رأسه إلى الدّيار المصريّة على يد الأمير جرباش ، فوصلت القاهرة في يوم الخميس مستهلّ جُمادى الأولى ، وعُلِّقت على باب زُوَيْلة ، ودقّت البشائر ، وزُيِّنت القاهرة لذلك .

* * *

ثم أخذ الملك المؤيَّد في إصلاح أمر مدينة دمشق[1]، ومَهَّد أحوالها، ثم خرج منها في ثامن جُمادى الأولى يريد حلب، حتى قدمها بعساكره، وأقام بها إلى آخر الشهر المذكور.

(النّجوم الزّاهرة، 14 : 18-21)

* * *

(1) ومن الآثار التي تركها بدمشق ويراها النّاس في عصرنا كل يوم، البوابات النّحاسية للباب الغربي للجامع الأموي في محلّة باب البريد، وهي تحمل اسمه : «المؤيّد أبو النّصر شيخ» واسم نائب دمشق في أيّامه «ألطُنْبُغا العثُماني». والمفارقة أن البوّابات المشابهة لها في جهة الشمال (الكلاّسة) تحمل اسم : «الملك النّاصر فَرَج بن برقوق»، وكان الرّجلان أشدّ عدوّين، ولقي النّاصر مصرعه على يدي المؤيّد شيخ ونَوروز الحافظي. هذا مثال حيّ على تاريخ دولة سلاطين المماليك : منتهى الدّيموقراطيّة مع منتهى الظلم، ومنتهى الحريّة مع منتهى العَسف، وخليط عجيب من العُنف والقتل والطموح والشجاعة التامة والجهاد وازدهار الفنون والعمارة.. كل هذا في آن واحد ! كيف ؟ هذا سؤال لا تستوفيه بضعة من السّطور، إنما لا بُدّ من قراءة تاريخ هؤلاء المماليك بإمعان.



من آثار الملك المؤيد شيخ المحمودي بدمشق
باب فرعي للجامع الأموي في مدخله الغربي

- 63 -

عُمَر ابن الوَرْدي

(توفي 861 هـ / 1457 م)

ألّف كتابه عام 822 هـ

سراج الدين أبو حفص ، عُمَر بن عيسى ابن الوَردي ، فقيه شافعي وموسوعي جغرافي ، عاش في القرن التاسع الهجري وتوفي عام 861 هـ . لا يُعرف سوى القليل عن سيرة حياته ، وطالما خلط الباحثون بينه وبين شخص آخر عُرف أيضاً باسم ابن الوردي ، وهو المؤرخ الذائع الصيت زين الدين عمر ابن المظفّر ابن الوَردي (توفي 749هـ) ، صاحب «تتمّة المختصر في أخبار البشر» الذي جعله ذيلاً لتاريخ أبي الفداء المشهور «المختصر في أخبار البشر» .

أما ابن الوردي الأصغر صاحب الترجمة فقد يُعدّ مصرياً باسم : عمر ابن منصور بن محمد ابن الوَردي السُّبكي ، حيث ذكر الزّركلي عثوره على مخطوط باسمه من الخريدة في الفاتيكان . بينما يلوح للمستشرق كراتشكوفسكي أنه من أسرة سميّه المذكور نفسها ، بل ويرى أنه كان شامياً من أهل حلب .

ترك ابن الوردي مصنّفاً مشهوراً في الجغرافيا هو «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» ، من نمط المؤلّفات الكوزموغرافية المعروفة ، حذا فيه حذو القزويني وشيخ الرَّبوة الدمشقي . وقد ألّف ابن الوردي كتابه عام 822 هـ كما صرّح بنفسه في مطلعه ، واعتمد في تأليفه على مصادر كثيرة ، كمؤلّفات الإدريسي والقزويني وابن الجوزي وابن فضلان والقاضي عيّاض وغيرهم . وفي بداية الكتاب أورد خارطة مستديرة للعالم مع وصف لها مفصّل إلى حدّ كاف .

وكتاب «خريدة العجائب» موسوعة متنوّعة تتناول أخبار الأقطار والبلدان والأقاليم والمدن المختلفة ، والخلجان والبحار والجزر ، وعجائب الطبيعة ، والأنهار والعيون والآبار والجبال ، ثم المعادن والأحجار الكريمة ، والنباتات والفواكه والحشائش والحيوانات والطيور ، ويختمه مؤلفه أخيراً بالبحث في أخبار الملوك وعوالم المخلوقات ، حتى يصل إلى البحث في أصل نشوء العالم وأحوال يوم القيامة . ولاشك أن المؤلف قد اعتمد في القسم الكوزمولوجي من كتابه على «كتاب البدء» للمقدسي ، وقد صرّح بذلك مراراً .

ونادراً ما نلتقي على صفحات «الخريدة» بذكر لأوروبا أو آسيا الشمالية أو الهند ، أما أكثر مادّته طرافة فهي تلك التي تخصّ أفريقية وبلاد العرب والشام . وهو يعتمد في كلامه عن الرّوس وأوروبا الشرقية على ما دوّنه المسعودي وسلاّم الترجمان . ومن أهم فصول الكتاب وصفه لمدينة القسطنطينية ما قبل الفتح العثماني (857 هـ = 1453 م) بـ 35 عاماً على اعتبار تأليف كتابه في 822 هـ ، فقد أوضح المستشرق الألماني تيشنر Täschner أن أكمل رواية لوصف العاصمة البيزنطية الذي تناقلته المصادر الإسلامية منذ عهد الإسلام الأول هي التي حفظها لنا نصّ ابن الوردي بالذات .

ونالت خريطة العالم التي أرفقها ابن الوردي بكتابه شهرة كبيرة لدى الباحثين والمستشرقين منذ بداية القرن التاسع عشر ، وأول من نشرها كان المستشرق يوهانسن Johanssen ثم تلاه فون مجيك von Mzhik ومن بعده ميلر Miller ، ولهذه الخريطة نماذج مخطوطة عديدة ، تدلّ كثرتها على مدى شهرتها بين الجغرافيين العرب عبر العصور ، وجميع هذه النماذج يعكس خارطة العالم المستديرة المعروفة لنا جيّداً ، وهي تلك الخارطة التي اصطُلح على تسميتها بـ «أطلس الإسلام» ، والتي تنتسب إلى طراز خارطة الإصطخري . أما من الناحية الفنيّة فإن خارطة ابن الوردي لا تقلّ عن غيرها من الخرائط ذات النوع المماثل ، لا بل تضمّ عناصر جغرافية جديدة ، فعلى سبيل المثال تظهر عليها بالقسم الأوروبي بلاد البلقان والألمان للمرّة الأولى على خارطة عربية .

أول من نشر نصوصاً من «خريدة العجائب» كان السويدي أندرياس هيلاندر A. Hylander في لُند بالسّويد عام 1824 ، ثم نشر منه نصوصاً أخرى تورنبرغ C.J. Tornberg بأوپسالا في السّويد أيضاً ، ونشر منه فرين M. Frähn في هالّه بألمانيا . ثم ظهرت منها منذ عام 1276 هـ طبعتان منقولتان في القاهرة ، وأخيراً صدرت في بيروت عام 1991 طبعة تجارية جديدة منقولة عن طبعتي القاهرة بعناية محمود الفاخوري ، وعنها أخذنا ما يختص بدمشق .

والملاحظ أن ابن الوردي ينقل أشياء كثيرة عن كتاب «نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق» للشّريف الإدريسي ، كما فعل غيره من الجغرافيين الذين يركنون إلى النّقل دون تحرٍّ ، فكم تطالعنا عبارة الإدريسي المغلوطة عن نبع عين الفيجة أنها «عين تخرج من أعلى جبل وتنصبّ إلى أسفل بصوت هائل ودويّ عظيم» ، بينما المعروف أن مخرج العين على مستوى منخفض .

على ذلك نركن إلى الشك بأن ابن الوردي كان على دراية مباشرة بأحوال دمشق ، وهو وإن كان زارها أم لم يزرها فقد عمد إلى النّقل من سواه دون زيادات تُذكر - على خلاف ما كنّا رأيناه في نصّ الحِمْيَري أعلاه - فيما عدا إضافتين هامتين : قنوات الصّوف ، نُقَب ثورا .

المصادر :

خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي ، مقدّمة الفاخوري .

الدّرر الكامنة لابن حجر ، 3 : 195 . (ترجمة ابن الوردي الأكبر)

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 2 : 500-504 .

دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة ابن الوردي لابن أبي شنب .

الأعلام للزّركلي ، ط 2 ، 10 : 162 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 4 : 136 .

Huart, Cl.: *Littérature Arabe*, Paris, 1923.

أرض دمشق

من كورها كورة الغوطة ، وكورة البقاع ، وكورة بعلبك ، وكورة جولان ، وكورة ظاهر ، وكورة الحولة ، وكورة طرابلس ، وكورة البلقاء ، وكورة جبريل الغور ، وكورة كفرطاب ، وكورة عمّان ، وكورة السَّراة .

ومن مدن الشام الشهيرة دمشق المحروسة ، وهي أجمل بلاد الشام مكاناً وأحسنها بنياناً وأعدلها هواءً وأغزرها ماءً . وهي دار مملكة الشام ولها الغوطة التي لم يكن على وجه الأرض مثلها ، بها أنهار جارية مخترقة وعيون سارحة متدفّقة وأشجار باسقة وثمار يانعة وفواكه مختلفة وقصور شاهقة . ولها ضياع كالمدن .

[الجامع الأموي]

وبدمشق الجامع المعروف ببني أميّة الذي لم يكن على وجه الأرض مثله ، بناه الوليد بن عبد الملك وأنفق عليه أموالاً عظيمة ، قيل إن جملة ما أنفق عليه أربعمائة صندوق من ذهب ، وكلّ صندوق أربعة عشر ألف دينار . واجتمع في ترخيمه اثنا عشر ألف مرخّم . وقد بُني بأنواع الفصوص المحكمة والمرمر المصقول والجزع المكحول . ويقال إن العمودين اللذين تحت قبة النسر اشتراهما الوليد بألف وخمسمائة دينار ، وهما عمودان مجزّعان بحُمرة لم يُرَ مثلهما . ويقال إن غالب رخام الجامع كان معجوناً ، ولهذا إذا وُضع على النار ذاب . وفي وسط المحيط الفاصل بين الحرم والصّحن عمودان صغيران يقال إنهما كانا في عرش بلقيس . ومنارة الجامع الشرقية يقال إن المسيح ينزل عليها ، وعندها حجر يقال إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً .

قال بعض السّلف الصالح : مكثتُ أربعين سنة ما فاتتني صلاة من الخمس بهذا الجامع ، وما دخلته قطّ إلا وقعت عيني على شيء لم أكن رأيتُه قبل ذلك من صناعة ونقش وحكمة .

[وديان دمشق وأنهارها]

ومن باب دمشق الغربي «وادي البَنَفْسج» ، وطوله اثنا عشر ميلاً في عرض ثلاثة أميال ، مفروش بأجناس الثمار البديعة المنظر والمخبر ، ويشقّه خمسة أنهار . ومياه الغوطة كلها تخرج من نهر «الزَّبداني» و«عين الفيجة» ، وهي عين تخرج من أعلى جبل وتنصبّ إلى أسفل بصوت هائل ودَويّ عظيم[1] ، فإذا قرب إلى المدينة تفرّق أنهاراً هي : بردى ويزيد وثورة وقناة المزّة وقنوات الصُّوف[2] وقنوات بانياس وعقربا . واستعمال هذا النهر للشرب قليل لأن عليه مصبّ أوساخ المدينة ، وهذا النهر يشقّ المدينة وعليه قنطرة . وكل هذه الأنهار يخرج منها سواقٍ تخترق المدينة فتجري في شوارعها وأسواقها وأزقّتها وحمّاماتها ودُورها وتخرج إلى بساتينها .

[الشامات الخمس]

والشام خمس شامات ، هكذا قرّر في كتاب العقد الفريد :

فالشام الأولى : غزّة والرَّمْلة وفلسطين وعسقلان وبيت المقدس ، ومدينتها الكبرى فلسطين . والشام الثانية : الأردن وطبريّة والغور واليرموك وبيسان ، ومدينتها الكبرى طبريّة . والشام الثالثة : الغوطة ودمشق وسواحلها ، ومدينتها الكبرى دمشق . والرابعة : حمص وحماة وكفر طاب وقنّسرين وحلب . والخامسة : أنطاكية والعواصم والمصّيصة وطرسوس .

(خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، 48-50)

* * *

---

(1) هذه العبارة منقولة بحذافيرها عن كتاب «نزهة المُشتاق» للإدريسي ، وذكرتُ في المقدّمة أن ما بها مغلوط ، فعين الفيجة تنبع على مستوى منخفض .

(2) هذه تسمية جديدة ينفرد بها ابن الوردي حول نهر القنوات .

جبل الرَّبوة

وهو على فرسخ من دمشق ، ذكر بعض المفسّرين أنها المراد بقوله تعالى : ﴿وآويناهُما إلى رَبوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعين﴾ . وهو جبل عال على قُلّته مسجدٌ حَسَن بين بساتين وأشجار ورياض ورياحين من جميع جوانبه ، وله شبابيك تطلّ على ذلك كله . ولمّا أرادوا إجراء نهر ثورة وقع هذا الجبل في طريقه معترضاً فنقبوه من تحته وأجروا الماء من النّقب[1] . وعلى رأسه نهر يزيد ، وهو ينزل من أعلاه إلى أسفله .

وفي هذا الجبل كهف صغير زعموا أن عيسى بن مريم عليهما السلام ولد فيه . قال القزويني : رأيتُ في هذا المسجد في بيت صغير حجراً كبيراً حجمه كحجم الصندوق ذا ألوان مختلفة عجيبة ، وقد انشقّ نصفين كالرمّانة المنشقّة ، وبين الشقّين من أعلاه فتح ذراع ، وأسفله ملتئم لم ينفصل شقّ عن الآخر . ولأهل دمشق في هذا الجبل أقاويل كثيرة أضربنا عنها .

(خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، 181-182)

جبل قاسيون

وهو جبل مشرف على دمشق ، فيه آثار الأنبياء وهو معظّم من الجبال . وفيه مغارات وكهوف ومعابد للصالحين ، وفيه مغار يُعرف بمغارة الدمّ يقال إن قابيل قتل هابيل [فيها] ، وهناك حجر يزعمون أنه الحجر الذي فَلَق به هامته . وفيه مغارة أخرى يسمّونها مغارة الجوع ، يقال إن أربعين نبيّاً ماتوا بها من الجوع .

(خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، 187)

* * *

---

(1) واسم هذا النقب : «المنيقبة» . أنظر ما سيرد عنه في نصّ الرحالة البدري - رقم 68 .

خارطة العالم

لابن الوردي المتوفى سنة (٧٤٩هـ - ١٣٤٨م)

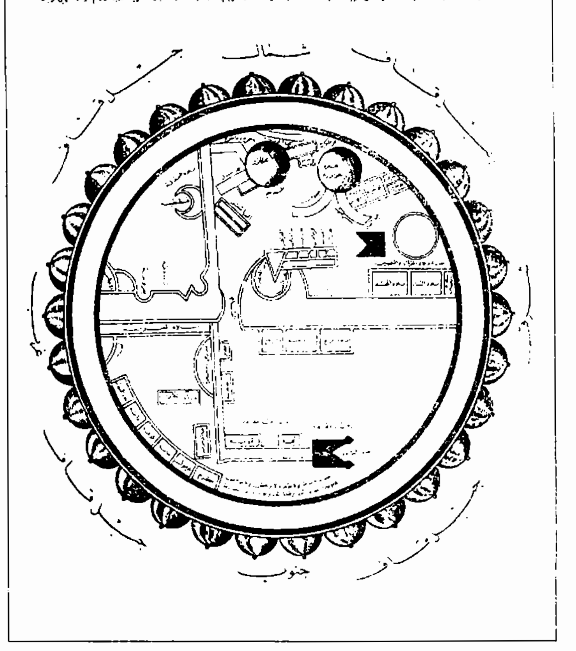
هو أبو حفص زين الدين عمر بن المظفر الشهير بابن الوردي الشافعي، ولد في معرة النعمان وتوفي سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩م)، كان بارعاً في اللغة والفقه والنحو والأدب والجغرافية، له عدة مؤلفات في النثر والأدب وله في الجغرافية كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» يشتمل على وصف الأقاليم والبلدان والمعادن والنبات والحيوانات، وفي الكتاب خارطة تمثل الأرض والبحار والجبال كما يراها المؤلف. وهذه الخارطة المنقولة أدناه من كتابه المذكور.

- مقتطفات من كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب:

«... والذي عليه الجمهور أن الأرض مستديرة كالكرة وأن السماء محيطة بها من كل جانب كإحاطة البيضة المحّ، فالصفرة بمنزلة الأرض وبياضها بمنزلة الماء وجلدها بمنزلة السماء غير أن خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستديرة المستوية الخرط حتى قال مهندسوهم لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الآخر ولو ثقب مثلاً بأرض الأندلس لنفذ الثقب بأرض الصين.»

- ضبط الدكتور حسين مؤنس.

ملحوظة: إن الخارطة الأصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي أن الشمال في أسفل الخارطة والجنوب في أعلاها وقد عكسناها على الطريقة الحديثة في رسم الخرائط للشمال الرئيسي



- 64 -

ابن شاهين الظاهري

(توفي 873 هـ / 1468 م)

زار دمشق في عام 831 هـ وولي بها وظائف

غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، أحد كبار رجال الإدارة في دولة المماليك ، كان أبوه من مماليك السّلطان الظاهر بَرقوق وإليه نُسب الابن . ولد خليل عام 813 هـ بالقدس ثم تلقّى تعليمه بمصر ، وشغل عدداً من المناصب الهامّة في حكومة المماليك ، فكان والياً على الإسكندريّة وأميراً للحجّ لعام 840 هـ ثم أصبح والياً على الكَرَك وصفد ومَلَطية وأتابكاً لحلب وناب مدّة بالقُدس . وأخيراً توجّه إلى دمشق فتولّى بها مناصب هامة وتقدمات ، وولّي إمرة الحاج الدّمشقي مرّة بأواخر عهد الظاهر جَقْمَق ، وأخرى بأوائل عهد الأشرف إينال .

ومن جرّاء تقلّبه في مناصب الدولة المختلفة تمكّن من التعرّف عن كثب على ولاياتها الكبرى : مصر والشام والحجاز . ولعلّ نشاطه الإداري هو الذي دفعه في عهد السّلطان الظاهر جَقْمَق (842-857 هـ) إلى التفكير في وضع مصنَّف لعمّال الدولة ، فبدأ عمله بكتابة مجلّدين ضخمين في 40 باباً ، ثم اختصره في 12 باباً بعنوان : «زُبدة كشف الممالك في بيان الطُرُق والمسالك» . وأقرب شبيه له في هذا المضمار هو كتاب «التّعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله العمري .

في هذا الكتاب ، جهد الظاهري في تقديم صورة متكاملة الجوانب للنظام الإداري بمصر ، كما أن الباب الأول من كتابه الذي يُعدّ أوسع فصوله جميعاً يعرض تحليلاً جغرافياً عاماً للحجاز وبعض فلسطين ومصر والشام .

وفي الباب الثاني ينتقل إلى الكلام على نظام السّلطنة وما يتحلّى به السّلطان من الصفات ، ويصف الموكب الشريف والملبوس . وفي الباب الثالث وما يليه يرد الكلام على الخليفة وقاضي القضاة والأئمّة والوزارة وما يرتبط بها من مناصب ودواوين ، أمّا الثامن فيختصّ بملحقات الدُّور السّلطانيّة ، والتاسع بالجسور والطرق وتقسيم الولايات . ثم يضمّ الباب العاشر وصفاً لنظام الجيوش عند المماليك ، بينما يختصّ الحادي عشر بتفصيل المماليك من العربان والتُّركمان والأكراد ، وأما الثاني عشر ففيه أساطير قديمة .

وبشكل عام يتميّز كتاب خليل بن شاهين الظاهري بالتلوّن وبأهميّة مواد أبوابه الأولى ، وبخاصّة لأنه ينتمي إلى عصر لم تصلنا منه مادّة جغرافية وفيرة . أما الشام ودمشق فقد ذكر عنها الظاهري في كتابه نُبذة يسيرة ، نقلناها من طبعة بول راڤيس P. Ravaisse الصادرة بالمطبعة الوطنية في باريس عام 1894 م . كما رجعنا إلى ما نشره أستاذنا المنجّد من طبعة راڤيس مُعارَضاً على مخطوطة الزّبدة في مكتبة السّلطان أحمد الثالث باسطنبول ، رقم 2290 .

وكان ابن شاهين زار دمشق مراراً ، إحداها - كما يذكر أدناه - عام 831 هـ بأيام الملك الأشرف بَرْسْبَاي (825-841 هـ) . لكنه بعد ذلك أقام فيها مراراً وولي مناصب مختلفة في أيام الظاهر جَقْمَق خاصّة ، ثم الأشرف إينال .

المصادر :

زبدة كشف الممالك للظاهري ، مقدّمة راڤيس بالفرنسية .

الضوء اللامع للسخاوي ، 3 : 195 .

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي 2 : 472 .

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ، 290 .

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 3 : 248 .

دمشق

وأما المملكة الشاميّة فإنها مملكة متّسعة جداً ، وهي عدّة أقاليم ومُدُن وقلاع ، وقد تقدّم أن مدينتها العظمى دمشق . وهي مدينة حسنة إلى الغاية تشتمل على سُور مُحكم وقلعة مُحكمة ، وبها طارمة مُشرفة على المدينة ، بها تخت المملكة مغطّى لا يُكشف إلا إذا جلس السّلطان عليه[1] .

وفضائل الشام كثيرة . وبها جوامع حسنة ومدارس وأماكن مُباركة وشوارع وأسواق وحمّامات وبساتين وأنهر وعمائر تحيِّر الواصف فيها . قال بعض المفسّرين في قوله تعالى : ﴿إرَمَ ذاتِ العماد التي لم يُخلق مثلُها في البلاد﴾ : وهي دمشق .

وبها بيمارستان لم يُر مثله في الدنيا قطّ ، واتّفقت نُكتة أحببتُ ذكرها : وهي أني دخلتُ دمشق في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، وكان بصُحبتي شخص عجمي من أهل الفضل والذّوق واللطافة ، وكان قاصداً الحجّ في تلك السنة ، وألّف مناسك الحجّ على أربعة مذاهب . فلمّا دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتّحف واللطائف التي لا تُحصر قَصَد اختبار حال البيمارستان المذكور ، فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام ، ورئيس الطبّ يتردّد إليه ليختبر ضعفه . فلمّا جسّ نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدّجاج المُسمّن والحلوا والأشربة والفواكه المتنوّعة . ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها أن «الضيف لا يُقيم فوق ثلاثة أيام !» . وهذا في غاية الحذاقة والظرافة .

وقيل إن البيمارستان المذكور منذ عُمّر لم تنطفئ فيه النّار .

وأمّا جامع بني أميّة فهو أحد العجائب الثلاث ، ولقد رأيتُ في بعض التواريخ أن عجائب الدنيا ثلاث : منارة الإسكندرية ، وجامع بني أميّة ، وحمّام طبريّة .

---

(1) تعاقب على السّلطنة في الفترة المذكورة : الأشرف برسباي (825-841 هـ) ، ثم الظاهر جَقْمَق (842-857 هـ) ، ثم الأشرف إينال (857-865 هـ) .

وأمّا الميدان الأخضر وما به من القصور الحسنة[1] فعجيبة من العجائب ، وأما مُفترجات دمشق فيعجز الواصف عن حصرها ، ومن جُملتها : الجبهة والرَّبوة والعاشق والمعشوق وبين النهرين وتحت الطّارمة والتّخوت والمقاسم والوادي الفوقاني والتّحتاني والصالحيّة والسبعة والعنّابة .

وأمّا ما بها من الأماكن المباركة والمزارات : مشهد الحسين رضي الله عنه ، ومشهد الخضر عليه السلام ، وقبر محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وزاوية الخضر[2] ، ومصحف بخط عثمان رضي الله عنه ، وبها المنارة التي أقام بها الإمام الغزالي وابن تومرت الذي ملك بلاد المغرب ، وقيل إن عيسى بن مريم عليهما السلام ينزل عليها ، وقبر نور الدين محمود ابن زنكي ، وقبر صلاح الدين يوسف بن أيّوب ، وقبر بلال بن حمامة ، وقبور ثلاثة من أزواج النبي عليه السّلام ، وقبر فضّة ، وقبر أبي الدَّرداء وأمّه ، وقبر فُضالة ابن عُبيد ، وقبر سهل بن الحنظلة ، وقبر واثلة بن الأسقع ، وقبر أوس الثقفي ، وقبر أم الحسن ابنة حمزة ، وقبر علي بن عبد الله بن العبّاس ، وقبر أخيه ، وقبر خديجة ابنة زين العابدين ، وقبر إسكندر (؟) ابن الحسن ، وقبر أويس القرني ، وقيل إنه في الرّقّة ، وقبر عبد الله بن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وقبر دحية الكلبي . وقيل إن بها هابيل ومغارة الجوع ، وقيل إن بها أربعون بيتاً ومائة وستون وثلاثون مغارة .

وبدمشق المحروسة سبعة أنهر ، إذا جُمعت صارت مثل النّيل . وأمّا ما بها من الفواكه الرّطبة واليابسة والرياحين والأشياء المُفردة واللطائف والأقمشة ما يطول شرحه . وبها الثلج لا يزال على الجبال شتاءً وصيفاً ، وجميع أهلها يشربون منه ويُنقل منه إلى السّلطان وأركان الدولة الشريفة .

(زبدة كشف الممالك للظاهري ، 44-46)

---

(1) ليته كان وصف لنا بعض هذه القصور أو سمّاها على الأقل ، فليس لدينا عنها ما يكفي .

(2) الأصحّ مصطبة الخضر خارج باب الفَرَج ، فزاوية الخضر بجبل المزّة ليست مزاراً شريفاً ، والخضر هذا كان شيخاً للملك الظاهر بيبرس ، تبيّن أواخر حياته أنه ماجن نصّاب .

من الباب العاشر
في وصف الممالك الشريفة الإسلاميّة

الأولى : المملكة الشاميّة :

كافلها[1] له أبّهة عظيمة حتى أنه يحاكي السلطان في الأبّهة ، إذ شرفه مُستقاد من شرف السلطان ، وله الحكم والولاء على ما تقدّم من المدن المنسوبة إلى دمشق . وبها أمير كبير وحاجب الحَجّاب ، وكان قديماً بها اثنا عشر أميراً مقدّمي الألوف وعشرين أميراً من الطبلخانات وستّين أميراً من العشروات والخمسوات .

وأما السّادة القضاة بها أربعة من المذاهب الأربعة ، لكل منهم نوّاب بدمشق ومعاملاتها ، وأما المباشرون ففيها كاتب سرّ وناظر جيش واستادار العالية وناظر خاص ووزير وناظر دولة وغير ذلك .

وأما أرباب الوظائف ففيها كاشفان وعدّة ولاة بكل إقليم وولاة المدينة ونقيب جيش ومهمّندار ، وأرباب الوظائف الدينيّة والديوانيّة قريبة مما وصفنا من أرباب الوظائف بالديار المصريّة .

وبها نائب القلعة المنصورة وسبعة حُجّاب وغير ذلك مما يطول شرحه . وأمّا الجُند فكانوا قديماً اثني عشر ألف جندي من الحلقة ، وبخدمة كافلها ألفان ، وبخدمة الأمراء نصف ما بخدمة الأمراء بالديار المصريّة .

(زبدة كشف الممالك للظاهري ، 131)

* * *

---

(1) يعني نائبها كما كان يُسمّى في عهد المماليك ، وعام 831 هـ (إن صحّ كون وصفه بزيارته في هذا العام) كان نائب دمشق سيف الدّين سُودون الظاهري (827-835 هـ) .

كتاب

زبدة كشف الممالك

وبيان الطرق والمسالك

تأليف

غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري

قد اعتنى بتصحيحه

بولس راويس



طبع

في مدينة باريس المحروسة

بالمطبعة الجمهورية

سنة ١٨٩٤ مسيحية

كتاب «زُبدة كشف الممالك» ، طبعة باريس عام 1894

ZOUBDAT
KACHF EL-MAMÂLIK

TABLEAU POLITIQUE ET ADMINISTRATIF
DE L'ÉGYPTE, DE LA SYRIE ET DU ḤIDJÂZ
SOUS LA DOMINATION DES SULTANS MAMLOÛKS
DU XIIIe AU XVe SIÈCLE

PAR KHALÎL EḌ-ḌÂHIRY

TEXTE ARABE PUBLIÉ

PAR

PAUL RAVAISSE

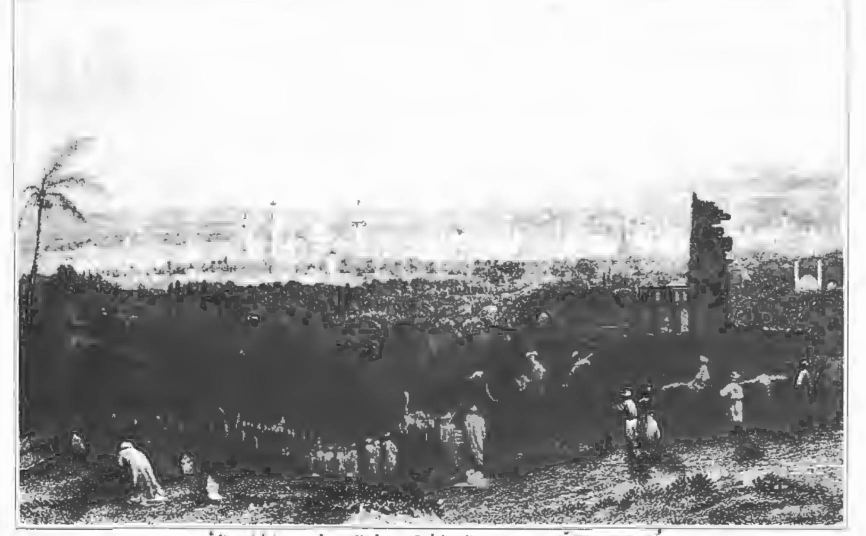
CHARGÉ DE COURS À L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES



PARIS
IMPRIMERIE NATIONALE

ERNEST LEROUX, ÉDITEUR
LIBRAIRE DE LA SOCIÉTÉ ASIATIQUE ET DE L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES
RUE BONAPARTE, 28

M DCCC XCIV



نُقيشة قديمة تمثّل دمشق من الصالحية ، وفي الوسط يبدو الجامع الأموي

- 65 -

ابن اللُّبُودي

(توفي 896 هـ / 1490 م)

أرّخ لرحلة السّلطان بَرْسْباي إلى دمشق عام 836 هـ

شهاب الدّين أحمد بن خليل الدّمشقي الصّالحي ، المعروف بابن اللُّبُودي وابن عرعر ، ولكنه بالأولى أشهر . محدّث ومؤرّخ دمشقي المولد والوفاة ، ولد بسفح قاسيون سنة 834 هـ ، ونشأ بالصالحيّة فأخذ عن شيوخها وشيوخ دمشق في عصره ، فبرع ونَظَم الشّعر واشتغل بالشّهادة في باب البريد .

ترجم له علاّمة مصر شمس الدّين السَّخاوي في كتابه «الضّوء اللاّمع لأهل القرن التاسع» قال : «ولمّا دخلتُ دمشق سمع بقراءتي على جَمع من شيوخها . . . وأوقفني على مُصنَّف له جَمَعَ فيه الأواخر ، ظريف في بابه ، وعلى تاريخ استفتحه من سنة مولده ، استمدّ فيه من تاريخ التّقي بن قاضي شُهبَة وغيره» . ثم يضيف السَّخاوي : «بل أرسل إلي يذكر أنه جَمَع قضاة دمشق . وبالجُملة ، فما رأيتُ طالباً لهذا الشأن غيره» . ويعني بقوله هذا علم التاريخ .

وهذه شهادة لها وزنها ، صدرت عن عالم مُجيد يُعتدّ بكلامه ، ولا نرى فيها إلا مُطلق الصّواب ، فمدينة دمشق التي ظهر بها في القرون السادس والسّابع والثامن فُحولٌ من المؤرّخين ، كابن القلانسي وابن عساكر وأبي شامة والبَرزالي والذّهبي وابن كثير وابن قاضي شُهبَة ، أفل بها نجم علم التأريخ أواسط القرن التاسع ، وصار المؤرّخون قلّة يسيرة جداً ، فلا نجد في بقيّة القرن سوى ابن عبد الهادي وابن طَوق والنُّعَيمي والحمصي وأخيراً ابن طولون الصّالحي .

لكن مّا يؤسف له أن كتاب صاحبنا ابن اللُّبودي المرتب على السّنين مفقود ، لم يصلنا منه سوى قطعة من أوّله تضمّ حوادث ست سنوات 834-839 هـ ، وهي اليوم في مكتبة المتحف البريطاني The British Library ، وليس عليها اسم المؤلّف . وقد قام بنشر هذه القطعة حسن حبشي بعنوان : «حوليّات دمشقيّة» لمؤرّخ شامي مجهول ، وصدرت بالقاهرة عام 1968 . لكن حبشي عجز عن تحديد صاحبها ، الأمر الذي تمكّن من تحديده فيما بعد أستاذنا الكبير صلاح الدّين المنجّد .

وفي القطعة المذكورة يرد ذكر رحلة السّلطان الأشرف بَرْسْباي إلى دمشق وموكبه الفخم بها ، في شهر شعبان من عام 836 هـ ، وبالطبع لا يمكن لنا أن نعدّ ابن اللُّبودي المصدر الأول عنها ، لأنه لم يدركها أصلاً فكان عمره عامان ، ولسنا ندري مصدره فيها ، بل نعجب من قول السّخاوي أنه نقل عن التّقي ابن قاضي شُهبة ، الذي ينتهي بتاريخه المشهور إلى سنة ثمان وثمانمائة !

أهم من أرّخ للزّيارة كان مؤرّخ مصر الكبير يوسف ابن تَغري بَردي الأتابكي في كتابه «النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ، وكان من أفراد رَكب السّلطان في رحلته من مصر إلى آمد (ديار بكر) ، وعمره 24 عاماً . لذا فقد نقلنا نصّه أدناه أيضاً ، لكننا لم نقدمه لسببين : أولهما أن صاحبنا ابن اللُّبودي دمشقي ، وكتابنا يختص بتاريخ دمشق . وثانيهما لأن ابن تَغري بَردي سبق وروده في رحلات كتابنا ، بتأريخه لحملة أبيه الأتابك تَغري بَردي الظاهري إبّان غزو المغول للشام ، ثم في تجريدة النّاصر السّابعة للشّام ، ورحلة الملك المؤيّد شيخ إليها .

كذلك ينبغي الإشارة إلى أن للمؤرّخ الدمشقي عبد القادر النُّعيمي (توفي عام 927 هـ) تأريخاً للواقعة ، على ما ذكره تلميذه ابن طولون الصّالحي في كتابه «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان» : «وفي يوم الثلاثاء ثاني جُمادى الأولى منها [سنة 922 هـ] . بعث الأمير علاء الدّين بن طالوا نقيب الجيش إلى شيخنا المحيوي النُّعيمي ، أن يكتب له صفة دخول الأشرف برسباي إلى دمشق ، ومَن حَمَل الغاشية على رأسه ، وأين نزل . فكتب له ما تيسّر له» .

لكننا لم نظفر بنصّ النُّعيمي هذا ، ولربّما كان بالأصل مقيّداً في كتابه الضائع «تذكرة الإخوان في حوادث الزمان» . وعلى أي حال فليس فيه حتماً ما يزيد على نصّي ابن اللُّبودي وابن تَغري بَردي ، على اعتبار أنه متأخّر عن ذلك العصر ولم يدرك زيارة بَرْسْباي .

❊ ❊ ❊

أما السّلطان الأشرف بَرْسْباي فكان الغرض من حملته هذه هو توجهه إلى مدينة آمد (ديار بكر) ، ليبثّ الخوف في نفس صاحبها عُثمان المدعو قَرَا يلِك مؤسس إمارة «آق قُيونلُو» (ذو الحَمَل الأبيض) الترّكمانية كيما يدخل في طاعته . وفي طريقه مرّ السّلطان بزيارة خاطفة إلى دمشق ، ثاني مُدُن السّلطنة بعد العاصمة القاهرة ، فلم يمكث بها سوى خمسة أيام . ثم بعد مصاعب جمّة في آمد نجحت حملة السّلطان أخيراً وتم له ما أراد ، فعاد إلى مصر .

هذا ، وتولّى بَرْسْباي سلطنة المماليك بين 825-841 هـ ، وأشهر منجزاته كانت افتتاح جزيرة قُبْرُص عام 829 هـ = 1426 م ، وأسر ملكها جانوس Janus ، وعبّر هذا الحَدَث عن قوّة دولة المماليك وهيبتها . وفي الجزء الثالث من الكتاب سأنشر نصّاً شيّقاً لرحّالة من إمارة بورغونيا زار دمشق سنة زيارة الأشرف 1433 م ، هو برتراندون دى لا بروكيير Bertrandon de la Broquière .

المصادر :

قطعة من تاريخ ابن اللُّبودي (حوليات دمشقيّة) ، 61 .
النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تَغري بَرْدي ، 15 : 10-11 .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسّخاوي ، 1 : 293 .
مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان لابن طولون ، 2 : 11 .
دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 384 .
معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة للمنجد ، 265 .

[رحلة السلطان برسباي إلى الشام]

شعبان [سنة 836 هـ]

وفي عاشره دخل أمراء الشاليش إلى دمشق، وتوجّهوا ونزلوا بالقُرب من حَرَسْتا[1].

وفي خامس عشره دخل السّلطان إلى دمشق، وعلى رأسه الغاشية يحملها نائب الشام[2]، وأمامه الخليفة وقضاة مصر صفّاً، وأمامهم قضاة الشام، وأمامهم نوّابهم، وأمامهم المقَدَّمون: سُودُون من عبد الرّحمن وجَقْمَق أمير آخور فمَن دونهما، ونزل بالمَسْطبة وقد جُدِّدت له.

وفي سادس عشره، دخل قاضي القضاة شهاب الدّين بن حَجَر[4] إلى الجامع ومعه قاضيا مصر: المالكي والحنبلي. وأملى مجلساً بمحراب الحنفيّة[5]، وحضر عنده قاضيا دمشق: الحنفي والمالكي، وجماعة من العلماء وخَلْقٌ من الطّلَبة.

وفي سابع عشره، استقرّ السيّد ركن الدّين في إمامة نقابة الأشراف، عوضاً عن السيّد شَرَف المُلك، ومضى الأشراف وشكوا منه.

---

(1) حرَستا قرية كبيرة عامرة إلى الشمال الشرقي من دمشق، على طريق حمص. اسم آرامي قديم: حرشتا، ومعناه: الخشنة. صارت في أيامنا بلدة كبيرة مما يتصل بالمدينة كضاحية شبه متّصلة بها، تليها مدينة دُوما. غير أن ابن تَغري بَردي الذي كان مصاحباً لركاب السّلطان في رحلته هذه لم يذكر أنهم نزلوا بقرب حرستا.

(2) الغاشية في الأصل هي السّرج أو الغطاء المزركش، ثم في دولة الأيوبيين ومن بعدهم المماليك صاروا يخرجون في مواكبهم الرّسميّة والغاشية بين أيديهم. وذُكر في مراسم القرن التاسع أن الركابدار كان يحملها أمام السّلطان، رافعاً إياها على يديه ويحركها يميناً وشمالاً. انظر: صبح الأعشى للقَلْقَشَندي، 4 : 7.

(3) كان نائب الشام آنذاك الأمير جارقُطْلُو، كما يذكر ابن تَغري بَردي أدناه. ويذكر هذا الأخير في نصّه الوارد أدناه أن نائب الشام حمل «القبّة والطير» على رأس السّلطان، ولم يذكر الغاشية. ثم أضاف أن العادة جرت ألا يحملها على رأس السّلطان إلا واحد من أربعة، هم: الأمير الكبير، أو ابن السّلطان، أو نائب الشام، أو نائب حلب.

(4) أي الشيخ أحمد بن حَجَر العسقلاني، المؤرّخ والقاضي والفقيه المشهور، توفي 852 هـ.

(5) أي بجامع دمشق الأموي الكبير.

وفي ليلة عشريه سار السّلطان من دمشق يريد حلب .

وفي سادس عشريه ، قدم النّجّاب[1] إلى القاهرة ، وأخبر بتوجّه السّلطان من دمشق ، فدقّت البشائر بقلعة الجبل ، ونُودي في القاهرة وظواهرها بذلك[2] .

(تاريخ ابن اللّبودي ، 61)

* * *

(1) أي السّاعي بالأخبار ، وأصل مصدر التسمية من «النّجائب» ، أي كرام الهجن المشهورة بسرعتها .

(2) يبدو أن موكب السّلطان الأشرف بَرْسْباي ودخوله دمشق قد صار مضرباً للأمثال في فخامته البالغة ، فسيرد أدناه في نصّ ابن إياس عن دخول السّلطان قانصوه الغُوري دمشق سنة 922 هـ وموكبه الفخم بها ، أن «هذا الموكب لم يتّفق لسلطان من بعد الأشرف بَرْسْباي لمّا توجّه إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة ، سوى للملك الأشرف قانصوه الغُوري» .

[رحلة السّلطان بَرْسْباي إلى الشّام]

[برواية ابن تَغري بَردي الأتابكي]

وباتَ السّلطان ليلة الجمعة بالرَّيْدانيّة ، واشتغل بالمسير من الغد في يوم الجمعة بعد الظّهر إلى البلاد الشّاميّة ، ومعه مَن ذكرنا من الأمراء والخليفة المُعتضد بالله داوُد والقضاة الأربعة ، وهم : قاضي القضاة شهاب الدّين أحمد بن حَجَر الشافعي ، وقاضي القضاة بدر الدّين محمود العينتابي الحنفي ، وقاضي القضاة شمس الدّين محمد البساطي المالكي ، وقاضي القضاة محبّ الدّين أحمد البغدادي الحنبلي[1] .

ومن مُباشري الدّولة : القاضي كمال الدّين محمد بن البارزي كاتب السّرّ ، وزين الدّين إبراهيم ابن كاتب جكم نار الخَواص ، والقاضي شَرَف الدّين أبو بكر الأشقر نائب كاتب السّرّ ، وأئمّة السّلطان الذين يصلّون به الخمس ، ونديمه وليّ الدّين بن قاسم الشّيشيني . فهذا (sic) الذين سمحت القريحة بذكرهم .

وكان سفر السّلطان في الغد من يوم خروجه من القاهرة ، بخلاف عادة الملوك . انتهى .

* * *

وسار السّلطان بعساكره لا يتجاوز في سيره المنازل ، إلى أن وصل إلى مدينة غَزّة في أول شعبان ، بعد أن خرج نائبها الأمير إينال العلائي النّاصري - أعني الملك الأشرف إينال[2] - إلى مُلاقاته هو وأعيان غَزّة . ودخل السّلطان إليها في موكب عظيم [سُلطاني] ، وأقام بها ، إلى أن رحل منها في يوم الخميس رابعه ، بعد أن نزل بالمَسْطَبة خارج غَزّة ثلاثة أيام .

---

(1) المُلاحظ أن تفاصيل ابن تَغري بَردي أشمل وأوسع ، ولا غرو فهو أولاً كان من أفراد حملة السّلطان إلى آمد . وثانياً كان كتابه «النّجوم الزّاهرة» وافياً في مادته مستفيضاً .

(2) تولّى الملك الأشرف إينال سُدّة السّلطنة بعد 21 سنة من زمن حملة الملك الأشرف ، فبقي بها 8 أعوام بين 857-865 هـ .

وسار إلى جهة دمشق ، ونحن في خدمته[1] ، إلى أن وصل إلى مدينة دمشق في يوم الإثنين خامس عشر شعبان ، واجتاز بمدينة دمشق بأُبَّهة السّلطنة وشعار المُلك في موكب جليل . وحمل الأمير جَارْقُطْلُو[2] نائب الشام القُبَّة والطَّير على رأسه ، إلى أن نزل بالدّهليز السّلطاني بمنزلة بَرْزَة خارج دمشق ، وكذلك جميع أمرائه وعساكره نزلوا بخيامهم بالمنزلة المذكورة ، ولم ينزلوا بمدينة دمشق شَفقةً على أهل دمشق .

وأقام السّلطان بمخيّمه خمسة أيام ، وركب فيها غير مرّة ودخل دمشق ، وطلع إلى قلعتها مراراً .

ثم رحل السّلطان من دمشق بأمرائه وعساكره ، في يوم السبت عشرينه ، يريد البلاد الحلبيّة . فحصل للعسكر بُعيض مشقّة لعدم إقامته بدمشق ، من أجل راحة البهائم . ولم يعلم أحد قصد السّلطان في سرعة السَّير لماذا .

* * *

وسار حتى وصل إلى حِمْص ثم إلى حَمَاة ، فخرج الأمير جُلبان نائب حَمَاة إلى مُلاقاة السّلطان بعساكر حَمَاة ، فأقام السّلطان بظاهر حَمَاة المذكورة ثلاثة أيام ، ثم رحل منها يريد حَلَب . ولم يدخل السّلطان حَمَاة بأُبَّهة السّلطنة كما دخل دمشق ، لِما سَبَق ذلك من قواعد الملوك السّالفة أن السّلطان لا يدخل

---

(1) إشارة إلى أن المؤلّف كان واحداً من أفراد الرّكب السّلطاني في هذه الرّحلة .

(2) كتب ابن تَغري بَردي الاسم : جارقُطلى ، على قاعدة كتابة الأحرف الصوتية الأخيرة في التركية بألف مقصورة . ومن هنا مصدر الغلط في نُطق الأسماء التركيّة بالعربية ، مثل : كوكبوري (وصوابها كُوك بُرُو) وبُوري ابن طُغتَكين (بُرُو : börü) . ومعنى جارقُطلو في التركية : Çâr-kutlu مُربّع السّعد ، فجار تصحيف للفارسية : جهار ، رقم 4 .
وجارقُطلو كان أمير كبير الدّيار المصرية ، ثم ولي نيابة الشام عام 835 هـ حتى وفاته سنة 837 هـ ، وكان عفيفاً ذا سيرة حسنة ، كما يذكر محمد ابن طولون الصالحي في كتابه «إعلام الورى» ، 47 . وفي أيامه زار دمشق الرّحالة البورغُندي برتراندون دى لا بروكيير Bertrandon de la Broquière ، في عام زيارة الأشرف 1433 م = 836 هـ .
قلتُ : وأعقابه ما زالوا إلى اليوم بدمشق (آل الشَّرْقَطلي) ، وأظنّهم يجهلون نسبتهم هذه .

أبداً من مُدُن البلاد الشاميّة بأُبَّهة السّلطنة إلا دمشق وحلب ثم مصر ، وباقي البلاد يدخلها على عادة سَفَره ، إلا الملك المؤيَّد شيخ[1] ، فإنه لمّا سافر إلى البلاد الشاميّة في واقعة نَوْرُوز الحافظي[2] عمل بحَمَاة الموكب السّلطاني ودخلها بأُبَّهة السّلطنة ، وحَمَلَ على رأسه القبّة والطير الأمير الكبير ، استقلالاً بنائبها ، فإنه لا يحمل القبّة والطير على رأس السّلطان إلا أحد هؤلاء الأربعة : الأمير الكبير ، أو ابن السّلطان ، أو نائب الشام ، أو نائب حلب .

(النّجوم الزّاهرة ، 15 : 10-11)

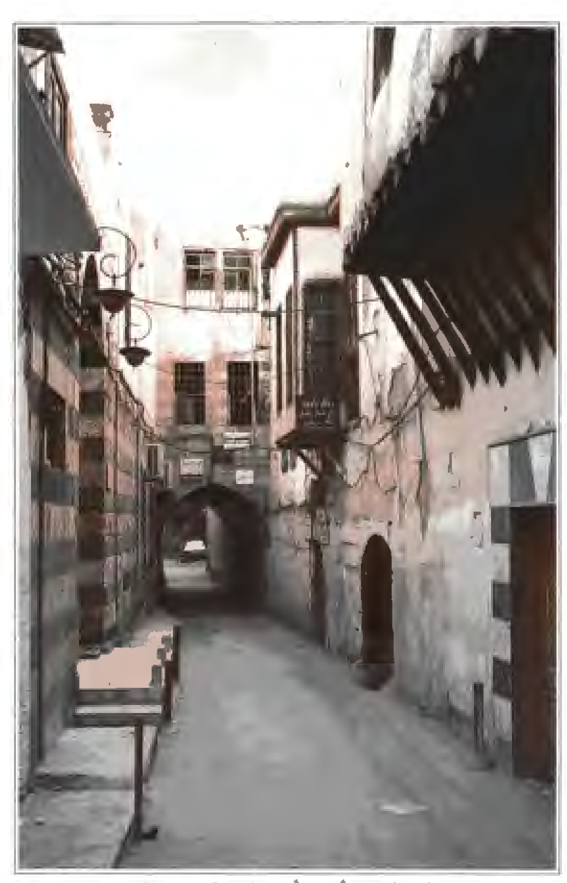
* * *

(1) تسلطن الملك المؤيّد شيخ المحمودي بعد خلع الملك النّاصر فَرَج بمطلع عام 815 هـ ، وبعد تمرّده على الخليفة العبّاسي المستعين بالله ، الذي نُصب ملكاً لمصر عقب النّاصر . وبقي المؤيّد في السّلطنة حتى وفاته بمطلع عام 824 هـ .

(2) انظر ما تقدّم أعلاه في كتابنا هذا حول حملة السّلطان المؤيّد شيخ إلى دمشق ووقعته مع نوروز الحافظي ، نقلتُها برواية ابن تَغري بَردي ذاته .

نقشة قديمة للتربة العادلية البرانية ، وإلى يسارها (شرقاً) الناصرية والأفرم

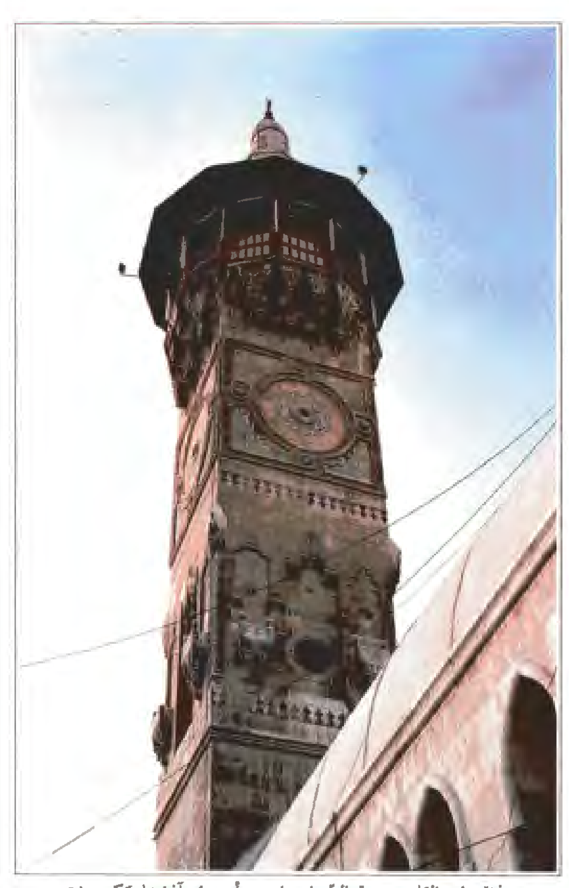
نقشة قديمة تمثل دمشق من الصالحية بسفح قاسيون



حيّ الخضيريّة، من أجمل الأحياء المملوكيّة بدمشق القديمة



مئذنة جامع القلعي من حيّ الحضيريّة جنوبيّها ، تعود للقرن السّابع الهجري



مئذنة جامع القلعي بسوق الصّوف ، إحدى أروع 4 مآذن مملوكيّة بدمشق



مئذنة جامع القلعي من حيّ الخضيريّة جنوبيّها



مئذنة جامع القلعي من حيّ الخضيريّة جنوبيّها



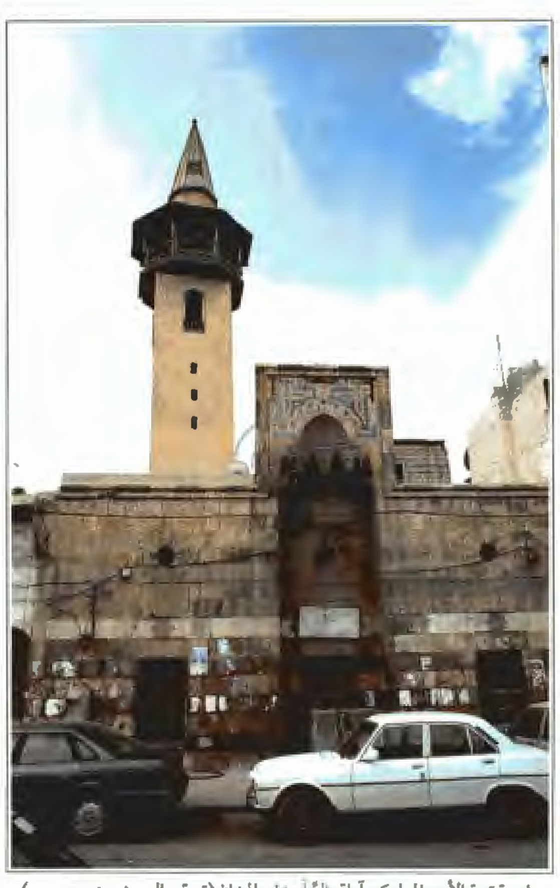
مئذنة جامع هشام الرّائعة بسوق الصّوف، بُنيت عام 831 هـ



تفصيل لجبهة مدخل الخانقاه اليونسيّة بالشّرف الأعلى، بُنيت عام 784 هـ



واجهة مدخل جامع أرغون شاه النّائب (السّنجقدار اليوم)، بناه عام 750 هـ



واجهة تربة الأمير المملوكي آراق السِّلَحدار بالميدان (تسمّى اليوم : سيدي صهيب)



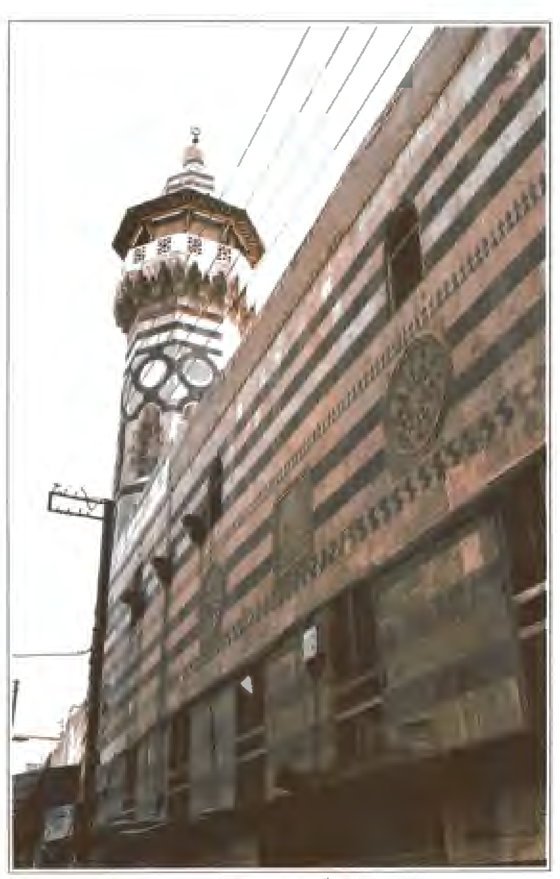
تربة الأمير تَنِبك الحَسَني الظاهري بالميدان الفوقاني ، بُنيت عام 798 هـ
دُفن بها عام 802 هـ ، كما دُفن بها الأمير تغري بردي الأتابك عام 815 هـ



تفصيلة من الواجهة الغربيّة للتَّنبكيّة وبها شريط مزرّر ورَنك تَنِبك بشريط كتابي



تفصيلة من الواجهة الغربية لتربة الأمير تَنبك الحَسَني الظاهري بالميدان الفوقاني



واجهة المدرسة السيبائية، آخر أبنية المماليك بدمشق، بناها سيباي عام 921 هـ



واجهة مدخل المدرسة السّيبائيّة ومقرنصاته الحجريّة البديعة



لوحة مُتحف اللوفر الشهيرة (1511 م)، المنسوبة بالغلط لجوفاني بلّيني Giovanni Bellini
تمثل استقبال الملك الأشرف قانصوه الغوري لسفير البندقية تريفيزانو بدار الذّهب جنوبي الأموي



رنك السّلطان الأشرف قايتباي منسوجاً بالقماش
(قارن لوحة اللوفر)
من مقتنيات متحف المتروبوليتان للفنون في نيو يورك

المئذنة الغربيّة للجامع الأموي ، أعاد بناءها السّلطان
الأشرف قايتباي فتمّت عام 893 هـ ، يُلاحظ بالمقارنة
مع لوحة اللوفر أنها بالأصل كانت بـ 4 جذوع مضلّعة



الجامع الأموي الكبير ، بيت الله ودرّة دمشق ، أقدم مسجد إسلامي على خطّه الأصليّة

– 66 –

ابن أجا الحلبي

(توفي 881 هـ / 1476 م)

زار دمشق في عام 875 هـ وعام 877 هـ

محمد بن محمود بن خليل الشمس الحلبي الحنفي المعروف بابن أجا ، ولد بحلب عام 820 هـ ونشأ فيها وطلب فيها العلم على أعيان عصره ، ثم تردّد إلى القاهرة مراراً بدءاً من عام 843 هـ ، وتعرّف بالعلماء والأعيان والأمراء كالأمير أُزْبك الظّاهري وغيره حتى ارتقى لصحبة الدّوادار الكبير يَشْبك مِنْ مهدي الظاهري ، (والمصطلح «من» مملوكي يعني أنه من مماليكه وليس ابنه) ، وذاع صيته بسبب ذلك وسافر رسولاً منه ومن السُّلطان إلى عدّة ممالك كتبريز والرُّوم وغيرهما .

وقام ابن أجا بعدّة أسفار ، منها إلى الحجاز وإلى القُدس والخليل ، ومنها سفرته المشهورة صُحبة الأمير يَشْبِك ، وولي قضاء العسكر مدّة طويلة ، وله مدوّنات ، منها «سفرة سُوَار» أي رحلته المذكورة ، ومنها ترجمته فتوح الشّام للواقدي إلى التركية نظماً في 12 ألف بيت . وكان على قول السَّخاوي عاقلاً عارفاً ذكياً متودّداً متواضعاً ، وتوفي بحلب عام 881 هـ .

وأما رحلته الشهيرة ، فهي سجلّ يومي لوقائع حملة عسكرية جرّدها السُّلطان المملوكي الملك الأشرف قايتباي على شاه سُوَار صاحب الإمارة الدّلغادريّة في مناطق الثغور والعواصم شرقي الأناضول . وكانت هذه الحملة بقيادة الأمير الكبير يَشْبِك الدَّوَادار الذي كان أثيراً لدى السُّلطان وواحداً من أكفأ القادة العسكريين للسَّلطنة .

دامت هذه الحملة عامين 875-877 هـ ، ونجحت نجاحاً باهراً بالقضاء على تمرّد هذه الدولة الصغيرة المعتبرة آنذاك بحكم التابعة للمماليك ، وبأسر شاه سُوَار نفسه مع أربعة من إخوته ، ثم تلا ذلك إعدامه بالقاهرة . وجاء هذا الانتصار المُبين بعد إخفاق ثلاث حملات قبله ، مما أكسبه روعة ووقعاً كان جديراً بأن تدوّن حوادثه في كتاب خاص ، وأن يشاد مبنى أثري تذكاري لهذا الانتصار . فأقام نائب الشّام الأمير برقوق بأعلى جبل قاسيون بدمشق قبّة لتخليد النصر ، بقيت بعض آثارها إلى عام 1942 من عصرنا الحاضر ، وعُرفت طوال خمسة قرون بقبّة النَّصر ، أو قبة النّصر على سُوَار .

كان قاضي العسكر ابن أجا الحلبي حاضراً لجميع وقائع هذه الحملة ، وقد شارك بنفسه في بعض المفاوضات في أثنائها ، وتولّى مهمة التأريخ لوقائعها في نصّه المذكور ، وأفادنا بمعلومات ذات شأن كبير عن أوضاع الدولة المملوكية وجيشها في المرحلة ما قبل الأخيرة من نهايتها ، وهو يفصّل في وصف الموكب الفخم الباذخ المرافق للأمير يَشْبك ، والذي تعمّدت السّلطات الحاكمة من خلاله إظهار قوّتها . وذكر دخوله دمشق مرتين : الأولى في رحلة الذهاب ، في ذي القعدة 875 هـ ، والثانية في رحلة الإياب إلى القاهرة ومعه شاه سُوَار أسيراً ، في صفر 877 هـ .

ومع ذلك ، فإن أحداث هذه الفترة المذكورة تشكّل بدايات الفصل الأخير لأيام دولة المماليك في مصر والشّام والحجاز ، وما هذه الصّراعات الجانبية مع دويلات الثّغور في شرقي الأناضول إلا واجهة للتنافس بين السّلطنة المملوكية والدولة العثمانية الجديدة التي تمكنت أخيراً من فتح القسطنطينية عام 857 هـ ، وبدأت تتطلّع إلى تزعّم العالم الإسلامي وبالتوسّع نحو الأناضول ثم الشّام ومصر .

هذا الصّراع تنامى في أيام السُّلطان المملوكي الظاهر خُشْقَدُم ، ثم ازداد في أيام خلفه الأشرف قايتباي والسُّلطان العثماني بايزيد بن محمد الفاتح ، وذلك عن طريق تأليب العثمانيين لإمارتي دلغادر وقرمان .

وأدّت هذه النّزاعات إلى إرهاق الدولة والجيش المملوكي وأسفرت في الختام عن سقوط الدولة المملوكية في الشّام أولاً عام 922 هـ ، ثم مصر ثانياً عام 923 هـ ، على يدي السُّلطان العثماني سليم خان الأول .

والواقع أن حكم السُّلطان المملوكي قايتباي كان يتميز بالقوّة والصّمود في وجه المدّ العثماني ، وهو بعد تجريده لحملة يَشْبك الناجحة قام بعدها بخمسة أعوام في 882 هـ برحلة تفقدية من مصر إلى شمال بلاد الشّام لتفقّد التحصينات الدفاعية ، دوّن أخبارها كاتب سرّه ابن الجيعان ، وقد أوردنا نصّ دخوله دمشق أثناءها فيما يتلو بكتابنا هذا .

أما رحلة ابن أجا فقد نشرت للمرة الأولى بعنوان : تاريخ الأمير يَشْبك الظاهري ، بتحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات ، وصدرت عن دار الفكر العربي بالقاهرة 1973 . ثم أعاد نشرها ثانية بدمشق أستاذنا الشيخ محمد أحمد دهمان ، وصدرت عن دار الفكر عام 1986 ، بعنوان : العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ، مع رحلة الأمير يَشْبك من مهدي الدَّوَادار ؛ وأضاف إليها دراسة عن تاريخ الإمارة الدُّلغادرية مع نصوص وإضافات أخرى .

وعن طبعة الشيخ دهمان نقلنا النصّين المتعلقين بدمشق ، دون أن نعمد إلى تصحيح أغلاط اللغة والنّحو ، بل تركناها لتعطي فكرة عن لغة العصر .

المصادر :

رحلة الأمير يَشْبك الدَّوَادار لابن أجا ، مقدمة دهمان 5-61 .

الضوء اللامع للسخاوي ، ترجمة ابن أجا ، 10 : 43 .

الضوء اللامع للسخاوي ، ترجمة الأمير يَشْبك ، 10 : 272 .

القول المستظرف لابن الجيعان ، 5-8 .

نموذج عن مخطوطة رحلة ابن أجا

نسخة مكتبة قصر طوب قابي سراي

صورة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية ، نسخها أحمد زكي باشا

[الأمير يشبك في دمشق]

[برحلة الذهاب ، ذو القعدة 875 هـ]

ورحل صبيحة يوم الجمعة من شقحب ونزل بقبّة يلبغا[1] ، ولاقاه الأمراء الذين تقدّموا ، وهم الأمير برسباي أحد المقدّمين ، والأمير خاير بك والأمير تمراز ومن في صُحبتهم من الأمراء والمماليك السُّلطانية . وكان قد اخترع أمراً في السَّفر ، وهو أنه ضمّ لكل أمير من الأمراء فرقة من المماليك السُّلطانية ينزلوا معه ويرحلوا معه .

فلبس الجميع في ذلك اليوم ، وأظهروا زينتهم وسلاحهم ومشوا الجميع أمام طَلْبه[2] السّعيد كاملين العُدّة واللبس ، ثم من بعدهم طَلْبه السعيد وقد ألبس بعض خيله وهو عدّةماية وعشرين فرساً ، كل طوالة منها لوناً لبساً وخلقة ، وهذا لم يتفق لأحد حتى ولا السلاطين . ثم الخزانة ثم القضاة ، ثم الأمراء لابسين الكلوتات[3] وهو بينهم كالبدر المنير ، ومن خلفه مماليكه المشتراواة نحو الأربعمائة كاملين اللّبس والجواشن[4] على غالبهم وخيلهم لابسة . ودخل في موكب عظيم لم يُشاهد مثله ، وكان يوماً مشهوداً . وأول الناس إلى المصطبة وهي المنزلة ، وحصل له من الدّعاء والمحبة من الرّعيّة ما لا يوصف .

---

(1) قبّة يلبغا كانت تقع عند مدخل دمشق الجنوبي في قرية القَدَم ولم يبق لها أثر ، وكان الملوك والأمراء في عهد المماليك يتوقفون فيها للراحة من عناء السفر عند قدومهم لدمشق ، كما تخرج إليها معهم مواكب الوداع إذا رغبوا السفر من المدينة . تقابلها بشرقي دمشق مصطبة السّلطان عند القابون ، سيرد ذكرها أدناه في النصّ ، ولاحقاً في نصّ البدري .

(2) الأطلاب جمع طَلْب . كلمة فارسية تعني الفرقة من الجيش ، وبالأصل الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويُطلق كذلك على قائد المئة أو السبعين . وكان أول ما استُعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدّين ، ثم عُدّل مدلوله فأصبح يُطلق على الكتيبة (Bataillon بالفرنسية) من الجيش . انظر : السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (1 : 248) ؛ وانظر أيضاً مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ، 2 : 59 ؛ وراجع معجم راينهارت دوزي : Dozy, R.: *Supplément aux Dictionnaires Arabes*.

(3) الكَلَوْتات : جمع كَلَوْتَة ، غطاء للرأس شاع أيام المماليك ، كان يُلبس بعمامة أو بغيرها .

(4) أي الدّروع ، ومفردها جَوْشَن .

وفي صبيحة يوم الأحد ، ركب وسلّم على حريم كافل المملكة الشّامية ، ودخل الجامع الأموي وصلّى ركعات وتصدّق على من وجد به من الفقراء ، وأقام بالوطاق منتظراً المشاة والقاضي شرف الدّين الأنصاري والمشايخ إلى يوم الجمعة تاسع عشره دخل البلد وصلّى الجمعة بمقصورة جامع الأموي .

وخطب قاضي القضاة قطب الدّين الشافعي ، أسبغ الله ظلاله ، خُطبة بليغة حرّض فيها على التثبّت والصّبر في الأمور واتفاق الكلمة وما يحدث من الاختلاف ، وأتى بآيات من كتاب الله تعالى وأحاديث أجاد فيها إنشاءً وإنشاداً .

فلمّا خرج من الجامع ، وقف له الناس صفوفاً وهم يدعون له ويتضرّعون إلى الله بنصره على عدوّ الله وعدوّ المسلمين ، فشاهد جماعة مُستكثرة من الفقراء واقفين على باب الجامع ، فرسم لي بأن أقف مع خازنداره وأتصدّق من ماله عليهم . ففرّقت جميع ما وجدته مع الولد شادباك خازندار الكيس إلى أن نفد ، وكان معي بعض شيء أضفته إلى ذلك ونفقته مع ذلك ولله الحمد . وقاسيتُ في ذلك اليوم من الازدحام ما لا يمكن تعبيره .

ورَسَم أن يفرّق على المماليك السّلطانية عليق شهر ذي القعدة ، فغلط الكاتب وفرّق عليق أربعين يوماً تكملة شهر شوّال ، وهي المدة التي مضت بالقاهرة ، فطلب الكاتب وضربه ضرباً مبرّحاً ، وأقام في التّرسيم[1] أياماً ثم أنعم عليه وصفح وأطلقه .

وفي رابع عشرينه وصل القاضي شرف الدّين الأنصاري وأخبر أن المشاة تكمّلوا وأنهم توجهوا على طريق وادي التّيْم[2] ، فرحل من دمشق نهار الجمعة بعد صلاة الظهر ونزل عند خان لاجين[3] .

---

(1) الترسيم من مصطلحات العهد المملوكي ، ويعني الحبس أو الإقامة الجبرية .

(2) وادي التّيم : تسمية قديمة لما يُعرف في أيامنا بقضائي حاصبيّا وراشيّا الواقعين على السّفح الغربي لجبل الحرمون في الأراضي اللبنانية . والمعنى في الكنعانيّة : الجنوب .

(3) خان لاجين : خان قديم لا يزال قائماً ، يقع إلى الشمال من قرية عدرا على الطريق بين دمشق وتدمر . بناه الأمير المملوكي حسام الدّين لاجين نائب دمشق عام 690 هـ في عهد

وفي نهار السّبت ، وصل محمد بن مُبارك حاجب الحجّاب بالشّام ونائب القلعة بها ، ويَشْبِك نقيب القلعة ، فردعهما وضرب يَشْبِك[1] نقيب القلعة على رجله مقدار ثلاثين عصا لما وقع من تفريطه وتهاونه في تجهيزه للزَّرَدْخانات من قلعة دمشق . ثم تراميتُ عليه وقبّلت يده وشفعت فيه فشفعني فيه ، رزقه الله شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

ومنه إلى القُطَيفة ثم إلى النَّبك[2] ، ثم ضحّى بقَارا نهار الاثنين تاسع عشرينه ورحل وبات بمنزلة حصيا[3] .

(رحلة الأمير يَشْبك الدّوَادار ، 77–79)

* * *

الملك المنصور قلاوون . ويعرف في أيامنا بخان عيّاش نسبة إلى أحد شيوخ البدو الذي سكنه في القرن الماضي .

(1) هذا الاسم تركي ، ومن الواضح في نصّي ابن أجا وابن الجيعان أنه كان شائعاً آنذاك بأواخر العهد المملوكي . وهو في التركية : Yaş-Bey ، أمير – فتيّ . ولا زال كثير من الأسماء في التركية يُشتق من جذر Yaş ، مثل : Yaşar . أما بك Bey أو Beg ، فهي الأمير ، كَتبتُها بالكسرة ، لكنها قد ترد أحياناً في النصوص المملوكية بالفتحة (بَك) أو حتى بالألف (باك) ، مثل اسم : شادباك ، الذي ورد أعلاه .

(2) القطيفة والنبك وقارا : بلدات كبيرة عامرة في لحوف القلمون ، على الطريق بين دمشق وحمص .

(3) حصيا : مصحّفة عن حسيا ، بلدة معروفة في المنطقة المذكورة أعلاه ، شمالي البلدات المشار إليها .

[الأمير يَشْبك في دمشق]

[برحلة العودة ، صفر 877 هـ]

ثم رحل بُكرة نهار الأحد ونزل بالرَّسْتَن ، ثم منها إلى حمص بُكرة نهار الاثنين خامس عشر شهر تاريخه . ثم رحل منها يوم الثلاثاء وضحّى بخان مَنْجَك[1] ، وبات بمدينة قارا[2] ، ثم صلّى الصّبح بها ورحل ونزل بالنَّبك . وفيه وصل الأمير خُشْكلدي الظاهري الخُشْقدمي أحد المقدّمين الألوف ، كان بالقاهرة . ثم رحل منها وقت العشاء ، ونزل بالقُطَيفة صبيحة نهار الخميس .

وفيه وصل الأمير شادبك الجلباني أمير كبير الشّام ، والقاضي ناظر الجيش ابن المزلّق وأقام بها إلى العصر ورحل منها ، فلاقاه كافل الممالك الشّامية . وكان قد سبق حمله وصحبته أولاده والقاضي قُطب الدّين الخَيْضَري ، ونزل بمصطبة السُّلطان[3] خارج دمشق المحروسة بالقرب من القابون بعد العشاء وأصبح يوم الجمعة مقيماً بها ، فهرع أهل دمشق للسّلام عليه .

وفي نهار السبت ثامن عشر شهر تاريخه ، ألبس كافل المملكة الشّامية مماليكه ، وبالغ في ذلك إلى أن طلّبه لا يشبهه شيء ، وكان - نصره الله - عبّى تلك الليلة طَلَباً ما شُوهد مثله من مثله وترتيباً عجيباً ، فلمّا مر طَلَب كافل المملكة الشّامية ، مشى طَلَب المشار إليه ، فلما شاهد كافل الممالك الشّامية ذلك ظهر أثر الخجل في وجهه[4] .

---

(1) يذكر أستاذنا دهمان : لا أثر لهذا الخان اليوم ، ولعله خان حسيا . وقلتُ : بل هو حقاً الخان الماثل إلى أيامنا ببلدة حسيا ، على ما ذكره ابن الجيعان الآتي نصه في هذا الكتاب : حسيا ، وهي قرية وَقف منجك له بها خان .

(2) كذا في الأصل ، وهي ليست بالمدينة وإنما بلدة ، تقدّم ذكرها .

(3) كان في سهل القابون إلى الشمال الشرقي من دمشق صِفّة تسمّى مصطبة السُّلطان ، بقي أثرها إلى ما قبل قرن ثم هُدمت وسويت ، وكان السُّلطان أو النائب عند قدومه لدمشق أو رحيله عنها إلى جهة حلب تشيّعه المواكب الرسمية إلى هذه المصطبة .

(4) كان كافل الممالك الشامية آنذاك ، أي نائب دمشق المملوكي ، الأمير برقوق الظاهري الكوسج . راجع : إعلام الورى لابن طولون الصالحي ، طبعة دهمان ، ص 68 .

ودخل دمشق ، وكافل المملكة الشّامية عن يمينه والأمير إينال الأشقر عن يساره ، وبقية الأمراء والقضاة يمنة ويسرة ، وتغالى الناس في كري أماكن الفرجة ، وبنوا مصاطب وأمكنة صُرف عليها جملة ، كل ذلك رغبة لرؤية سُوَار في تلك الحالة . فلمّا وصل الموكب لتجاه القلعة ، حضر نائب القلعة ومن معه من نقيب القلعة والبحرية ، فتسلّموا سُوَار وإخوته الأربعة ، وأولاد قرا وخليل بن بوزجا وثلاثة عشر نفراً من أعيان جماعة سُوَار .

ثم رجع المقرّ الأشرف باش العساكر المنصورة إلى مخيّمه الكريم بالميدان الأخضر ، ونزل بالقصر[1] ومدّ له كافل المملكة الشّامية سماطاً عظيماً ، وأقام بدمشق إلى نهار الاثنين ، [و] عمل كافل المملكة الشّامية ضيافة عظيمة ، وعَزَم على جميع المقدّمين وهم : المقرّ الأشرف أمير دوادار ، والأمير إينال الأشقر رأس نوبة النُّوَب ، والأمير تمراز الأشرفي ، والأمير بَرْسْباي قَرا ، والأمير جانم الزَّرَدكاش ، وبعض أمراء من العشراوات . وكان مجلساً حافلاً ، وخلع على المقرّ الأشرف أمير دَوَادار أعز الله أنصاره كامليّة تمساح بفرو سمّور وطراز زنته ألف مثقال ، وعلى بقية المقدّمين بكوامل طرش سمّور ، وعلى الأمير جانم الزَّرَدكاش بكامليّة ، ولي كامليّة . وجهّز لكل من المذكورين تقدمة تليق به ، وقام في إكرام العسكر المنصور أتمّ قيام . ويكفيك من وصفه أنه لم يسبقه أحد بمثله .

وفيه وصل الأمير جانم الدَّوَادار بخدمة المقر الأشرف باش العساكر المنصورة ، والقاضي شرف الدّين بن غريب استادار الديوان الشريف ، ومعهما بطّيخ صيفي وسكّر وحلاوة وعشرة أحمال من ماء النيل ، ففرّق جميع ذلك على العساكر المنصورة ، وعلى كافل المملكة الشّامية وأمرائها ومباشريها حتى لم يدع لنفسه البطيخة الواحدة مع كره ذلك ، فانظر إلى هذا الكرم النّفس الذي أعطاه الله تعالى .

---

(1) أي القصر الأبلق الذي بناه الملك الظاهر بيبرس ، راجع ما تقدّم في نصّ العُمَري .

فرحل يوم الثلاثاء الأمير برسباي قَرَا ، ثم رحل الأمير خاير باك يوم الأربعاء ، والأمير تمراز يوم الخميس ، والأمير إينال الأشقر بكرة نهار الجمعة ، والمقر الأشرف باش العساكر المنصورة رحل يوم الجمعة .

واستمر يرحل وينزل من منزلة لأخرى ، إلى أن وصل إلى الصّالحية نهار الأربعاء ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمان مئة .

(رحلة الأمير يَشْبك الدَّوَادار ، 155-157)





نقيشة قديمة تمثل مشهداً عاماً لدمشق من جبل قاسيون قرب قبة سيار

- 67 -

ابن الجيعان

(توفي 902 هـ / 1497 م)

رحلته إلى دمشق عام 882 هـ / 1477 م

أبو البقاء محمد بن يحيى القبطي المصري المعروف بابن الجيعان ، وأسرة بني الجيعان قبطية مسيحية دمياطيّة الأصل ، اعتنقت الإسلام في مطلع القرن التاسع الهجري ، ولمع من أفرادها كثيرون تولّوا المناصب الإدارية الرّفيعة في الدّواوين المدنية والعسكرية ، وخدموا سلاطين الجراكسة على امتداد ذلك القرن وحتى نهاية عهد الدولة المملوكية .

كان من أشهرهم والد المؤلف يحيى بن شاكر ابن الجيعان (توفي 885 هـ) صاحب كتاب «التُّحفة السَّنيّة بأسماء البلاد المصرية» ، وإخوته أحمد بن يحيى وصلاح الدّين محمد والزّيني بركات ، وابنه الشهاب أحمد ابن محمد بن يحيى (توفي 930 هـ) الذي رافق السّلطان قايتباي في رحلة حج وألّف عنها كتاباً بعنوان : «المجموع الظّريف في حجّة المقام الشّريف»[1] .

وحظي أفراد الأسرة بالثّراء في المال والعقار ، وصاهرهم الأعيان وأصحاب المناصب العالية في مصر والشّام ، واشتهرت لهم في القاهرة حارة عُرفت بحارة أولاد الجيعان . ووصفهم المؤرخ ابن تغري بردي بأنهم أصحاب الحلّ والعقد في الدّولة في الباطن ، وإن كان غيرهم في الظاهر فهم الأصل .

---

(1) نشره الشيخ حَمَد الجاسر في الرّياض بعنوان : رحلة الملك الأشرف قايتباي إلى الحجاز ، مجلة العرب ، جزء 9-10 ، ص 659-696 ، سنة 1976 .

أما القاضي بدر الدّين أبو البقاء محمد ، فقد ولي في عهد قايتباي كتابة السّرّ ، وكان على قول ابن إياس الحنفي في كتابه «بدائع الزّهور في وقائع الدّهور» (3 : 363) : «رئيساً حشماً فاضلاً عارفاً بأحوال المملكة ، وكان مقرّباً عند الأشرف قايتباي ورُقّي في أيامه وانتهت إليه الرياسة ، وكان أدوباً حلو اللسان سَيُوساً وله اشتغال بالعلم ، وكان من نوابغ بني الجيعان . أنشأ بالقاهرة عمارة الزّاوية الحمراء وجعل بها خطبة وحوضاً وسبيلاً ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغيط الحافل» . ثم توفي مقتولاً في زقاق بني الجيعان عام 902 هـ .

ترك لنا ابن الجيعان نصّاً مهمّاً دوّن فيه مجريات رحلة السُّلطان قايتباي من مصر إلى بلاد الشّام وعودته إلى القاهرة عام 882 هـ ، وكان المؤلّف مرافقاً للسّلطان في هذه الرحلة خطوة بخطوة ، وهذا يدلّ على مدى مكانته وحظوته لديه . وأطلق ابن الجيعان على مؤلَّفه عنوان : «القَول المُسْتَظرَف في سَفَر مولانا الملك الأشرف» ، وهو على شكل تقييدات تؤرّخ لأخبار خط سير الرّحلة .

لم تكن هذه مجرّد رحلة عادية كالذي ألفناه ورأيناه في كتابنا هذا ، فقد قام بها سُلطان مصر والشّام بنفسه ، وأحاطها بشبه سرّية تامة ، وتغيّب عن كرسي مملكته أكثر من أربعة أشهر دون أن يوصي بالحكم لأحد أثناء غيابه ، وتجرّد لها بعدد قليل من المرافقين . وهذه جرأة أقدم عليها مراراً في عدّة رحلات قام بها أثناء حكمه الطويل الذي امتد 29 عاماً (872-901 هـ) ، أثبت فيها اقتداره وقوّة حكمه ، على غرار ما قام به الملك الظاهر بيبرس في رحلته الشهيرة عام 667 هـ[1] .

وكانت الغاية من وراء هذه الرّحلة الوقوف ، عن كَثَب ، على الأوضاع السّياسية والعسكرية ، وتفقّد التحصينات الدّفاعية لبلاد الشّام ، من حصون وقلاع وطرقات وجسور ، إثر تنامي التنافس والعداء بين المماليك الجراكسة والأتراك العثمانيين في الأناضول . وكان شمال سورية معرّضاً آنئذ للخطر العثماني ، بعد أن استقرّ العثمانيون في آسيا الصغرى كلّها .

(1) كانت رحلته إلى الحجاز لتأكيد سلطانه ثم إلى الشام . السّلوك للمقريزي ، 1 : 581 .

وكنا رأينا في نص ابن أجا الحلبي ، الوارد آنفاً في كتابنا ، كيف أن السُّلطان قايتباي نفسه كان جرّد عام 875-877 هـ حملة عسكرية على إمارة دلغادر في شرقي الأناضول ، بقيادة الأمير يَشْبِك الظاهري ، الذي تمكّن من دحرها والقضاء على تمرّدها المدعوم من قِبَل العثمانيين . وبالطبع ، أثارت هذه الحملة حفيظة هؤلاء ، وبدأت حدّة الموقف تتصاعد بين الطرفين .

في هذا الموقف المُنذر بالخطر ، قام السُّلطان برحلته التفقّدية هذه ، التي امتدّت من آخر شهر جُمادى الأولى إلى أواخر رمضان من تلك السّنة ، وزار في أثنائها دمشق العاصمة الثانية لمملكته ، في طريق عودته إلى مصر ، وأقام بها من 16 شعبان إلى 10 رمضان من عام 882 هـ .

خرج السُّلطان من القاهرة في أواخر جُمادى الأولى دون ضجّة أو احتفال ، ولم يكن رفقاؤه في الرّحلة يتجاوزون الأربعين نفراً ، بينهم الأمير تاني بك قَرَا الدَّوادار الثاني ، والأمير جاني بك العلائي ، والأمير يَشْبِك الجمالي .

ومرّ بطريقه بالصّالحيّة والعريش وغزّة وقاقون والنّاصرة وصَفَد وبعلبك وطرابلس واللاذقيّة وأنطاكية وبغراس وعينتاب ، ووصل قلعة المسلمين ، ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماة وحمص والنّبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان منية وقاقون . وتبع هنا نفس الطريق التي جاء منها . وأثناء إقامته بدمشق ، أصيب بمرض شديد ، لكنه عوفي منه .

اهتمّ قايتباي ، فضلاً عن التفتيش على القلاع والجسور ، بمقابلة الحكّام والأمراء المحلّيين ، وبحث شؤون المناطق التي يحكمونها . وكان هؤلاء الأمراء يبادرون إلى تقديم الهدايا الثمينة للسُّلطان ورجال حاشيته ، على طول طريق رحلته ، وكان هو نفسه يخلع في مناسبات كثيرة على الأمراء والنوّاب . غير أن أعظم الهدايا كانت ما أعطاه لإسحق پاشا ، رسول «النّاصري ابن عُثْمان» ، صاحب مملكة الرّوم ، أي دولة بني عُثْمان كما كانت تُعرف آنذاك ، والمقصود بالنّاصري : السُّلطان أبو النّصر محمد خان الثاني ، فاتح القسطنطينية .

وقُصارى القول ، أن هذه الرّحلة تعتبر من أهم وأندر الرّحلات ، ومن خلالها يمكن التعرّف على بعض طرائق الحكم والإدارة في الشام ومصر ، بعهد الدّولة المملوكية في أيامها الأخيرة ، قبل أن تهوي تحت سيوف العثمانيين .

وسنتعرّض لاحقاً - في الجزء الثالث - لزيارة للسُّلطان قايتباي لدمشق ، عند حديثنا عن اللّوحة الشهيرة بمتحف اللّوفر ، التي تمثّل السُّلطان قانصوه الغوري بدار الذّهب جنوبي الجامع الأموي ، وهو يستقبل سفير البُندقيّة .

أما أول نشرة للقَول المستظرف ، فكانت على يد المستشرق الإيطالي ريو دل ڤو لانتسونه R. V. Lanzone ، في تورينو بإيطاليا عام 1878 بالطباعة الحجرية :

Viaggio in Palestina e Siria di Kaid-Bai, Torino 1878.

ثم ظهرت منه ترجمة فرنسية بالقاهرة عام 1921 على يد المستشرقة هنرييت ديڤونشاير H. L. Devonshire ، تحت عنوان :

Relation d'un voyage du sultan Qāitbāy en Palestine et en Syrie.

ثم في أيامنا أعاد نشره أستاذنا الكريم د. عمر عبد السّلام تدمُري في طرابلس الشّام عام 1984م . وعن هذه الطبعة أخذتُ النصّ المتعلّق بدمشق .

المصادر :

القول المستظرف لابن الجيعان ، مقدمة تدمري ، 5-41 .

بدائع الزهور لابن إياس 3 : 363 ، وأخبار الرّحلة 134-139 .

الضوء اللامع للسخاوي 3 : 292 .

روّاد الشرق العربي لزيادة ، 78 .

العصر المماليكي في مصر والشّام لعاشور ، 174 .

كتّاب السرّ في العصر المملوكي لدرّاج ، 345 .

أعلام الجغرافيين العرب لحميدة ، 514 .

[حِسْيا]

ثم ارتحل من حمص في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر شعبان المذكور ، بعد أن ألبس الأمير أزدمر نائب طرابلس تشريفاً شريفاً ، وأذن له في التوجه إلى طرابلس . واستقرّ جاني بك الفقيه حاجب ثاني بها ، عوضاً عن أقباي[1] الخططي . واستمرّ بقية يومه إلى أن وصل ركابه الشّريف إلى حِسْيا ، وهي قرية وقف مَنْجَك ، له بها خان[2] .

[قارا والنّبك]

ثم توجّه منها يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر تاريخه إلى النَّبْك بعد قارا ، وهي قرية صغيرة بها بعض أشجار ونهر ماء طيّب . وحضرتْ فيه إقامة من المقرّ السَّيفي يَشبك أمير دوادار كبير ، مثل الإقامة التي جهّزها أولاً ، وإقامة من عبد الأبواب الشّريفة والد المملوك[3] .

[القُطيفة والقُصَير]

ثم أصبح مُقيماً بها يوم الأربعاء وليلة الخميس رابع عشره ، إلى أن صلّى الصّبح ، وتوجّه منها إلى أن نزل بالقُطَيْفَة ، وهي قرية وقف البيمارستان بدمشق[4] .

ثم ارتحل منها يوم الجمعة خامس عشره إلى أن وصل القُصَير ، وهي بقرب من دمشق ببريد ونصف .

---

(1) يفيدنا المؤلف بهذه المعلومة الهامة في تحديد نسبة الخان القديم الماثل بحسيا إلى أيامنا ، ولم تكن هذه النسبة معروفة من قبل فيما نعلم .

(2) أقباي اسم تركي : Ak-Bey ، ويعني : أمير - أبيض .

(3) هو يحيى بن شاكر بن عبد الغني القاهري القبطي الشافعي ، والد المؤلف .

(4) يريد بيمارستان السلطان نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، والقُطيفة كانت من أوقاف السلطان ، وله بها عمائر معروفة ما زال بعضها ماثلاً إلى أيامنا كالخان القديم .

[دمشق]

ثم ركب بعد العشاء ، ليلة السّبت سادس عشره ، إلى أن وصل إلى قلعة دمشق المحروسة آخر الليل في المحفّة[1] ، وكنّا والمسلمون في غاية الوَجَل بسبب ذلك . وأنشد لسان الحال يقول :

وكم قُلتُ لَما توعّك جسمُ مَنْ   حَذَري عليه يكاد أن يلكُ مُتلفي
لو أن رُوحي في يدي ووَهَبْتُها   لُمبشّري بشفائه لم أُنصفِ

وصرنا متوسّلين إلى الله تعالى بالنبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، وبالسّادة الأولياء في حصول العافية له ، وحصل لنا البشارة بعافيته من السّادة الفقراء ، كالشيخ علي الدّقّاق والشيخ علي المجذوب . وسُئل الشيخ العارف بالله تعالى علي الصناديقي ، نفع الله به ، عن أمره وطلبنا له منه الدُّعاء ، فقال : ما يحصل إلا خير إن شاء الله تعالى ، وكما حضر طيّباً يعود طيّباً ، فإن السّادة الأولياء اجتمعوا مع القُطب وتكلّموا في أمره وأطرقوا ساعة ، ثم رفعوا رؤوسهم وقالوا : اقرأوا له الفاتحة واسألوا الله له العافية واكتبوا له حرزاً ، فإنّا نحن نظرنا فيمن يصلح للولاية على المسلمين ، فلم نجد في جماعته مثله .

وقد ذكرتُ ذلك بين أياديه الشّريفة ، نصره الله تعالى ، فأخبر ، أدام الله تعالى أيامه الشّريفة ، بأنه رأى في منامه مثل ذلك أو ما يقرب منه . فاستدللنا على صدق الشيخ علي بما أخبر به مولانا المقام الشّريف ، نصره الله تعالى . وهذه من العناية الربّانية ، لا زالت مُساعدةً له على الدّوام بحقّ النبي عليه السّلام .

ثم رسم ، نصره الله تعالى ، للحاج أحمد بن طُفَيْش[2] الذي حضر إلى حَمَاة بالتوجّه إلى القاهرة المحروسة ، بعد أن شملته الصدقات الشّريفة بالإنعام الزّائد . وتوجّه ابن طُفيش من دمشق بعد إقامة الرُّكاب الشّريف بها أربعة أيام .

---

(1) دخل السُّلطان دمشق مريضاً ، وكان المؤلف ذكر أنه توعّك عند دخوله حماة يوم 2 شعبان .
(2) شيخ قرية نوى بحوران ، تقدّم ذكره في نص رحلة ابن الجيعان الكاملة .

ثم استمرّ مولانا المقام الشّريف ، نصره الله تعالى ، مُقيماً بالقلعة المنصورة ، إلى أن أكل المسلوق في يوم السّبت الثالث والعشرين منه .

وجهّز مولانا المقام الشّريف ، نصره الله تعالى ، إلى إسحاق باشاه[1] ورفيقه الواصلين من مملكة الرُّوم مبلغ ألف دينار ، وثلاثمائة رأس من الغنم ، ومائتي إردبّ شعير ، وأربعماية قنطار بقسماط ، ومائتي طائر من الدّجاج ، وخمسين طائراً من الإوز البلدي ، وعشرة قناطير سُكّر ، وعشرة قناطير حبّ رمّان ، وخمسة عشر قنطاراً من الدّبس ، وخمسة عشر إردبّاً من الأرز المُبيَّض ، إنعاماً عليهم عند حضورهم لقصد التوجّه إلى الحجاز الشّريف .

واستمرّ في زيادة العافية ، وجلس صبيحة يوم الأحد الرابع والعشرين منه .

وكتب علامته الشّريفة على المراسيم الشّريفة المرسوم بكتابتها إلى مصر بعافية مولانا المقام الشّريف ، وخُلِّقت بالزّعفران وجُهّزت على يد السّيفي بردي بك من سيدي أخي المقدّم في ليلة الأربعاء السّابع والعشرين منه للدّيار المصرية ، وصُحبة قَرَا علي الشّمسي بن الصَّوّا .

وجُهّزت مراسيم شريفة للممالك الحلبية وغيرها بمعنى ذلك ، وشملت الصّدقات الشّريفة الأمير قانصوه الشّريفي الألفي بإمرية عشرة بالديار المصرية ، والسّيفي بردي بك من سيدي المذكور قبله باستقراره ساقي خاص عن الأمير قانصوه المذكور ، لأنهما كانا ملازمين للخدمة الشّريفة في حالة التوعّك .

---

(1) أي «باشا» ، الرتبة العسكرية العليا المعروفة عند العثمانيين ، وقوله «الواصلين من مملكة الروم» ، يعني من طرف السّلطان العثماني محمد خان الثاني (الفاتح) . وحتى عهد السّلطان المملوكي الأشرف قايتباي كانت العلاقة بين المماليك والعثمانيين تتراوح ما بين السّلم الحذر كما نرى هنا من إكرام لرسل العثمانيين ، وبين التنافس المستتر بشكل دعم العثمانيين لإمارتي دلغادر وقرمان في شرقي الأناضول كما رأينا في نص رحلة الأمير يشبك الدّوادار لابن أجا . وسرعان ما تحوّل التنافس المستتر إلى العداوة والاحتراب ، حتى بلغ الصراع ذُروته في عامي 922-923 هـ ، حيث اشتبكت الدولتان في حرب مصيرية أسفرت عن اندحار الدولة المملوكية وسقوطها نهائياً ، وضمّ أراضيها بالكامل إلى أملاك الإمبراطورية العثمانية القوية .

ثم في يوم الأربعاء المبارك المذكور ، جهّز للزيني إسحاق باشاه ورفيقه ، العثمانيين المذكورين إنعاماً وهو : تفاصيل سكندري خمسين واحدة ، ودبابيس بزدغاني عشرة ، وأطبار كفت مذهبة عشرة ، وأسنّة رماح عشرة ، ولبوس كفت ثلاثة ، وأتراس سبعة ، وقسيّ بندق عشرة ، ورماح قنى خمسين ، وشاشات مشتولي عال عشرة ، وسكّر نبات حموي عشرة مجامع ، ومرطبان زنجبيل مربّى ، ومرطبان كابلي مربّى . وأرسل إليهم بعد ذلك هجن مراكيب وسعارة وقماش هجن وغير ذلك .

ثم جلس يوم الخميس المبارك ، الثامن والعشرين من شهر شعبان المبارك ، بالإيوان بقلعة دمشق المحروسة ، وعمل سماطاً عظيماً ، وحضر إليه الأمير جاني بك نائب الشّام ، والأمير بردي بك نائب صفد ، والأمراء الشّاميون والمصريون والمُباشرون . وحضر إسحاق باشاه وجماعة الأروام إلى بين أياديه الشّريفة ، وأكلوا السِّماط وشربوا المشروب على العادة ، وألبسهم تشاريف شريفة ، وقدّموا تقدمتهم وهي : طواشي أبيض ، وتسعة مماليك ، وأربع قُطُر جمال بَخاتي ، وقطاران بغال ، وسبعة وأربعون قطعة فضّة آنية ، وقماش مخمل ومسح وكَمْخا وسمّور ووشق وفخذ وشق ، وغير ذلك .

[الميدان الأخضر]

ثم في يوم الجمعة المبارك سلخه ، ركب بعد صلاة الجمعة من القلعة وتوجّه إلى الميدان بدمشق ، وعمل سِماط عظيم ومشروب كثير في أحواض . واجتمع الأمراء ونائب الشّام ونائب صفد وجماعة النّاصري ابن عثمان صاحب الرُّوم ، وأكلوا السِّماط وشربوا المشروب . وحصل لجماعة المقرّ النّاصري ابن عثمان من الإنصاف والإحسان ما لا يُستطاع ضبطه ، ووصّى عليهم وعلى جماعتهم أمير الحاج وحكام دمشق ، ورسم بأن لا يُعارَضوا في الجمّالة والغلمان الذين يستخدمونهم .

ولسان الحال يقول وينطق بحقيقة الحال كما قال الشاعر :

ومن يقتربْ منا ويخضَعْ نُؤوِهِ ولا يخشَ ظُلماً ما أقامَ ولا هَضْما

ثم ركب مولانا المقر الشّريف ، نصره الله تعالى ، في بقيّة يومه من الميدان وعاد إلى القلعة[1] ، وابتهج أهل الشّام والمسلمون أجمعون لعافيته . وكان يوماً مشهوداً وموكباً عظيماً ، ولله الحمد والثناء .

وأنشأ لسان الحال يقول :

شُكراً لربّ السّماءِ على جزيل العَطاءِ
فقد سُررتُ بيومِ قد نلتُ فيه مُنائي

وحضر السَّيفي نُوروز أخو الأمير الدَّوادار الكبير ، بإقامة من عند المقر الأشرف السَّيفي يَشْبك أمير دَوادار كبير ، أعزّ الله تعالى نصرته ، في أول شهر رمضان .

واستقرّ القاضي صلاح الدّين بن العَدَوي في نظر القلعة بدمشق والأسوار ووكالة المقام الشّريف ، عن القاضي شهاب الدّين ابن النابلسي ، في يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين وثمانماية .

واستقرّ اسماعيل الحنفي في وظائف القاضي علاء الدّين ابن قاضي عجلون القاضي الحنفي في تاريخه .

واستقرّ القاضي جمال الدّين دوادار نائب الشّام في استاداريّة الأغوار عوضاً عن الأمير آقبردي .

وفيه أُفرج عن جماعة ابن النابلسي الذين كانوا في السّجن ، وحُط ما قُرِّر عليهم للخزائن الشّريفة ، شرّفها الله تعالى وعظّمها ، بشفاعة الشيخ علي الدقّاق .

---

(1) حول الميدان الأخضر (أي مرجة الحشيش) انظر ما يرد في نصّ البدري (68) أيام قايتباي .

ثم رُسم بإبطال التحكير بالخانات والمكوس على الحطب والتبن وغيره ، في يوم الجمعة المبارك سادسه ، وأُجهر النداء بذلك بدمشق بالجامع الأموي ، ونُقش به رُخامة[1] .

وفيه وصل الخبر بوفاة القاضي زين الدّين عبد الرّحمن ناظر الجيوش المنصورة بغزّة المحروسة ، وحصل الأسف عليه .

وتوجّه فيه قانصوه أمير كبير غزّة إلى غزّة المحروسة .

ثم في يوم الأحد المبارك ثامنه ، استقرّ القاضي شرف الدّين بن عيد في قضاء السّادة الحنفية بدمشق المحروسة ، عن القاضي علاء الدّين ابن قاضي عجلون المتوفى قبل تاريخه .

وفيه استقرّ القاضي الشّريف موفق الدّين عبد الرحمن العبّاسي الحموي في نَظَر الجيوش المنصورة بدمشق المحروسة ، عن القاضي شهاب الدّين النابلسي .

وفيه استقرّ إبراهيم ابن المرحوم القاضي زين الدّين ناظر الجيوش المنصورة بغزّة المحروسة ، عن والده .

---

(1) ما زال هذا النقش ماثلاً في أيامنا على لوح رخامي محفوظ في مستودع الجامع الأموي ، وقد نقل نصّه عام 1945 المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه ونشره في مقالة له عن نقوش المراسيم المملوكية في سورية ، في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق :
"Décrets Mamelouks de Syrie", 3ème article; *BEO*, XII (1947-8), p. 26, No 45.
ويتألف هذا اللوح من 6 أسطر ، ضاع الأخير منها بسبب كسر أصاب أسفله ، ومقياسه 80×60 سنتمتراً . وخطه نسخي مملوكي :
(1) رُسم بالأمر الشّريف السّلطاني الملكي الأشرفي أبو النصر قايتباي خلّد الله ملكه وشيّد (2) قواعد دولته الشّريفة عند حلول ركابه الشّريف بالمملكة الشّامية أن يُبطَل التحكير على (3) البضائع الذي يدخل إلى دمشق المحروسة من الزيت والسّمن والعسل والتمر والشر(ا)ئح و (4) والـ(لـ)يمون والخيار والتبن والفحم والقُلقاس والقصب والبادنجان والسّمك وجميع البضائع (5) [و] أ[ن] لا [يؤ]خذ غير ذلك ويُنزلوا حيث يُختار ومنع الحطّابة من قطع الأشجا(ر) من البساتين إلا بثمـ(ـنها) (6) . . . . . (السّطر تالف) .
ويُستفاد من نص ابن الجيعان أعلاه أن تاريخ هذا المرسوم كان في يوم الجمعة 6 رمضان سنة 882 هـ . فيقدّم لنا بذلك فحوى السطر الضائع من اللّوح الرّخامي .

فتوجّهتْ الأثقال الشّريفة وغالب الخيول الشّريفة في يوم تاريخه ، وهو الأحد ثامنه ، من دمشق المحروسة صُحبة الخواجا شمس الدّين محمد بن الصَّوّا ، والقاضي علم الدّين يحيى بن البقري ناظر الإسطبلات الشّريفة ، والأمير إلماس أستادار الصُّحبة الشّريفة ، والزّيني سُنبل الخازن ، والزّيني أمير حاج بن عَلَم الدّين ، من درب حوران .

[خروج السُّلطان من دمشق]

ثم توجّه ركابُه الشّريف ، نصره الله تعالى ، من دمشق المحروسة يوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان ، بعد أن أقام بها من ليلة سادس عشر شهر شعبان وإلى تاريخه ، راكباً ظهر فرسه الشّريف وفي خدمته الأمير نائب الشّام وأمراؤها .

وظهر منها سالكاً باب الفَرَج إلى أن وصل إلى ظاهر دمشق ، ألبس الأمير جاني بك الأينالي قُلَقْسِز نائب الشّام ، والأمير شادبك الجُلباني أتابك العساكر المنصورة ، والأمير يلباي المؤيّدي الدّوادار بها ، والأمير يَشْبك الشَّرَفي يونس العلائي حاجب الحجّاب بها ، وعلي بن شاهين نائب القلعة بها ، تشاريف شريفة ، ورَسَم لهم بالعَوْد .

ورَسَم للسيفي خُشْكَلْدي المحمّدي الخازندار ، المتوجّه قبل تاريخه بسبب النابلسي ، بالعَود إلى دمشق المحروسة إلى حين يَرِد عليه ما يرسم به .

[خان المريج وسعسع]

وتوجّه ركابُه الشّريف ومرّ بخان المُرَيْج ، وهو البريد الأول من دمشق المحروسة ، ونزل بسَعْسَع وقت المغرب وكان بالطريق أوحال ومشاقّ ، وبات بها إلى صبيحة النهار يوم الأربعاء حادي عشره ، ورَسَم بعمارة خان بها .

(القول المُستظرف ، 78-89)

بسم الله الرحمن الرحيم . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت

الحمد لله الذي عمر ممالك الاسلام بسلطاننا الاشرف من اهمه السير اليها
والنظر في امرها بعدما كان حالها على الفنا واشرف احسن ادام علينا
به في زماننا هذا وجعله بالخير يعرف واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له شهادة ندخل قايلها في الجنان قصرا مزخرف واشهد ان سيدنا
محمد عبده ورسوله الذي هو بالمومنين رؤوف صلى الله عليه وعلى اله واصحابه
الذين جاهدوا في سبيل الله حق جهاده وبعد فانه لما الهم الله الكريم
سبحانه وتعالى سيدنا ومولانا الامام الاعظم والهمام المتقدم ماخر الملوك
على الاطلاق والتحقيق جامع اشتات الفضايل حاوي المحاسن والماثر
من خصه الله منه بحسن التيسير حامي حوزة الدين المستغني عن
الاطناب في الالقاب السلطان المالك الملك الاشرف ابو النصر قايتباي
خلد الله ملكه وجعل الارض باسرها سلكه الى المسير الى الممالك الشاميه
وسرنا في اثره الى ان لحقنا ركابه الشريفه وتوجهنا في خدمته نصره الله
تعالى ورأينا من البلاد والبنادر والاشجار والاثار والانهار والاودية
والنباتات والجبال والعجايب والغرايب ما يتعين على الانسان ضبطه
والمطالعة به لارباب العقول المستقيمه والذوات السليمه من التاريخ
الحادث من الخير والفضيلة ليورخوا ذلك عندهم ويكتبوه في كتبهم

نموذج من مخطوط «القول المُستظرف»

نسخة دير الإسكوريال بإسبانيا



لقطة قديمة للجامع الأموي ، من كتاب : *La Syrie d'Aujourd'hui* ، عام 1884

- 68 -

أبو البَقاء البَدري

(توفي 894 هـ / 1489 م)

أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد ، أبو البقاء ، تقي الدّين البَدري الدّمشقي المصري الوفائي . أديبٌ عارف بالتاريخ والشّعر . ولد بدمشق عام 847 هـ وسكن القاهرة ، ثم تنقّل بينها وبين مكّة والمدينة والشام ، وكان يتكسّب بالتّجارة ، وتوفي بغزّة عائداً من الحج عام 894 هـ .

ترك البدري عديداً من المؤلفات الأدبية ، من أشهرها : «راحة الأرواح في الحشيش والرّاح» و «غُرر الصّباح في وصف الوجوه الصّباح» و «المطالع البَدريّة في المنازل القَمَريّة» و «نُزهة الأدباء وسَلوة الغُرباء» و «نُزهة الخاطر وقُرّة النّاظر» و«روضة الجليس ونُزهة الأنيس» . غير أن أهمّها وأشهرها هو كتابه الذائع الصيت «نُزهة الأنام في محاسن الشّام» ، الذي أتمّ تصنيفه عام 887 هـ في عهد السُّلطان المملوكي البُرجي الأشرف قايتباي ، والذي يُعدّ بحق أحد أفضل كتب «المحاسن» في فنون الجغرافية الإقليمية بأواخر عهد المماليك .

من المؤكّد أن المؤلّف قد أمضى شطراً طويلاً من حياته بدمشق وعرفها معرفة وثيقة ، كما ينعكس بجلاء في مصنَّفه ، الذي قدّم لنا فيه صورة حيّة لدمشق بأواخر القرن التاسع الهجري في خواتيم أيام الدولة المملوكية ، فرسم لها مشاهد جديرة بالاهتمام ، وتجاوز ذلك إلى المواضع القريبة منها ، وتناول بالوصف أنهارها ومساجدها وحمّاماتها ومتنزهاتها وأسواقها وقلعتها ، كما لم يهمل الحديث عن قراها وأرباضها المشهورة بأزهارها ونباتاتها وأشجار فاكهتها .

وفيما يتعلّق بالجانب الأول ، فهو يُورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية الهامة ، ثم يختتم كتابه بذكر من عاش بدمشق من الصحابة والمشاهير ، وعن مقابر المدينة وما بها من أضرحة ومزارات معروفة . أما توزيع مادّة الكتاب فغير متجانس ، ويلوح أن المؤلف قد افتتن بصورة خاصة بالأشجار والأزهار والبقول والثمار التي تنمو بدمشق ونواحيها ، فخصّص لها ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً ، وهو ينقل عن مصنّفات مختلفة في الطبّ والنبات ، حول الفوائد الطبية والغذائية لكل ما يذكره من نباتات .

أما أسلوبه الكتابي فلا يخلو أحياناً من التكلّف ، وتنتشر فيه الاستشهادات الشعرية وفقاً للموضوع الذي يعالجه . وهو بالرغم من إقامته بدمشق ومعرفته الجيّدة بجامعها الأموي ، فقد آثر عند وصفه له أن يعمد إلى النقل من رحلة ابن جُبير الشهيرة التي ترقى إلى القرن السادس الهجري ، وهي ظاهرة منتشرة لدى الجغرافيين العرب جميعهم . ويتضح للدّارس أن نصّ البَدري قد اكتسب حظاً وافراً من الشهرة بالشام ، فنقل عنه غير واحد من البلدانيين اللاحقين . وبشكل عام ، يبقى كتابه هذا أحد أهم وأطرف المصادر عن مدينة دمشق المملوكية ، ولا غنى عنه لكل من يتصدى للتاريخ المدني بتلك الفترة .

طُبع الكتاب للمرة الأولى في المطبعة السلفيّة بمصر عام 1341 هـ ، ضمن منشورات المكتبة العربية ببغداد ، بعناية صاحبها نعمان الأعظمي . وهي طبعة سيئة مشحونة بالأغلاط . ثم صدرت في بيروت عن دار الرائد العربي عام 1980 طبعة منقولة حرفياً عن طبعة بغداد زادتها ضغثاً على إبّالة ، وبقي الكتاب – على أهميته – إلى يومنا هذا بغير طبعة علمية تستوفي حقّه من الضبط والتحقيق . هذا ما حدا بي هنا إلى استخلاص فصول كاملة من الكتاب ، وتصحيحها مع التعليق عليها قدر الإمكان . إلاّ أنني انتخبتُ من الكتاب ما يتعلق بالطبوغرافيا التاريخية والمعلومات البلدانية فقط ، وأهملت الفصول المطوّلة التي أسهب فيها المؤلف بذكر نباتات دمشق وفوائدها الطبّية ، الأمر الذي أثقل في الحقيقة على الكتاب وشوّش منهجيته وتبويبه .

وكذلك أسقطتُ من الاعتبار مطلع الكتاب الذي يذكر محاسن إقليم الشام وأصل بناء دمشق وتاريخها القديم ، مع وصف الجامع الأموي ، إذ كنتُ قدّمت القول أن ذاك برمّته منقول ، وليس يتّسم بالأصالة .

وشرعتُ في النقل من حيث تبدأ رواية البَدري لمشاهداته الشخصية ، بدءاً من وصفه لقلعة دمشق ، ومروراً بذكر أنهارها ومحلاّتها وأسواقها ومتنزهاتها وأرباضها وقراها وجبلها ، وانتهاءً بذكر صناعاتها ومقابرها ومن دُفن فيها من الأولياء والصالحين . وتسهيلاً لقراءة النّص ، قمتُ بتبويبه إلى فقرات استهللتُها بعناوين ، هي من عندي وليست في الأصل .

وممّا وجدتُ فيه إمعاناً في فائدة هذا البحث وأهميّته ، دراسة مواقع الأماكن التي ذكرها البدري قبل ستة قرون وثلث القرن ، وما ينطبق عليها في عصرنا بمدينة دمشق . فقمتُ بذلك على أرض الواقع ، متوخّياً الدقّة والتحرّي ، فكان هذا الجزء من العمل أطرفه وأمتعه حقاً (برغم صعوبته) ، وأحسب أنّه قد أضاف فوائد جمّة حول الطبوغرافيا التاريخية للمدينة لم يسبق إليها أحد .

المصادر :

الضوء اللامع للسخاوي ، 11 : 41 ، 189 .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 505-506 .
الأعلام للزركلي ، ط 2 ، 41 .

نزهة الأنام في محاسن الشام

تأليف

ابي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي

من علماء القرن التاسع (ولد سنة ٨٤٧)

صاحب الديوان المشهور، وتاريخ « تبصرة اولى الابصار » و « سحر العيون »

طبع على نفقة

المكتبة العربية - ببغداد

لصاحبها نعمان الاعظمي

وحقوق الطبع محفوظة له

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة: ١٣٤١

نموذج لطبعة المكتبة العربية ببغداد ، عام 1341 هـ

وهي الطبعة الوحيدة للكتاب ، رغم كونها ملأى بالأغلاط

قلعة دمشق

ومن محاسن الشام قلعتها وحُسن بنائها واتّساعها فانها قدر مدينة . وبها ضريح السيّد الجليل أبي الدَّرداء رضي الله عنه . وبها جامع وخُطبة كالمدينة فإنها بفرد خُطبة لا غير ، وخارج المدينة الخُطب الكثيرة ، يعسر الآن علينا تعدادها . وبها حمّام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع . وبها دار الضَّرب التي تُضرب فيها النقود . وبها الدّور والحواصل ، وبها الطّارمة[1] التي ليس على وجه الأرض أحسن منها ، كأنها أُفرغت بقالب من شمع ينظر الرائي أعلاها فيحسُن نظره وإن طال مرآه .

وهي تسامتُ رؤوس الجبال . يقال إن تمرلنك لمّا أن حاصرها وعجز عنها أمر أن يُنقب تحتها وتُقطع الأشجار وتُعلّق بها ، حتى إذا انتهى تعليقها أطلق النار فيما تحتها من الأخشاب وظن أنها تفسخ بذلك وتسقط شَذَر مَذَر فيبلغ مُراده من أخذ القلعة . فلمّا عمّت النار فيما تحتها بَرَكَت بصوت أزعج الوجود كمايبرك الأسد ، فمن ثَمّ سمّوها بالأسد البارك ، وهي الآن على الثُّلثين من علوّها .

وبالقلعة آبار ومجارٍ للماء ومصارف ، بحيث إذا وقع الحصار وقُطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه . وبها يمرّ نهر «بانياس» وينقسم فيها قسمين ، يستمر أحدهما على حاله طاهراً للمنافع والاستعمال ، والآخر تنسحب عليه الأوساخ والقاذورات ، وهو المسمى بقُلَيْط ، يمرّ تحت الأرض بنحو من قامتين لتشعّب الماء الطاهر فوقه يميناً وشمالاً ، حتى في بعض الأراضي يبلغ سبعة مجارٍ من الماء العذب ليس لأحدها اختلاط بالآخر .

ومصارفهم تسقط على نهر قُليط ، ويمرّ في المدينة إلى أن يخرج من الباب الصغير ، ويتصل بمحلّة «المزّاز» فيضمحلّ فيما يليها من الأراضي التي تزرع الكرسنّة والفصّة والبيقية والقنّب وما أشبه ذلك . وغالب ما يُسقى به القنّب ،

(1) الطارمة : بناء للسّلطان كان مُلحقاً بخارج القلعة ، وهو قاعة خشبية أنيقة ذات شبابيك تعلوها قبّة من الخشب . وفي لهجة دمشق كانت منها بقية : الطَّرْمة ، غرفة علوية .

وهو أبيض أملس كالرِّماح في الطول مجوّف لا عُقَد به ، يُصبُّ الماء من رأس الواحدة فيجري من آخرها . وقشره يُعمل منه الخيوط والحبال ، وتورى بالقنّب النّار وهويقوم مقام الشّعشاع والطَّرفاء لكنه ألطف منهما وأسرع وقيداً . كما أن الشّيح أحسن من الحلفاء بعَرفه الذّكي أخضر وناشفاً . ويقال إن القنّب هذا يُعمل من ورقه الحشيش إذا أضيف إليه الورق البرّي . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا «راحة الأرواح في الحشيش والرّاح» فليُراجع . انتهى .

(نزهة الأنام ، 60-62)

تحت القلعة

ومن محاسن الشام تحت قلعتها[1] ، فإنها منهلٌ للغريب ومرتعٌ للقريب ، وهي ساحة سماوية كبركة الرّطلي في الوسع لاجتماع البَريّة ، تحفّها الدّور وتعلوها القصور ويلحقها كل ما يرومه الإنسان وتشتهيه الشّفة واللّسان ، لايحتاج فيها سكانها [illegible]

فيها دار البطيخ الذي يُباع فيه جميع فواكه البلد[2] . وبه العين المشهورة المُجمع على برودة مائها وعذوبته وخفّته . وبتحت القلعة سوق للقماش المذروع وسوق قماش للمخيط ، أحدهما للرجال والآخر للنساء . وبها سوق للفرا والعبي وغير ذلك . وبها سوق السّقطيين وسوق النّحاس ، وبها سوق السّكاكينين وبها سوق القُربيين وبه للأرميين ، وبها سوق قماش الخيل والبغال والبهائم والأغنام . وبها سوق القشّاشين وبها سوق المدهون والحصريين ، وبها سوق المحايريين والنجّارين والخرّاطين ، وبها سوق النُّقليين وبها دار الخضر ، وبها سوق المناخليين والزّجّاجين .

---

(1) موقعها اليوم ينطبق على الزّرابلية وسوق الهال والسّنجقدار وسوق العتيق وسوق الخيل .
(2) موقع دار البطيخ في أيامنا كان سوق القرماني (هُدم 2006) جنوبي مدرسة ست الشام .

وأما ساحة تحت القلعة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما به من المتعيّشين والوظائفية . ويتخلّل بينهم أرباب الحَلَق والفَالاتيّة والمُضحكون وأصحاب الملاعيب والحكوية والمُسامرون ، [و] كل ما يتلذّذ به السمع ويسرّ العين وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون ، لكن المساء أكثر اجتماعاً ويستمرّون إلى طُلوع الثُّلثين . وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرّقة بأعلى القلعة ، يضربون الثلث الأول كل واحد منهم ضربة ، والثلث الثاني من الليل يُضرب كل واحد ضربتين ، والثلث الآخرمن الليل يطلع المؤذّن على منارة العروس بالجامع الأموي ، ويعلّق لهم قنديل الإشارة ، فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات ويسوق الثلثين من التسبيح والأذان الأول ، إلى السَّلام ينتهي الضرب .

وبها خُطبتان : الأولى بآخرها بالمدرسة المؤيّديّة ، والثانية بصدرها في جامع يلبُغا[1] . وهو من أحسن الجوامع ترتيباً ومتنزّهاً ، بصحنه بركة ماء مربّعة داخلها فسقية مستديرة بها نوفرة يصعد منها الماء قامة ، ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملوّن يصل الماء إلى قُطوفها الدّانية . وبجانبيها حوضان فيهما من أنواع الفواكه وأجناس الرياحين . وله شبابيك تطل على جهاته الثلاث : الأولى على تحت القلعة من جهة الشرق ، والجهة الثانية تطل على بين النهرين وهي الغربية ، والجهة القبلية تنظر إلى نهر بردى وما هناك من الأشجار والأزهار ، وهناك شجرة حور يحتاط بها أربعة رجال فلا ينظر الواحد لمن يقابله لعظم ساقها . وللجامع ثلاثة أبواب : الأول الشرقي وهو في صدر تحت القلعة ويُسمّى باب الحَلَق ، والثاني شماليه يخرج إلى الميضأ ويُسمّى باب الفَرَج ، والثالث غربي يُنحدر منه في درج إلى أول الوادي ويُسمّى باب المُنْزَه . انتهى .

(نزهة الأنام ، 62-65)

---

(1) كان جامع يلبُغا الشهير يقوم إلى الجهة الشمالية من منطقة بين النهرين (ساحة المرجة حالياً) بناه نائب الشام المملوكي يلبُغا اليحياوي عام 847 هـ ، وكان ثالث أكبر جوامع دمشق - بعد الأموي وجامع المصلّى - ومن أبهاها وأفخمها . بُدئ بهدمه عام 1960 دون أي سبب يدعو إلى ذلك ، ولم أدركه مع الأسف إلا في الصور .

بين النّهرين

ومن محاسن الشام «بين النهرين»[1] ، وهو مُبتدأ الوادي يشتمل على فُرجة سماوية بها دور وقصور وسُوَيقة ، بها حانوت طبّاخ وصاجاتي وقطفاني وفُقّاعي وحواضري وفاكهاني وشواً وقلاّيين وسكرداني ونُقلي وقاعة لبن وعدّة للجلبية ، وحمّام يشرح صدور البريّة وقنطرة يُتوصل منها إلى جزيرة لطيفة ، من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين ، والمقسوم منه نهر الصالح المُعتقَد الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا من بركاته وعلى المسلمين طول الزّمان . وبها مقصفان للبطّالين فيما بين المقسمين وقُبالتهما زاوية للشاب التائب ، يُقام بها السبت والثلاثاء من الأوقات بالوعّاظ والدّواخل ما يصير الحاضر غائباً . ويُتوصل إلى زقاق الفرّايين المشتمل على قاعات وأطباق وغُرف وكَم رُواق ، الجميع يطلّ على بين النّهرين . ولكل مكان من ذلك ناعورة يستلذّ صاحبها بأُنسها وتجلب له الماء إذا سُمع حسّها .

(نزهة الأنام ، 65-70)

الشّرفان

ومن محاسن الشام شَرَفاها[2] وما حَوَيا من المناظر والقصور ، وما فيهما من الولدان والحُور . وتَقَرَّبَ إلى الله تعالى أهلُها ببناء المدارس ، رغبةً في جوار المجرّد الفقير البائس . ورتّبوا له من الخبز واللّحم والطعام ، والزّيت والحلو والصّابون والمصروف في كل شهر على الدّوام . فيجلس الطالب في شبّاكها ينظر إلى الماء والخُضرة والوجه الحسن ، فكيف لاينبعث إلى طلب العلم ويتحرّك من فهمه ما سكن !

---

(1) موقعها اليوم ينطبق على ساحة المرجة المعروفة . راجع ما كتبناه في رحلة ابن حجّة .

(2) الشرف الأعلى يمتد من البحصة غربي ساروجة إلى الميريديان والأركان ، من آثاره الخانقاه اليونسية وقبّة الطواويس (تربة دُقاق) والكُجُجانيّة والمدرسة العزّيّة والفرّوخشاهيّة والأمجديّة أما الأدنى فمن أعلى ساحة المرجة والسّرايا إلى جنينة النّعنع والحلبوني والبرامكة .

ويقال إن بمدرسة الكُجُجَانيّة[1] قُبّة بها طاقات بعدد أيـام السـنة ، والشّـمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل إليها ، وهذا من حُسن الهندسة .

وأما جامع تنكز[2] فإنه في الشَّرَف الأدنى ، وهو مـن الغايات هندسـةً وبنـاءً فيه عشرون شـباكاً على خط الاستواء يشرف على الأنهار ومرجة الميدان وما حوى . وبوسط صحنه يمر نهر بانياس يتوضّأ منه الناس ، وبه ناعورتـان تملآن وتُفرغان إلى حوضين بهما سائر الأشجار ، وجميع الرّياحين والأزهار . وبينهما بركة مربّعة بها كأس في غاية التدوير ، يجري الماء إليها مـن النّواعير . فهـو متنزّه يُقصد وللمصلّي معبد . وفي كل شرف منهما عدّة من المدارس والمساجد ، ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف ، استولت عليها أيدي المتشبّهين بالفقهاء فأظهروا فيها أنواع المفاسد . فلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم .

وكل شَرَف يطل على «الشّقرا» و «الميدان» و «القصـر الأبلـق» و «المَرْجـة» ذات العيون والغُـدران . ومـا أحسـن قـول الشيـخ شـمس الدّيـن محمـد النّواجي الشافعي في وصف الشرف الأعلى :

ألا إنّ وادي الشّـام أصبـح آيـة | محاسنه ما بين أهل النُّهى تُتلـى
وإن شَرُفَتْ بـالنّيل مصرُ فلـم يـزل | دمشق لها بالغوطة الشَّرف الأعلـى

ونقلتُ من خط العلاء علي بن المشرف المارديني ، في غـلام اسـمه علـي في الشَّرَف الأعلى :

جَنَـى عَلَـيّ ولكـنّ وجهَـهُ حَسَـنٌ | وفعله المُرتضـى يحلـو بـه الشَّـغَفُ
بَـدرٌ مـن الشَّرَف الأعلـى لـه نَسَـبٌ | وهـل لغير عَلَـيٌّ يُنسَـبُ الشَّـرَفُ ؟

---

(1) بل هي خانقاه بناها محمد بن إبراهيم الكُجُجاني عام 761 هـ بالشّرف الأعلى بين المدرسة العزّية وخانقاه الطواويس ، كان موقعها عند مقهى الكمال مواجه شركة الكهرباء .

(2) بُني عام 718 هـ ، معروف حتى أيامنا بشارع النّصر (حكـر السُّمّاق بـالعهد المملوكي ، أو شارع جمال باشا أواخر العهد العثماني) . كان من محاسـن جوامـع دمشـق المملوكيـة ، فلم يبق منه في عصرنا سوى منارته الرائعة ومحرابه وتُربة واقفه .

[وقال] الأمير مُجير الدّين محمد بن تميم يصف الميدان[1] :

عجباً لميداني دمشق وقد غدا ... كلٌّ له شرفٌ إليه يؤولُ
والنهر بينهما لغير جناية ... سيفٌ على طول المدى مسلولُ

وقال ابن الشهيد في «الشَّقراء» و «الميدان» :

ولم تحكِ جلّقَ في المحاسن بلدةٌ ... قولٌ صحيح ما به بهتانْ
ولئن غدوتَ منافساً في غيرها ... ها بيننا (الشقراء) و(الميدانُ)

ومن تحرير القيراطي قوله في وصف الشَّقراء :

سرْ بي إلى الشقراء من جلّق ... واثن إلى الخضراء منك العنانْ
فيها جنانٌ لو رأى حُسنها ... أبو نواس لَلَهَا عن (جَنَان)
وانزل بواديها الذي تُربُه ... مسكٌ وحَصْبا النهر منه جُمان

(نزهة الأنام ، 70-73)

المرجة

ومن محاسن الشام مَرْجَتها[2] ، قرأتُ كتاب وقف تربة السُّلطان الملك الظّاهر «برقوق» ، سقى الله عهده ، الكائنة بالصّحراء خارج «باب النّصر» من «القاهرة» المحروسة ، وهومتصل الثُّبوت إلى آخر وقت تسجيله على بعض القضاة الشافعية : من جملته طاحون الشّقراء بمرجة «دمشق» المحروسة ظاهر قصر الملك الظاهر أبي الفتوحات «بِيْبَرس» سقى الله عهده ، بالقرب من «زاوية الأعجام» ،

(1) أي الميدان الأخضر ، كان يُعرف حتى النصف الأول من القرن العشرين بمرجة الحشيش ، أما قبل ذلك فبالمرج الأخضر ، وفي عهد نور الدّين ميدان ابن أتابك . وموقعه اليوم يمتد من التكيّة السّليمانية إلى المتحف الوطني والمعرض حتى ساحة الأمويين غرباً .

(2) المرجة (وادي الشّقرا) كانت شرقي الميدان الأخضر والقصر الأبلق (حتى ساحة المرجة اليوم مع جسر فيكتوريا والسّرايا) . حدّها شمالاً نهر بردى وجنوباً نهر بانياس والشّرَف الأدنى .

ويليها قصبة سوق[1] ، عدّة حوانيتها أحد وعشرون حانوتاً وعُلوهـا الطباق المطلّة على المرجة المذكورة وبآخرها المسجد المطلّ على نهر بردى[2] . انتهى .

قلتُ : وأدركتُ الطاحون غير دائرة . ولقد هدمها وكيل المقام الشريف بُرهان الدّين النابلسي المعروف بابن ثابت ، في أوائل دولة السُّلطان الملك الأشرف «قايتباي» خلّد الله تعالى مُلكه[3] . فعلى هذا كانت المرجة عامرة آهلة وهي من المحاسن التي لا تُدرك ، وبعضهم يشبّهها بصدر الباز ، كأنه شبّهها به لأن الوادي ينضمّ من رأسها ويعلوه جبلان وشبّه هذين الشرفين بالأجنحة .

ونقلتُ من خط التّقي ابن حجّة قوله فيها :

ذكـرتُ أحبّتـي بـالمرج يومـا   فقـوّت أدمعـي نـيران وهجـي
وصرت أكابد الأحزان وحدي   وكـل النـاس في هَـرْجٍ ومَـرْجِ

ومن بديع القاضي محيي الدّين بن عبد الظاهر قوله فيها[4] :

ومرجـةٌ في وادٍ يروقـك روضهـا   ولا سـيّما إن جـاد غيـثٌ مبكـرُ
بهـا فـاض نهـرٌ مـن لُجـينٍ كأنّـه   صفـائحُ أضحـت بـالنُّجوم تُسـمَّرُ
تلاحظهـا عـينٌ تفيـض بـأدمُعٍ   يُرقرقهـا منـه هنـالك محجـرُ
وكـم غازَلَتْـهُ للغزالـة مُقلـةٌ   تُسـارق أوراقَ الغُصـون فتنظـرُ
إذا فاخرتـه الرِّيـحُ ولّـت عليلـةً   بأذيـال كُثبـان الرُّبـا تتعـثّرُ
بـه الفضـلُ يبـدو والرَّبيـعُ وكـم غـدا   به الرَّوض يَحيى وهو لا شكَّ جعفرُ

(نزهة الأنام ، 73-76)

---

(1) زاوية الأعجام كانت حتى حوالي عام 1950 في جنينة النّعنع فهُدمت (أنظر صورتها) .
(2) طاحون الشقراء (أو طاحون الأعجام بنصّ الأسدي) بناها سيف الدّين چقمق نائب الشام 822 هـ ، ونقدّر مكانها عند الأوريان بالاس . أما الجامع المذكور فجامع تنكز .
(3) أتمّ البدري كتابه عام 887 هـ بأيام سلطنة الأشرف قايتباي (حكم 29 سنة 872-901 هـ) ، وقدّمنا أعلاه رحلته السريّة إلى دمشق سنة 882 هـ (وفيها مات النّابلسي) .
(4) في البيت الأخير تورية بأسماء آل بَرْمَك Parmak : الفضل والرّبيع ويحيى وجعفر . يريد بها تربتهم (قبور البرامكة) بالحدّ الغربي للشّرف الأدنى ، وهي اليوم حيّ البرامكة .

الخلخال والمنيبع

ومن محاسن الشام محلّتا «الخلخال» و «المُنيبع» ، فمحلة «الخلخال»[1] بها سُويقة وحوانيت وفُرن وحمّام ، وهي مسكن الأتراك[2] ؛ وكذلك «المنيبع» و«الشّرفان» ، وبه يُدقّ طبلخاناتهم ، وبها زاويتا الأدهمية والحضود[3] ، وهي تحفّ بالناس والأعيان .

وما أحسن قول الشيخ جمال الدّين محمد بن نُباتة في وصف الخلخال :

يا حبّذا يومي بوادي جلّق ونُزهتي مع الغزال الحالي
من أوّل الجبهة قبّلتُه مرتشفاً لآخر الخلخالِ

و«المنيبع»[4] محلة وسُويقة وحمّام وأفران ، وبها مدرسة «الخاتونية»[5] وهي من أعاجيب الدّهر ، يمر بصحنها نهر «بانياس» ونهر «القنوات» على بابها ، ولها شبابيك تطل على المرجة وبها ألواح الرُّخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدّة خلاوي للطلبة ، وبجوارها دار الأمير الأصيل «ابن مَنْجَك» رحمه الله تعالى ، وبها سكن القاضي بهاء الدّين بن حجّي الشافعي رحمه الله تعالى . وهذه المحلّة من محاسن دمشق وشرفها . انتهى .

---

(1) موقع الخلخال في أيامنا حي الحلبوني (بستان الأعجام) ومحطّة الحجاز ومُبتدأ حي زقاق الجنّ خلفهما ، ووراءها كانت اللؤلؤة الصغرى وقينية اللتين تنطبقان على زقاق الجنّ ، والحمرية (أرض الحميريين) التي تنطبق على منطقة البختيار ودوّار كفر سوسة .

(2) يقصد بالأتراك هنا المماليك ، الذين كان أكثرهم من التُرك ، وليس الأتراك العثمانيين .

(3) اسمان مُصحّفان قطعاً ولعلّهما : الأعجميّة (كانت بجنينة النّعنع) والحريريّة (ترد أدناه) .

(4) المُنَيبع محلّة قديمة يدلّ عليها اسمها الآرامي حىم عىىحه (عين منيبع) : العين الدافقة . تقع غربي المدينة جنوبي نهر بردى ، ويمر بها نهرا بانياس والقنوات (فيغذّيان ينابيعها) . موقعها في أيامنا يمتدّ من الجامعة والبرامكة إلى الجمارك غرباً (بستان الشّموليّات) بأعلى ساحة الأمويين ، فتؤلف المنكب الغربي للشّرف الأدنى . عُثر فيها مؤخراً (2004) تحت أبنية الجامعة على مدافن رومانيّة تدلّ على قدم عمرانها .

(5) الخاتونية البرانية من الآثار الأيوبية الدّارسة (الدارس I : 502) . حدّدها دهمان عند مبنى التلفزيون بساحة الأمويين . ذكر ابن كثير بحوادث سنة 581 هـ : الخاتونية البرّانية التي على القنوات بمحلّة صنعاء دمشق ، ويعرف ذلك المكان الذي هي فيه بتلّ الثعالب .

نقلتُ من خط الشيخ شمس الدّين محمد النّواجي في وصف المنيبع :

يا سادة اهدوا محاسن جلّق　　لطرفي ففاضت بالبُكا عبراتُ
مُنيبعُ جفني فوق ربوة جبهتي　　يزيدُ ودمعي بعدكُم قنواتُ

(نزهة الأنام ، 76-77)

متنزّه الجبهة

ومن محاسن الشام المتنزّه المسمى بالجَبْهة[1] ، وهي أرض مربّعة قدر فدّانين عليها سقائف تظلّها من غير طين بين شجر الصَّفْصَاف والجوز والحور ، وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته مع البِرَك والبحرات بالنّوافر .

وهي على جنب نهر «بَرَدى» ، وبه النواعير وبها حوانيت للشّرايحية والجزّارين والطبّاخين والحواضرية والأقسماوية والفكاهين وغير ذلك . وبها مسجد ومدرستان ومربط للدّواب ، ومقاصفيّة واقفون في خدمة الناس . وعندهم اللُحف والأنطاع والعبي لمن يبيت .

وفيها يقول التقي ابن حجّة الحموي (دُوبَيْت) :

لما ملأ (الجبهة) بالأنوار　　لُمْناه على ذلك خوف العار
قال انصرفوا سئمتُ من بلدتكم　　و (الجبهة) من منازل الأقمار

وفيها يقول علي بن سعيد صاحب «المُرقص والمُطرب» وقد رآها عند شمس الأصيل قُبيل المغرب :

---

(1) ينطبق موقعها في عصرنا - كما يتبيّن - على مبتدأ مرجة الحشيش من ساحة الأمويين ، أي عند بناء المسرح القومي والمسبح البلدي وموضع مطعم النبلاء . ذكرها ابن طولون الصالحي في مطلع القرن العاشر الهجري وذكر قطية غربيها ، في كتابه المخطوط «ذخائر القصر في تراجم نُبلاء العصر» (مخطوطة الجامعة الأميركية في بيروت) . وهذا الكتاب الهام لم يُنشر إلى اليوم ، وفيه فوائد جزيلة حول الطبوغرافيا التاريخية لدمشق .

إن للجبهـــة في قلبـــي هـــوىً   لم يكـن عنـدي للوجـه الجميـل
يرقـص المـاء بهـا مـن طَـرَب   يُميلُ الغُصنَ في الظلّ الظليـل
وتـودّ الشـمس لـو بـاتت بهـا   فلـذا تصفـرّ في وقـت الأصيـل

ويعلوها نهرا «القنوات» و «بانياس» المنحدر الماء إليها منه ، ومن فوق النّهر حمّام النُّزهة[1] ، وإلـى جانبه مقصـف بحوانيـت فيهـا البضـائع ويمرّ بوسـطه نهـر القَنَوات . ويُتوصّل منه إلى زاوية الحريري[2] المشهورة وليس أبدع مـن منظرهـا . وينحدر منها الماء إلى المتنزه المسمّى «قَطِيَة»[3] ، وهي مقصف على نهر بـردى وعليه النواعير ، متشعّبة أراضيه بجداول الماء والبرك والبحرات . وبه قصبة ذات حوانيت يعلوها أربعة أطباق ومربط للدّواب . وعند المقاصفي العبي والتُّحُف والأنطـاع ، حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل ، وهذا مما لا يوجد في بلد من البلاد .

أنشدني قاضي القضاة عزّ الدّين أحمد الكتّاني الحنبلي فيها :

أيا حُسنَ سلسال علـى نهر قطيـة   إذا ما جرى فيها نخوض ونلعـبُ
تهــدّده أغصانهـــا برؤوســـها   فينظر مـن طـرف خفـيٍّ ويهـربُ

وقال ابن عماد الأندلسي وأبدع :

نهرٌ يهيـم بحُسـنه مـن لـم يهـم   و يجيد فيـه الشّعر من لـم يُشعرِ
فكأنّـه وكـأنّ خُضـــرةَ شـــطّه   سيفٌ يُسـلُّ على بسـاط أخضـرِ

(نزهة الأنام ، 77-80)

---

(1) يبدو من الوصف أن موقعه كان بالثلث الأعلى من طلعة الجمارك ، أو شرقيها بأسفل أبنية كلّية الهندسة المدنية وفوق مجرى بانياس . وعلى أي حال لا أثر له البتّة ، ولا شك أنه يمكن الحصول على تحديد أدق من خلال وثائق المحاكم الشرعية العثمانية .

(2) زاوية الشيخ علي الحريري ، ذكر النُعيمي (الدارس ، 2 : 197) أنها بالشّرَف القبلي غربي الزيتون . نظن موقعها بنواحي ساحة الجمارك أو ربما أسفلها ، والله أعلم .

(3) قطية اسم آرامي قديم : ܩܛܝܐ يعني القثّاء ، لعل موقعها اليوم أدنى طلعة الجمـارك مع جـزء من ساحة الأمويين . والممتع أنني لمّا كنت أزور مقهى «النّيربين» في الشيراتون المُقام علـى نسق متنزّهات دمشق بالأشجار والمياه الجارية ، أشعر أنني حقاً في قطية القريبة .

متنزه النيربين

ومن محاسن الشام المتنزّه المسمّى بالبهنسيّة[1] ، وهو روضٌ يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار مع عيون الماء ، ويُظهر منه إلى «مَرجة جسر ابن شوّاش»[2] ، به مقاصفي وبيع وشراء ، ويُتوصّل منه إلى أراضي «حمص»[3] ما بين رياض وغياض . ويعلوها محلة «النَّيربين»[4] ، وهي أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها ، حسنة الأثمار كثيرة الأزهار وبها سُويقة وحمّام يقال له «حمّام الزُمُرُّد»[5] وجامع بخُطبة ، وهي مسكن الرؤساء والأعيان ، وبها دار قاضي القُضاة نجم الدّين يحيى ابن حجّي ، وفيها قُتل رحمه الله تعالى . ومنها يُدخل إلى أرض الرَّبوة . وأعجب من هذا ، أن السَّالك إلى الرَّبوة من حين يخرج من باب جامع يلبُغا ، يمشي بين أشجار وأثمار ومياه وظلّ ظليل ، لا يمكن أن يرى الشّمس إلا أن يقصد رؤيتها . انتهى .

---

(1) أتوقع أن يكون موقع البهنسية عند الأرض التي قام عليها فندق شيراتون في أيامنا .

(2) في بساتين كيوان (وادي عتمة) ، ما بين فندق شيراتون وزقاق الصخر الواقع شرقي مشفى المواساة التي قامت على بستان السَّيلوني . وبقيت هذه المرجة على حالها إلى أيامنا ، إلى أن بُدئ مؤخراً بتجهيزها لبناء فنادق على ضفّة بردى إلى الشرق من طاحون الرّهبان (طاحون كيوان بالعهد العثماني) وكانت من ضمن الوادي التحتاني . أما الجسر فيُنسب إلى الحَسَن بن علي بن شوّاش المُقرئ (437 هـ) ، وما زال باقياً إلى أيامنا وله 4 قناطر حجرية ، على وضعه السابق بعد ترميمه عام 886 هـ كما يذكر المؤرخ ابن طوق .

(3) انفرد البدري بذكر أراضي حمص ، باستثناء ابن حجّة الحموي ، الذي ذكر عام 791 هـ : نهر حمص . ويستخلص من قولهما أنه فرع من نهر بردى يتفرّع في «الوادي التحتاني» شرقي الرّبوة ، بمنطقة كيوان اليوم . فيُفهم أن المنطقة التي شرقي مرجة جسر ابن شوّاش وأسفل النّيربين كانت تُعرف بأراضي «حمص» . وتقع اليوم عند أسفل حديقة تشرين على طريق بيروت ، وغربي الشيراتون حيث كان مسبح السيريانا (الجديد) .

(4) ينطبق موقع النّيرب الأعلى اليوم على حيّ المالكي وغربيه ومنطقة مشفى الشامي وحديقة تشرين . أما النّيرب الأدنى فينطبق على حي أبي رمّانة وطرفه الغربي المحاذي للمالكي . والنّيرَب اسم آرامي : ܢܝܪܒܐ (نيْربا) مُخفّف من ܢܐܘܪܒܐ (ناربا) ، ويعني : الوادي .

(5) كان موقعه بأسفل جسر الأياسة (حديقة الجاحظ) بالنّيرَب التحتاني ، عُرفت أرضه حتى منتصف القرن العشرين ببستان الحمّام ، وكانت تشغله في النصف الأول من القرن بعض الأبنية ، ثم قامت في موقعه بعصرنا مكتبة الأسد المطلّة على ساحة الأمويين .

وفيها يقول بدر الدّين بن لؤلؤ الذّهبي يصف النَّيربين :

رعـى الله (وادي النَّـيربين) فـإنني قطعـتُ بـه يومـاً لذيـذاً مـن العُمـر
دري أننـي قـد جئتُـه متنزّهـاً فمـدّ لأقدامـي ثيابـاً مـن الزَّهـر
وأوحى إلى الأغصان قُربي فأرسلتْ هدايـا مـع الأريـاح طيّبـة النّشـر
وأخدمنـي المـاءَ القُـراح وحيثُمـا سنحتُ رأيتُ الماء في خدمتي يجري

وأجاد الوداعي بقوله ثم أفاد :

ويـومٌ لنـا بـالنَّيربين رقيقـةٌ حواشيه خال من رقيب يشينُه
وقفنا وسلّمنا على الدوح بُكرةً فردّت علينا بالرؤوس غصونُه

[وقال] سيف الدّين المُشدّ ، وأبدع :

وصباً صبّتْ من (قاسيون) فسكّنت بهبوبهـا وصـبَ الفـؤاد البـالي
خاضت مياه (النَّـيربين) عشيّةً وأتتـكَ وهـي بليلـةُ الأذيـالِ

(نزهة الأنام ، 80-82)

ربوة دمشق

ومن محاسن الشام محلة «الرَّبوة»[1] ، قال بعض المفسرين : الرَّبوة أحدثها بنو كنعان[2] وابتدأوها . وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿وآويناهُما إلى رَبْوة ذات قَرَارٍ ومَعين﴾ ، يعني مريم وعيسى عليهما السّلام . وإنما قيل لها ربوة لأنها مرتفعة مُشرفة على غوطتها ومياهها . وكل رابٍ مرتفع على ما حوله يُقال له ربوة ومنه تربية الصبي لترفعه في النفس والجسم ، والمَعين الماء الذي يخرج من الأرض .

(1) ما تزال المحلّة معروفة إلى عصرنا ، كمتنزّه يعجّ بالمطاعم والمقاهي ورائحة الشواء .
(2) إن نسب العمران القديم بدمشق إلى الكنعانيين أمر صحيح ، لسبقهم موجة الآراميين .

وقال ابن مُطرف في ترتيبه : الرَّبوة فيها ثماني لغات : رُبوة ، ورَبوة ، ورِبوة، ورُباوة ، ورَباوة ، ورِباوة ، ورابية ، ورُبْي ، والجمع رُبى .

والرَّبوة مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي ، وبه صفةُ محراب يقال إنه مهد عيسى عليه السّلام يُزار ويُنذر له . وبها جامع وخطبة ومدارس وعدّة مساجد[1] ، وبها قاعات وأطباق . وفيها عين ماء يقال لها «الملثّم» ومرابط للدّواب وبها سُوَيقتان قاطع بينهما نهر «بردى» ، وبها صيّادو السّمك بصطادون[2] ، والقلاّيون على جبل النّهر يقلونه . ويُذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم ، خلاف ما يجيئها من اللحم من المدينة ، وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف في الزَّبادي والصحون ، وكل ما تشتهيه الأنفس فيها . وبها فرنان وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز التنّوري ، وأما الفواكه فلا قيمة لها فإني اشتريتُ الرّطل بربع درهم ، وكذلك الرّطل الدمشقي من المشمش مثله والتفّاح كذلك .

وبها حمّام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه ونظافته ، وله شبابيك تطلّ على النهر ، وهو مبني ما بين الأنهر من فوقه ومن تحته .. وبها طارمة المسجد الدَّيْلَمي الذي جدّده نور الدّين الشهيد[3] ، وله أوقاف على قرّاء ووعّاظ وقراءة البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفرّاش والبوّاب والوقّاد . وفيه يقول تاج الدّين الكندي :

إنّ (نُورَ الدّين) لمّا أنْ رأى ... في البساتين قصور الأغنياء
عمّر (الرَّبوة) قصراً شاهقاً ... نُزهةً مُطلقةً للفُقَراء

---

(1) لم يبق في عصرنا أي شيء من ذلك ، إنما هناك كتابة أثرية نادرة على متن الصخرة المعروفة بـ«المنشار» ، تؤرخ بناء مسجد هناك عام 444 هـ في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي . وهذه الكتابة من أقدم وأندر الكتابات الأثرية الإسلامية بدمشق ، إلا أنها تقبع في مكانها لا ينتبه لها أحد ، وكانت تعرّضت لبعض التّلف عند توسيع طريق الرّبوة قديماً .

(2) أي كان في نهر بردى عند الرّبوة سمك ، وكانت مياهه عذبة شروبة !

(3) الطارمة : كشك تعلوه قبّة خشبية . أما المسجد فهو ما تؤرّخ له الكتابة الفاطميّة المنحوتة بعارض صخرة المنشار ، فأصل البناء يعود إلى عهد الخليفة المستنصر عام 444 هـ .

وقال الأمير مُجير الدّين محمد بن تميم ، وأحسن ، رحمه الله :

يا حُسن طارمة في الجوّ شاهقة ... ما ان تملّ بها العينان من نَظَر
نزّه لحاظك في طاقاتها لترى ... أصناف ما خلق الرّحمنُ للبَشَر
ترى محاسن واد يحتوي نُزَهاً ... لذاذة السّمع والأبصار والفكر
وربوة قد سَمَت حتى تخال لها ... سرّاً تحدّثه للأنجم الزُّهْر
ما بين روض وأنهار مسلسلة ... تجري وتحمل أنواعاً من الثَّمَر
كم بتُّ فيها وخدني شادنٌ غنجٌ ... حلو التّثني كغُصن البانة النَّضر
أشكو إليه الذي ألقى ومُقلته ... تشكو إلى الذي يلقى من السَّهَر
حتى رأيتُ نجوم الليل قد غربت ... عنا وهبّت علينا نسمةُ السَّحَر
قمنا نجرّر أذيال العفاف بها ... والله يعلم منّا صحّة الخَبَر
لا خير في لذّة تمضي ويعقبها ... خطيئةٌ تسلكُ الإنسانَ في سَقَر

ومن لطائفه قوله :

موضع القس جنّة الخلد أضحت ... مُهجتي كلّ ساعة تشتهيها
طوّقتني بفضلها فلهذا ... كلّما زرتُها أغرّد فيها

وهذه القاعة التي بناها نُور الدّين الشّهيد هي على شِعب جبل جميعها متخّتة بألواح من خشب ، سقفها «نهر يزيد» وأساسها من تحتها «نهر ثورا» ومنظرها من الغايات التي لا تُدرك . وقبالها في الجبل الغربي[1] ضريح العاشق والمعشوق ، وعليهما صومعتان مبيّضتان ، وبينهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من الثُّريّات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لا يحتاط به الوصف ، حتى أن بعض الناس يطلع اليها ليتنزّه فيها يوماً فيُقيم بها شهراً .

---

(1) الجبل الغربي هو دفّ الزّعفران ، كان عليه قبّة الخضر (راجع نص ابن شدّاد) ، ولا وجود لضريح عشّاق به في عصرنا ، إنما به السجن المعروف الذي أقيم أوائل القرن العشرين . ولقد توقف العمل به في مطلع القرن الحادي والعشرين لتغيير استخدامه .

وجبلاها متقابلان متلاقيان عليها ، الجبل الغربي بذيله «دفّ الزّعفران» ، والجبل الشرقي رأسه مثل الجَنْك[1] . ولهذا أطنب الشعراء في وصفهما .

وقال الشيخ جمال الدّين محمد بن نُباتة في وصفهما :

بالجَنك من مَغنى دمشق حَمائمٌ ... في دفّ أشجار تشوقُ بلُطفها
فإذا أشار لها الشَّجيّ بكأسه ... غنّت عليه بجَنكها وبدفّها

وطلع الشيخ شمس الدّين محمد بن الخياط الشهير بضفدع مع ابن خلّكان إلى الربوة ، فوجدا غلماناً يعومون ويلعبون في نهر «ثورا» الذي تحت التّخوت المعروف بالمُنيقبة[2] ، فأنشد ضفدع قوله :

لربوتنا وادٍ حوى كلّ بهجة ... فعيشُ الورى يحلو لديه ويعذبُ
ترقّ لنا الأنهار من تحت جَنْكه ... فلا عجبٌ أنا نخوضُ ونلعبُ

(1) الكلمة فارسية : چنگ ، تعني نوعاً من آلات الموسيقى أشبه بالقيثارة ، ولشبه رأس الجبل بها سُمّي بهذا الاسم ، لكنه انقرض من بين ألسنة العامّة منذ عهد طويل .

(2) يقدّم لنا البدري هنا فائدة هامّة في الطبوغرافيا التاريخية لمدينة دمشق ، فاسم المنيقبة المذكور كان يشكّل لغزاً استغلق على الحَلّ مدّة طويلة . فقد ذكر المؤرخ الدمشقي يوسف بن عبد الهادي في أواخر القرن التاسع الهجري برسالته «غدق الأفكار في ذكر الأنهار» : نهر ثورا . . مقسمه من الربوة . . يهبط في نقب يُقال له [. . .] . ولقد سقط من المخطوطة اسم النُّقب بسبب تآكل أطراف الأوراق ، فبقي اسمه مجهولاً . وكنتُ أمضيتُ في التفتيش عن اسمه طويلاً ، إلى أن أسعفني به البدري أخيراً . وكان الرحّالة الكبير ابن بطوطة الطّنجي قد وصف النّقب في رحلتيه لدمشق كما مرّ أدناه بكتابنا هذا ، عامي 726 هـ و 749 هـ ، ولكن دون أن يسميّه : وهو يشقّ تحت الربوة ، وقد نُحت له مجرى في الحجر الصّلد كالغار الكبير . كما عثرتُ أيضاً على ذكر للمُنيقبة في أواسط القرن التاسع الهجري ، كما تقدّم أدناه في كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي ، ص 181-182 ؛ وكذلك في النصف الأول من القرن العاشر الهجري في كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» لابن طولون الصالحي (1 : 320) حيث يذكر : قُطع ماء نهر المنيقبة . ويُفهم من كلامه أن اسم المُنيقبة كان يُطلق في عصره على مجرى نهر ثورا بعد أن يهبط من النّقب المذكور . وهو فائض ماء ثورا يُضمّ لبردى .
هذا ، ولا زال النّقب المذكور ماثلاً في أيامنا ، على المنكب الأيمن لصخرة المنشار بالرّبوة (الشهيرة اليوم بصخرة أذكريني) ، وتحته «حالول الطاقة» .

فأنشد ابن خلّكان رحمه الله :

وسرب ظباء في غدير تخالُهم ... بُدوراً بأفق الماء تبدو وتغربُ
يقول خليلي والغرام مُصاحبي ... أما لكَ عن عهد الصّبابة مَذهبُ
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى ... فقلت له : دَعهم يخُوضوا ويلعبوا

(نزهة الأنام ، 82-91)

المَقْسَم

ومن محاسن الشام «المَقْسم»[1] الذي تنقسم منه السّبعة أنهار ، وأصله من ينابيع «عيون التُّوت»[2] .

وإليها يشير بُرهان الدّين القيراطي بقوله :

عندي لأرض دمشق فَرْطُ صَبابة ... فسقى حماها الرَّحبَ صَوْبُ غُيوث
وعيوننا لفراق مُشمشها حكى ... جريانُ أدمعها (عيونَ التُّوث)

ويمر [بردى] على قرية الزّبداني كالبحر ، إلى أن يلتقي على قرية «الفيجة» الفيحاء [بمياه ينبوعها] .

وما أحسن قول الشيخ بُرهان الدّين القيراطي في وصف الزَّبداني :

دمشق وافي بطيب ... نعيمها المُتداني
وصَحَّ قولُ البَرَايا ... مَنْ عاشَرَ الزَّبداني[3]

(1) المقسم هو موضع تفرّع نهر ثورا ، عند المبتدأ الغربي لوادي الرّبوة وجسر الخشب . عُمّر في أيام الملك الظاهر بيبرس ، الرّوض الزّاهر لابن عبد الظاهر ، ص 265 .
(2) أي نبع بردى في سهل الزّبداني غربي دمشق . واسم (عيون التّوت) يرد في بعض المصادر التاريخية القديمة ، لكنه ضاع من الذاكرة الشعبية لأبناء الشام وأبناء الزبداني ذاتها .
(3) يقصد بذلك المثل المتداول قديماً بين أهل الأدب : «من عاشر الزّبداني فاحت روائحه» . ربما كناية عن رائحة التفّاح ؟ راجع الريف السوري لوصفي زكريا ، 2 : 272 .

ويُقال : من ظاهر «باب السَّلامة» إلى ظاهر «باب تُوما» ثلاثمائة وستون عيناً تجري إلى القبلة[1] . قلتُ : ورأيتُ غالبها وارتويتُ من عذبها . انتهى .

وتنقسم هذه الأنهار السبعة منها : «يزيد» و «ثُورا» بذيل الجبل الشرقي . ويشق نهر «بردى» ببطن الوادي ، ونهر «بانياس» ونهر «القَنَوات» ونهر «القناية» ونهر «الدّاراني» بذيل الجبل الغربي . وآخر ما يتصفّى من هذه الأنهار ويفضل منها هو نهر «بَرَدَى» وينزل في «المَقْسَم» على نحو من عشرين درجة كالشَّادروان[2] ، فرؤيته تُذهب الهمّ وتزيل الحزن .

وما ألطف قول القاضي صدر الدّين بن الأدمي ، رحمه الله :

قالوا : فؤادَكَ بردٌ عن محبتهم ... فقلتُ : نار الهوى لا تنطفي أبدا
بردت قلبي عن الأحباب مُذْ رحلوا ... بما (يزيدُ) على (ثورا) وما (بَرَدا)

وقال صاحب دواوين الإنشاء العلاء بن فضل الله :

انزل ببانياس ففي نهرها ... سرٌّ به تُجلى عروسُ السُّرور
واسمع حديث الماء في جريه ... فإنّه يشفي عليل الصُّدور

وجمعها الشيخ شعبان الآثاري في قوله وأجاد :

شوقي (يزيدُ) وقلبُ الصَّبِّ ما (بَرَدا) ... و(بان ياسي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) و(العذول) حكى ... (ثورا) يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنّية (بالجَنْك) جاوبها ... (شبّابة) كم بها من (عاشق) شهدا
فالبَدر (جبهتها) والرِّدف (ربوتها) ... وخِلّها مات من (خلخالها) كمدا

(نزهة الأنام ، 91-94)

---

(1) وصف هام نادر ، وهذه العيون تنبع من المياه الجوفية المُغذاة بنهري يزيد وثورا . بقي منها اسم عين الكرش وكانت تنبع نواحي الميسات ، وزقاق العين تحت مسجد الأقصاب .

(2) الشادروان كلمة فارسية تعني الشلاّل ، ولا زالت الكلمة ماثلة في أذهان الدّماشقة ، يطلقونها على الموضع المذكور غربي الرّبوة على طريق دُمّر .

حواكير دمشق

ومن محاسن الشام «الحَواكير»[1] ، وهي كالحدائق في سفح «جبل قاسيون» ، فإن الفاصل بينه وبين «جبل الرَّبوة» عقبة قرية «دمّر» التي بحدّ «قبّة سَيّار» . يقال إن سيّاراً هذا وبشّاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للرّبوة وبأنهما كانا من أصحاب الخطوة ، فإذا أراد أحدهما الاجتماع بالآخر يضع قدمه على جانب الجبل والأخرى عند صاحبه ، فكأنهما كانا يمشيان في الهواء . فبنوا لهما هاتين القبّتين على هذين الجبلين .

رَجْع : وكان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرّياحين والأزهار في سفح «جبل قاسيون»[2] لحكمة وهو أنه يقيها البرد كونها في داره ، وأن النّسيم إذا مرّ بها يحمل منها [من طيب الرّيح] ما استطاع ، ويسري به إلى مَنْ تحتها من أهل المدينة والسُّكان[3] .

ومن محاسن الشام «الورَد» ، وهو جنس منه ستة أنواع بدمشق خلا الأسود . وقرية الزَّبداني هي قلعة الورد ، يستخرجون بها ماوَرْد القاهرة المحروسة ومكّة المشرّفة وغيرهما من البلاد[4] . وكذلك فاكهتها هي المنقولة إلى القاهرة المحروسة وغيرها .

ومن محاسن الشام : الورد النّسريني ، والنّسرين ، والنَّرجس ، والبَنَفْسج ، والياسمين ، والمنثور ، والسَّوسن ، والزَّنبق ، والبَهار (وهو الأقحوان الأصفر) ، والأقحوان ، والأذريون ، والبابونج ، والآس ، والرَّيحان ، والنّمام ، وشقائق

---

(1) كان اسم الحواكير ما يزال متداولاً معروفاً بدمشق حتى أواخر السبعينيات من القرن العشرين ، ولقد أدركنا أواخر هذه الحواكير المزروعة بالصبّار والأشجار المثمرة ، إلى أن تم اجتثاث آخرها وقامت بها الأبنية الشاهقة ، فآل حتى اسمها إلى النسيان . وموقعها اليوم يُعرف بغربي المالكي ، وصولاً إلى مشفى الشامي وساحة آخر الخط .

(2) قاسيون اسم آرامي قديم : ܩܫܝܘܢ (قشيون) ويعني القاسي .

(3) هذه كانت دمشق . أما الآن فالحرارة بها في الصيف تسجّل 47 درجة مئوية ، وأكثر .

(4) نشرتُ أعلاه نصّاً طريفاً نادراً للجغرافي شيخ الرّبوة الدّمشقي (توفي 727 هـ) عن تقطير الورد في عصره ، من كتابه «نُخبة الدّهر في عجائب البرّ والبحر» .

النُّعمان ، والنَّيْلُوفَر ، والبان ، والآس البرّي (قف وانظر)[1] ، وتمر الحنّا ، والخيلاني (وهو شجر يشبه الصّفصاف) ، وشجر الزَّنزلخت ، وشجر السَّرو .

قلتُ : وجميع هذه المحاسن بالحواكير ، غير أن الماء لا يصل إليها إلاّ بجهد كبير لعلوّها عن نهر يزيد ، فاصطنعوا لها الدّولاب[2] ودورانه بكل بهيم شديد . وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي :

حاكورةٌ دولابُها إلى الغُصُون قد شَكا
من حين ضاع زهرُها دارَ عليه وبَكا

(نزهة الأنام ، 102-185)

المزّة واللّوان و كفر سُوسية

ومن محاسن الشام أرض «المزّة واللّوان»[3] ، فإن حُكماء اليونان لما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الأزهار ورأوا طيبة أرض الجانب القبلي اختاروها لغرس الأشجار . فمنه : المُشْمُش ، والقَراصيا ، والكمّثرى ، والتفّاح ، والدّرّاقن ، والخوخ ، والأجاص .

وكل هذه الأصناف والألوان بالمزّة وأرض اللّوان ، وبها الدُّور الوسيعة الفناء المليحة الأساس والبناء . وفيها أعيان الناس ، وهي الجامعة بين حُسن الأنواع والأجناس مع الهواء الصحيح والاعتدال بالتّرجيح . وبها سُويقتان ، فيهما سائر ما يُشتهى من الألوان . ومصلّى بخُطبة وخطبة بجامع جديد ، وفيها

(1) انقرض هذا الآس البرّي من دمشق ، ويذكر بعض بساتنة الصالحية القدامى أن آباءهم أدركوه في القرن التاسع عشر الميلادي وكانوا يسمّونه : الأَقْنَضُر .

(2) أي النّواعير الخشبية ، ومنها عدد على نهر يزيد ، أشهرها ناعورة الشيخ محيي الدّين في زقاق بالصّالحية يُعرف بزقاق النّواعير .

(3) اسم المزة آرامي ، من ܡܙܘܢܐ (مزونا) : الغلال والمؤونة ، ومثلها ܡܣܬ (مسّت) . وأما كفر سوسية فمبناه سليم كما هو باللفظ ܟܦܪ ܣܘܣܝܐ : قرية الخيل .

ضريح الولي المُعتقَد الشيخ سعيد[1] ، أعاد الله علينا من بركاته وأمدّنا بصالح دعواته .

ويُتوصّل منها إلى قرية «كفر سُوسية» ، وبها معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام ، مع الفواكه الكثيرة بطريق الانضمام .

(نزهة الأنام ، 187-212)

المزّاز والشويكة

ومنها إلى أرض «المزّاز» و «الشُوَيكة» ، وهي من محاسن الشام ، وإليها يُنسب الرُمّان الشّويكي .

(نزهة الأنام ، 214)

داريا

ومن محاسن الشام قرية «داريّا» وهي قبلي «الشُويكة» ، وبها السيّدان الجليلان أبو سليمان الدّاراني وأبو مسلم الخولاني ، أعاد الله علينا من بركاتهما المتواترة وأفاض علينا من بحار علومهما الزاخرة . وإليها يُنسب البطّيخ الدّاراني .

(نزهة الأنام ، 219-220)

---

(1) في كتابي «معالم دمشق التاريخية» (ص 384) بحثتُ بلا جدوى في تسمية محلّة «الشيخ سَعْد» المعروفة في أيامنا بمنطقة المزّة القديمة ، والتي لا ذكر لها في المصادر . فها هو ذا هنا البدري يحلّ لنا اللّغز بتسمية الولي الشيخ «سعيد» . وذكر ابن طولون في القرن العاشر (مخطوط ذخائر القصر) : «ومنها الشيخ سعيد قبلي المزّة ، تجاه محل استسقاء أهل دمشق ، وقد أدركتُ به منبراً من حجر حتى قبّته . . يهرع الناس إلى هناك للفرجة على الوادي الفوقاني ذهاباً وإياباً ، ويزورون الشيخ سعيداً» . قلت : وإلى يومنا هذا مقام لولي بإحدى حارات الشيخ سعد صعوداً . كما كان في جبل المزّة زاوية لشيخ من الفقراء يُدعى الشيخ خضر ، كان يجلّه الملك الظاهر . راجع نصّ ابن شدّاد .

يلدا

ومن محاسن الشام قرية «يَلْدا» ، وهي من القبلة إلى شرقي قرية «عربيل» ، وما بينهما من القرى الجميع برسم زراعة كُروم العنب وعرائشه[1] .

قلتُ : وبين هذه الكُروم المذكورة قطع أراضٍ جميعها أصول لَوز ، ليس لها نظير في أيام تنويرها ، وهي من محاسن الشام .

(نزهة الأنام ، 223-235)

مرج الشيخ أرسلان

ومن محاسن الشام «مَرْج الشيخ أرسلان»[2] ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وأجرى علينا من صالح كراماته ، وفيه أقول :

يا مَن غدا قُلَيبُه قاسياً ... قُم لوليٍّ صادق البُرهان

وقف بذُلٍّ وانكسار وقُل ... بمدمع : يا سيّدي أرسلان

وهو يشتمل على أنهار وأشجار ونواعير لها مع النسيم رشّاش ، وغالب تلك الأراضي تزرع الخشخاش .

(نزهة الأنام ، 248)

---

(1) ثمّة غلط في الاتجاه ، وفي الآرامية : يَلدا ܝܠܕܐ الوَلَد ، وعربلا ܥܪܒܠܐ الغربال .

(2) يقع هذا المرج موضع تربة الشيخ أرسلان بظاهر باب توما ، ويتّضح من كلام البدري أنه كان يشمل منطقة أكبر من المساحة التي يقع بها المقام والتربة ، ويبدو أنه كان يضمّ بساتين ومحالّ ، كالأحدعشرية وطاحون الجاج إلى أكناف ما يُعرف اليوم ببساتين الطبّالة والدّويلعة . أما الشيخ أرسلان Arslan فمتصوف مشهور من القرن السادس الهجري ، له عند أهل الشام إلى اليوم مكانة روحية متناهية السموّ ، وما برح اسمه يُذكر دوماً في العراضات الشعبية : «شيخ رسلان يا شيخ رسلان . . يا حامي البر والشّام» . و في عام 1984 كنت نشرتُ عن سيرة حياته كتاباً بعنوان : «غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان» للمؤرخ الدمشقي ابن طولون الصالحي (توفي 953 هـ) .

الوادي التحتاني

ومن محاسن الشام «الوادي التَّحتاني»[1] ، وهو شرقي «مرج الشيخ» ، وهو يشتمل على غياض ورياض ، فالرِّياض هي رياض السَّفرجل ، وفيه يقول القيراطي :

فـؤادي إلـى بانـات جلّـقَ مـائلٌ ... ودمعـي علـى أنهارهـا يتحـدّرُ
فـوَافِ إلـى زهـر السَّـفرجل شيّقاً ... إذا مـا بـدا مثـل الدّراهـم يُنـثرُ
غيـاضٌ يفيـض المـاءُ في عَرَصاتهـا ... فـتزهُو جمـالاً عنـد ذاك وتُزهـرُ
تـرَى بَـردَى فيهـا يجـولُ كأنّـه ... وحَصباؤه سَيفٌ صَقيـلٌ مُجَوْهَـرُ

وهنا نكتة لطيفة ، وهي أن الشيخ جمال الدّين محمد بن نُباتة قدم إلى دمشق في أيام السَّفرجل ، فأضافه الشيخ جمال الدّين يوسف بن غانم في «الوادي التحتاني» لأجل رؤية زهر السَّفرجل ، فصادف نهار حرّ وقيظ شديد ، فأنشد الشيخ جمال الدّين محمد بن نُباتة المصري :

قـد أشـبهَ الحمّـامَ منـزلُ لهونـا ... فالمـاء يسـخنُ والأزاهـر تحلـقُ
فلـذاك جسـمي منشـد ومصحّـف ... عـرَقٌ على عِـرْقٍ ومثلـي يعـرقُ

فأجابه الشيخ جمال الدّين يوسف بن غانم يقول :

مـا أشـبه الحمّـام مـنزلُ لهونـا ... إلاّ لمعنـى راق فيـه المنطـقُ
فـالدَّوح مثـل قبابـه والزّهـر كالـ ... ـجامـات فيـه ومـاؤه يتدفّـقُ

وأما الغياض فهي غياض الحَوْر ، وهو في عُلو السَّواري خالص الاعتدال ورقه بوجهين أخضر وأبيض ، له مع النسيم حفيف لطيف بساق أبيض صَقيل ترتاح الأنفس إليه .

---

(1) يريد البدري بهذا الوادي التحتاني القرى القبلية للغوطة الشرقية ، الواقعة شرقي مدينة دمشق ، جنوبي المجرى الرئيسي لبردى . مع التنبيه إلى عدم الخلط بينه وبين الوادي التحتاني إلى الجنوب الشرقي من الرّبوة ، فيما يُعرف بأيامنا ببساتين كيوان .

وبه «غَيْضَة السُّلطان»[1]، وحَوْرها لا يستطيع الإنسان أن يدخل فيما بينه لانضمامه ولئلا يضل عن الطريق ، كأنه سُكب بقوالب من الشّمع .

وبهذا الوادي متنزّه يقال له «ستّ الشام» ، وهو مرجةٌ خضراء ما بين هذه الغياض ، وبها عين تجري بماء بارد عذب .

(نزهة الأنام ، 249-254)

المـرج

ومن محاسـن الشّام [المَرْج][2] ، وأوّله منتهى «الوادي التّحتاني» وآخره «البَحْرة»[3] ، يقال إنه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية تزرع الغلّة والحبوبات ، وفي الغالب الشّعير .

و«البَحْرة» إليها ينصبّ ما يفضل من مياه أنهار دمشق ، ومنهـا صيدهـا من السّماء والماء من الطيور والأسماك صيفاً وشتاءً[4] .

(نزهة الأنام ، 255)

---

(1) كانت هذه الغيضة تقع بين قريتي جسرين وحتيتة جرش على نهر بردى ، ولكنها لا تُعرف بهذا الاسم اليوم . إنّما لا علاقة لها بقرية مرج السّلطان المعروفة في المرج ، والمنسوبة للسّلطان العثماني سليمان خان القانوني .

(2) الكلمة ساقطة بالأصل المطبوع ، ومـا زال المرج يُعرف بهذا الاسم حتى أيامنا ، وقديماً عُرف بتسميات عدّة : مرج دمشق ، مرج راهط ، مرج عذراء ، مرج الغوطة .

(3) أي بحيرة العتيبة المعروفة ، التي يصبّ فيها ما يفضل من بردى .

(4) وأين هي الطيور والأسماك اليوم ! لقد غدت واحة دمشق في خاتمة الألفية الثانية منطقة أدعى إلى الجفاف آيلة إلى التصحّر بسبب الاكتظاظ السكاني ، وسوء استخدام الموارد المائية . ففي حين كان عدد سكان المدينة لا يتجاوز بأواخر القرن التاسع عشر 160 ألف نسمة ، ثم 300 ألفاً في الثلث الأول من القرن العشرين ، فهو لا يقلّ اليوم عن 8 ملايين نسمة . أما الحياة البريّة في واحة دمشق وريفها فـ«العَوَض بسلامتك!» لم يبق منها أي شيء يُذكر ، بسبب الصيد الجائر وانتشار العمران والطرقات والسيارات .

الضُمَيْر

ومن محاسن الشام «ضُمَيْر» ، وهي من القُرى القديمة اتّخذها اليونان[1] ، وإليها يُنسب البطيخ الضّميري الأصفر .

(نزهة الأنام ، 256)

برزة

ومن محاسن الشام «بَرْزَة» ، وهي من متنزّهات دمشق التي يُرحل إليها ، وهي شمال ضُمَير[2] ، وبها مقام نبي الله ابراهيم الخليل عليه السّلام ، وقد تقدّم سبب تسميتها برزة . وإليها يُنسب التين البَرْزي .

(نزهة الأنام ، 260-261)



القابون

ومن محاسن الشام «القابون» ، وهي حسنة الماء والهواء ، وهما قابونان : فوقاني وتحتاني ، وبهما أرض «مَصْطَبة السُّلطان»[3] ، وهي مصطبة في قدر فدّان يُصعد إليها في نيّف وعشرين درجة من جهاتها الأربع . وفيها قصرٌ حَسَن البناء ينزل به الملوك والسّلاطين عند توجههم إلى الأسفار .

وإلى هذا القابون يُنسب الخيار .

(نزهة الأنام ، 264-265)

(1) إلى الشمال الشرقي من دمشق ، بها آثار قديمة أخصّها معبدها الرّوماني المتناهي الفخامة .
(2) اسم ضمير في الآرامية ܨܡܝܪܐ يعني العجيب ، وبرزة ܒܝܬ ܐܪܙܐ (بيت أرزه) قرية الصّنوبر .
(3) كانت بسهل القابون بينها وبين برزة (عند مدارس الشرطة اليوم) وهي مصطبة عظيمة كان الملوك والنواب في عهد المماليك ينزلون بها إذا قدموا من جهة حلب فتخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ويدخلون بموكب حافل . وفي الآرامية ܩܒܘܢ قبون : منقع الماء .

بيت لَهْيَا والعنّابة

ومن محاسن الشام «بيت لَهْيَا»[1] و«العنّابة» ، ومن الناس من يقول «بيت الآلهة» وهو مكان مبارك يُزار ، ويقال إن حوّاء عليها السّلام كانت مُقيمة بهذا المكان . ونقل بعض المؤرخين قال : كانت حوّاء عليها السّلام في «بيت لهيا» وآدم عليه السّلام في «بيت أبيات» وهابيل في «سَطْرا» وقابيل في «قينية» .

فائدة عن عبد الرّحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، قال : كان خارج باب السّاعات صخرة يُوضع عليها القُربان ، فما تقبّل منه جاءت نار فأحرقته ومالم يتقبّل بقي على حاله . وكان هابيل صاحب غنم وكان منزله في «سَطْرا» ، وكان قابيل صاحب زرع وكان منزله في «قينية» ، وكان آدم في «بيت أبيات» ، وكانت حواء في «بيت لهيا» . فجاء هابيل بكبش سمين من غنمه فجعله على الصّخرة فأخذته النار ، وجاء قابيل بقمح من غلّته فوضعه على الصّخرة فبقي على حاله ، فحَسَد قابيل وتبعه في هذا الجبل يريد قتله حتى صار من أمره ما صار . قال بعض المؤرخين : وهذه الصّخرة هي الآن في الجامع عند باب جيرون بالقرب من «حاصل الزّيت» وهي صخرة سوداء مقرورة . انتهى .

(نزهة الأنام ، 268-270)

العنّابة

وأما «العنّابة»[2] فهي محلّة الآن تشتمل على دُور وقصور ، والسبب في تسميتها أن كاهناً في زمن الرّوم كان يتعبّد في صومعة بتلك الأرض فحصل له علّة أشرف منها على الهلاك ، فنزل عنده تاجر من تجار الرّوم ، ومن جملة متجره خمسة أحمال عنّاب ، فحلّها ونشرها ، وكانت دمشق مُمحلة من العنّاب وليس

(1) موقعها اليوم حيّ القصّاع ، وبيت أبيات بأسفل الميطور عند مشفى ابن النّفيس . واسم بيت لهيا آرامي : ܒܝܬ ܠܗܝܐ ، يعني الموضع المُقفر .

(2) موقعها في يومنا شمالي محلّتي القزّازين والسّادات ، عند جادّة الخطيب والقصور .

يوجد بها حبّة عنّاب ، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له . فلما أصبح جاء إليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلّة ووجد الكاهن في نفسه نشاطاً ، فقال له : ما الذي استعملت البارحة ؟ قال : الشيء الفلاني ، ونسي ان يذكر له العنّاب . فقال الطبيب : ولعلك استعملت عنّاباً ؟ قال : نعم ، ومن أخبرك بذلك ؟ قال : لعلمي أن علّتك هذه لا يُبرئها سواه ، وهو معدوم ، واختشيتُ أن أعلّق خاطرك به .

فزرع الكاهن الأرض التي حول صومعته جميعها عنّاباً ، وتقرّب بها في كل من احتاج منها إلى شيء يأخذه ، حتى يقال إن في الإسلام وُجد من ذلك العنّاب فَرْدُ شجرة وبُني ما حولها ، فسُمّيت تلك المحلّة بها ، والله تعالى أعلم .

(نزهة الأنام ، 268-273)

سطرا ومقرى

ومن محاسن الشام أرض «سَطرا ومُقْرَى»[1] ، وهما من الأراضي الطيّبة الفيحاء . وفيها يقول جلال الدين ابن خطيب داريّا :

خليليّ إن وافيتما الشام بُكرةً ... وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقرءا عنّي كتاباً كتبتُه ... بدمعي لكم مُقرى ولا تنسيا سَطْرا

وفيهما يقول ابن عُنين :

ألا ليتَ شعري هل أبيتَنّ ليلةً ... وظلُّك يا مُقرى عليّ ظليلُ
دمشقُ فبي شوقٌ إليها مُبرّحٌ ... وإن لجّ واشٍ أو ألحّ عَذُولُ

---

(1) موقع مُقرى اليوم ينطبق على ما بين مدينة الفيحاء الرّياضية وشارع برنيّة إلى الميسات ، وكان مستو بساتنة أبي جرش لا زالوا يذكرون اسم «طاحونة مُقري» التي كانت هناك . أما سَطرا فموقف السّادات وساحة التجرير ومبتدأ شارع حلب وشرقاً تجاه برج الرّوس . واسم مُقرى بالآرامية ممعناً يعني الصُفرة ، أما سَطرا هنا فالجانب والنّاحية .

وبينهما متنزّه يُسمّى بالبلكي[1] ، يجتمع فيه الناس أيام زهر السّفرجل ويسيّبون الماء تحت أشجاره ، ويوقدون في ظُلمة الشّهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ، ويعلّقون قشور النّارنج مُوقدة في الأشجار ، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ، ويقطعون فيه أوقاتاً من اللّذة والانشراح يعجز الوصف عنها .

(نزهة الأنام ، 273-275)

أراضي المزارع

ومن محاسن الشام أراضي المزارع[2] ، وهي خَضِرة مع الفلاة وكثرة المياه . ومن خصوصياتها الهَلْيُون والطَّرْخُون والكرنب والباذنجان والكرّاث والجزر ، وبها الزّعتر والفجل والسّذاب والنّعناع والرَّشاد والبَقْلة والإسفاناخ والكَرَفس والسِّلق والهُندباء والبصل والثّوم والكُزْبَرة والكَرَاويا والكمّون والقَرع ، وبها الكمأة وهي من خواصها ، وبها اللُّوبياء والأُرز والباقلاء والذُّرة والدّخن والماش والقرطم والعَدَس والسِّمسم وبزر قطونا والترمس والحمّص والحلبة والخسّ .

(نزهة الأنام ، 275-310)

الميطور والسّيلون

ومن محاسن الشام أرض «المَيْطُور»[3] و«السَّيلون»[4] وهما من متنزّهاتها ويقال إن أول من غرس بها غراساً بيده سُليمان بن عبد الملك .

---

(1) يبدو أن البلكي (سمّاه كرد علي : الألكي أو الفلكي) وبستان الحاجب كانا بالدّيوانيّة .
(2) يخيّل لي أنه يقصد بها منطقة بساتين أبي جرش بشرقي الصالحية ، ما يصاقب اليوم منطقة شرقي ركن الدّين والحزام الأخضر وأوتوستراد الفيحاء ومبتدأ أوتوستراد القابون .
(3) الميطور (ܡܝ ܛܘܪܐ ماء الجبل) هو اليوم حي الأكراد بشرقي الصالحية بين نهري يزيد وثورا .
(4) يبدو من قوله ومن شعر للشوّاء الحلبي أنه نحو بيت أبيات تحت الميطور بالأرباض الشرقية للصّالحية ، وثمّة آخر بالنّيرب وثالث عند المواساة . وبالآراميّة ܡܪܙܒܐ : ميزاب .

[وبهما شجر] البُندق والفستق .

ويقال إن سليمان بن عبد الملك كان نهماً في الأكل ، فجاءه بُستاني ليضمن بستانه هذا ، فقال : أركبُ إليه أولاً أنظر فاكهته ثم نُضمّنك إيّاه . ثم ركب ودخل البستان فلم يدع به من الثمار إلاّ اليسير حتى ما خلّى فيه من البندق الأخضر والفستق إلاّ ما عزب عنه . ثم نادى الضّامنَ سُليمانُ وقال للشُّهود : اكتبوا على هذا ضمان هذا البستان . فقال البُستاني : كنتُ أضمَنه قبل دخول أمير المؤمنين إليه !.. فضحك منه . ويقال إن قشر البُندق والفُستق تجمّع فجاء قدر مكّوك طائفي ، وفضل عنه .

نقل الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث قال : أخبرنا أن سُليمان بن عبد الملك أمر قيّم بستانه أن يحبس على الفواكه لا يجني منها شيئاً ، وأمرني بالركوب معه عند طلوع القمر من آخر الليل ومن حضر من أصحابه . فلما دخلنا إلى البستان انفرد كل منا يأكل حتى ارتفع النهار ، ثم صرنا إليه وقد أكلنا قدر الطاقة ، ونحن نقول [له] : هذا القطف العنب استوى ، فيخرطه في فيه ، وهذه التفاحة نضجت وهذه الانجاصة ناعمة ، وكلما رأينا شيئاً نضيجاً نشير إليه فيتناوله ويأكله .

حتى آن الضحى ، فأقبل على قيّم البستان وقال : ويحك ياشَمَرْدَل إني قد جعت ، فهل عندك شيء تطعمنيه ؟ قال : نعم ، عناق حوليّة حمراء . قال : ائتني بها بلا تأخير . فجاء بها مشوية على خوان وهو قائم بين أشجار الفاكهة ، فصار يتناول منها قطعة بعد قطعة ويتناول عليها الفاكهة إلى أن فرغت .

فقال له : ياشَمَرْدَل هل عندك غيرها ؟ فقال : نعم ، دجاجتان معلوفتان قد عَميتا شحماً . قال : ائتني بهما . ففعل كما فعل بالعناق وأتى بهما وهو قائم بين أشجار الفاكهة حتى فرغا ، وقال له : إن كان عندك سويق بسمن سلا وبعض سُكّر فائتني به فإني جائع ، فجاء بذلك فأكله . واستدعى بماء بارد وجعل شمردل يصبّ عليه الماء وأمير المومنين يجرعه حتى كفأه فارغاً .

ثم أعاد الأكل في الفاكهة فأكل ملياً ، وإذا بالسِّماط حضر فجلس يأكل كأنه لم يأكل شيئاً . قال الحارث : فعجبنا منه .

ويقال إنه عرضت له حمّى عُقيب هذا أشرف منها على الموت ، وقيل بل سبب موته أنه أكل أربعمائة بيضة وسلّتي تين وسبعمائة رمّانة وخروف وست دجاجات ومكّوك زبيب طائفي . انتهى .

وإنما ذُكر ذلك على سبيل الاستطراد وذكر بستانه والله أعلم .

(نزهة الأنام ، 310-317)

السَّهم

ومن محاسن الشام «السَّهم»[1] ، وهو متّصل بأرض الصّالحيّة ، وهو درب ما بين دُور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبُحور . وفيه يقول القيراطي :

دمشق بواديها رياضٌ نواضرٌ ... بها ينجلي عن قلب ناظرها الهَمُّ
على نفسه فليبك من ضاع عمرُه ... وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

ومن لطائفه قوله فيها وفي السَّهم :

بقاعُ دمشقَ للأمير بَشائرٌ ... فقف بمغاني جَنْكها مُترنّما
بقاعٌ إذا قوسُ الرَّباب بسَهمه ... رَماها غَدَت بالوَشْي بُرداً مُسهما

(نزهة الأنام ، 317-318)

(1) كان هناك سهمان : السهم الأدنى ، وموقعه في عصرنا عند طريق الجبّة على كتف نهر ثورا شرقي محلّة الجسر الأبيض . والسّهم الأعلى ، موقعه حالياً بمحلّة طريق الشيخ محيي الدّين بأعلى الجبّة . آه كم تتحسّر النّفس عند قراءة هذه الأوصاف لنُضرة دمشق وبهائها في الماضي ، كيف أحالها العمران الحديث إلى كتلة قبيحة وكالحة من الإسمنت والأسفلت والدّخان .

بَصَارو و بَهْران

ومن المحاسن أرض «بَصَارو»[1] و «بَهْران»[2] ، وهما معدن التّوت وأصل حُسنه المنعوت .

(نزهة الأنام ، 318)

الصّالحيّة

ومن محاسن الشام «الصّالحيّة» ، مشحونة بالزّوايا والتُّرَب والمدارس حتى أن بها قصبة دون ميل تمشي فيها بين تُرب ومدارس ببناء جميل ، استولى عليها المباشرون والنُّظّار ، فأزالوا منها العين ولم يبق سوى الآثار . فكم من مدرسة اندرست بعد الصّلاة والتّراويح ، وأمست في ظُلمة بعد تلك المصابيح ، وهي تقول : أصبحتُ حاصلاً ، بعدما كان إيواني بالقرّاء عامراً آهلاً ، وهذه تقول : أضحيتُ مربطاً للبهائم ، بعدما كنت معبداً للقائم والصّائم . وهذه تقول : اتخذوني مسكناً . وهذه تقول : جعلوني مَتبناً . وهذه تقول : هدّوني ، وأخذوا سقفي وكشفوني . وهذه تقول : أخربوا جداري وباعوا الباب ، وجعلوني مأوى للكلاب . والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث ، فيُقال لهم : اسمعوا كلام الرّحمن في مُحكم القرآن : ﴿إنّ إلينا إيابَهم * ثُمّ إنّ علينا حسابهم﴾ .

---

(1) من بساتين الصالحية . ذكره ابن طولون في القلائد الجوهرية (1 : 315) ، وأثبته دهمان في مخطط الصالحية بين محلّتي الميطور والشبلية بأسفل نهر يزيد . وهو ينطبق في أيامنا على ساحة الميسات والحافظية وجرن الشاويش . والاسم آرامي حوّاً : ناقص ، مُقَصّر .

(2) ذكر ابن كنّان الصالحي بالقرن الثاني عشر الهجري (المروج السندسية ، ص 66) : «والنّيرب غربي الصالحية وهو من محاسن دمشق ، أوله بستان بهران» . وذكر المنجّد (تاريخ دمشق لابن عساكر ، 2 : 337) : «كان في النّيرب الأعلى بين النهرين مكانان اسمهما بَهرام وسيلون» . قلنا : ثمّة سيلون آخر كان عند مشفى المواساة وآخر عند ابن النّفيس : أمّا بستان بهران فكان جنوبي وغربي الفواخير ، بين محلّتي الباشكاتب ونوري باشا اليوم ، ويضمّ شوري وأعلى جامع الرّوضة ، فهو أول بساتين النّيرب مما يلي الصالحية غرباً . يليه ما قام به حي المهاجرين بشرقي النّيرب الأعلى عام 1900 م .

فيا شَوقاه لحُسن «الجركسيّة» وحلاوة «الرُكنيّة» ، ويالهفاه على «جامع الأفرم» و«النّاصريّة»[1] ، تغيّرت تلك المعاهد ، وغُلِّقت أبواب تلك المساجد والمعابد . إنّا لله وإنا إليه راجعون . إنّ هذا لهو البلاء الجسيم ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم .

وبالصّالحية نهران فيها يجريان : «ثُورا» و «يزيد» ، وكم عليهما من غرفة وقصر مَشيْد . يُحكى عن ابن الصّائغ الحنفي ، أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة نزل في «الجسر الابيض» عند الأمير مُجير الدّين بن تميم ، ونهر ثورا يمرّ بداره المأنوسة ، فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء ، فرأى شمس الدّين ابن الصّائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدّامه منه ما أعجبه ، ثم التفت لابن تميم وقال له : أنت يُغنيك هذا النّهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم . وأنشده في الحال ارتجالاً :

يقول وقد رأى ثورا خليلي ... بفيض بسائر الثّمرات فَيْضا
أيكفيكم فلا تَشْرون شيئا ؟ ... فقلتُ : نَعَم ، ونبيعُ أيضا

فقال ابن الصّائغ : وهذه الفاكهة ألِمن يرميها في النهر أرباب الغيطان ؟ قال له ابن تميم : إنما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه ، فيلقيها النسيم عندما تشتبك الأغصان ، وأما البساتنة فإنهم يضعون فواكه مجموعة على أبواب البساتين ، كالزّكاة لمن يمرّ بها ويحتاج إلى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين .

وأُخبرتُ في القديم أن بعض الفقراء يضع مَكْتَله على رأسه ويسرح في طرق البساتين ، فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار ، من غير أن يتناول بيده شيئاً . وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتّكرار ، وغالباً ما يُزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها . انتهى .

---

(١) لا زال جامع الأفرم قائماً إلى اليوم بعد نقله وتجديده ، أما دار الحديث النّاصرية فزالت في مطلع القرن العشرين (انظر صورتها) وكان موقعها عند وزارة الخارجية في أيامنا . يذكر الشيخ دهمان أنه حتى أواسط القرن كان موضعها بستان يُعرف بالنّاصريّة .

وغالب أهل الصالحية يُهادون سكان المدينة بالبَلَح والأُترُج والكبّاد ، لنموّ حُسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد .

(نزهة الأنام ، 320-323)

جبل قاسيون

ومن محاسن الشام «جبل قاسيون» ، فإن الصّالحيّة في سفحه وتحت ذُراه ، وهو جبل مُبارك به آثار الأنبياء والصحابة والأولياء ، وبه «الكهف» ويقال إنه كهف أصحاب القصّة ، وبه مغارة الدم يقال إن كل ليلة جمعة يُرى بها قطرة دم ، وبه محاريب الأربعين محل تعبّدهم .

وبه ينبت من عند الله تعالى من الأزهار والأشجار ما لا ينبت في غيره ، وسقيه بالأمطار . فمن أزهاره القرنفل والخُزام والشّيح والسُّمّاق والزَّعْرُور والزَّيزَفُون والخرنوب .

(نزهة الأنام ، 39-45)

قرية منين

ومن محاسن الشام قرية «منين» ، خَضرة نَضرة وهي شمالي جبل قاسيون ، وبها السّيدان الجليلان «الشيخ جَنْدَل» و «الشيخ أبو الرّجال» ، أعاد الله علينا من بركاتهما . ويقال إن الشيخ جندل لا يقبل من ينام عنده ، فإذا نام الإنسان حول الضريح يفتح عينه يجد نفسه مُلقى خارج المزار ، وقد اشتُهر ذلك عنه .

وإلى منين يُنسب الجوز المنيني . وبها الثّلج الذي يقيم من العام إلى القابل ، ويُحمل ثلج السّلطان إلى القاهرة مدّة العام ، وما يُستعمل بدمشق الجميع منها يخزّنونه في حواصل مُعدّة له .

وينبت في الثّلج الرِّيباس ، وينبت في جبال الثّلج أيضاً أمير باريس ، قال ابن البيطار : هو البَرْباريس ، وبالفارسية الزّرشك . وينبت بهذا الجبل الصنوبر .

وثمّ أشياء لا تنبت إلاّ في الأراضي الحارّة كالقُلْقاس ، فإنه يطلع بأرض قرية الغَوْر من أعمال دمشق ، ولا ينبت في غيرها من أرض الشام . ومنها الموز وقَصَب السُكّر .

(نزهة الأنام ، 345-356)

غوطة دمشق

قلتُ : وأما محاسن الشام[1] فإنها لا تحصى ، وغُوطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى . وقد جاء في الأخبار عن كعب الأحبار ، رضي الله عنه : «غُوطة دمشق بُستان الله في أرضه» .

وعن أبي أمامة ، رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم ، تلا هذه الآية : ﴿وآويناهُما إلى ربوةٍ ذات قَرارٍ ومَعين﴾ ، قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هي في الشام بأرض يُقال لها الغُوطة بمدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام . وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : «قال هي دمشق» .

قال الذهبي : وأجمع سُيّاح الأرض والأقطار على أن متنزّهات الدنيا أربعة ، وهي : «صغد سَمَرْقَند» و«شعب بوّان» و«نهر الأُبُلّة» و«غُوطة دمشق» . قال أبو بكر الخوارزمي في رحلته : رأيتها كلها ، فكان فضل غُوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربعة على غيرهن ، كأنها الجنة وقد زُخرفت وصُوّرت على وجه الأرض .

(1) كُتب في محاسن الشّام وفضائلها مصنّفات جزيلة ، من أشهرها كتاب «فضائل الشام» للرّبعي المالكي ، توفي عام 444 هـ .

وما أحسن قول الشيخ علاء الدّين علي بن المشرف المارداني ، وقد أنشدنيه شقيقه ركن الدّين محمد ، عند قدوم أخيه إلى دمشق المحروسة في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة :

ليس في الحُسن للشآم نظير لايغرّنك بالبلاد الغُرورُ
كلّ ما تشتهيه نفسك فيها وبها البشر والهنا والسُّرورُ
قلتُ للركب مُذْ أنَخْنا عليها وتَراءت ولدانها والحُورُ
هذه الجنّة ادْخُلوا بسَلام بلدٌ طيّبٌ وربٌّ غفورُ

وقال الشيخ عبد الله الأرموي ، رحمه الله : دمشق من أي جهة أقبلتَ عليها تجدها حلّة بيضاء طرازها أخضر .

وقال الشهاب محمود من رسالة : وأما دمشقُ فكأنّها وجهُ الحبيب[1] ، وقد دارَ به العذارُ الأخضر الرَّطيب .

وقال الشيخ عبد الولي الحضرمي رحمه الله : سُحْتُ البلاد ورأيت ما بها من الأعاجيب ، فلم أنظر كصُغد سمرقند ، وهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر مقدار اثني عشر فرسخا في مثلها ، وهي في وسط مملكة ما وراء النهر . ورأيت شعب بوّان وهي بقعة مذكورة بنيسابور طولها فرسخان وقد التحفتها الأشجار ، وجاست خلالها الأنهار . وهذا الشعب لبوّان بن أيوح بن أفريدون ، وفيه يقول أبو الطيّب المتنبي من قصيدة تشتمل على وصفه :

يقول بشعب بوّان حصاني أعن هذا يُسار إلى الطِّعان ؟
أبوكُمُ آدم سَنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان

ومررتُ بنهر الأُبُلّة وهي من أعمال البصرة ، طوله أربعة فراسخ وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد مُدّ على خط الاستواء نخله كانه غُرس في يوم واحد . ودخلتُ إلى دمشق وتنزّهتُ في غوطتها ، أجدُها أحسن من الثلاث

---

(1) ما أبلغ هذا الوصف وأطيبه ، فحيّا الله دمشقنا الحبيبة وعطّر منها بالعافية الأردان .

وأكثرها خيراً ، طولها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً مشتبكة القرى ، والضياع لا تكاد الشمس تقع على أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها .

وقال الميدومي في كتابه «لطائف الأعاجيب» : كان بغوطة دمشق أشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالمشمش والخوخ ، والتفّاح ، والكمّثرى . وبها ما يحمل الثلاث ، وأقلّهن اللونان من الفاكهة .

قلتُ : وهذا موجود إلى يومنا هذا ، فإني رأيتُ بها الكَرْمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر ، ورأيت بوادي النَّيربين شجرة توت تطرح التّوت الأبيض والأسود . وهذا من صنعة الفلاحة يسمى التطعيم ، وهو أن يُؤخذ قطعة خشب من التفاح ويُشق ساق شجرة كمثرى تكون بساقين ، وتوضع تلك القطعة في إحدى الساقين المشقوقة ، وتشدّها بخرقة وتسقيها وتعاهدها إلى أن تلحم بها ويخرج الورق الجديد ثم تثمر .

رجع إلى بقية كلام الميدومي ، قال : وكان غرس الأشجار في بعض البساتين كالسّطور التي تُقرأ . انتهى والله أعلم .

(نزهة الأنام ، 356-360)

صناعات دمشق

ومن محاسن الشام ما يُصنع فيها من القماش والنّسيج ، على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه . ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه[1] . ومنها عمل القماش الهُرْمُزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله . ومنها عمل القماش الأبيض القُطني المصوَّر لأحياء القصور ، وأموات القبور . وفيها أيضاً عمل القماش السَّابُوري بجميع ألوانه وحُسن لمعانه .

(1) وهذا يُضارع ما أدركناه بعصرنا من أصناف المنسوجات الدمشقية الشهيرة ، كالبروكار والدّامسكو والأغَباني والدّيما .

وفيها تُعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع . وفيها تُعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ أوصاله . وفيها تُعمل صناعة القرضية ودباغاتها المرضية . وفيها تعمل صناعة الزُّمُوط والأقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع . وفيها صناعة الحرير بالفتل والدّواليب والسّرير . وفيها تُعمل صناعة السِّلاح ، بما فيها من الأعاجيب والاقتراح . وفيها تعمل صناعة الموشّى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون . وفيها تعمل صناعة النُّحاس من الضّرب والتفصيل والنّقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها صناعة ألواح الصّقال ودهن ألواح صغار الكتّاب ، وجفان القصع وتفصيل القبقاب .

وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصنّاع من الواحد بعد الواحد ، إلى أن ينيف على عشرة صنّاع حتى تتم .

واعلم أن هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ، ثم تعلّمها الناس منهم وبعضهم من بعض ، وصارت وراثة من الحكماء والعلماء ومن العلماء للمتعلمين ومن الأستاذين للتلامذة للصنّاع . هكذا نقله ابن جماعة في شرحه على نقول العيد ، انتهى .

(نزهة الأنام ، 362-364)

قافات دمشق وخيراتها

ومن محاسن الشام ما يُحمل منها إلى الدّيار المصرية عشرة قافات انفردت بها ، وهذه مُسمّياتها : قَصَب ذَهَب ، قُبع ، قرضية ، قرطاس ، قَوس ، قُبْقَاب ، قَرَاصيا ، قمر الدّين من المُشمش ، قَريشة ، قِنّب .

وكنتُ في هذا المحل أكتب ، وإذا بشخص خليع يغلب عليه الخَبَال والدّخل يتردّد إلي من أهل مصر العتيقة يقال له «تَعاتير» ، جاء إلي وقال : عَبِّر لي هذا المنام : رأيتُ الليلة في النوم رجلاً جليلاً من أهل الشّام ، أعطاني قَصعة بها آثار

قُطن فيه بعض قُضامة مربوطة بخيط قنّب . فأردتُ أن أُدخل عليه سروراً ، فقلتُ له : يا تَعاتير ، من مُناسبة الحال القضامة ، وهي ذهب وفضّة في وعاء مشدود معقود ، تناله من بعض رؤساء الشاميين . فسُرَّ بذلك وفارَقني .

فأخذتُ أتعجّب من الاتّفاق وذكر هذه الأربعة قافات المجلوبة من الشام إلى القاهرة . وفيما أنا في مثل هذا السّياق ، إذا أنا به في اليوم الثاني جاءني وهو يضحك ، فقلت : ما بالك وما خَبَرُك ؟ قال : فارقتُك فأخذتُ لي قطعة جبن ورُطَب وجلست آكلهم برغيف في عَقَبة قدّام المقياس ، وإذا برئيس شامي في خدمته عبيد وغلمان نزل إلى تلك العقبة ، وقال للنُّوتي : اطلع بنا المقياس لنزوره ، وزَوِّرنا الآثار ، وقال لغلمانه : لاقونا بالخيل إلى الآثار . فنَهَرَني بعض العبيد وقال : ما تخرج ! فقال له سيّده : دعه يؤانسنا . وسألني عن اسمي ، فقلتُ له : الناس يسموني تَعاتير ، وإنما اسمي أبو الخير . فتهلّل وجهه وقال : هذا المكان ما اسمه ؟ فأقول له كيت وكيت ، وهذا يُعرف بكذا .

إلى أن توجهنا إلى دَرَج الآثار وأراد الطلوع ، وإذا بمنديل سقط منه في المركب ، فبادرتُ لمناولته إياه ، فقال لي : أعط منه للنُّوتي ديناراً وخذه لك بما فيه . فقبّلتُ يده ، وقال لي : ما تروح معنا ؟ قلت له : مَرسومُك هذا النُّوتي ابن حارتي ، وأرجع معه . فقال : أُدعُ لنا . وتركته وأنا لا أصدّق من الفرح ، فقلتُ لبعض غلمانه : أيش يقال لهذا الرئيس بين الشاميين ؟ قال : هذا القاضي بدر الدّين بن المُزلّق[1] . فدعوتُ له وانصرفتُ أجد بالمنديل خمسة دنانير ذهباً وسبعين فضّة ، فدفعتُ للنُّوتي ديناراً ، وجئت لأتشكّر منك على تعبير المنام وأُخبرك بتفسيره . فقلت له : هذا أعجب من الأول . انتهى .

وغالب ما عددناه وأوردناه من محاسن الشام انفردتْ به دون غيرها ، ويُحمل منها لغالب البلاد لكثرة خيرها . ومن أعاجيبها أن خيرها في الغالب لغير بَنيها ، حتى أنه يُنسي الأهل والأوطان ، ولو فارقها لعادَ إليها على طول الزّمان .

---

(1) بنو المُزلّق من أسر العلم الشهيرة بدمشق زمن المماليك ، لا ندري أين طوّح بهم الدّهر .

وقال القاضي الفاضل :

يقولون لي ماذا رأيتَ بشامهم	فقلتُ لهم كلَّ المكارم والفضل
فبلدتُهم خيرُ البلاد وأهلُها	بإحسانهم تُغني الغريبَ عن الأهل

(نزهة الأنام ، 364-367)

فصول السَنة بدمشق

ومن محاسن الشام أن كل نزهة ذكرناها ، لها أوانٌ يتفرّج أهل البلد فيه ، وزمان يتعاهدونها به ويرجعون إليه . ومن محاسن الشام صيفيتها ، وأنها مُعلنة بحياة الأزهار ونمو الأثمار . وشتويتها مُؤذنة بموت الأشجار بالاصفرار ، وتغسيلها بعد التجريد بالأمطار .

لكن يعتدّون للشتاء بالأسمان والأدهان ، ويموّنون البيوت بالحبوبات ، ولحم القديد والمعسولات والفاكهة المعلّقة ، والحلاوات المؤنقة . ويكنّون في الأماكن المبخرات ولا يخرجون منها .

فإنها بلدة كثيرة المحاسن ، وماؤها غير آسن . وهي مباركة وفيها البركة وعيشها رغد في السّكون والحركة . ولكن استقري من كان مولده فيها لم يزل في قبض[1] ، ما دام بها إلى أن ينزل إلى تحت الأرض . ويقال إنه لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان .

(نزهة الأنام ، 368-373)

---

(1) يراد بذلك أن مناخ دمشق يورث الاكتئاب ، وهذا حقّ . راجع ما كتبه الحاج خورشيد المُسائل الحلبي في رسالته الطريفة : «مقولة كشف اللّثام عن أحوال دمشق الشام» ، في كتابنا «دفاتر شاميّة عتيقة» ، دمشق 2002 . أما قوله : لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان ، فيعني أن بها علّة الحسد والتباغض . ومن يقرأ أخبار الحسد بين علماء دمشق في كتب التراجم ، كـ«الكواكب السائرة» للغزّي مثلاً ، يجد في هذا القول نصيباً غير يسير من الصحّة ، للأسف !

بركات دمشق

ويُقال إن من قَصَدها بسوء ونواه أكبّه الله تعالى فيه وأعثره . ولما قدم عبد الله ابن علي بن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، دمشق وحاصر أهلها ، فلمّا دخلها وهدم سورها وقع منه حجر كان عليه مكتوباً باليونانية ، فأرسل خلف بعض الرهبان فطبعه وقرأه فإذا عليه مكتوب : «وَيْلَكِ أُمَّ الجبابرة ، من رَمَاكِ بسوء قَصَمَه الله . وَيْلٌ من الخمس الأعين ، نَقْضُ سُورِكِ على يديه بعد ألف سنَة» . فوجدوا الخمس الأعين : عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب .

فهي بلدة كثيرة البَركات غزيرة الخيرات ، نِعْمَ بلدةُ الأنبياء وموطن الأصفياء والأولياء . وبها صحابة من الأجلاّء ، ومقابرها حوت أماثل الفُضَلاء .

(نزهة الأنام ، 373-374)

جبّانات دمشق ومن بها من السادات

ومنها جبّانة باب الصغير بها بلال الحبشي رضي الله عنه ، وبها السّيدة سُكينة بنت أبي بكر الصدّيق[1] رضي الله عنهما ، وبها السّيدة زينب[2] بنت الإمام علي رضي الله عنهما ، وبها معاوية رضي الله عنه ، وبها أُويس القَرَني رضي الله عنه ، وبها أبو عبيدة بن الجرّاح على ما قيل خارج الجامع المعروف به .

ويليها مقبرة محلّة القروانة ، وبها جماعة من الأجلاّء والفُضَلاء .

ومنها جبّانة باب شرقي ، بها أُبيّ بن كَعب ، رضي الله عنه ؛ وبها جَبل ابن مُعاذ ، رضي الله عنه ؛ وبها ضرار بن الأزور ، رضي الله عنه ؛ في حارة السّادة القُدماء ، عفا الله تعالى عنهم .

---

(1) هذا غلط ، فالصواب أنها السيّدة سُكينة بنت أحمد السّبطي ، ولها في باب الصغير قبر يحمل كتابات كوفيّة فاطمية مشجّرة ، من أجمل روائع الخط العربي .
(2) هذا غلط ، والصواب كما سيذكر البدري أدناه أنها دُفنت بقرية راوية (السّت اليوم) .

وتليها مقبرة الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وعنده جماعة من الأماثل والأجلاّء الأفاضل .

وخارج باب توما شُرَحبيل كاتب وحي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، والسّيدة خَوْلة [بنت الأزور] رضي الله عنهما .

وجبّانة بيت لَهْيا ، بها سادة وأعيان وصالحون ، لهم قدرٌ وشان .

ويليها مقابر باب الفراديس ، بها أبو الدّحداح [الصَّحابي] رضي الله عنه ، وبها عبد الرّحمن بن أبي بكر الصدّيق ، رضي الله عنهما .

ومقبرة سُوَيقة صَارُوجا[1] ، بها صالحون من أجلّ المسلمين .

ومقابر الصُّوفية ، بها جماعة من العلماء أئمّة الدّين وصالحي المسلمين ، كابن الصلاح وابن تيميّة وابن المبارك ، وغيرهم .

ويليها مقبرة القنوات وبلاط البَرِيجة ، وبها علماء الأمّة وأهل الرّحمة . آخرمن دفن بها شيخنا المرحوم العلاّمة محبّ الدّين البُصروي الشافعي ، رحمه الله .

ومنها جبّانة الحمرية[2] ، وبها المرحومون من الأولياء والصالحين .

ومنها مقابر محلّة السّيدة عاتكة ، رضي الله عنها ، ويقال إن في ظاهرها ضريح الماسك لركاب النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، رضي الله عنه .

ومنها جبّانة محلة القُبيبات ، وبها العلماء العاملون والمجاذيب والصالحون كالسّيد الشريف الشيخ الزّاهد العالم تقي الدّين أبي بكر الحصني الشافعي ، أمدّنا الله بمدده .

---

(1) لا يُدرك في عصرنا وجود مقبرة بسوق ساروجة ، لكن من أرّخ للحي في العهد المملوكي ومطلع العثماني يذكر : مقبرة النّخلة بشرقيها ومقبرة حارة الجالق (الشالة) غربيها .

(2) موقعها في أيامنا من دوّار كفرسوسة شمالاً باتجاه زقاق الجنّ ، وسمعتُ من بعض العجائز أن تسمية الزّقاق سببها أنه محاذ للتربة وتطيّر الناس من عبوره . وبأواسط الثمانينات عند حفر نفق مدخل المدينة الجنوبي ظهرت قبور لصيق دار الأيتام بجهة الشرق .

وهذه جملة المقابر التي في المدينة الخارجة عن مقابر الصالحية والقابونين وغيرذلك . وثَمَّ صحابةٌ في قرى الضواحي ، رضي الله عنهم ؛ كسعد بن عُبادة رضي الله عنه بأرض المنيحة ، وتميم الداري ، رضي الله عنه ، بقرية تميم التي سُمّيت به ، وأبو الدَّرداء رضي الله عنه ، فإنه داخل قلعة دمشق ؛ والسّيدة زينب الكبرى بنت الإمام عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وهي أخت أم كلثوم الكبرى التي تزوجها عُمَر رضي الله عنه ، وكانتا مع أخيهما الحسين لما قُتل وقدمتا الشام . وهاتان والحسن والحسين ومُحسن الذي مات صغيراً أولاد الإمام علي من فاطمة ، رضي الله عنهما ، ثم تزوّج بعد موت فاطمة وتسرّى ، فجاءه بنون وبنات ، ومن جملة البنات زينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى . وهكذا ذكر شيخنا الحافظ بُرهان الدّين النّاجي رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وقال الشيخ العارف أبو بكر الموصلي ، رحمه الله تعالى ، في كتابه «فتوح الرّحمن» : توفيت السّيدة زينب الكبرى بنت علي رضي الله عنهما بغُوطة دمشق عُقيب محنة أخيها ، ودُفنت في قرية من ضواحي دمشق أسمها راوية ، ثم سُمّيت البلدة بها ، فالآن يُقال للبلدة «السّت» ولا تعرف إلا بـ «قبر السّت» ، رضي الله عنها .

قال : وكنتُ أزورها في أول أحد من العام ، ومعي جماعة من أصحابي الفقراء ، ولا ندخل إلى قبرها بل نستقبله ونغضُّ أبصارنا ، لما قرّره علماؤنا في أن الزائر للميت يعامله كما لوكان حيّاً من الاحترام . فبينما أنا في البُكاء والخُشوع والحضور ، وكأني بها وقد تراءت لي في صورة امرأة كبيرة محترمة موقرة لا يقدر الإنسان أن يملأ نظره منها احتراماً . فأطرقتُ فقالت : يا بُنيّ زادك الله أدباً ، ألم تعلم أن جدّي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، وأصحابه كانوا يزورون أم أيمن لكونها امرأة محترمة ؟ وبشّر الأمة أن جدّي محمّداً وجميع أصحابه وذرّيته يحبّون هذه الأمة ، إلا من خرج عن الطريق فإنهم يبغضونه . فلحقني إزعاج من كلامها غيّبني ، فلمّا عدتُ إلى الحسّ لم أجدها ، فواظبتُ على زيارتها إلى يومنا هذا . انتهى .

وبالقرية المذكورة ضريح السّيد الجليل مُدرك [الفَزَاري الصّحابي] ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته .

وهذا الذي وصل إلينا من معرفة مَنْ بدمشق من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . وثَمّ فيها من الأنبياء والصحابة والأولياء الصالحين غير ما ذكرناه ، لكن لتوالي المحن واندراس العلم والمعاهد والدِّمَن ، وبانقراض المخبر ، انقطع الخبر فلا عينٌ ولا أثر .

وأما فضائل الشام فكثيرة ، ومحاسنها جمّة غزيرة ، وبركاتها مشهورة وأخبار خيراتها مأثورة . ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاتها وروضاتها وقُطوفها الدَّانية للمتفكّر في متنزّهاتها ، وهيَّمنا إلى الدّور في تسلسل أنهارها ونبّهنا الأحداق في حدائق أزهارها .

(نزهة الأنام ، 374-384)

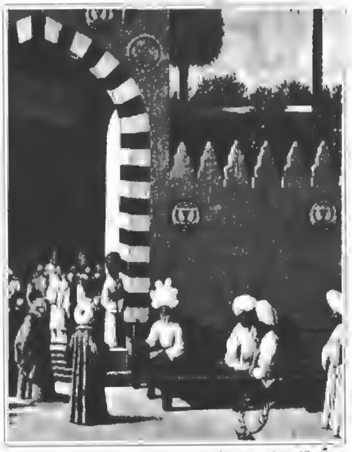




مسجد السلطان الأشرف قايتباي في القاهرة



رسم للسلطان الملك الأشرف قايتباي
عن لوحة قديمة لرسّام من مدرسة البندقية



السلطان قانصوه الغوري يستقبل وفد سفير البندقية
تفصيلة من لوحة متحف اللوفر الشهيرة ، سنبحثها في جزء لاحق



السّلطان العثماني سليم خان الأول
فاتح الشام والمنتصر على السّلطان الغوري



رسم للسلطان الأشرف قانصوه الغوري
عن لوحة قديمة لرسّام من مدرسة البندقية



رسم للسّلطان الأشرف قانصوه الغوري
بريشة جان تُنو Jean Thenaud عام 1501 م



السّلطان المملوكي قبل الأخير قانصوه الغوري
نُقيشة خشبية من عمل C. Vecellio



قبّة مجهولة نظنها زاوية الأعجام التي ذكرها البدري
كان موقعها في جنينة النعنع إلى الجنوب الشرقي من التكية السليمانية



لوحة قديمة تمثل دخول العثمانيين دمشق ، تاريخها حوالي 1521-1524 م

– 69 –

محمّد بن إياس الحنفي

(توفي 930 هـ / 1524 م)

ألّف كتابه سنة 922 هـ

محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، أبو البركات ، مؤرّخ مصري أصله من المماليك الجراكسة ، ولد عام 852 هـ . كان أبوه متّصلاً بالأمراء ورجال الدّولة المملوكية ، وجدّه الأمير إياس الفخري الظاهري ، من مماليك الظاهر برقوق ، وقُرّر دواداراً ثانياً في دولة النّاصر فَرَج ابن برقوق . وكان صاحب الترجمة من تلاميذ الإمام جلال الدّين السّيوطي ، وحجّ سنة 882 هـ .

اكتسب ابن إياس شهرة كبيرة ، على اعتباره أهم مؤرّخ دوّن أحداث أواخر أيام الدّولة المملوكية بمصر ، وأحداث الفتح العثماني لها عام 923 هـ / 1517 م ، فهو بذلك يختتم سلسلة الآثار التاريخية المجيدة التي تقف شاهداً على انتعاش هذا الفرع من الأدب في تلك العهود . ولقد وصل بتاريخه هذا إلى عام 928 هـ ، وهو مدوّن على شكل حوليّات تاريخية ، وسجلّ للحوادث اليومية في بعض مواضعه . وإذا كان ابن إياس المؤرّخ الوحيد لتلك الفترة الهامّة بمصر ، فإن دمشق حظيت بمؤرّخ كبير مماثل له ، هو الحافظ شمس الدّين محمد ابن طولون الصالحي ، الذي أرّخ لأحداث أواخر الدّولة المملوكية بالإقليم الشامي ، والفتح العثماني للشام في عام 922 هـ ، في كتابه الشهير «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان»[1] ، الذي يغطّي الفترة الواقعة بين 880–951 هـ .

---

(1) نشرتُ منه عام 2002 قسماً كبيراً من الجزء الثاني الضائع ، يغطي حوادث 926–951 هـ .

وأما مصنّف ابن إياس المذكور ، فعنوانه «بدائع الزّهور في وقائع الدّهور» ، وأول من نشر منه أقساماً باسطنبول كان المستشرق الألماني باول كاله Paul Kahle ، ثم نشره كاملاً محمّد مصطفى بالقاهرة ، في 6 أجزاء ، عام 1975 ، ضمن نشرات جمعيّة المستشرقين الألمان : *Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* .

هذا ، ولابن إياس مؤلّفات أخرى عديدة في التاريخ ، منها «عقود الجُمان في وقائع الأزمان» ، و«مرج الزّهور في وقائع الدّهور» ، و«نُزهة الأمم في العجائب والحكم» . وله في الجغرافية كتاب «نَشْق الأزهار في عجائب الأقطار» ، ألّفه سنة 922 هـ قبل أن يتمّ مصنّفه التاريخي الكبير . وقد عقده لذكر عجائب مصر وأعمالها وسيَر ملوكها القدماء ، وأخبار النّيل والأهرام ، وعجائب البلاد وخططها وأقطارها .

وهذا الكتاب ما يزال مخطوطاً ، لكن طُبعت منه أقسام يسيرة في باريس سنة 1807 م مع ترجمة فرنسية بعناية لانْغْل L. Langles . وقد أخذنا منه ما يتعلّق بدمشق ، نقلاً عن أستاذنا الدكتور صلاح الدّين المنجّد ، من مخطوطة «نشق الأزهار» في مكتبة بشير آغا باسطنبول .

المصادر :

نشق الازهار ، مخطوطة بشير آغا ، رقم496 ، ورقة 150 ب - 152 آ .
بدائع الزّهور في وقائع الدّهور لابن إياس ، مقدّمة المؤلّف .
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 2 : 490 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجد ، 295 .
دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، 2 : 352 .
تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، الذيل الثاني ، 405 .

ذكر أخبار البلاد الشامية ، فمن ذلك أخبار دمشق

إعلم أن دمشق من أجلّ المدائن ، وهو إقليم عظيم ، متّسعٌ يشتمل عدّة كُوَر ، منها : كورة فِلَسْطين ، وكورة عموَاس ، وكورة لدّ ، وكورة بينا ، وكورة يافا ، وكورة قيسارية ، وكورة نابلس ، وكورة بسيطة ، وكورة عسقلان ، وكورة غزّة ، وكورة بيت جبريل ، وفي جانبه حصن التيه ، وكورة الشّوبك ، وكورة الأردن ، وكورة السّامرية ، وكورة عانة ، وكورة قاصرة ، وكورة صور .

ومن كورها الغوطة ، وكورة البقاع ، وكورة بعلبكّ ، وكورة لبنان ، وكورة صَيْدا ، وكورة البَثَنِيّة ، وكورة جولان ، وكورة طرابلس ، وكورة البَلْقاء ، وكورة جبريل الغور ، وكفر طاب ، وكورة عَمّان ، وكورة الشّراة ، وهي من كور دمشق أيضا .

ومن عجائب دمشق جامع أمية ، الذي لم يكن على وجه الأرض مثله ، وقد بنى هذا الجامع الوليدُ بن عبد الملك بن مروان . فيقال إن الوليد أنفق على بناء هذا الجامع أربعمائة صندوق ، ضمن كل صندوق منها أربعة عشر ألف دينار . وكان فيه اثنا عشر ألف مرخَّم ، حتى قيل بلغ ثمن كلفة غدائهم في مدة العمل في هذا الجامع ستين ألف دينار .

وبه العمودان اللذان تحت قبة النسر ، قيل اشتراهما الوليد بألف وخمسمائة دينار . وفي المحراب عمودان صغيران يقال إنهما كانا في عرش بلقيس ، زوجة سُليمان بن داود عليهما السلام . وعند منارته الشرقية حجرٌ يقال إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام ، فانبجست منه اثنتا عشر عيناً .

قال بعض من دخل هذا الجامع : ما دخلتُه قط ، إلاّ ووقعت عيني على ما لم أكن رأيتُه قبل ذلك من صناعة رخامه ، ودهان سقوفه . واستمرّ على ذلك حتى أحرقه تمرلنك[1] ، عندما استولى على دمشق .

---

(1) وكان ذلك عام 803 هـ / 1400 م ، عندما استولى على المدينة ودمّرها تدميراً شنيعاً . راجع ما تقدّم أعلاه في نص ابن خلدون .

وقال آخر : لو أنّ أحداً عاش مائة سنة وكان يتأمّل ما فيه ، لرأى في كل يوم ما لم يره من حُسنه قبل ذلك . وقيل : من عجائب الدنيا أربعة : منار الإسكندرية ، وحمام طبرية ، ومدينة رومية ، وجامع بني أمية .

وفيه يقول ابن نُباتة :

دمشقُ في أرجائها مواضعُ　　يصبُو إليها ناظرٌ وسامعُ
ربوتُها وقَصرها والجامعُ　　فهي ثلاثةٌ ما لهنّ رابعُ

(نشق الازهار ، مخطوطة بشير آغا بإستانبول ،
رقم 496 ، ورقة 150 ب - 152 آ ، المجلد الاول)

* * *

- 70 -

ابن طولون الصّالحي

(توفي 953 هـ / 1546 م)

أرّخ لدخول السّلطان الغوري دمشق عام 922 هـ

بهذا النّص عن تجريدة السّلطان المملوكي قانصُوه الغُوري إلى دمشق ، في طريقه إلى قتال العثمانيين بقيادة السّلطان سليم خان الأول ، نأتي إلى ختام القسم العربي من كتابنا هذا عن «دمشق في رحلات القرون الوسطى» ، هذه القرون التي انتهت بسقوط القسطنطينيّة في عام 1453 م ، وتلاها بعد 63 عاماً ختام عصر دولة سلاطين المماليك . ففي غضون هذه السنة بالذات 922 هـ (1516 م) انهارت الدّولة المملوكية بالشام ، ودخل العثمانيون فاتحين دون مقاومة تُذكر ، ليبقوا في هذه الدّيار أربعة قرون كاملة . أما مصر فكان فتحُها في العام التالي 923 هـ .

وعلى ذلك ، نكون - عن طريق أدب الرّحلات العربيّة - قد غطّينا تماماً أحوال دمشق الشام ، بما يشمل القرون الوسطى : عهد خلفاء بني العبّاس ، عهد الدّولة الفاطميّة ، عهد سلاطين السّلاجقة ، وقوّادهم الأتابكة ، ثمّ عهد نور الدّين الشّهيد ، وتلوه العهد الأيّوبي . وأخيراً غطّينا عصر سلاطين المماليك برمّته ، من بداياته الأولى بنصوص القزويني وابن شدّاد والصّارم أُوزيك ورحلات الملك الظاهر بيبرس ، إلى خاتمته بتجريدة السّلطان الغوري . وفي هذا دليل ساطع على مدى أهميّة هذا الصّنف من آدابنا العربية ، ورَفده لمصادر التاريخ الحَولي المرتّب على السّنين . ويلي ذلك : الجزء الثالث في نصوص الرّحالين الأجانب .

* * *

ابن طولون الصّالحي :

أما مؤرّخنا ابن طولون الصّالحي ، فله هو الآخر خصوصية هامّة فيما يرتبط بتاريخ مدينة دمشق ، إذ أنه كان الحلقة الأخيرة تماماً في مدرسة مؤرّخي الشام بعصر المماليك ، التي ازدهرت وآتت أُكُلها بمصادر تاريخية ثمينة ، ثم انحسرت إبّان الحكم العثماني ، بسبب كون دمشق فقدت مكانتها السّابقة كثاني مدن السّلطنة ، لتضحي مجرّد ولاية بعيدة عن العاصمة الجديدة (إستانبول) . ولولا موقعها كبوّابة للحجاز والحجّ الشريف ، لكنّا رأينا مكانتها تنحدر أكثر وأكثر .

ولد شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ابن طولون الحنفي في الصّالحية بحي الأمير ابن المُقدّم في سنة 880 هـ ، في عهد المماليك البرجية الجراكسة ، وكان العهد المملوكي يكاد يقترب من نهايته . أما أصل آل طولون فمن التُّرك (ومعنى الاسم Dolun : بدر) . وكذلك كانت أمه أزدان Özden رومية (تركية) تحسن لسان التُّرك . وأعقاب العائلة ما زالت إلى اليوم بدمشق (آل الطّيلوني) .

قامت ثقافة الرّجل على المشاركة في جميع العلوم ، فانصرف إلى الفقه الحنفي وإلى القراءات والحديث وأصول الفقه وتفسير القرآن والفرائض وعلوم العربية من نحو وأصوله وعلم اللغة والتصريف والعَروض والقوافي والمعاني والبيان والبديع . ثم ترقّى إلى علوم أخرى ، فقرأ في علم الكلام وفي المنطق والتصوّف والتاريخ . ويذكر في كتابه «الفُلك المشحون» أن العلوم التي قرأها ثمانية وثلاثون علماً ، وفي ضمنها علوم أُخر تزيد مع هذه على اثنين وسبعين علماً .

ألمّ ابن طولون من خلال ذلك بألوان الثقافة وشارك بها ، وأتيح له عن طريقها أن يقرأ على القرّاء والمحدّثين والأصوليين والفقهاء والنُّحاة واللغويين والمناطقة والمؤرّخين والمتصوّفين والأطباء والمنجّمين وعلماء الفلك والهيئة والطبيعة والموقعين وغيرهم . بل وأتيح له أن يتجاوز علماء دمشق ، الذين أجازوه إجازات كثيرة شهدوا بها بعلمه وإتقانه ، إلى علماء مصر لينال الإجازة منهم عن بُعد ، ومنهم الحافظ جلال الدين السّيوطي علاّمة عصره .

هذا الاهتمام بالعلم أتاح لابن طولون نيل وظائف علمية كثيرة في حياته منذ عام 891 هـ وكان لم يزل في الحادية عشرة من عمره . فبقي يتقلّب في هذه الوظائف إلى أن عُرضت عليه خطابة الجامع الأموي في عام 946 هـ فامتنع عنها ، ثم عُرض عليه إفتاء الحنفية كذلك في سنة 950 هـ فامتنع أيضاً لمرضه . وفي كتابه «الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون» ، يعدّد هذه الوظائف التي بلغت بمجمل حياته العلمية 33 وظيفة ، كان من أجلّها وظائف التّدريس بالجامع الأموي الكبير وبمدرسة شيخ الإسلام أبي عُمَر بالصّالحية .

ترك ابن طولون عدداً كبيراً من المؤلّفات والتّعليقات الموجزة ، بلغت 746 عنواناً ، وأفرد لدمشق وتاريخها وفضائلها ومحاسنها طرفاً صالحاً من مؤلفاته ، تُعدّ من أهم مصادر تاريخ دمشق عموماً ، وأما من يقصد دراسة تاريخها في عصره فكتبه تعتبر المصدر الأول حول ذلك بلا مُنازع . ومن أشهرها :

إعلام الورى بمن ولي من الأتراك [المماليك] بدمشق الشام الكبرى ، بهجة الأنام في فضائل الشام ، التمتّع بالإقران بين تراجم الشيوخ والأقران ، الثّغر البسّام فيمن ولي قضاء الشام ، ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر ، ذيل تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنّوّاب للصّفدي ، غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، مُفاكهة الخلان في حوادث الزمان (أهم مؤلّفاته قطعاً) ، ملخّص تنبيه الطالب وإرشاد الدارس ، نزهة الأفكار فيما قيل في دمشق من الأشعار .

وله أيضاً تعليقات كثيرة عن دمشق ، مثل : ضَرب الحوطة على جميع الغوطة ، الشمعة المضيّة في أخبار القلعة الدمشقية ، البَرق السّامي في منازل الحج الشامي ، المعزّة فيما قيل في المزّة ، قرّة العيون في أخبار باب جيرون ، تحفة الحبيب في أخبار الكثيب ، نص حول حارات دمشق من مخطوط «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر» ، نص حول متنزهات دمشق وميدان القَبَق من «ذخائر القصر» ، ضوء السّراج فيما قيل في النُّسّاج .

أما كتابه الشهير «مُفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان» فهو أحد أهم وأطرف أصول تاريخ دمشق ، ما بين عصرين ومرحلتين متباينتين : نهاية عهد سلاطين المماليك ، ومطلع حكم بني عُثمان ببلاد الشام . وإذا كانت مصر تفخر بمؤرّخها الكبير ابن إياس الحنفي ، فدمشق تُباهي بصنوه الشامي ابن طولون !

يرسم الكتاب بجزئيه الاثنين صورة حيّة وطريفة ودقيقة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بدمشق ، فيقدّم للقارئ مشاهد للحياة اليومية للمجتمع الدمشقي آنذاك ، بين حكّامه وعلمائه وأعيانه وعوامه ، وشتّى حوادثه من كبيرة أو صغيرة . كما يتضمّن طائفة من الوقائع والعادات والتعابير الشاميّة التي حفظت لنا بعضها القرون ، بينما اندثر البعض الآخر .

لكن من أشدّ ما يؤسف له أن هذا الكتاب الثمين الذي يغطّي مرحلة جدّ هامة من تاريخ مدينتنا الخالدة ، بين 880-951 هـ قد ضاع منه الجزء الثاني برمّته (وفيه أخبار السنوات 927-951 هـ) ، وهو المعوّل عليه في فهم أحوال دمشق والشام عموماً إبّان انضوائهما تحت الحُكم الجديد ، بما رافق ذلك من تغييرات جذرية على الصّعيد السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي . لكنّني نشرتُ منه في العام 2002 نُتفاً ممزّقة جمعناها من 12 مخطوطة معاصرة ، فسدّت فراغاً كبيراً حول تاريخ دمشق بمطلع الحكم العثماني في أيام السّلطان سليمان القانوني .

أما الجزء الأول الذي يضمّ أخبار المدينة بأواخر عصر المماليك ، فصدرت منه نشرة رديئة في مصر سنة 1962-1964 . وفيه يورد ابن طولون - وكان شاهد عيان - صفة دخول موكب السّلطان قانْصُوه الغوري دمشق وإقامته بها بين 18-26 جُمادى الأولى سنة 922 هـ ، أي قبل شهرين من مقتله بمرج دابق في 25 رجب . فجاء وصفه للموكب الفخم دقيقاً وافياً ، من الممتع مقارنته بما كتبه معاصره مؤرّخ مصر ابن إياس في كتابه الشهير «بدائع الزّهور في وقائع الدّهور» .

* * *

المصادر :

الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون ، له .
القلائد الجوهرية لابن طولون ، مقدمة دهمان ، ص 9-19 .
الشذرات الذهبية لابن طولون ، مقدمة المنجد ، ص 9-26 .
مفاكهة الخلاّن لابن طولون (الجزء 1) ، مقدّمة محمد مصطفى ، ص 7-21 .
مفاكهة الخلاّن لابن طولون (الجزء 2) ، مقدّمتي ، ص 61-69 .
الروض العاطر للأيوبي (مخطوط) ، ورقة 235 ظ .
الكواكب السائرة للغزي ، 2 : 52 .
دائرة معارف البستاني ، مادة ابن طولون للمنجد ، 3 : 318 .
معجم المؤرخين الدمشقيين للمنجد ، ص 290-298 .
Brockelmann, C.: *Geschichte der Arabische Literatur*, Sup. II, S. 494.

[دخول السلطان قانصُوه الغوري إلى دمشق]

[سنة 922 هـ]

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره [ربيع الآخر سنة 922 هـ] دخل إلى دمشق أوائل الجُند من العسكر المصري .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشريه نُودي بدمشق على لسان المقام الشريف بالأمان والاطمئنان وألاّ ظُلم ولا عُدوان ، وأن لا يظلم أحد من العسكر أحداً .

* * *

وفي يوم الثلاثاء ثاني جُمادى الأولى منها ، بعث الأمير علاء الدّين ابن طالوا نقيب الجيش إلى شيخنا المحيوي النُّعيمي ، أن يكتب له صفة دخول الأشرف بَرْسْباي إلى دمشق ، ومَن حَمَل الغاشية على رأسه ، وأين نزل . فكتب ما تيسّر له .

وفي يوم الأربعاء ثالثه ، دخل إلى دمشق الأمير بَيْبَرس ابن عمّ السّلطان بطُلب . وفي يوم الجمعة خامسه دخل إلى دمشق والي مصر وأحد المُقدّمين كُرْتْباي أبو سنّة بطُلب أيضاً . وفيه بعد صَلاتها سافر النّائب وبقيّة الأمراء إلى مُلاقاة السّلطان ، بعد أن وَلّى نيابة الغَيبة بخازنداره خُشْقُدُم .

وفي يوم الإثنين ثامنه ، دخل إلى دمشق ثلاثة مقدّمين بثلاثة أطلاب : الأول تَنْبك الخازندار ، والثاني قانْصُوه كُرْت ، والثالث تَمِر الزَّرْدكاش .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، نزل أمير سلاح - الذي كان نائب الشام - أُرْكْماس ، عند قبّة يَلبُغا(1) ، وقد قَرُب مجيء السّلطان .

---

(1) قبّة يلبغا كانت تقع عند مدخل دمشق الجنوبي في قرية القَدَم جنوبي الميدان ، ولم يبق لها أثر ، بناها نائب دمشق الأمير يَلبُغا اليحياوي ، وكان الملوك والأمراء في عهد المماليك يتوقفون فيها للراحة من عناء السّفر عند قدومهم لدمشق ، كما تخرج إليها معهم مواكب الوداع إذا رغبوا مغادرة المدينة . تقابلها بشرقي دمشق مصطبة السّلطان عند القابون ، التي تقدّم ذكرها في كتابنا هذا بنصّي ابن أجا والبَدري .

ثم أخبرني العلاء بن طالوا نقيب الجيش المنصور - زوج ابنة العمّ - أنهم يوم الأربعاء عاشر الشهر هذا اجتمعوا هم والسّلطان في أرض قَلَنسُوة ، فلمّا قَرُب ملك الأمراء[1] منه لبس هو ومَن معه الكَلَوْتات[2] والقماش على العادة في المواكب . فحين رآهم السّلطان في الطريق نزل ، وضُرب له سحابة وفُرش له بساط ، ووُضع عليه كرسي من فولاذ وجلس عليه .

ثم أذن لهم ، فجاؤوا وقبّلوا الأرض ، الأول فالأول ، ولم يقُم لأحد حتى جاء القضاة الأربعة ، فقام لهم نصف قَومة خلا المالكي فعظّمه وقام له أكثر من رفاقته . فلمّا جاء ملك الأمراء قام له وسلّم عليه وتشكّر له في المجيء ، ثم دعا السّلطان بفَرَس ملك الأمراء إلى قُرب بساطه ، وأمره بالرّكوب من على البساط . ثم ركبا وسارا إلى أن جاء إلى قابون فذهب كل منهما إلى مخيّمه .

وأشار السّلطان إلى ولده أمير آخور بأن يمشي مع ملك الأمراء إلى مخيّمه ، وقصد بذلك الملك استعطاف خاطر ملك الأمراء على ولده ، لكونه صهره . فلمّا وصل معه إلى المخيّم ألبس ملك الأمراء لولد السّلطان خلعة ، ثم عاد إلى عند والده وقبّل الأرض ، ثم انصرف .

وأمر السّلطان بتهيئة الطعام ، فما كان إلا مقدار عشرين درجة ومُدَّ سماط عظيم بين يدي السّلطان ، فدعى ملك الأمراء ومَن معه للأكل ، فأكلوا ، ثم أُتي بالتّشطيف[3] ، ثم أسقاهم مشروباً . وإذا بفَرَسين بكنبوشين يُدار بهما بين يدي السّلطان ، ثم التَفَت إلى ملك الأمراء فاعتذر إليه في إعطائهما فقط بأنه على السّفر ، ثم دعا بخلعة حمراء فألبسه إيّاها . ثم ألبس القضاة الأربعة الشاميين كلّ واحد منهم خلعة ، وكان معهم أيضاً نائب غَزّة فألبسه خلعة ، ثم توجّهوا جميعاً إلى مخيّماتهم .

---

(1) أي نائب الشام الأمير سيباي ، وسبب تعظيمه أن ابن السّلطان عقد على ابنته مؤخراً .
(2) الكَلَوْتات جمع كَلَوْتاه ، نوع من القلانس يعتمرها الأمراء كزيّ رسمي casquette في أيام المماليك الجراكسة ، ويبدو أنها كانت مثلّثة الشكل . الملابس المملوكيّة لماير ، 51 .
(3) من الواضح أن معنى ذلك آنذاك كان غسل الأيدي عقب الطعام .

وفي صُبح يوم الجمعة ثاني عشره ، وصل الخبر إلى دمشق بما وقع للنّائب والقضاة مع السّلطان ، وكان عند العامّة أنه غضبان عليهم ، فدقّت البشائر في دار السّعادة .

وفي صُبح يوم الإثنين خامس عشره ، رجع النّائب والقضاة إلى دمشق ، ودخلوا في موكب حافل لابسين الخلع السّلطانية : فالنّائب خلعته حمراء بمقلب خاص ، والشافعي بصوف أبيض ، والمالكي بأخضر ، والحنفي والحنبلي بأحمر . وزُيّنت البلد ، وشرع النّائب في تهيئة المَدّة للسّلطان .

وفي بُكرة يوم الثلاثاء سادس عشره ، دخل إلى دمشق ابن السّلطان جَرْكَس بطُلبه ، ثم الأمير جان بُلاط الأبحّ بطُلبه ، ثم الأمير أنَسْباي الحاجب بطُلبه ، ثم رأس نوبة النُّوَب سُودُون الدَّواداري بطُلبه ، ثم أمير سلاح أُزْكَماس الذي كان نائباً بدمشق بطُلبه ، ثم الأمير سُودون العجمي بطُلبه - وهو أحفلهم - ، ثم أحد المقدّمين أمير آخور ثاني آقْباي بطُلبه ، ثم الدَّوادار الثاني علان أحد المقدّمين بطُلبه . ونزل الجميع بالمصطبة عند القابون[1] ، ثم ركب النّائب وذهب لملاقاة السّلطان ، ثم رجع من عند السّلطان إلى القبّة وهيّأ أمر السّماط .

وفي عشيّة يوم الثلاثاء سادس عشره ، وصل مخيّم السّلطان إلى قبّة يَلبُغا خارج دمشق . وفي بُكرة يوم الأربعاء وصل السّلطان ونزل بمخيّمه بالقبّة المذكورة والنّائب بها . ثم جاء جميع الأمراء من المصطبة وغيرها وحضروا السّماط . ثم خلع السّلطان على النّائب وعلى سبعة أُخَر معه . ثم دخلوا دمشق في أُبّهة ، واستمرّ السّلطان بالقبّة ، وهرعت أكابر البلد من الأمراء والقضاة والمشايخ وغيرهم إلى السّلام عليه وعلى جماعته .

وفي بُكرة يوم الخميس ثامن عشره - وهو تاسع عشر حزيران ، وثامن بُرج السّرطان - دخل السّلطان من قبّة يَلبُغا إلى دمشق ، ماراً إلى المصطبة عند القابون الفوقاني خارج دمشق من جهة الشرق ، في موكب عظيم لم يُشاهَد مثلُه .

---

(1) تقدّم ذكرها أعلاه ، فليُراجع .

عن يمينه ملك الأمراء حاملاً القبّة على رأس السّلطان ، وهي شبه رأس جتر[1] ، وظاهرها حرير أصفر ، وفي أعلاها هلال من ذَهَب ؛ والغاشية - قال شيخنا النُّعَيْمي - قدّامه قصيرة ماسكها بيده ، وهو مَستور بها لا يُرى ، وأمّا [يسار] السّلطان فخالٍ .

وعن يمين النّائب أمير كبير سُودون العجمي ، وعن يمينه أمير سلاح أُرْكماس ، ثم أمير مجلس قصدهم ، فعدّتهم خمسة . وخلفهم الصَّنْجَق السّلطاني في ذهب مُزركش ، ثم من خلفه المماليك .

وقُدّام السّلطان الخليفة المتوكّل على الله أبو عبد الله محمد بن المُستمسك بالله أبي الصّبر يعقوب الهاشمي العبّاسي ، ثم القضاة الأربعة المصريين : الكمال الطويل الشافعي ، وحسام الدّين محمود بن الشِّحنة الحنفي ، والمحيوي يحيى الدّميري المالكي ، والشهاب أحمد بن النّجّار الحنبلي . ونوّابهم وعدّتهم أربعة عشر ، وهم ستة للشافعي : الشيخ جمال الدّين الصّاني ، وصلاح الدّين القليوبي قارئ الحديث الشريف بقلعة الجبل بالقاهرة ، وزين العابدين ، والشيخ زين الدّين الظاهري مُباشر أوقاف الحرمين ، والشيخ شمس الدّين بن وحيش ، والشيخ شمس الدّين البَتْنُوني ؛ وأربعة للحنفي : الشيخ شرف الدّين البُلقيني المحدّث ، والشيخ غرس الدّين المُقرئ ، والشريف البرديني ، والشيخ زين الدّين الشارنقاشي . واثنان للمالكي : الشيخ مُعين الدّين بن يعقوب ، والشيخ شمس الدّين المديني . وأربعة للحنبلي : الشيخ شهاب الدّين الهيثمي ، والشيخ شمس الدّين الطرابلسي الشيبي ، والشيخ شهاب الدّين القدسي ، والقاضي عزّ الدّين سبط العزّ الحنبلي . كذا أملاني عدّتهم أخونا في الله المؤرّخ جار الله بن فهد .

ثم قدّامهم القضاة الأربعة الشاميّين (sic.) : الولوي بن الفرفور ، والمحيوي ابن يونس ، وخير الدّين المالكي ، وشرف الدّين بن مفلح ، وبعض نوّابهم .

---

(1) الجَتْر كلمة فارسية تعني المظلّة ، أي القبّة التي ستُذكر أدناه في ذكر رحلة الأشرف بَرسباي إلى دمشق . راجع ما تقدّم أعلاه في نصوص المقريزي وابن اللّبُودي .

ثم أمير آخور[1] كبير النّاصري محمد بن السّلطان وقدّامه رأس نوبة كبير سُودون الدَّواداري ، وحاجب الحجّاب أَنَسْباي ، ودَوادار ثاني عَلان ، وأمير آخور ثاني آقباي ، وتاني بك الخازندار ، وتمر الزَّرَدكاش ، وقانْصُوه كُرْت ، وقانْصُوه بن سلطان جَرْكَس ، ويُعرف باللّوقة ، وبَيْبَرس ابن عمّ السّلطان ، وجان بُلاط الموتر ، المعروف بأبي ترسين ، وجاني بك الأبحّ .

وفي بعض المواضع تقدّم الأمير الكبير سُودون العجمي إلى قدّام القضاة ، وعن يمينه أمير آخور كبير النّاصري محمد ابن السّلطان ، وعن يساره أمير سلاح أُرْكُماس ، وقدّامهم رأس نوبة كبير سُودون الدّواداري والمعطوفون عليه ، وعدّتهم أربعة عشر ، كذا أملاني إيّاهم أحد المقرّبين عند السّلطان السَّمَرقَندي ، وذكر لي أن عدّتهم ستة عشر ، وأنه تقدّم كُرْتْباي وأبرك تتمّتهم ، وتأخّر من المقدّمين بالقاهرة وأعمالها ثمانية .

ثم أمراء الشام ، ثم كاتب الأسرار الشريفة المقرّ المحبّي محمود بن أجا الحنفي ، وقدّامه ناظر الجيش القصروي ، وناظر الخاص ابن الإمام ، ومُباشر ديوان الجيش ابن الشيرجي ، ونائب كاتب السِّرّ أحمد بن الجيعان . وبقيّة المباشرين ، وقدّامهم التّاجي بن الدّيوان ، أمير التّركمان بالشام وديوان القلعة المنصورة بها . وبقيّة المُباشرين الشاميين ، وقدّامهم خزائن المال وعدّتهم ستّة .

وقدّامهم خلفاء الصّوفية ، وعدّتهم سبعة ، وهم : السيّد يحيى بن علي الرّفاعي ، والسيّد محمد بن سالم الأحمدي ، والسيّد محمد بن زين العابدين القادري ، والسيّد محمد الأدهمي ، والسيد محمد البسطامي ، والسيّد محمد الدّسوقي ، وخليفة السّت نَفيسة[2] .

---

(1) لا نرى المجال يتّسع لتفسير هذه المصطلحات وأسماء الوظائف في عهد المماليك ، ونُحيل القارئ في هذا الصّدد إلى ما وُضع حول ذلك في عهد المماليك : «التّعريف بالمُصطلح الشريف» لابن فضل الله العُمَري ، و«صُبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقَلقَشَندي ، ولاحقاً كتاب ابن كنّان الصالحي «حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسّلاطين» .

(2) يعني متولّي مقام السيّدة نفيسة بنت الإمام علي (كرّم الله وجهه) بالقاهرة .

وقدّامهم أولاد محمد بن بركات صاحب مكّة المشرّفة ، وهما : السيّد راجح ، والسيّد قاسم ، ولدا محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة ابن أبي سعد محمد بن أبي عزيز قَتادة الحسني . وابنا أخيهما السيّد هزّاع ، وهما السيّدان محارم وزاير ، وابن أخيهما أيضاً السيّد شرف الدّين رُميح ، وابن قريبهم الشريف أبو سعد بن رُميثة بن بركات ، وجماعتهم .

وقدّامهم محفّتان على بغال ، إحداهما للسّلطان ، والثانية لابنه . وقدّامهم من الخيل الجنوبة مائة ، فمنها خمسون بجلال صُفر من أطلس ، ومنها ثلاثون بلبوس مذهّبة ، ومنها عشرة بكنابيش[1] ذهب مرصّعة باللآلئ وغيرها ، ومنها عشرة من خواص الخيل غير ملبّسة . وقدّامهم مائة هجين بأكوار مُزركشة ، منها خمسون على أحمر ، وباقيها مُغرق[2] ، مكتوب على غالبها اسم السّلطان ، وعلى بعضها طومان باي[3] ، وعلى بعضها قايتباي .

وقدّامهم كرسي المُلك محمول على بغل ، وهو مرصّع بالدُّرّ والجوهر والبَلْخَش[4] وغير ذلك . وقدّامه ثلاثة أبغال للشّربداريّة ، راكب في وسطها ثلاثة أولاد صغار عمّالين في الإنشاد ، لم نسمع أطرب منهم ، وهم سائرون .

وقُدّامهم أربعة أنفس راكبين ، وخلف كل واحد منهم فهد ، وقُدّامهم أحمال الضويّة ، وقدّامهم الباروديّة ، وقدّامهم الطبل والزَّمر ، وقدّامهم السّبق[5] ، إلى غير ذلك ممّا يطول تعداده ، وكان يوماً مشهوداً .

---

(1) الكنابيش جمع كُنبوش : كساء القماش الذي يوضع على الفَرَس ما دون السّرج .
(2) أي ساذج ، بلون واحد غير مشوب .
(3) طومان باي آخر مُلوك المماليك الجراكسة تولّى بعد قانصُوه ، قتله السّلطان سليم العثماني بمصر 923 هـ . والأشرف قايتباي أقوى سلاطين الجراكسة ، حكم بين 872-901 هـ .
(4) البلخش : العقيق نسبةً إلى بَلْخَشان (بَذْخَشان بالفارسية) ، ناحية بأفغانستان يكثر بها .
(5) يتضح من نص سابق لابن طولون في مفاكهة الخلاّن أن السبقيات نوع من الأسلحة النارية كالمدافع (المكاحل) الخفيفة ، فهو يذكر (1 : 201) : «وعلّمهم الرمي بالبندقيات والكفّيات والسبقيات بالبارود» . وكذلك يذكر (2 : 45) : «ورموا عليه بالمكاحل والسّبقيات والكفّيات والبندقيات» .

ولمّا مرّ السّلطان على باب النّصر الذي في رأس القبيبات[1]، نثر عليه صَدَقة اليهودي، معلّم دار الضَّرب بدمشق، دراهم وأشرفيّة اصطنعها لذلك خفيفة، ويقال إنها ألفا درهم. فاقتتلت النّاس على نهبها، فأمره السّلطان بالكَفّ عن ذلك.

ولمّا جاء إلى محلّة ميدان الحَصى[2]، لاقته الإفرنج المُستأمنين هناك، ومعهم قُنصُلهم، وفرشوا له قطعاً من الجُوخ، ونثروا عليه دراهم وقبارصة - ويُقال إنها مائتا دينار - فاقتتل النّاس أيضاً على نهبها، فأمرهم السّلطان بالكَفّ عن ذلك. وقطّع جماعته الجوخ وتناهبوه. ولمّا جاء إلى حارة السَّمْرة[3] نثروا عليه خمسمائة درهم.

ولمّا نزل بالمصطبة قدّم له النائب ضيافةً عظيمة، فأكلها وخلع عليه خلعة عظيمة، مُزركشة على أخضر بأكمام مُذهّبة يَلبُغاويّة، فعاد بها إلى منزله دار السّعادة، ومعه غالب الأمراء في موكب عظيم. وكمل له بهذه الخلعة عدّة ستّة وثلاثون خلعة، من أول كفالته إلى الآن.

ثم بلغني أن الغاشية - أول ركوب السّلطان - كان حاملها سُودون العجمي الأمير الكبير إلى أول عمائر دمشق، فقيل لهم إنّما العادة يحملها نائب الشام، كما فُعل مع بَرْسْباي الأشرف، حملها عليه جارقُطلى نائب الشام، في يوم الإثنين خامس عشر شعبان سنة ست وثلاثين وثمانمائة، من القبّة إلى المصطبة[4]. فلمّا سمعوا ذلك، حملها نائب الشام سيباي حينئذ، ثم خلع السّلطان على الأمراء السبعة كما فعل بالأمس مع السبعة الأُخر، فالجملة أربعة عشر أميراً.

---

(1) القبيبات هي الأصل القديم لحي الميدان الفوقاني حول جامع كريم الدّين (الدّقّاق). أما قوله «باب النّصر» فهي تسمية غير مألوفة، ولعلّه ما يُعرف ببوّابة الله على درب الحج.
(2) ميدان الحصى هو حي الميدان التّحتاني حول باب المصلّى. وقد يُطلق على الميدان كله.
(3) يضيف ابن كنّان في حدائق الياسمين: «وكانت فايت جامع المبروم وبرج الرّوس». ويذكر دهمان أنه كان للسّامريين حي بطرف جوبر وقرب جسر ثورا على طريق دوما.
(4) ذكرنا تفاصيل ذلك أعلاه في نصّين لابن اللّبودي وابن تَغري بَردي.

وفي يوم الجمعة تاسع عشره خطب بالجامع الأموي قاضي قضاة الشافعيّة المصري ، وصلّى خلفه رفاقته الثلاثة ، ثم صلّى بالنّاس الجمعة ، وكبّر خلفه مؤذّنو السّلطان . ولمّا فرغوا من التّسبيح عُقيب الصّلاة أنشد الصّبيان الذين كانوا مع السّلطان ، واجتمع النّاس عليهم حتى كادوا يقتتلون .

ثم حطّوا ، فدعا القضاة الأربعة المصرية أخانا المُحبّ جار الله بن فهد المكّي فقرأ عليهم المُسلسل بالأوّليّة ، ثم ثُلاثيّات الصّحيح ، وحضر ذلك القضاة الأ[ربعة] ونوّاب القضاة الثمانية ، وخلائق . وجلس القاضي الشافعي المصري في المحراب بالمقصورة ، وعن يمينه الحنبلي المصري ، وتحته الحنفي الشامي ، وعن يساره . . .[1] ، وتحته الحنفي المصري ، ثم الشافعي الشامي ، ثم المالكي ثم الحنبلي الشاميين .

وسبب هذا المجلس ما حكيتُه لأخينا المحبّ المذكور ، من إملاء الحديث المسلسل [بالأوّليّة] من حافظ العصر شهاب الدّين أبو الفضل بن حَجَر ، قاضي القضاة بالدّيار المصرية ، تجاه محراب الحنفيّة بالجامع المذكور ، لمّا نزل الملك الأشرف [بَرْسْباي][2] ، وكان مع رفاقته الثلاثة : قاضي الحنفيّة بها البَدر العيني ، وقاضي المالكيّة الشمس البِساطي ، وقاضي الحنابلة الزّين بن نَصر الله ، فذكر لهم ذلك فأرادوا مُضاهاة ذلك .

وفي ليلة السبت عشريه ، دخل من مصر إلى دمشق المعزول من حِسبة مصر - لظلمه بعد خروج السّلطان منها - الأمير ماماي الصّغير ، فإن دَوادار السّلطان بمصر أرسل عَرَّف السّلطان بظُلمه ، فأرسل عَزَلَه وأمره أن يتجهّز خلفه ، وأن يولّي الدَّوادار في الحسبة مَن أراد . فامتثل ذلك ولحق السّلطان ليلتئذٍ .

* * *

---

(1) فراغ بالأصل المخطوط ، والنسخة فريدة بخط مؤلّفها .

(2) ورد تفصيل ذلك في نصّي ابن اللُّبودي وابن تَغري بَردي حول رحلة السّلطان الأشرف بَرْسْباي إلى دمشق سنة 836 هـ .

وفي يوم السّبت المذكور ذهبت[1] في جماعة إلى مخيّم السّلطان بالصُّفّة عند القابون الفوقاني ، فاجتمعتُ بالخليفة وقرأتُ عليه المسلسل بالأوّليّة ، ثم سمعتُه عليه ، ثم قرأتُ عليه ثُلاثيّات البُخاري . ثم توجّهتُ من عنده إلى القاضي الشافعي ، فقرأتُها عليه أيضاً ، بعد أن سمعتُ منه المُسلسل بالأوليّة . ثم توجّهتُ إلى عند القاضي الحنفي فقرأتُ عليه المُسلسل بالحنفيّة ، وسمعتُه عليه . ثم توجّهتُ إلى عند القاضي المالكي ، فقرأتُ عليه جُزء الثلاثين حديثاً المُنتقاة من صحيح مُسلم . ثم توجّهتُ إلى عند القاضي الحنبلي ، فقرأتُ عليه المائة حديث المُنتقاة من ثُلاثيّات مُسند أنس والمُسلسل بالمصريين .

وكان صُحبتي أخونا المُحبّ جار الله بن فهد ، ومعه الشّمسي محمد ابن الأكرم ، وقصدتُ بهذه القراءة تحرير ما عندهم من أحسن المرويّات ، فإن بالأمس لمّا قرأ على القضاة الأربعة المصريين بمقصورة الجامع الأموي أخونا جار الله المذكور ، المسلسل بالأوليّة ثم ثُلاثيّات الصّحيح ، ربح سَوق أسانيدهم بها .

* * *

وفي يوم الأحد حادي عشريه ، أرسل النائب تقدمةً للسّلطان ، عدّة أربعة عشر صدراً ، على رأس كل رجل صدر مغطّى بلون من الألوان ، في أربعة صدورة خمسون ألف درهم فضّة ، وفي بقيّة الصّدورة قماش مُفتَخَر ، وخلف هذه الصّدورة عدّة عشرة من مماليكه الخاص الكتابية الحسان ، وخلفهم عدّة عشرة من الخيول الخاص ، وأمير آخور الكبير تَنِم ، وخازنداره خُشْقُدُم ، والمقدّم ناصر الدّين ابن الحَنَش .

وفي هذا اليوم قدّم المقدّم ناصر الدّين المذكور للسّلطان تقدمةً أخرى كثيرة من المال - قيل ألف دينار - ومن الخيل ومن الغَنَم ومن الجمال ومن البقر ومن الأوز ومن الدّجاج ومن الزّيت ومن العسل ومن الأرز ومن الدّبس ومن السّمن ، وغير ذلك .

---

(1) كان من عادة علماء الشام الإمعان في التّقرّب من الحكّام والوقوف على أبوابهم .

وفيه أمر السّلطان بالمصطبة بإشهار النّداء بالأمان والاطمئنـان ، وأن لا أذى ولا عُدوان ، وأن لا يحمل أحد من العَوام سلاحاً .

وفي يـوم الثلاثـاء ثـالث عشريه ، ذهبتُ في جماعة إلـى مُخيّـم السّـلطان بالمصطبة ، فـاجتمعتُ بكـاتب السّرّ ابـن أجـا ، وقـرأتُ عليـه المُسلسـل بالأوليّـة والمُسلسل بالدّعاء في المُلتزم المُخرجين ، في كتابه : «تحقيق الرَّجا لعلوّ المَقرّ المُحبّي ابن أجـا» ، تخريـج أخينـا في الله المحدِّث جـار الله بـن فهـد المكّـي بحضـوره . ثـم اجتمعتُ ببقيّـة المُباشـرين المصريـين ، فرأيـتُ أمثَلَهـم نـاظر الخـواص الشـريفة ابـن الإمام ، بسبب حبّه للفقراء وحفوه على طَلَبة العلم .

وفي يوم الأربعاء رابع عشريه ، رحل السّلطان مـن الصُفّـة ، وهُدَّت الزّينة من البلد ، وتوجّه معه في التّرسيم[1] المحبي ناظر الجيش بدمشق ونـاظر القلعـة بهـا وما مع ذلـك ، بعـد أن كـان وقـع بينـه وبـين أمـير سـلاح أُركْمـاس مُرافعـة عظيمـة بسبب دَين له عليه . وأراد أمير سلاح أن يشتريه مـن السّـلطان بخمسـين ألـف دينار ، فالتزم للسّلطان بغالبها[2] .

وكذلك توجّه معه في التّرسيم مُباشر القلعة الدّمشـقيّة الصّفـدي ، ويوسـف السّامري ديوانها ، والتّميمي شاهدها ، ليعملوا حسابها . وكذلـك ذهـب معـه في التّرسيم أيضاً المحبّي بن الخَيضري ناظر الجَوالي ، بسبب مال متأخّر عليه منها .

ولم يُفَـرِّج السّـلطان في مـدّة إقامتـه بهـذه المصطبـة عـن أحـد كُربـة ، وكلّمـا رُفعت إليه قصّة يؤخّرها حتى يرجع . وقد ذهبتُ مع جماعـة مدرسـة الشـيخ أبـي عُمَر بصالحيّة دمشق ليشكوا له حالهم في قمح داريّا ، والمال المُرتَّـب لهـم في القلعـة بسبب الطعـام في شـهر رمضـان ، فلمّـا وصلـوا إلـى قُربـه جلـس الأضـرّاء يقـرأون القرآن له ، فـأمر مماليكـه فضربوهـم بـالعصيّ ، وقـالوا لهـم : «عندنـا ميّـت حتـى تجيئوا تقرون عليه ؟» ، فرجعنا خائبين منه .

---

(1) التّرسيم من مصطلحات العهد المملوكي ، ويعني الأسر أو القبض على الشخص .
(2) كذا في المطبوع ، ولعلّها : فالتزم السّلطان بغالبها .

وفي هذا المجلس جاء إليه قُنصُل الإفرنج وجماعته بهدايا ، فقدّمهم وأكرمهم !

وكان السّلطان في هذه الأيام التي كان فيها بالمصطبة[1] قد رَسَمَ ببناء قُبّتين بها ، فحضر معلّم المعماريّة بمصر ومعلّمهم بدمشق وبقيّة المعلّمين ، ورسموا مكانهما ثم شرعوا في ذلك .

* * *

ثم ركب السّلطان في أواخر هذا النّهار ، وسافر بعد أن خلع على النّائب خلعةً أخرى بهذه المَصطبة ، فكملت خلعه سبعاً وثلاثين .

وفي يوم الخميس خامس عشريه ، خلع النّائب على أمير آخوره تِنم بنيابة الغَيبة ، وأمر بإشهار النّداء بأنه لا ظُلم ولا عُدوان . ثم خلع على خازنداره خُشْقُدُم .

وفي يوم الجمعة سادس عشريه ، جاء الخبر بأن نائب حلب خَير بك ونائب حَماة جان بَرْدي الغَزالي ، ومعهما قضاة البلديْن ، لاقوا السّلطان في القُطيفة .

(مفاكهة الخلاّن ، 1 / قسم 2 : 9–20)

* * *

---

(1) مصطبة السّلطان كانت في سهل القابون بينها وبين برزة ، وكان الملوك والنواب والقادة في العهد المملوكي ينزلون بها إذا قدموا من جهة حلب ، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ، ويدخلون دمشق بموكب حافل . وصفها بأواخر القرن التاسع الهجري أبو البقاء البَدري (تقدّم أعلاه) : «وهي مصطبة في قدر فدّان ، يُصعد إليها في نيّف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصرٌ حَسَن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجّههم إلى الأسفار» . وذكر لي أستاذي المرحوم الشيخ محمد دهمان أنه أدركها قديماً ، وكانت بارتفاع نحو متر ، ثم مهّدها الفلاحون فأضحت أرضاً زراعيّة .

[دخول السلطان قانصوه الغوري إلى دمشق]
[برواية محمد ابن إياس الحنفي]

وفي هذا الشهر [جُمادى الآخرة سنة 922 هـ] وردت الأخبار بأن السّلطان دخل إلى دمشق المحروسة يوم الإثنين ثامن عشر جُمادى الأولى ، فلاقاه سيباي نائب الشام ، ولاقاه سيباي نائب الشام من المنية وبركة طبريّة على ما قيل من الأخبار ، ودخل في موكب حافل وعسكر بالشّاش والقماش ، وقدّامه الخليفة والقضاة الأربعة ، وسائر الأمراء من المقدّمين والأمراء الطبلخانات والعشرات ، وأرباب الوظائف من المُباشرين ، والجمّ الغفير من العسكر .

ولاقاه أمراء الشام وعساكرها ، وحمل على رأسه ملك الأمراء سيباي[1] نائب الشام القبّة والجلالة ، كما جرت بذلك العوايد من قديم الزّمان . فزُيّنت له مدينة دمشق زينة حافلة ودُقّت له البشائر بقلعة دمشق ، ونثر على رأسه بعض تجّار الفرنج الذي هناك ذهباً وفضّة ، وفرش له سيباي نائب الشام تحت حافر فرسه الشّقق الحرير ، فتزاحمت عليه المماليك ، فكاد السّلطان أن يسقط من على ظهر فرسه من شدّة ازدحام النّاس عليه ، فمنعهم من نثار الذّهب والفضّة ومن فرش الشّقق تحت حافر فرسه .

ولمّا دخل إلى دمشق ، نثر على رأسه القُنصُل وتجّار الفرنج دنانير ذهب ، ونثر المعلّم صَدَقة اليهودي معلّم دار الضّرب بالشام فضّة جديدة ، وفُرشت له الشّقق من مدرسة النائب بها الآن[2] ، وزُيّنت له المدينة سبعة أيام . فكان له بدمشق يوم مشهود ، وعُدّ ذلك من المواكب المشهودة . فاستمرّ في هذا الموكب الحافل حتى دخل من باب النّصر الذي بدمشق . وخرج إلى الفضاء منها وتوجّه إلى المصطبة التي يُقال لها مصطبة السّلطان ، وهي بالقابون الفوقاني ، فنزل هناك ورَسَم لبعض حُجّاب دمشق بعمارتها ، وكانت قد تشعّثت من قدم السّنين .

---

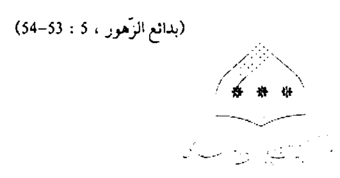
(1) قدّمنا ذكر مكانة سيباي لدى السّلطان ، ومازال عقبه بدمشق إلى اليوم (آل سيباي) .

(2) السّيبائية معروفة بدمشق خارج باب الجابية ، وهي مدرسة عظيمة ذات واجهة مملوكية جميلة ، بناها سيباي عام 920 هـ ، وهي آخر بناء رسمي مملوكي بدمشق .

وهذا الموكب لم يتّفق لسلطان من بعد الأشرف بَرْسْباي لّما توجّه إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة[1] ، سوى للملك الأشرف قانْصُوه الغُوري . ثم إن السّلطان أقام بالمصطبة التي بالقابون نحو تسعة أيام ، وقيل إن قاضي القُضاة الشافعي كمال الدّين الطويل خطب بجامع بني أميّة جُمعتين ، ولم يحضر السّلطان هناك صلاة الجمعة . وقيل استمرّت مدينة دمشق مزيّنة سبعة أيام .

ثم إن السّلطان رحل من هناك وتوجّه إلى حمص . ثم رحل عنها وتوجّه إلى حَمَاة ، فلاقاه نائبها جان بَردي الغَزالي[2] ، وقيل إنه مَدّ له هناك مَدّة حافلة أعظم من مَدّة نائب الشام على ما أُشيع . وقيل إن السّلطان لّما أن رحل عن حَمَاة ترك بها قاسم بك بن أحمد بن عُثمان ، الذي تقدّم ذكره عندما خرج من مصر وسافر صُحبة الأمير ماماي المُحتسب ، كما تقدّم .

(بدائع الزّهور ، 5 : 53-54)



(1) أوردنا وصفه أعلاه (نص رقم 65) ، نقلاً عن ابن اللُّبودي وابن تَغري بَردي .

(2) هذا الغزالي سيلي الشام لصالح العثمانيين غداة فتحهم الشام ، بين 924-927 هـ ، ثم يثور عليهم في اواخر عام 926 هـ ويُقتل في 26 صفر 927 هـ . انظر حول ثورته كتابي : حوادث دمشق غَداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة من كتاب «مُفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان» ، لابن طولون الصّالحي ، دمشق 2001 .

مسرد مراجع البحث

المراجع العربية

ابن بطوطة ورحلاته - تحقيق ودراسة وتحليل : حسين مؤنس ، دار المعارف بمصر 1980 .

ابن بطوطة ورحلته : شاكر خصباك ، مطبعة الآداب ، النجف 1971 .

آثار البلاد وأخبار العباد : لزكريا بن محمد القزويني ، نشرة فرديناند فُستنفلد ، غوتنغن 1848-1849 . وطبعة دار صادر ببيروت 1960 .

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : للبشاري المقدسي ، نشرة دى خويّه ، لايدن 1906 .

أحمد بن فضلان ، أول رحالة عربي يزور جنوب روسيا وأوروبا الشمالية : أحمد إيبش ، بحث قُدّم للجمعية الجغرافية السورية ، دمشق 1998 .

أخبار الصين والهند : للتاجر سليمان وأبي زيد السِّيرافي ، تحقيق إبراهيم خوري ، سلسلة أبحاث ودراسات عن شبه القارّة الهندية - 4 ، دار الموسم ، بيروت 1991 .

أخبار رحلات العرب والفرس إلى الهند والصين : للتاجر سليمان وأبي زيد حسن السِّيرافي ، تحقيق المستشرق رينو ، المطبعة الملكية ، باريس 1845 .

أخبار الصين والهند : للتاجر سليمان وأبي زيد السِّيرافي ، تحقيق ابراهيم خوري سلسلة أبحاث ودراسات عن شبه القارّة الهندية - 4 ، دار الموسم ، بيروت 1991 .

أدب الرحلات (دراسة تحليلية من منظور إثنوغرافي) : د. حسين محمد فهيم ، سلسلة عالم المعرفة (138) ، الكويت 1989 .

أدب الرّحلات عند العرب : حسني محمود حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1976 .

أدب الرّحلات عند العرب في المشرق ، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري : علي محسن مال الله ، مطبعة الإرشاد ، بغداد 1978 .

أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي (دراسة ومختارات) : أحمد أبـو سـعد ، منشورات دار الشرق الجديد ، بيروت 1961 .

أدب الرحلة - تاريخه وأعلامه : جورج غريب ، دار الثقافة ، بيروت 1966 .

الإدريسي في الجغرافيا العربية : د. أحمد سوسة ، منشورات نقابة المهندسين ، بغداد .

أرجوزة في محاسن دمشق (البرق المتألق في محاسن جلّق) : لابـن خُـداوردي ، نشرة د. صلاح الدين المنجد ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، نيسان 1952 .

أرض الصّالحيّة (الأرياف) ، دراسة في الجغرافيا الإقليمية : عبد الهادي سعيِّد ، رسالة جامعيّة غير منشورة مقدّمة لقسم الجغرافيا ، جامعة دمشق 1954-1955 .

إرشاد الأريب إلى معرفة الأريب (معجم الأدباء) : لياقوت الرّومي الحموي ، طبعة المستشرق مرغوليوث ، لايدن 1907-1926 . وطبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي دار المأمون بمصر 1936-1938 .

الإسلام والفكر الجغرافي العربي : صلاح الدين الشامي ، الاسكندرية 1979 .

الإشارات إلى معرفة الزيارات : لعلي بن أبي بكر الهروي ، تحقيق جانين سورديل طومين ، المعهد الفرنسي بدمشق 1953 .

الأشرف قانصوه الغوري : محمود رزق سليم ، القاهرة 1963 .

الاعتبار : لأسامة بن منقذ الكناني ، تحقيق فيليب حتّي ، مطبعة جامعة برنستون 1930 .

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة : لعز الدين ابن شدّاد ، القسم الثاني : مدينة دمشق ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي بدمشق 1956 . والقسم الثالث ، تحقيق يحيى عبّارة ، مطبوعات وزارة الثقافة ، دمشق 1978 .

الأعلاق النفيسة : لابن رُسته ، نشرة دى خويه ، لايدن 1891-1892 .

الأعلام : لخير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية ، مطبعة كوستاتسوماس بالقاهرة 1954-1959 . والطبعة الثالثة ، بيروت 1969 .

أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب : صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1978-1979 .

أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم : د. عبد الرحمن حميدة ، دمشق 1969 . والطبعة الثانية ، دار الفكر بدمشق 1984 .

إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى : لابن طولون الصّالحي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، وزارة الثقافة ، دمشق 1964 .

إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى : لابن طولون الصّالحي ، تحقيق عبد العظيم حامد خطّاب ، جامعة عين شمس ، مصر 1973 .

إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة : لتقي الدين المقريزي ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيّال ، القاهرة 1940 .

الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر : لعبد اللطيف البغدادي ، نشرة دى ساسي ، باريس 1810 .

آكام المرجان في ذكر البلدان المشهورة في كل مكان : لإسحق بن حسين المنجّم ، نشرة آنجيلا كوداتسي ، روما 1929 .

الألطاف الخفيّة في السيرة الشريفة السّلطانية الملكيّة الأشرفيّة : لعبد الله بن عبد الظاهر ، لايبتسيك 1902 .

أمراء دمشق في الإسلام : لصلاح الدّين الصّفدي (يتضمّن كتاباً وأرجوزة له) ، تحقيق صلاح الدين المنجّد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1955 .

إنباء الغُمر بأنباء العُمر : لابن حجر العسقلاني ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة 1969-1972 .

إنباء الهصر بأبناء العصر : لابن الجوهري الصّيرفي ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة 1970 .

الانتصار لواسطة عقد الأمصار : لابن دُقماق ، طبعة كارل فولرز ، بولاق 1893 .

أنس المُهَج ورَوض الفَرَج : للشريف الإدريسي ، مخطوطة مكتبة حكيم أوغلو علي باشا بإستانبول ، رقم : 688 .

بدائع الزهور في وقائع الدهور : لابن إياس الحنفي ، تحقيق محمد مصطفى وپاول كالّه ، منشورات جمعية المستشرقين الألمانية في إستانبول ، لايبتسيك 1931-1936 / دار المعارف بمصر 1951 / المعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، ڤيزبادن 1960-1975 . والطبعة الثانية ، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1982-1984 .

البداية والنّهاية في التاريخ : لابن كثير الدّمشقي ، القاهرة 1332 -1339 .

البَدر الزّاهر في نُصرة الملك النّاصر (محمد ابن قايتباي) : لابن الشّحنة ، تحقيق عمر عبد السّلام تدمري ، جرّوس برس ، طرابلس 1984 .

برج بابل وشدو البلابل : للشيخ عبد الغني النابلسي ، تحقيق أحمد الجندي ، دار المعرفة ، دمشق 1988 .

البرق المتألق في محاسن جلّق : لابن خداويردي الشهير بابن الراعي ، مخطوطة مكتبة ڤيينا ، رقم : 196 .

بسط الأرض في الطول والعرض (الجغرافية في الأقاليم السبعة) : لابن سعيد المغربي ، نشرة خوان خينيس ، معهد مولاي الحسن ، تطوان 1958 .

البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي : جمعها وحققها اسماعيل ابن علي الأكوع مؤسسة الرسالة ، بيروت 1988 .

بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين : د. كامل جميل العسلي عمّان عام 1992

تاج العروس من جواهر القاموس : للمرتضى الزبيدي ، طبعة مصر 1306-1307 هـ .

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (رحلة البلوي) : لخالد ابن عيسى البلوي ، تحقيق الحسن السائح ، المغرب (دون تاريخ) .

تاريخ ابن الجزري (حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه) : لابن الجزري ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا 1998 .

تاريخ ابن الحمصيّ (حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران) : لشهاب الدين أحمد ابن الحمصي ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا 1999 .

تاريخ ابن قاضي شُهبة : لتقي الدين ابن قاضي شُهبة الأسدي ، تحقيق عدنان درويش ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1977-1994 .

تاريخ الأدب الجغرافي العربي : للمستشرق إغناتي يوليانوفيتش كراتشكوفسكي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1965 .

تاريخ الأمير شهاب الدّين قَرَطاي العِزّي الخَزَنْداري ، نسخة مكتبة جامعة غُوطا Gotha بألمانيا (برقم : Ar. 547) .

تاريخ الأمير يشبك الظاهري : لمحمد بن محمود بن خليل الحلبي المعروف بابن أجا ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الفكر العربي بالقاهرة 1973 .

تاريخ البُصروي : لعلاء الدّين البُصروي الدمشقي ، تحقيق أكرم حسن العلبي ، دار المأمون للتراث ، دمشق 1988 .

تاريخ الفكر الأندلسي : آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1955 .

تاريخ مختصر الدول : لأبي الفرج ابن العبري ، نشره الأب أنطون صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1958 .

تاريخ مدينة دمشق : للحافظ ابن عساكر الدمشقي ، المجلدة الثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1954 .

تاريخ الملك الظاهر : لعزّ الدّين ابن شدّاد ، ڤيزبادن 1983 .

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده : لشمس الدين الشجاعي ، تحقيق باربرا شيفر ، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، ڤيزبادن 1977 .

تاريخ ناصر الدّين محمد ابن الفُرات «الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخُلفاء والملوك» ، مخطوط مكتبة الڤاتيكان بروما ، رقم : 726 .

تاريخ ناصر الدّين ابن الفُرات «الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخُلفاء والملوك» ، مخطوط المكتبة الملكية بڤيينّا ، رقم : 814 .

تاريخ ناصر الدين ابن الفُرات : الجزء 8 ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء أبو عزّ الدّين ، بيروت 1939 .

التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر : د. جمال الدين الشيّال ، القاهرة 1958 .

تاريخ اليعقوبي : لأحمد بن إسحاق اليعقوبي ، دار صادر ودار بيروت 1960 .

تالي كتاب وفيات الأعيان : للصّقاعي ، تحقيق جاكلين سوبليه ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1974 .

التبر المسبوك في ذيل السلوك : للسّخاوي ، نشر أحمد زكي باشا ، بولاق 1896 .

تتمّة المختصر في أخبار البشر : لزين الدين عمر بن الوردي ، طبعة مصر 1870 .

تحفة الألباب ونخبة الأعجاب : لأبي حامد الغرناطي ، تحقيق گابرييل فيرّان ، المجلة الآسيوية عدد 207 سنة 1925 ، ص 1-304 . ونشرة دوبلر ، مدريد 1953 .

التحفة الملوكيّة في الدولة التركية : لبيبرس المنصوري ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1987 .

تذكرة النّبيه في أيام المنصور وبنيه : لابن حبيب ، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتّاح عاشور ، القاهرة 1976 .

التّراث الجغرافي الإسلامي : محمد محمود محمدين ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض 1984 .
تراجم كتّاب السر في العصر المملوكي : أحمد درّاج ، دراسة في مجلة البحث العلمي الصادرة عن جامعة أم القرى بمكة العدد 4 سنة 1401 هـ ، ص 345 .
ترصيع المرجان (من نظام المرجان في المسالك والبلدان) : للعُذري الأندلسي ، مخطوطة مكتبة آل البُديري بالقدس .
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور : لمحيي الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق مُراد كامل ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - سلسلة تُراثنا ، القاهرة 1961 .
التّعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً : لعبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1951 .
التّعريف بالمصطلح الشريف : لابن فضل الله العمري : مطبعة العاصمة بمصر 1894 . وطبعة بتحقيق د. سمير الدّروبي ، منشورات جامعة مؤتة ، عمّان 1992 .
التقسيم الإداري لسورية في عهد المماليك : أحمد عزت عبد الكريم ، بحث في مجلة كليّة الآداب بجامعة إبراهيم باشا (عين شمس) ، عدد مايو ، ص 127 .
تقويم البلدان : لأبي الفداء ، تحقيق رينو والبارون دى سلان ، باريس 1840 .
التنبيه والإشراف : لأبي الحسن المسعودي ، نشرة دى خويه ، لايدن 1894 . وطبعة أخرى بتحقيق عبدَ الله الصّاوي بمكتبة المثنى بغداد 1938 .
الثغر البسّام فيمن ولي قضاء الشام : لابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، مطبعة الترقي 1956 .
ثمار المقاصد في ذكر المساجد : يوسف ابن عبد الهادي ، تحقيق محمد أسعد طلس ، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق 1943 .
ثمرات الأوراق : لتقي الدّين بن حجّة الحموي ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، مكتبة الخانجي بمصر عام 1971 .
جامع التّواريخ : لرشيد الدّين الهمذاني ، المجلد الثاني في تاريخ المغول ، ترجمه عن الفارسية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المُعطي الصيّاد ، راجعه يحيى الخشّاب ، وزارة الثقافة ، القاهرة 1960 .
جامع التّواريخ : لرشيد الدّين الهمذاني ، المجلد 1-2 : از آغاز پيدايش قبائل مغول تا پايان دورهٔ غازان خان ، تحقيق بهمن كريمي ، تهران 1959 .

جامع التّواريخ : لرشيد الدّين الهمذانـي ، المجلد 3 ، تحقيق عبد الكريـم علـي أوغلو علي زاده ، باكو 1957 .

جغرافية مصـر من كتـاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكـري : د. عبد الله يوسف الغنيم ، مكتبة دار العروبة للنشر ، الكويت 1980 .

الجغرافيون العرب : صبري محمد حسن ، النجف 1959 .

الجغرافيّون والرّحّالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصّليبيّة : لمحمد مؤنس عوض ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، القاهرة 1995 .

جهود المسلمين في الجغرافيا *Muslim Contribution to Geography* : نفيس أحمد ، ترجمة فتحي عثمان ، سلسلة الألف كتاب (272) ، القاهرة 1960 .

جولة أثرية في بعض البلاد الشامية : أحمد وصفي زكريا ، المطبعة الحديثة ، دمشق 1934 .

الجيش والبحرية في عصر المماليك : علي إبراهيم حسن ، القاهرة (د.ت) .

حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسّلاطين : لابن كنّان الصّالحي ، تحقيق عبّاس صبّاغ ، دار النفائس ، بيروت 1991 .

حديث السّندباد القديم : د. حسين فوزي ، القاهرة 1943 .

حُسن المناقب السّرّيّة المنتزعة من السّيرة الظاهرية : لشافع بن علي الكاتب ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض 1976 .

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1941 .

حضارة العرب : غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1969 .

حلب في كتب البلدانيين العرب : د. شوقي شعث وفالح بكّور ، دار النمير بدمشق 1995 .

حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة من كتاب مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان : لابن طولون الصّالحي ، تحقيق أحمد إيبش ، دار الأوائل ، دمشق 2002 .

حوادث الدّهور في مدى الأيام والشهور : لابن تَغري بَردي الأتابكي ، منتخبات نشرها وليَم پوپر ، جامعة كاليفورنيا 1930-1942 .

حوليات دمشقية 834-839 هـ : من تاريخ ابن اللبودي ، تحقيق حسن حبشي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1968 .

خريدة العجائب وفريدة الغرائب : لسراج الدين عمر بن الوردي ، نشرها محمود فاخوري ، دار الشرق العربي ، بيروت 1991 .

خطط دمشق : صلاح الدين المنجد ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1949 .

الدّارس في تاريخ المدارس : لعبد القادر النّعيمي ، تحقيق جعفر الحسني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1948-1951 .

دائرة المعارف الإسلامية : لمجموعة من كبار المستشرقين ، دار نشر بريل ، لايدن الطبعة الأولى 1913 ، والطبعة الثانية 1977 .

دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن ومَطلب) : بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1956-1980 .

دراسات في تاريخ المماليك البحرية : علي إبراهيم حسن ، القاهرة 1944 .

الدرّة المضيّة في الدولة الظاهرية : لمحمد بن محمد بن صصرى ، نشره وليم برينر ، مطبعة جامعة كاليفورنيا في بركلي 1963 .

الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة : لابن حجر العسقلاني ، المطبعة العثمانية ، حيدر أباد بالهند 1348-1350 هـ . وطبعة محمد سيّد جاد الحق ، القاهرة 1966 .

درّة الأسلاك في دولة الأتراك : لابن حبيب ، نشرة ينبول ، أمستردام 1846 .

دفاتر شاميّة عتيقة ، مذكرات ومرويات ونوادر من تاريخ دمشق : أحمد إيبش ، دمشق 2002 .

دمشق بين عصري المماليك والعثمانيين : أكرم حسن العلبي ، الشركة المتحدة للتوزيع ، دمشق 1982 .

دمشق الشام في نصوص الرحّالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين ، من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة : د. أحمد إيبش و د. قتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .

دمشق في عهد المماليك : نقولا زيادة ، منشورات مكتبة لبنان ، بيروت 1966 .

دمشق في نظر الأندلسيين : صلاح الدين المنجد ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السادس 1958 ، العدد 1-2 ، ص 52-53 .

دولة بني قلاوون في مصر : محمد جمال الدين سرور ، القاهرة 1974 .

دولة الظاهر بيبرس : محمد جمال الدين سرور ، القاهرة 1960 .

الدّيارات : لأبي الحسن الشابُشتي ، تحقيق كوركيس عوّاد ، مطبعة المعارف ، بغداد 1951 .

الدّيارات : لأبي الفرج الأصبهاني ، جمعها وحققها جليل العطيّة ، دار رياض نجيب الريّس ، لندن 1991 .

ديوان لغات التُّرك : للكاشغري ، إستانبول 1333-1335 هـ .

ذخائر القصر في تراجم نُبلاء العصر : لابن طولون الصالحي ، مسوّدة المؤلف في مكتبة يافث التّذكاريّة بالجامعة الأميركية في بيروت ، رقم : Ms-920.02/I132tA .

ذخائر القصر في تراجم نُبلاء العصر : نسخة مكتبة غُوطا بألمانيا ، رقم : 1779 .

الذّهب المسبوك في ذكر مَن حجّ من الخلفاء والملوك : لتقي الدين المقريزي ، تحقيق جمال الدّين الشيّال ، القاهرة 1955 .

ذيل كتاب الرّوضتين ، لأبي شامة المقدسي ، نشره عزّت العطّار الحسيني ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة 1947 .

ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : للقطب اليونيني ، حيدر أباد 1954-1961 .

الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى : زكي محمد حسن ، دار المعارف بمصر 1945 .

الرّحلات : شوقي ضيف (فنون الأدب العربي) ، دار المعارف ، القاهرة 1956 .

رحلة ابن بطوطة : تحقيق عبد الهادي التّازي ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط 1997 .

رحلة ابن بطوطة : نشرة علي المنتصر الكتّاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1979 .

رحلة ابن بطوطة : تقديم كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت 1960 .

رحلة ابن بطوطة : دراسة لمحمد محمود الصياد ، مجلة تراث الإنسانية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، المجلد الثالث القاهرة 1963 .

رحلة ابن جُبير : ابن جبير الأندلسي ، تحقيق حسين نصّار ، مكتبة مصر ، القاهرة 1955 . وطبعة دار صادر ودار بيروت للنشر ، بيروت 1964 .

رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1939 .

رحلة ابن جبير : حسين نصار ، مقال بمجلة تراث الإنسانية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، المجلد الأول ، القاهرة 1963 .

الرحلة عين الجغرافيا المبصرة - في الدراسة الميدانية ، منشأة المعارف ، القاهرة 1982 .

الرحلة المتوكّلية إلى دمشق : صادق جودة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1985 .

الرحلة والرحّالة المسلمون : أحمد رمضان أحمد ، دار البيان العربي بجدّة .

رسائل دمشقية (4 رسائل عن دمشق) : يوسف بن عبد الهادي ، نشرها صلاح الخيمي ، دار ابن كثير ، دمشق 1988 .

رسالة ابن فضلان في الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والرّوس والصقالبة : لأحمد ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1959 .

روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى : نقولا زيادة ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر 1943 .

الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر : لمحيي الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض 1976 .

الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر (ططر) : للبدر العيني ، تحقيق هانس إرنست ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة 1962 .

الرّوض العاطر فيما تيسّر من أخبار القرن السابع إلى ختام القرن العاشر : لشرف الدين الأيوبي الأنصاري ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 9886 .

الرّوض المعطار في خبر الأقطار : لعبد المنعم الحميري ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت 1975 .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : لخليل بن شاهين الظاهري ، نشره پول راڤيس ، المطبعة الجمهورية ، باريس 1894 .

السّفارات الإسلامية إلى أوروبا في القرون الوسطى : د. ابراهيم أحمد العدوي ، سلسلة اقرأ - عدد 179 ، دار المعارف بمصر .

سَفَرنامه : لناصر خسرو المروزي ، ترجمه عن الفارسية د. يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1970 .

السّلوك لمعرفة دول الملوك : لتقي الدين المقريزي ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتّاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة 1934-1972 .

سير أعلام النّبلاء : لشمس الدّين الذهبي ، تحقيق شُعيب الأرناؤوط وحسين الأسد ، بيروت 1981-1985 .

السّيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد (شيخ المحمودي) : للبدر العيني ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة 1968 .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، نشره حسام الدين القدسي ، القاهرة 1350-1351 هـ .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا : لأحمد بن علي القلقشندي ، المطبعة الأميرية ، القاهرة 1910-1920 . والطبعة الثانية بدار الكتب المصرية 1918-1922 .

صدق الأخبار (تاريخ ابن سباط) : لحمزة بن أحمد ابن سباط الغربي العاليهي ، تحقيق . عمر عبد السلام تدمري ، جرّوس برس ، طرابلس 1993 .

صفة جزيرة الأندلس : منتخبة من الرّوض المعطار في خَبَر الأقطار للحِمْيَري ، تحقيق ليفي بروفنسال مع ترجمة فرنسية ، القاهرة 1937 .

صفة جزيرة العرب : للحسن بن أحمد الهمْداني ، تحقيق محمد بن عبد الله النجدي ، مطبعة السعادة بالقاهرة 1953 ، وطبعة أخرى بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1373 هـ . وطبْعة أخرى بتحقيق محمد بن علي الأكوع ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء 1983 .

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار : لمحمد بيرم الخامس التونسي ، مطبعة المقتطف بمصر 1302-1311 هـ .

صورة الأرض (المسالك والممالك) : لابن حوقل ، نشر كرامرز ، لايدن 1938 .

صورة الأرض : لمحمد بن موسى الخوارزمي ، نشرة هانز فون مجيك ، مطبعة أدولف هولتسهاوزن ، ڤيينا 1926 .

صورة الأقاليم : لأبي زيد البلخي ، مخطوطة مكتبة عارف حكمت ، ضمن مكتبة جامعة الملك عبد العزيز آل سعود .

ضوء الصّبح المسفر وجني الدَّوح المُثمر : للقلقشندي ، القاهرة 1906 .

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : لشمس الدين السّخاوي ، مطبعة القدسي بالقاهرة 1353-1355 هـ .

الظاهر بيبرس : سعيد عبد الفتّاح عاشور ، سلسلة أعلام العرب - 14 ، مطبعة مصر ، القاهرة 1963 .

الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره : محمد جمال الدّين سرور ، دار الفكر العربي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة 1938 .

عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة : لسُهراب ، نشرة هانز فون مجيك ، دار نشر أوتو هاراسوڤيتس في لايپتسيك ، مطبعة أدولف هولتسهاوزن ، ڤيينا 1929 .

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : لزكريا بن محمد القزويني ، نشرة ڤُستنفلد ، غوتنغن 1849 . وطبعة فاروق سعد ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1978 .

عجائب المقدور في نوائب تيمور : لابن عربشاه ، المطبعة العثمانية ، القاهرة 1305 هـ . وطبعة بتحقيق علي محمد عمر ، القاهرة 1979 .

عجائب الهند ، برّه وبحره وجزايره : لبُزُرْك بن شَهريار النّاخُداه الرّام هُرْمُزي ، تحقيق المستشرق ڤان درليت مع ترجمة فرنسية للمستشرق مارسيل دوڤيك ، مطبعة بريل ، لايدن 1883-1886 . وطبعة محمد أمين دربال المنقولة عنها ، مطبعة السعادة بالقاهرة 1908 . وطبعة يوسف الشاروني المنقولة عن الاثنتين ، دار رياض الريّس للنشر ، لندن 1990 .

العراق في الخوارط القديمة : أحمد سوسة ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد 1959 .

العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ، مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار : لابن أجا الحلبي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دار الفكر ، دمشق 1986 .

عصر السّلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : محمد رزق سليم (8 أجزاء) ، القاهرة 1946-1962 .

العصر المماليكي في مصر والشام : سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية بالقاهرة 1965 .

عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان : للبدر العيني ، جزء 1-2 تحقيق محمد محمد أمين ، الدار المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1987-1988 .

عقد الجُمان (حوادث وتراجم 824-850 هـ) : للبدر العيني ، تحقيق عبد الرزّاق الطنطاوي القرموط ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة 1989 .

132- العقد الفريد : لابن عبد ربّه الأندلسي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبياري وعبد السّلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1940-1973 .

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى : فايد حمّاد عاشور ، القاهرة 1976 .

علم الجغرافيا والعرب : سليمان الندوي ، مقالات بمجلة الضياء ، لكنؤ ، الهند 1932-1933 .

غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان : لمحمّد بن طولون الصّالحي : تحقيق أحمد إيبش ، دمشق 1983 .

غدق الأفكار في ذكر الأنهار : لابن عبد الهادي ، تحقيق صلاح الخيمي ، مجلة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، عدد 34 (1982) ص 2-11 ، 196-206 .

غوطة دمشق : محمد كرد علي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الطبعة الثانية ، 1952 .

فتح المتعال في وصف النّعال : لأحمد بن محمد المقّري ، مخطوط بمكتبة ڤاروج سلاطيان .

فتح المتعال في وصف النّعال : لأحمد بن محمد المقّري ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد 1234 هـ .

فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى البلاذُري ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1956-1957 .

الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك 1250-1517 : السيّد الباز العريني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1967 .

فضائل الشام ودمشق : لأبي الحسن الرَّبعي المالكي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1950 .

فكرة الجغرافيا عند العرب : د. محمد محمود الصيّاد ، محاضرات المكتبة الوطنية بحلب 1957 .

فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبي ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1973-1974 .

في رحاب دمشق (دراسة عن أهم أماكنها الأثرية) : محمد أحمد دهمان ، دار الفكر بدمشق 1982 .

القاموس المحيط والقابوس الوسيط : لمجد الدين الفيروزابادي ، تصحيح الشيخ نصر الهوريني ومحمد قَطّة العدوي ، بولاق 1272 هـ . وطبعة مصر 1330 هـ .

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : لابن طولون الصالحي ، تحقيق محمد أحمد دهمان . الطبعة الأولى مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق 1949-1956 . والطبعة الثانية من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1980 .

القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف : لأبي البقاء ابن الجيعان ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، جرّوس برس ، طرابلس 1984 .

قيام دولة المماليك الثانية : حكيم أمين عبد السيّد ، القاهرة 1967 .

كتاب الأقاليم (أو مسالك الممالك) : لابراهيم بن محمد الإصطخري ، نشرة دى خويه ، لايدن 1866-1870 .

كتاب الأموال : لأبي عبيد البغدادي ، تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة 1353 .

كتاب البلدان : لأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، نشرة دى خويه الملحقة بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رُسته ، لايدن 1892 . وطبعة الحيدرية بالنجف 1377 هـ .

كتاب الزّيارات (بدمشق) : للقاضي محمود العدوي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1956 .

كتاب الجغرافيا : لابن سعيد المغربي ، تحقيق اسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت 1970 .

كتاب الجغرافيا : لمحمد الزهري ، تحقيق محمد حاج صادق ، دمشق 1968 .

كتاب الحيوان : لأبي عثمان الجاحظ ، تحقيق د. عبد السلام هارون ، مصر 1945 .

كتاب الخَراج : لقُدامة بن جعفر البغدادي ، مخطوطة مكتبة كوپريلى بإسطنبول تركية ، رقم : 1076 .

كتاب الخَراج : لقُدامة بن جعفر البغدادي ، نبذ منه ملحقة بكتاب المسالك والممالك لابن خرّداذبه ، نشرة دى خويه ، لايدن 1889 .

كتاب دُول الإسلام : للذّهبي ، المطبعة العثمانية ، حيدر أباد 1945-1946 .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر : لابن خلدون ، طبعة بولاق بتصحيح الشيخ نصر الهوريني ، مصر 1867 .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة الشهير بكاتب چلبي ، طبعة إستانبول 1941 .

كنز الدّرر وجامع الغُرر : لابن أيبك الدّواداري ، الجزء 8 (الدّرّة الزكيّة في أخبار الدّولة التّركيّة) ، تحقيق أولريخ هارمان ، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، 1971 . الجزء 9 (الدّرّ الفاخر في سيرة الملك النّاصر) ، تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة 1960 .
الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة : لنجم الدين الغزي ، تحقيق جبرائيل جبّور ، منشورات كلية الآداب والعلوم بالجامعة الأميركية في بيروت 1945-1958 .
لسان العرب : لمحمد بن مكرم بن منظور ، طبعة دار صادر ودار بيروت بعناية حسين شرارة ومصطفى دمشقية ، بيروت 1955-1956 .
لقاء ابن خلدون وتيمورلنك : والتر ج. فيشل ، ترجمة محمد توفيق ، دار الحياة ، بيروت (دون تاريخ) .
مباهج العبر ومناهج الفكر : لمحمد بن ابراهيم الوطواط ، مخطوطة بمكتبة كوپريلى بإستانبول ، رقم : 1170 .
المجموع الظريف في حجّة المقام الشريف : لأحمد ابن الجيعان ، نشره الشيخ حمد الجاسر ، مجلة العرب العدد 9-10 ، ص 659-696 ، الرياض 1976 .
المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار : لعبد الرحيم الجوبري ، طبعة دمشق 1302 هـ .
المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار : للجوبري ، طبعة القاهرة 1316 هـ .
المختصر في أخبار البشر : لأبي الفداء إسماعيل بن أيوب ، المطبعة الحسينية بالقاهرة 1325 هـ .
مختصر كتاب البلدان : لابن الفقيه الهمذاني ، نشر دى خويّه ، لايدن 1885 .
مدارس دمشق وربُطها وجوامعها وحمّاماتها : لابن زُفَر الإربلي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، المكتب الإسلامي بدمشق 1947 .
مدن عربية : نقولا زيادة ، دار الطليعة ، بيروت 1965 .
مخطّط الصالحيّة : محمد أحمد دهمان ، ملحق بكتاب المروج السّندسيّة لابن كنّان الصّالحي ، منشورات مديرية الآثار القديمة العامّة ، دمشق 1947 .
مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحّالين المسلمين : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1967 .
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان : لعبد الله اليافعي ، طبعة حيدر أباد الدكن بالهند 1337-1339 هـ .

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع : لصفي الدين البغدادي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة 1954 .

مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن المسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1964 .

مروج الذهب ومعادن الجوهر : تحقيق باربييه دى مينار وباڤيه دى كورتيّ ، علّق عليها شارل پلاّ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت 1966-1979 .

المروج السُّنْدُسيّة الفَيحيّة في تلخيص تاريخ الصّالحية : لابن كنّان الصّالحي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، منشورات مديرية الآثار القديمة العامة ، دمشق 1947 .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : لابن فضل الله العُمري ، دولة المماليك الأولى ، تحقيق دوروتيا كراڤولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت 1986 .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : للعُمري ، الباب الثاني في ممالك بيت جنكز خان ، تحقيق كلاوس ليخ ، ڤيزبادن 1968 .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : للعُمري ، الباب الخامس عشر في قبائل العرب بالقرنين السابع والثامن للهجرة ، تحقيق دوروتيا كراڤولسكي ، بيروت 1985 .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : للعُمري ، الباب السادس والسابع في مملكة مصر والشام والحجاز واليمن ، تحقيق أيمن فؤاد سيّد ، القاهرة 1985 .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : لابن فضل الله العُمري ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد زكي باشا ، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1924 .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : لابن فضل الله العُمري ، مصوّرة لمخطوطة قصر طوپ قاپي ، (27 مجلداً) ، بعناية فؤاد سزگين وعلاء الدين جوخوشا وإيكهارد نويباور ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، جامعة فرانكفورت 1988-1989 .

المسالك والممالك (أو صورة الأرض) : لابن حوقل ، نشرة دى خويّه ، لايدن 1873 .

المسالك والممالك (أو كتاب الأقاليم) : لابراهيم بن محمد الإصطخري ، تحقيق محمد جابر الحيني وشفيق غربال ، وزارة الثقافة ، القاهرة 1961 .

المسالك والممالك : لأبي عبيد البكري ، تحقيق أدريان ڤان ليوڤن وأندريه فيرّيه ، الدار العربية للكتاب وبيت الحكمة بتونس 1992 .

المسالك والممالك : لابن خرّداذبه ، نشرة دى خويّه ، لايدن 1889 .

مساهمات الجغرافيين العرب والمسلمين في صنع خريطة العالم : فؤاد سزگين ، جامعة فرانكفورت 1987 .

مسجد خالد بن الوليد بدمشق ، أقدم مسجد منذ الفتح : أحمد إيبش ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، المجلد 35 (1985) ص 417-431 .

المشترك وضعاً والمفترق صقعاً : لياقوت الرومي الحموي ، نشرة ڤستنفلد ، غوتنغن 1846 .

المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1963 .

المعارف : لابن قتيبة الدِّينوري ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة 1960 . وطبعة محمد اسماعيل الصاوي ، المطبعة الإسلامية بالقاهرة 1934 .

معالم دمشق التاريخية : أحمد إيبش ود. قتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1996 .

معالم وأعلام في بلاد العرب ، الجزء الأول عن سورية : أحمد قدامة ، مطبعة ألف باء - الأديب ، دمشق 1965 .

معجم البلدان : لياقوت الرّومي الحموي ، نشرة فرديناند ڤستنفلد ، لايپتسيك 1866-1870 . وطبعة محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة ، القاهرة 1906 . وطبعة دار صادر ودار بيروت ، بيروت 1955-1957 .

معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع : لأبي عبيد البكري ، تحقيق مصطفى السقّا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1945 .

معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1978 .

معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، دمشق 1957 .

معطيات جديدة في الطبوغرافيا التاريخية لدمشق ، من خلال سيرة الملك الظاهر بيبرس : أحمد إيبش وعصام الحجّار ، بحث ألقي بندوة «الرواية الشعبية العربية» ، المعهد الفرنسي للشرق الأوسط بدمشق ، 27-28 نيسان 2005 .

معيار الاختيار في ذكر المعاهد والدّيار : للسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق د. محمد كمال شبانة ، المغرب 1976 .

المغرب في حلى المغرب : لابن سعيد الأندلسي ، طبعة مصر 1953-1955 .

مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان : لابن طولون الصالحي ، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة 1962-1964 .

المكتبة الجغرافية العربية : ميخائيل عوّاد ، مقالة بمجلة أهل النفط ، العدد 45 السنة الرابعة (1955) .

الملابس المملوكية : ليو ماير ، ترجمة صالح الشيتي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1972 .

ملء العيبة بما جُمع بعد طول الغيبة : لابن رُشيد الفهري ، مخطوط بمكتبة دير الإسكوريال ، رقم : 1736 .

من مباهج الفِكر ومناهج العبر (صفحات من جغرافية مصر) : لمحمد بن ابراهيم الوطواط ، تحقيق عبد المتعال عبد المنعم الشامي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت 1981 .

منامات الوهراني ومقاماته ورسائله : لمحمد بن محرز الوهراني ، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش ، منشورات وزارة الثقافة ، القاهرة 1968 .

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال : لعبد القادر بدران : نشره محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي بدمشق 1960 .

منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان : محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة بمصر 1907 .

المنهل الصّافي والمُستوفى بعد الوافي : لابن تَغري بَردي الأتابكي ، الجزء 1 ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1956 . وجزء بتحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1988 .

مُهذَّب رحلة ابن بطوطة : لابن بطوطة الطنجي ، تهذيب أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة 1939 .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) : لتقي الدين المقريزي ، مطبعة وادي النيل ، مصر 1906-1908 .

المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية : لابن كنّان الصالحي ، تحقيق حكمت إسماعيل ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1992-1993 .

مؤرّخو مصر الإسلاميّة : محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1969 .

المؤرّخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث إلى القرن العاشر الهجري : صلاح الدين المنجد ، مطبعة مصر 1956 .

مورد اللطافة فيمن ولي السّلطنة والخلافة : لابن تَغري بَردي الأتابكي ، نشرة كارلايل ، كامبردج 1792 .

موسوعة خطط ريف دمشق : أحمد الإيش وعصام الحجّار (غير منشورة) .

النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لابن تَغري بَرْدي الأتابكي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1929-1972 .

نخبة الدّهر في عجائب البر والبحر : لشيخ الرّبوة الدمشقي ، نشرة ميرن ، دار أوتو هاراسوفيتس للنشر ، لايبتسيك 1923 .

نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السّلاطين : لعبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري ، تحقيق محمد كمال الدّين علي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1987 .

نزهة الأنام في محاسن الشام : لأبي البقاء البدري ، منشورات المكتبة العربية ببغداد ، بعناية صاحبها نعمان الأعظمي ، المطبعة السلفية بمصر عام 1341 هـ .

نزهة القلوب : لحمد الله المستوفي القزويني ، نشرة المستشرق غي لوسترانج ، (مجموعة غِب التذكارية - 23) ، لندن 1915 .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : للشريف الإدريسي ، مخطوط في مكتبة كويريلى بإستانبول ، رقم : 955 .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : للشريف الإدريسي ، نشر يوهان غِلدْمايستر ، بون 1885 . ونشرة تشيرولّي وغابرييلي ودلاّفيدا ، نابولي 1970-1984 .

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان : لابن الصيرفي ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة 1970-1971 .

نشق الأزهار في عجائب الأقطار : لابن إياس الحنفي ، مخطوط في مكتبة بشير آغا باستانبول ، رقم : 496 . ومخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم : 1606 ط .

نصوص ودراسات حول جغرافية وطوبوغرافية سوريا : فؤاد سزگين ، سلسلة الجغرافيا الإسلامية - 77 ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت 1993 .

نظام المرجان في المسالك والممالك والبلدان : لأحمد بن عمر العذري ، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني ، ضمن كتابه : تحقيق نصوص عن الأندلس ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد 1965 .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : لأحمد بن محمد المقّري ، نشرة الدكتور أحمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المأمون بمصر 1936 . وطبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1949 .

نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين النويري ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة 1923-1969 .

النّهج السّديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد : لمفضّل بن أبي الفضائل ، تحقيق بلوشيه ، باريس 1911-1929 .

الوافي بالوفيات : لصلاح الدّين الصفدي ، تحقيق هلموت ريتر و س. ديدرينغ وآخرين ، منشورات المعهد الألماني للآثار في بيروت ، دار فرانتس شتاينر للنشر في ڤيزبادن ، 1931-1982 .

واقعة السّلطان الغوري مع السّلطان سليم العثماني : لابن زنبل الرّمّال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1962 .

وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس : نصوص للقزويني ، نشرها أحمد إيبش ، دمشق 1983 .

وصف دمشق في مسالك الأبصار : صلاح الدين المنجّد ، فصلة من مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد الثالث 1957 .

وصف دمشق من خلال نصوص نادرة لبعض الرحالين الأوروبيين من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر (مونڤيل ، دى لابروكيير ، بولون ، مانريك) : إعداد وترجمة أحمد إيبش ، دمشق 1984 .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلّكان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1948 . وطبعة أخرى بتحقيق إحسان عباس ، دار صادر ببيروت 1969-1972 .

ولاة دمشق في عهد المماليك : محمد أحمد دهمان ، المطبعة العمومية ، دمشق 1964 .

226- الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق : د. صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1965 .

ياقوت الكلام في ما نابَ الشام : رحلة ابن حجّة لدمشق ، نشرها أحمد طربين بمجلة المجمع العلمي العربي ، عدد 31 (1956) ، ص 611-630 .

المراجع الإنكليزية والألمانية
والفرنسية والإيطالية والإسبانية

Ashtor, E.: *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, University of California Press, 1971.

Atil, Esin: *Art of the Mamluks*, Smithsonian Institution Press, Washington, D.C., 1981.

Ayalon, D.: *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom*, London, 1978.

Ayalon, D.: *The Mamlûk Military Society, Collected Studies*, London, 1979.

Ayalon, D.: *Studies on the Mamlûks of Egypt (1250-1517)*, London 1977.

Brockelmann, C.: *Geschichte der Arabische Literatur*, Leiden, 1937-1949.

Darrag, A.: *L'Égypte sous le règne de Parsbey, 825-841 H.*, Institut Français de Damas, 1961.

Defrémery, C. et Sanguinetti, B.R.: *Voyage d'Ibn Batoutah*, Paris, 1853-1858.

Devonshire, H.L.: "Relation d'un voyage du sultan Quitbay en Palestine et en Syrie", dans: B.I.F.A.O., Le Caire, tome XX, 1921.

Fischel, W.J.: *Ibn Khaldun in Egypt, his public functions and historical research (1382-1406)*, University of California Press, 1967.

Gabrieli, Francesco: *Storici Arabi delle Crociate*, Giulio Einaudi Editore S.p.A., Torino 1957.

Gallent, Guillermo: *El viajero infatigable Ibn Batuta*, Tetúan, 1950.

Gaudefroy-Demombynes, M.: *La Syrie à l'Époque des Mamelouks, d'après les auteurs arabes*, Paris, Paul Geuthner, 1923.

Ghamâtî, Abû Hâmid al-: "Le Tuhfat al-Albab", Ed. par Gabriel Ferrand, dans: JA, 207 (1925), pp. 1-304.

Gibb, H.A.R.: *Travel of Ibn Batuta*, Routeledge, London, 1929.

Glubb, J.B.: *Soldiers of Fortune, the Story of the Mamlukes*, Hodder and Stoughton, London, 1973.

Grousset, R.: *l'Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem*, Paris, 1934-1936.

Holt, P.M.: *The Age of the Crusades, the Near East from the eleventh century to 1517*, Essex, 1986.

Janssens, H.F.: *Ibn Batuta, Le Voyageur de l'Islam*, Bruxelles, 1948.

Khaldoun, ebn: *Prolégomènes*, texte arabe publié par M. Quatremère, Paris, 1858.

Lanzone, R.V.: *Viaggio in Palestina e Siria di Kaid-Bai*, Torino 1878.

Levi Della Vida, G.: "L'invasione dei Tartari in Siria nel 1260, nei ricordi di un testimone oculare". In: *Commentarii Periodici Pontificii Instituti Biblici. ORIENTALIA*, Volume IV, Nova Series, Roma 1935.

Little, D.P.: *An Introduction to Mamlûk Historiography*, Wiesbaden, 1970.

Mayer, H.E.: *Geschichte der Kreuzzüge*, W. Kohlhammer, Stuttgart, 1965.

Mayer, L.A.: *Mamluk Costume: A Survey*, Albert Kundig, Genève, 1952.

Mayer, L.A.: *Saracenic Heraldry*, Oxford, 1933.

Muir, W.: *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, 1260-1517*, London, 1896.

Newton, P.: *Travels and Travellers in the Middle Ages*, London 1926.

Poliak, A.N.: *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250-1900*, Royal Asiatic Society, London, 1939.

Popper, W.: *A History of Egypt, 1382-1469, English translation of Ibn Tanri Verdi's al-Nujûm al-Zâhira*, California, 1909-1933.

Provençal, Levi: *La Péninsule Ibérique au Moyen-Age*, le Caire, 1937.

Quatremère, M.: *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte*, Paris, 1844-1845.

Rubruck, W.: *The Texts and Versions of John de Piano Carpini and William de Rubruquis*, ed. by C. Raymond Beazley, Hakluyt Society, London, 1903.

Runciman, S.: *A History of the Crusades*, Cambridge, 1951-1954.

Sasra, Mh'd ibn.: *A Chronicle of Damascus 1389-1397*, edited and annotated by W. Brinner, University of California Press, 1963.

Setton, K.M.: *A History of the Crusades*, Philadelphia 1968.

Slane, M.G. de: *Autobiographie d'Ebn Khaldoun*, Paris, 1862.

Wiet, G.: *Histoire des Mamlouks Circassiens*, Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1945.

Wulzinger, K. & Watzinger, C.: *Damaskus, die islamische Stadt*, Berlin & Leipzig, 1924.

Zambaur, E. de: *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam*, Hannover, 1927.

Zetterstéen, K.V.: *Beitrage zur Geschichte der Mamlukensultane in den Jahren 690-741 der Higra, nach arabischen Handschriften*, Leiden, 1919.

* * *

فهرس الجزء الثاني

❊ ❊ ❊

تمّ الجزءان المتعلّقان بالرحّالين العرب

ويليهما الجزء الثالث ، ويضمّ

نصوص الرحّالين الغربيّين

وكان الفراغ من جمع هذا الكتاب وتحريره وتسطيره ، على يد محقّقه ، بمحروسة دمشق الشام ، لتسع بقين من شهر رمضان المعظّم من سنة ألف وأربع مئة وتسع وعشرين لهجرة من له العزّ والشّرف ، ولله الحمد بما وفّق وأعان .